

سنة ١٣٤٥ هـ
شهر ربيع الأول

دكتور

أحمد صدقي الدجاني

ليبيا

قبل الاحتلال الإيطالي

أو

طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني

(١٨٨٤ - ١٩١١)

الطبعة الأولى

دیناوار بعد از علیکم
 شمه هذا الفدا شکر
 یوم ۱۱ مارس ۱۲۹۷
 رفیع العالم العثماني

برید و قارش
 من اندلس
 دکتور

احمد صیدی الدجانی

۳۹۲
 ۳۹۷

لایبیا

قبیل الاحتلال الايطالی

أن

طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني

(۱۸۸۲ - ۱۹۱۱)

۱۱/۳/۱۲۹۷
 ۱۱/۳/۱۲۹۷
 ۱۱/۳/۱۲۹۷

التواضع

الطبعة الأولى

رفیع العالم العثماني

- ۸۷ x ۸۵
- ۴۲ x ۲۷
- ۴۲ x ۲۸
- ۸۲ x ۸۲
- ۸۸ x ۸۸
- ۹۲ x ۹۲
- ۱۱۷ x ۱۱۷
- ۱۱۷ x ۱۱۷
- ۱۵۵ x ۱۵۵
- ۱۷۰ x ۱۷۰
- ۱۸۵ x ۱۸۵
- ۱۹۰ x ۱۹۰
- ۲۰۰ x ۲۰۰
- ۲۱۰ x ۲۱۰
- ۲۲۰ x ۲۲۰
- ۲۳۰ x ۲۳۰
- ۲۴۰ x ۲۴۰
- ۲۵۰ x ۲۵۰
- ۲۶۰ x ۲۶۰
- ۲۷۰ x ۲۷۰
- ۲۸۰ x ۲۸۰
- ۲۹۰ x ۲۹۰
- ۳۰۰ x ۳۰۰
- ۳۱۰ x ۳۱۰
- ۳۲۰ x ۳۲۰
- ۳۳۰ x ۳۳۰
- ۳۴۰ x ۳۴۰
- ۳۵۰ x ۳۵۰
- ۳۶۰ x ۳۶۰
- ۳۷۰ x ۳۷۰
- ۳۸۰ x ۳۸۰
- ۳۹۰ x ۳۹۰
- ۴۰۰ x ۴۰۰
- ۴۱۰ x ۴۱۰
- ۴۲۰ x ۴۲۰
- ۴۳۰ x ۴۳۰
- ۴۴۰ x ۴۴۰
- ۴۵۰ x ۴۵۰
- ۴۶۰ x ۴۶۰
- ۴۷۰ x ۴۷۰
- ۴۸۰ x ۴۸۰
- ۴۹۰ x ۴۹۰
- ۵۰۰ x ۵۰۰
- ۵۱۰ x ۵۱۰
- ۵۲۰ x ۵۲۰
- ۵۳۰ x ۵۳۰
- ۵۴۰ x ۵۴۰
- ۵۵۰ x ۵۵۰
- ۵۶۰ x ۵۶۰
- ۵۷۰ x ۵۷۰
- ۵۸۰ x ۵۸۰
- ۵۹۰ x ۵۹۰
- ۶۰۰ x ۶۰۰
- ۶۱۰ x ۶۱۰
- ۶۲۰ x ۶۲۰
- ۶۳۰ x ۶۳۰
- ۶۴۰ x ۶۴۰
- ۶۵۰ x ۶۵۰
- ۶۶۰ x ۶۶۰
- ۶۷۰ x ۶۷۰
- ۶۸۰ x ۶۸۰
- ۶۹۰ x ۶۹۰
- ۷۰۰ x ۷۰۰
- ۷۱۰ x ۷۱۰
- ۷۲۰ x ۷۲۰
- ۷۳۰ x ۷۳۰
- ۷۴۰ x ۷۴۰
- ۷۵۰ x ۷۵۰
- ۷۶۰ x ۷۶۰
- ۷۷۰ x ۷۷۰
- ۷۸۰ x ۷۸۰
- ۷۹۰ x ۷۹۰
- ۸۰۰ x ۸۰۰
- ۸۱۰ x ۸۱۰
- ۸۲۰ x ۸۲۰
- ۸۳۰ x ۸۳۰
- ۸۴۰ x ۸۴۰
- ۸۵۰ x ۸۵۰
- ۸۶۰ x ۸۶۰
- ۸۷۰ x ۸۷۰
- ۸۸۰ x ۸۸۰
- ۸۹۰ x ۸۹۰
- ۹۰۰ x ۹۰۰
- ۹۱۰ x ۹۱۰
- ۹۲۰ x ۹۲۰
- ۹۳۰ x ۹۳۰
- ۹۴۰ x ۹۴۰
- ۹۵۰ x ۹۵۰
- ۹۶۰ x ۹۶۰
- ۹۷۰ x ۹۷۰
- ۹۸۰ x ۹۸۰
- ۹۹۰ x ۹۹۰
- ۱۰۰۰ x ۱۰۰۰

البلد
 وفصله

۳۲۳
 ۳۲۳

البلد
 ۳۲۳

۳۲۳
 ۳۲۳

۳۲۳
 ۳۲۳

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة

تم تحويل هذا الكتاب الى صيغة pdf من قبل جمعية غدامس للتراث و المخطوطات

لدعم الجمعية يمكن الاتصال على الأرقام التالية

00218911000338 أو 00218924666440 ايميل kasemyosha5@gmail.com

يمكن التبرع حتى بكموت الإنترنت



الاهداء

إلى أهلى الأحبة الذين كان لحظهم فضل

إنعام هذا الكتاب

المقدمة

يعالج هذا البحث فترة هامة من تاريخ ليبيا الحديث ، تمتد على مدى ثلاثين عاماً قبل الغزو الإيطالي للبلاد عام ١٩١١ . وكانت ليبيا آنذاك ولاية عثمانية تعرف باسم ولاية طرابلس الغرب . وتبدأ هذه الفترة الهامة حين أصبحت طرابلس الغرب هي الولاية الوحيدة الباقية للدولة العثمانية في شمال أفريقيا بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ .

جذب موضوع هذا البحث اهتمامي أثناء متابعتي لتاريخ ليبيا الحديث . وكنت قد باشرت التخصص في هذا التاريخ منذ عشرة سنوات . وأذكر على الخصوص كيف وجهني أستاذي الدكتور محمد أنيس إلى هذا التخصص حين بدأت أفكر في اختيار موضوع دراسة الماجستير ، وخطر على بالي أول ماخطر أن أعطي جهدي - وأنا ابن فلسطين - لتاريخ فلسطين . وكنت أعمل آنذاك في ليبيا ، فجاءت وجهة نظر الدكتور أنيس تقول بضرورة الاستفادة من وجودي هناك لأخدم بالدراسة تاريخ ليبيا ، خاصة وأن هناك نقصاً في الدراسات العربية عنه .

وأذكر أنه تحدث لي عن برنامج يطمع قسم التاريخ بجامعة القاهرة إلى تحقيقه ، ويتضمن هذا البرنامج إعداد دراسات تاريخية عن مختلف أجزاء الوطن العربي . فاستجبت بحماس فأنا أيضاً ابن الوطن العربي الكبير وليبيا جزء منه .

ولقد اخترت لدراسة الماجستير بعد هذا التوجه موضوع « نشأة الحركة السنوسية ونموها في القرن التاسع عشر » ، وكانت ليبيا ساحتها الرئيسية . وبعد فراغي منها انصرفت لدراسة تاريخ ليبيا الحديث منذ أن أصبحت ولاية عثمانية عام ١٥٥١ ، وكتبت عنه أحاديث جمعت بعضها في كتاب « أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » . وساهمت في الدعوة إلى حفظ هذا التاريخ وإحيائه .

شعرت من خلال الدراسة بأهمية هذه الفترة على الخصوص في تاريخ ليبيا الحديث ، فبى فترة من فترات التحول فيه . التحول الذى يسبق بداية مرحلة جديدة ، ويمثل حلاً بأحداث ضخمة ، وينذر بمخاض تاريخي وولادة . فقد بدأت هذه الفترة بأحداث حاسمة في المنطقة كان لها صداها البعيد في طرابلس الغرب حين سقطت تونس في يد الاستعمار الفرنسى عام ١٨٨١ وسقطت مصر في يد الاستعمار البريطانى عام ١٨٨٢ . وبقيت طرابلس الغرب من الولايات العثمانية في أفريقيا تنتظر قدرها . وتنتهى هذه الفترة الهامة مع ظهور الأسطول الحربى الإيطالى على شواطئ طرابلس عام ١٩١١ لينذر ببداية المرحلة الجديدة التى شهدت الصدام المباشر مع الاستعمار الغربى .

وهى الفترة التى عاشت خلالها طرابلس الغرب كجزء من منطقة الوطن العربى احتدام الصراع بين قوى ثلاث . فكانت هناك **أولاً** قوة الدولة العثمانية وهى فى صهوة الموت ، وكان يحكمها السلطان عبد الحميد الثانى آخر سلاطين فترة التنظيمات وصاحب الشهرة الواسعة . وكانت هناك ثانياً قوة البقطة العربية الصاعدة التى ظهرت براعها فى أكثر من جزء من الوطن العربى فى مواجهة الحكم العثمانى من جهة والخطر الأوروبى الذى تهدد المنطقة من جهة أخرى . وكانت هناك . ثالثاً قوة

الاستعمار الأوروبى الذى تطلع وسعى إلى السيطرة على الوطن العربى . وقد احتدمت حركة الصراع فى ساحة طرابلس بين هذه القوى الثلاث خلال تلك الفترة .

ومن هنا كانت هذه الفترة بمثابة الخلفية لتاريخ ليبيا في السنتين عاماً الأخيرة ، نجد فيها أصول أحداثه وجذورها بالنسبة للقوى الثلاث . وعلى الخصوص فيما يتعلق بقصة جهاد ليبيا بين عامى ١٩١١ و ١٩٣١ . فى هذه الفترة نجد تفسير الموقف العثمانى الذى تجلى عند الغزو الإيطالى . ونجد ما يسلط الضوء على السياسات الاستعمارية التى طوقت ليبيا خلال المرحلة التالية وحتى يومنا هذا . ونجد ما يوضح جذور النضال الشعبى والبقطة العربية هناك . ذلك النضال الذى أبلى بلاء حسناً فى مواجهة الاستعمار الإيطالى . ثم الاستعمار البريطانى ، والأمريكى ، والفرنسى .

ومما شدنى إلى إختيار هذه الفترة كموضوع للبحث أننى لاحظت من خلال دراستى نقصاً كبيراً فى تاريخها ، وتداخلها المسجلة . وأضرب مثلاً على هذا النقص بعدد من التحركات الشعبية التى قامت خلالها ولم يسجلها كتاب مطبوع بعد . وأضرب مثلاً على التداخل أن قائمة أسماء الولاة الذين تابعوا بعد أحمد راسم على مدى خمس عشرة سنة لم يُنقِ عليها بين الكتب المطبوعة لاعدداً ولا أسماء . وهكذا تفاعلت أهمية الفترة مع النقص والتداخل فى تاريخها لتجذبني وتشدني إلى السير فى أرض الموضوع البكر وخوض غمار آفاقه المجهولة وتحقيق ما سجل من أحداثه وتسجيل ما لم يسجل بعد منها .

أقبلتُ على العمل فى الموضوع مع بداية عام ١٩٦٤ ، وكنت مقيماً

في طرابلس الغرب فباشرت إستكمال البحث عن المصادر وحصرها في المكتبات العامة بطرابلس.. مكتبة وزارة المعارف، ومكتبة الأوقاف، ومكتبة دار الآثار. ووجدت أن الكتب المطبوعة التي تحدثت عن الفترة قليلة إجمالاً. فهناك في اللغة العربية كتاب أحمد النائب والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب وهو يقف عند نهاية ولاية أحمد راسم. وهناك بالتركية كتاب الآخرين ناجي ونوري «طرابلس غرب»، وهو يضم معلومات مفيدة. وهناك بالانجليزية كتاب «كاليا Libya Under the Second Ottoman Occupation» من ١٨٣٥-١٩١١ وهو كتاب موجز كتبه ضابط بريطاني عمل في ليبيا خلال فترة الإدارة البريطانية. وهناك بالفرنسية ملحق لحوليات طرابلس *Annales Tripolitaines* لفيرو وقد كتب الملحق الذي يتناول الفترة أوغستين برنارد. وهناك بالإيطالية كتاب فرانيسكو كورو *Settantasei Anni Di Domiazione Turca in Libia 1835-1911* وكتاب اينورو *Storia Di Tripolitania Dalla Conquista Araba Al 1911* روسي وقد اعطني هذه الكتب فكرة طيبة عن الفترة وفتحت أمامي آفاق البحث فيها. وشرعت أبحث عن الكتب التي تناولت الفترة بشكل أو بآخر. وأعطيت اهتماماً خاصاً لكتب الرحلات. وقد أفادني كتاب كوبر *The Hill of Graces* وكتاب مابل لومس تود *Tripoli the Mysterious* ومقال جاكاسي في *Scribners Magazine* وكتاب راى *The Country of the Moors* ورحلة الحشايشى التونسي «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» وكتب أخرى عدة.

ووصلت في بجي إلى دار المحفوظات التاريخية بطرابلس التي تضم عشرات الألوف من وثائق الحكم العثماني في ليبيا، فعكفت على البحث

عن وثائق الفترة.. وأقول البحث لأن أوراق ووثائق الدار لم تصنف إلى اليوم تصنيفاً علمياً، فهي في طور التصنيف المبدئي. وقد جمعت عدداً من الوثائق ونسخت عدداً آخر خلال فترة إقامتي تلك.

وحين عدت إلى الموضوع بعد مغادرتي طرابلس وانقطاعي عنه فترة بسبب مشاغل العمل العام وجدت أنني لازلت بحاجة إلى جهد آخر أبذله في جمع الأصول والتقميش. واثارت أمامي نقاط كثيرة شعرت بالحاجة إلى استجلائها. فعمدت إلى الكتابة لبعض المعمرين من رجالات طرابلس موجهاً إليهم مجموعة أسئلة. ووقت بعده زياراتي إلى طرابلس خلال الأوامر الثلاثة الأخيرة بمعدل زيارتين كل عام مسهلاً لإجراء أحاديث شفوية مع المعمرين والبحث عن مزيد من الوثائق.

وكنت خلال هذه السنوات على اتصال بكل ما يصدر في طرابلس الغرب من كتب تتناول الفترة من قريب أو بعيد. وقد حدث أن نشطت حركة الترجمة هناك استجابة للدعوة إلى حفظ تاريخنا وإحيائه. فترجمت مجموعة من كتب الرحالة. كما نشطت حركة التأليف فتعرضت بعض الكتب إلى نقاط في الموضوع. وقد استفدت من جهود علي مصطفى المصراي والطاهر الزاوي ومحمد مصطفى بازامه كما أفادني - على الخصوص - جهد مصطفى بعبو في كتابة مراجع تاريخ ليبيا وكتابه دراسات في التاريخ اللوبي.

وقد وقتت إلى الحصول على معلومات قيمة من بعض المعمرين. كما وقتت إلى العثور على الكثير من الوثائق الهامة - خاصة في العامين الأخيرين - بفضل تعاون أصيل كريم من الحاجين محمد الأسطى وعبد السلام آدم. وقد قدم لي الحاج آدم موجزاً لمئات الوثائق ونسخاً كتبها

لعشرات الوثائق فقامت بترتيبها وتصنيفها. وقد اصطلحت على تسمية هذه الوثائق باسم «مجموعة أدم» وأشارت إليها كوحدة خاصة حيث أعزمت لإخراجها قريباً في كتاب وثائقي. كما كانت احاديث الرجلين باللغة الفائدة باعتبارهما من المعمرين والمتخصصين في وقت واحد. وكانت الوثائق تضم أوراقاً عثمانية ومراسلات الخارجية الإيطالية المتصلة بتلك الفترة. واستفدت من الوثائق التي خلفها الشيخ المجاهد سليمان الباروني والتي جمعها ونشرتها ابنته في كتاب «صفحات خالدة».

وحرصت أيضاً أن أتعرف بنفسى على مواقع الأحداث. كما هيأ لي عيشي لأكثر من ست سنوات في طرابلس واندماجي مع اخوتي هناك معرفة دقيقة بالعادات والتقاليد مكنتني من رسم صورة الحياة في تلك الفترة.

وقت أيضاً بالرجوع إلى الصحف والمجلات التي صدرت آنذاك في طرابلس، أو التي كانت تصدر في الأستانة وهم بشؤون طرابلس.

وقد شعرت بعد هذا الجهد انني كشفت الكثير من تلك الآفاق المجهولة، وانني قادر على المساهمة في سد النقص الموجود في تأريخ هذه الفترة، وإزالة التداخل في أحداثها المكتوبة.

وأضرب مثلاً على أسلوب البحث عن المصادر والوصول إلى المعلومات بقصة أول تجربة تنظيمية - بالمعنى التنظيمي الحديث - ظهرت في طرابلس. فقد لفت انتباهي قبل عامين إشارة وردت في مقدمة الأستاذ علي مصطفى المصراي لكتاب أحمد النائب «نفحات النسرين» ذكر فيها أن النائب نفى من طرابلس وكان رئيس بلديتها بعد أن نشط مع شاب قادم من الحجاز اسمه إبراهيم سراج، وذكر أن سراج هذا سجن ومات في السجن.

أمسكت بهذا الخط وكنيت موجهاً السؤال إلى بعض المختصين من المعمرين. فرد بعضهم موضحاً أن هناك وثائق في دار المحفوظات حول قضية سراج الدين وصحبه. وطلب حضوري إلى هناك. وحين سافرت طرابلس سألت المصراي عن القصة فأشار إلى تلك الوثائق. وفي دار المحفوظات وجدت أمامي مجموعة أوراق كثيرة قبل لي أنها وجدت في كيسين تخص تلك القضية. وعكفت على تلك الأوراق فصنفتها ورتبتها ونسخت ما رأيت نسخه. ثم ذهبت إلى المعمرين من جديد أسأل عن بعض ماورد في تلك الأوراق. فاستكملت قصة تلك التجربة التنظيمية ولم ألبث أن اكتشفت ذيولها. وإنني انطلق إلى إخراج الوثائق جميعها في كتاب خاص في وقت قريب.

وأضرب مثلاً آخر بقصة الشريف حميد وانتفاضته في فزان. فقد لاحظت أن كاكيا يورد في حديثه عن أحمد راسم قصة غريبة حدثت في فزان جاء سرده لها بشكل غائم. فبحثت عن أصل القصة فوجدت اشارات قليلة في رحلة الحشايشي. ثم عثرت في دار المحفوظات وبمعرفة الحاج أدم على وثائقها، فأرختها.

وأمثلة أخرى كثيرة نجدها في كل فصل من فصول هذه الدراسة.

كان واضحاً أمامي أن البحث عن المصادر وجمع الأصول هو أول خطوة في طريق طويل من العمل التاريخي. وأن مهمتي كباحث ودارس تجمع بين التأريخ والتاريخ. وهي تنطلق من الإجابة عن الأسئلة ماذا حدث ومتى وكيف؟ ثم لماذا حدث؟

وهكذا بدأت بتأريخ الفترة. فبدون معرفة تفاصيل أحداثها لا تكون

قادرين على تحليل تلك الأحداث . واتبعت في تدوين الأحداث الأساليب العلمية التي قام عليها علم التاريخ والتي تحدث عنها لانجلو وسينوبوس في « المدخل إلى الدراسات التاريخية » وشرحها أسد رستم في كتابه « مصطلح التاريخ » وتناولها إدوارد كار في كتابه « ماهو التاريخ » وقسطنطين زريق في كتابه « نحن والتاريخ » وغيرهم . وكان أسلوبى في عرض الأحداث يعتمد على الإكثار من الاستشهاد بالنصوص بعد تحقيقها . لأن مهمتنا في التاريخ تسجيل الحقائق كما هي أولا وكما وصلتنا ثم إعطاء الرأى فيها . كما أنى أجد فى الإكثار من النصوص التى تعود لفترة الدراسة فائدة أخرى هى وضع القارئ فى جو العصر الذى يقرأ عنه . ومن هنا تكثرت استشاداتى فى هذه الدراسة .

وحرصت فى العرض التاريخى لفترة إبراز حركة الصراع بين القوى الثلاث كما بدت فى ساحة طرابلس الغرب . وقد شعرت بأهمية تحليل الأحداث بعد عرضها انطلاقاً من الوعى لحقيقة فن التاريخ الذى قال عنه عالمنا ابن خلدون « إنه فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول . . . وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للسكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . . . » ويجمع علماء التاريخ على ضرورة التحليل والتفسير اجابة سؤال لماذا . « فالتوق إلى تفسير التاريخ عميق الجذور » كما اقتبس كار عن أستاذ التاريخ الحديث فى أكسفورد بويك Powicke .

ومن الطبيعى أن تحكم عملية تحليل الأحداث وتعليلها وتفسيرها نظرة أو نظرات أو نظرية . ولقد توافرت عندى مثل هذه النظرة ، وأتوقع أن تكون واضحة من خلال العرض .

وبلاقي كاتب التاريخ مسألة الدور عند الكتابة . . أيهما أسبق النظرة المعنية أم دراسة الأحداث وهو مُطالب بالجاح بالتجرد . والحق أن النظرة عند المؤرخ هى حصيللة دراسات طويلة تكونها .

إن النظرة التى تأكدت لدى فى هذه الدراسة أن حركة الصراع فى الوطن العربى احتدمت خلال تلك الفترة وتميزت بما نسميه ثنائية الصراع بين كل قوة من القوى الثلاث مع القوتين الأخرين . وعمت أكثر أجزاء الوطن العربى .

كما أن هذه النظرة تؤمن بوجود عوامل أساسية فى حركة الصراع الإنسانى . ومن أبرز هذه العوامل النزوع القومى والصراع الطبقي والتوق والنضال الفكرى والروحي .

ولقد حرصت غاية الحرص ألا أتعسف فى فرض هذا المنهج على الأحداث لأن ذلك يناقى موضوعية الدارس ، ولكنى رأيت فى الأحداث ما يؤكده .

جاء هذا البحث فى تسعة فصول . خصصت الأول منها لألقى فيه نظرة جغرافية وتاريخية على طرابلس الغرب ، وعلى القوى الثلاث التى تنصارع فى ساحتها ، بعد أن شعرت بضرورة الدخول إلى هذه الدراسة بتعريف بالساحة والقوى .

وحرصت فى هذا الفصل على الإيجاز خاصة بعد أن وجهنى الأستاذ المشرف لذلك ، وكنت قد استطردت فأطلت .

ثم باشرت تأريخ الفترة وعرض القوة الأولى كما بدت فيها . فخصصت

الفصل الثانى لحكم الوالى أحمد راسم الذى امتد طيلة النصف الاول من الفترة والذى حفل بأحداث هامة ، وكان ظاهرة فريدة فى حكم الولاة . وقد حرصت فى هذا الفصل أن أوضح أسلوب الحكم العثمانى فى فترة التنظيمات وفى عهد السلطان عبد الحميد بما فيه من استبداد وجنوح إلى المركزية الشديدة ، وبما تضمنه من استجابات للتحدى الغربى ومحاولات للإصلاح . وقد حفل هذا الفصل من الناحية التاريخية بمجديد كثير .

وخصصت الفصل الثالث لحكم الولاة العثمانيين الذين تتالوا بعد أحمد راسم وحتى عام ١٩١١ . ونجحت فى ضبط تواريتهم وكانت متداخلة ، وفى تقديم موجز عن عهودهم ، وعلى الخصوص فى ولاية المشير رجب باشا الذى ترك آثاراً طيبة بين الناس فى الولاية . والذى وقف فى وجه الأطماع الإيطالية . وبما سجلته من روايات المعمرين عنه أنه رأى أحد عملاء إيطاليا فجأه وسط جماعة من الناس . عيني رجب موجود . . شعبان لا يدخل ، وقالها باللهجة العراقية التى اكتسبها من إقامته فترة فى العراق .

وأعقبت هذا الفصل بأربعة فصول خصصتها لدراسة أوضاع الولاية الإدارية والاجتماعية والاقتصادية وحياتها الثقافية ، وأشعر انى أضفت فى هذه الفصول إلى ما هو مكتوب شيئاً كثيراً . وكان فصل الحياة الثقافية حافلاً بالجدة . وكذلك أعطيت تجارة القوافل وطرقها فى فصل الأوضاع الاقتصادية عناية خاصة .

وخصصت الفصل الثامن للخطر الأوروبى والأطماع الاستعمارية فى طرابلس لأوضح القوة الثانية . فبدأته بالحديث عن الكشف الجغرافى الأوروبى فى ليبيا ومكان هذا الكشف من الحركة الاستعمارية . ثم

شرحت سياسات الدول الأوربية الاستعمارية ومساعدتها فى طرابلس ... بريطانيا منذ أيام وراحتون وتركيزها على برقة لجوارها لمصر وبعثة الصهيونية إلى برقة . وفرنسا وتواجدها فى تونس والجزائر ووسط أفريقيا وسعيها للتوسع شرقاً وشمالاً . . وإيطاليا . وقدرت على إيطاليا فأوضحت نشأة التفكير الاستعمارى فيها . واهتمامها بطرابلس بعد احتلال فرنسا لتونس . وسياستها فى التفاوض والتفاهم مع الدول الأوربية ثم تحركها الاستعمارى فى طرابلس .

وخصصت الفصل التاسع والأخير لليقظة والنضال الشعبى فى طرابلس ، فأبرزت صور النضال قبل هذه الفترة ، والقفزة النوعية الجديدة فيه التى تحققت فيها . وشرحت التحديات والاستجابات . ثم أعطيت التجربة التنظيمية الأولى فى البلاد حقها وارتخت لحركة الشريف حميد ولمعارضة الأعيان للوالى أحمد راسم فى طرابلس وللشيخ سليمان البارونى فى مرحلة فضاله الأولى التى أهلته للقيام بدوره النضالى الكبير بعد الغزو الإيطالى . وأرخت للحركات الشعبية بعد الانقلاب الدستورى عام ١٩٠٨ فى مواجهة التريك والتغلغل الاستعمارى الإيطالى . وبحق لى أن أقول إن هذا الفصل لم يسبق له أن كتب . وقد توصلت فيه إلى نتيجة محددة وهى إن براعم اليقظة فى ليبيا ظهرت آنذاك ووافقت زمنياً ظهور براعم اليقظة فى أجزاء أخرى من الوطن العربى وخاصة فى الشام ومصر وإن كانت على مستوى أصغر تأكيداً لمعنى الوجود الواحد للامة العربية الواحدة .

وأخيراً فقد أفردت ملحفاً بالبحث يضم أكثر من مائة وخمسين وثيقة جمعتها والحاج عبد السلام آدم وقت بترتيبها . وفيها وثائق بالغة الأهمية

منها نظام الجمعية السرية واتفاقية الحدود بين طرابلس وتونس وغيرها ، أرجو نشره في فترة قريبة مع مجموعات أخرى من الوثائق الهامة .

وبعد

فإني إذ أقدم بهذا الجهد المتواضع أرجو أن أكون قد ساهمت في عمل علمي مفيد . وإنني أشعر بوجود جوانب في الموضوع بحاجة إلى مزيد من الجهد ، خاصة وأنه واسع وأنتى آثرت تناوله بالنظرة العامة الشاملة قبل التخصص في جزئياته . وتلح على كلمات العماد الأصماني وإني رأيت أنه لا يكتب لإنسان كتاباً في يومه ، إلا قال في عهده . . لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن . . .

وأود أن اسجل شكري لكل من عاونني وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور محمد أنيس الذي كان لتوجيهاته وإرشاداته خير عون لي في هذا العمل . والذي أحاطني وأحاط العديد بروح من الصداقة موحية . وأشير إلى أنني أتحمّل وحدي أى نقص أو خطأ في البحث . كما أشكر عضوى لجنة المناقشة الدكتور إبراهيم صقر والدكتور رجب حراز لاهتمامهما الكبير بالبحث وملاحظتهما القيمة عليه . وقد كنت حريصاً عند تحضيره للنشر على الأخذ بتلك الملاحظات القيمة . ولافتوني الإشارة إلى فضل زوجتي في إنجاز هذا البحث بما قدمته لي من تشجيع وماوفرتة من جو متحملة عناء ليس بالقليل .

وقد تمت مناقشة هذا البحث مساء الخميس ١٤ مايو (آيار) ١٩٧٠ م في كلية الآداب - قسم التاريخ بجامعة القاهرة .

ومنحت اللجنة كاتب هذه السطور على أساسه درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى .

والله ولي التوفيق

القاهرة في ١/١/١٩٧١

الفصل الأول

مدخل

نظرة جغرافية وتاريخية على طرابلس الغرب

كانت ولاية طرابلس الغرب منذ عام ١٨٨٢ م. هي الولاية الوحيدة الباقية للدولة العثمانية في افريقية، وعلى حد تعبير محمد فريد الذي مر بها في صيف ١٩٠٢ م « هي الولاية العثمانية الوحيدة في شمال إفريقيا التي لم يتدخل فيها الأجانب ولم يدعوا عليها حقاً، وإن كان الطليان يطمعون في امتلاكها ويعلمون النفس بجعلها مستعمرة يلجأ إليها الفقراء من أهلها الذين يزحون عنها بمئات الألوف طلباً للرزق^(١) . ولم تكن هذه الولاية الباقية بمنجاة - كما هو واضح في حديث محمد فريد - من أطماع الاستعمار الغربي . وكانت فرنسا قد استولت على ولايتي الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وتونس عام ١٨٨١ م كما استولت بريطانيا على ولاية مصر عام ١٨٨٢ م .

وكان اسم طرابلس الغرب يطلقه العرب والمسلمون عامة في تلك الفترة ومنذ الفتح الإسلامي لإفريقية على كل من مدينة طرابلس الغرب والإقليم المحيط بها . وتسمية الأقاليم أحياناً بأسماء عواصمها عرف إسلامي قديم نراه في بقية أقاليم الشمال الإفريقي ، وفي عدد من الأقاليم

(١) محمد فريد « من مصر إلى مصر رحلة سنة ١٩٠٢ » ص ١٣١ مطبعة الموسوعات .

الإسلامية الأخرى^(١). وقد وصف أحمد النائب الطرابلسي كلا من المدينة والإقليم وصفاً متداخلاً في مستهل كتابه « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » فقال « إنها بلدة كريمة البقعة ، طيبة التربة ، مخصبة القاعة ، بسواحل إفريقية الشمالية . ويحدها من الجنوب الصحراء الكبرى ، وشرقاً الحدود المصرية ، وشمالاً البحر الرومي ، وغرباً تونس وأرض قبائل الشعابنة التي بين طرابلس والجزائر »^(٢).

نطق العرب هذا الاسم بطريقتين ، فضبط اسمها على ما في القاموس بفتح الطاء وضم الباء واللام . وذكر السكري وغيره أنها بزيادة الألف قبل الطاء . وقال التيجاني في رحلته واختار بعضهم في الغريبة زيادة الألف وفي الشامية اسقاطها وعكس صاحب القاموس فجعل الهمزة للشامية^(٣) . وقد ورد في الفهرست مضبوطاً « طرابلس »^(٤) بينما ورد في قاموس الامكنة والبقاع « لإطرابلس »^(٥) واللفظ الغالب والشائع الاستعمال اليوم « طرابلس » . بتسكين الباء وتحريك اللام بالضمة .

وجاء اسم « طرابلس » من تعريب الاسم اليوناني Tri Polis الذي كان يطلق على منطقة مدن ثلاث ازدهرت أثناء الاستعمار الفنيقي لسواحل الإقليم ، ثم عرفت به أوسط هذه المدن ، مع بقاء دلالاته على الإقليم كله^(٦) . وأضاف العرب كلمة « الغرب » للاسم تمييزاً له عن « طرابلس الشام » وإشارة إلى وجود الموقع في المغرب .

(١) أنظر بحث « ليبيا الاسم ومدلولاته التاريخي » لمحمد عبد الهادي شعيرة بمجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية عام ١٩٥٨ م ص ٣ .
(٢) أحمد النائب « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » ص ١٩ ، ص ٢٠ منشورات الفرجاني بليبيا .

(٣) أحمد النائب المنهل العذب ص ٢٠

(٤) أمين واصف الفهرست بتحقيق احمد زكي مادة طرابلس

(٥) علي بهجت قاموس الامكنة والبقاع مطبعة التقدم القاهرة

(٦) بطرس البستاني دائرة المعارف ، والطاهر الزاوي « الفتح العربي لليبيا » ص ٣٤

أما الغربيون فاطلقوا على المدينة اسم « Tripoli » ، الذي جاء من الاسم اليوناني ، وقد استعملوا هذا الاسم أحياناً للدلالة على الإقليم كله . وإن استعملوا على الأغلب اسم « Tripolitania » للدلالة على الإقليم . واطلقوا أحياناً « Tripoli of Barbary » ، « Tripoli of Barbaria » على الإقليم^(١) .

وكانت ولاية طرابلس الغرب متسعة الأرجاء ، يحدها غرباً تونس والصحراء الكبرى ، وجنوباً الصحراء الكبرى ، وشرقاً مصر ، وشمالاً البحر الأبيض المتوسط . وهذه هي حدود ليبيا اليوم . وقد اعتبرت فزان جزءاً من الولاية . وكذلك برقة عند أكثر من كتبوا عن طرابلس في تلك الفترة . بينما ذكر البعض أراضي سرت باعتبارها الحدود الشرقية للولاية فجعلوا برقة خارجها ، ويعود ذلك إلى أن بنغازي وبرقة عامة « تارة تكون ملحقة بالولاية وأخرى يكون تفريقها عنها »^(٢) وقد حدد النائب طرابلس - كما أوردنا - « من الجنوب الصحراء الكبرى ، وشرقاً الحدود المصرية ، وشمالاً البحر الرومي ، وغرباً تونس وأرض قبائل الشعابنة التي بين طرابلس والجزائر »^(٣) وحددها محمود ناجي ومحمد نوري في كتابهما « طرابلس غرب » فقالا « يحدها شمالاً البحر وغرباً إيالة تونس وشرقاً خديوية مصر وجنوباً الصحراء الكبرى وطول ساحلها من رأس أجدير في الغرب إلى السلوم شرقاً ألف وثمانمائة كيلو متراً »^(٤) . كما حددها الرحالة أدوارد راي بأنها « تمتد من رأس التينة على حدود تونس إلى ميناء بومبا على حدود مصر . ولها ساحل طوله حوالي ثمانمائة

(١) الموسوعة البريطانية . مادة طرابلس Encyclopedia Britanica شعيرة المقال السابق ، البستاني دائرة المعارف ، محمد مصطفى بازامة ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخي طرابلس ١٩٦٥ .

(٢) و (٣) النائب المصدر السابق ص ٣٠ .

(٤) محمود ناجي ومحمد نوري « طرابلس غرب » ص ١٥٧ .

ميلا . وامتدادها في الداخل غير منتظم ويتبع امتداد الصحراء ، وهي تشمل مقاطعة فزان الكبيرة الغنية وغدامس^(١) . وأوردت الاميركية ما بل تود في كتابها هذا التحديد حيث قالت « تمتد طرابلس على مدى ثمانمائة ميل بين جربة وطبرق من تونس إلى مصر ، وتمتد في الجنوب حتى فزان حيث غدامس وغات^(٢) . ويؤكد هذا التحديد شمول طرابلس الغرب لسكل من فزان وبرقة . ويستنتج هذا الشمول من وصف محمد فريد لإيالة طرابلس بأنها « إقليم متسع جداً تقدر مساحته بمليون كيلو متراً مربعاً^(٣) . » ومما ورد في حديث جاكاسي عن الولاية^(٤) . وبمجل القول هو أن المدلول السياسي لطرابلس الغرب كان ينصرف في تلك الفترة على ما أصبح يعرف منذ الاحتلال الايطالي باسم ليبيا ، ويشمل برقة وفزان . وهذا ما عبر عنه الزاوي بقوله وما كانت برقة وفزان إلا قطعتين من طرابلس^(٥) . ومع ذلك فإننا نجد أن اسم طرابلس الغرب كان يعنى على الخصوص الإقليم الغربي من البلاد وكان يورد إلى جانب إقليمى برقة وفزان . وهذا ما نجده في تحديد البستاني الذي قال عن طرابلس « يحدها شمالا البحر المتوسط وشرقاً صحراء ليبيا وبرقة وجنوباً فزان والصحراء المذكورة وغرباً الصحراء وتونس وبلاد الجريد . » ولكنه يشير في الوقت نفسه إلى أن مساحتها تضاعف إذا أضفنا إليها برقة وفزان^(٦) . وهكذا نخلص إلى أن اسم طرابلس الغرب حمل ثلاث مدلولات ، فدل على عاصمة البلاد ، وعلى

Edward RAE The Country of The Moors p.81 London 1877(١)

Mabel Loomis Todd Tripoli The Mysterious p. 14 (٢)
Boston 1912

A.F. Jacassy Tripoli of Barbary Scribners Magazine

(٣) محمد فريد المصدر السابق

(٤) بطرس البستاني دائرة المعارف مادة طرابلس

(٥) الظاهر الزاوي الفتح العربي في ليبيا ص ٣ .

(٦) بطرس البستاني دائرة المعارف مادة طرابلس .

الإقليم المحيط بها والممتد بين تونس غرباً حتى سرت شرقاً حيث تبدأ حدود إقليم برقة وحتى إقليم فزان جنوباً ، وأخيراً على الأقاليم الثلاثة معاً طرابلس وبرقة وفزان .

ضمت حدود طرابلس الغرب - بدلولها الأخير - مساحة شاسعة من الأراضي تبلغ حوالى ١٧٥٠.٠٠٠ كيلو متراً مربعاً^(١) . وقد أطلق البعض على طرابلس الغرب اسم « ابنة البحر والصحراء^(٢) » ، وهذه التسمية تلخص بحق جغرافية البلاد وتاريخها فقد أطلقت طرابلس على البحر من الشمال بساحل طويل جداً يمتد على مسافة ١٦٠٠ كيلو متراً ويحتل أكبر نصيب من الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط . وهذا الساحل قليل التعاريج بصورة عامة ويتوسطه خليج سرت الواسع ، وتنتشر على طولهِ وخاصة في الجزئين الغربي والشرقي منه أهم مدن البلاد ، وتجتمع فيه الغالبية العظمى من السكان والأراضي الصالحة للزراعة . وهو ساحل ضيق إجمالاً يتراوح عرضه من أقل من ميل واحد إلى أكثر من عشرة أميال . ولا يزال أثر طغيان البحر قديماً عليه بادية في المستنقعات والسبخات الباقية في جهتي الحس وبغازى^(٣) .

واحتلت الصحراء القسم الأكبر من أراضي طرابلس ، وامتدت حتى كادت أن تلتقي بالبحر في بعض الجهات ، وشكلت نسبة ٩٢٪ من المساحة الكلية . وما زالت رمالها تزحف لتلتقي بالبحر عبر الساحل .

(١) ابراهيم رزقانة المملكة الليبية ص ٩٠ دار النهضة القاهرة ١٩٦٤

Mabel. L. Todd p. 1. (٢)

(٣) تراجع عن جغرافيا ليبيا في كتاب رزقانة المملكة الليبية وكتاب جغرافيا ليبيا

تأليف عبد العزيز طريح الشريف ١٩٦٣

وهي تشبهه ببحر واسع من الرمال فيه أرخبيل من الواحات ، وتبرز فوق سطحه تلال رملية ترتكز على قاعدة صخرية^(١) . وهي في مجموعها جرداء اللهم إلا في الواحات حيث يتجمع عدد قليل من السكان .

تمثلت في أراضي طرابلس جميع الأدوار الجيولوجية ، ويمكن أن توصف هذه الأراضي بصفة عامة بأنها هضبة صخرية رملية تتخللها تلال قليلة متوسطة الارتفاع ، خالية من المجاري المائية الدائمة تنتشر فيها بعض المنخفضات التي تحولت إلى واحات تفصل بينها بقع شاسعة جرداء .^(٢) ويتم الانتقال من الساحل في الشمال إلى الهضبة الصحراوية مباشرة إلا في منطقتين يلي الساحل فيها مرتفعات تشكل كلا من الجبل الأخضر المطل على ساحل برقة ، وجبل نفوسة المطل على ساحل طرابلس . وأقصى ارتفاع في الجبل الأخضر ٣٥٠٠ قدماً وفي جبل نفوسة ٢٨٠٠ قدماً . وتبدو بعض هذه المرتفعات وكأنها حائط صخري . وكما تنتهي الهضبة الصحراوية في الجنوب بجبال تبستي التي يصل أقصى ارتفاع فيها إلى حوالي ١٠٠٠ قدماً .

وتربة أراضي طرابلس الغرب عموماً رملية قليلة الطين ، وهي فقيرة في المادة العضوية ، ويميل لونها أحياناً إلى الحمرة . وهي صالحة للزراعة إذا توافرت لها المياه ، وإن كانت لا تتحمل الإجهاد الزراعي . وبسبب قلة المياه كانت المساحة المزروعة دوماً ضئيلة بالنسبة لمجموع المساحة الصالحة للزراعة لو توافر الماء . ومن هنا كانت مشكلة الزراعة في طرابلس مشكلة مياه أكثر منها مشكلة تربة .

ومناخ طرابلس الغرب تعبير صادق عن كونها ابنة البحر والصحراء . فهو خلاصة الصراع بين ظروف البحر المتوسط والظروف الصحراوية .

ولكن الظروف الصحراوية أقوى وأعم أنشأراً . حتى يمكن اعتبار البلاد بصفة عامة إقليماً صحراوياً . وإن كان من الممكن التمييز بين مناخ بحري منخفض نجده في منطقة الشريط الساحلي ، ومناخ بحري مرتفع نجده في المرتفعات الجبلية في كل من جبل نفوسة والجبل الأخضر ، ومناخ صحراوي يعم بقية البلاد . ويتجلى هذا التنوع المناخي في هطول المطر من حيث كمياته وأما كن سقوطه وتوزعه على أشهر السنة . فالطر في طرابلس قليل عموماً ولكنه في إقليم برقة أغزر منه في المناطق الأخرى ، ثم يليه في إقليم طرابلس . وأما مطر فزان فنادر الحدوث . ومما يزيد في مشكلة قلة الأمطار أن الكميات التي تهطل في كل من برقة وطرابلس لا تكون موزعة على أشهر السنة توزيعاً منتظماً أو بصورة تناسب الزراعة مما يسبب مناعب صعبة للزراعة . ويتشابه الإقليمان في عدم انتظام المناخ وفي تكرر مواسم القحط الجزئي والكلبي حيث يتعرضان للجذب العام الشديد الوطأة كل سبع أو عشر سنوات بصفة دورية^(٣) .

ونبات طرابلس الغرب أيضاً هو ثمرة الانتقال بين ظروف البحر المتوسط والظروف الصحراوية . فتختلط بها أشجار النخيل التي تمثل الإقليم الصحراوي بأشجار الزيتون التي تمثل إقليم البحر المتوسط ، ونجد فيها الراحات الخضراء وسط رمال الصحراء الصفراء . وقد نبتت في الشريط الساحلي المزروع وفي بعض المرتفعات الجبلية أشجار الفواكه كما زرع فيها القمح والشعير . بينما انتشرت أشجار النخيل في الواحات .

ويعتبر الاستيطان البشري في طرابلس الغرب ، عدداً وتوزعاً ، صدى للحالة المناخية فيها . فعدد السكان قليل جداً بالنسبة لمساحة البلاد

(١) انظر مقدمة كتاب « عشر سنوات في بلاط طرابلس » لس نوالى التي كتبها سيتون ديرون ص ٣٩ مكتبة الفرجاني • ليبيا .

حتى أن الكثافة السكانية لم تتجاوز واحداً في الكيلو متر مربع في أحسن الأحوال . وهذا العدد القليل محصور في مراكز استيطان محدودة أكثرها على الساحل وبعضها في المرتفعات الجبلية وفي واحات الصحراء ؛ وجميعها غير متصلة وإنما تتناثر في الأماكن الصالحة للزراعة والاستيطان عموماً .

ويلاحظ على سكان طرابلس الغرب تعدد الأجناس فيهم واختلاطها . وذلك أيضاً بسبب وضعها الجغرافي ونتيجة لظروفها التاريخية . ومنذ القديم سكن البلاد سلالات عرض البحر الأبيض المتوسط وسلالات أفريقية . فكان فيها الليبيون أو البربر - وأغلب الظن أنهم قدموا من جنوب جزيرة العرب - وكان فيها الزنوج . كما هاجر إليها اليبتيون واليونان ثم الرومان . واستوطنت طرابلس الغرب بعد الفتح الإسلامي قبائل عربية هاجرت إليها من شبه الجزيرة العربية عبر مصر ، وطبعت البلاد بطابعها . وسكنت فيها أيضاً جاليات قليلة العدد من اليهود الذين قدموها زمن الرومان ، والمالطيين والطلليان . واختلط العرب فيها بعناصر زكية وشركسية قدمت أثناء الحكم الإسلامي . ونتيجة لذلك كان مما يلفت النظر في أواخر القرن الماضي في طرابلس تعدد الأجناس واختلاطها . وقد لاحظ هذا الأمر عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروها^(١) . وزاد في هذا الاختلاط في القرون الثلاثة الأخيرة تجارة الرق التي كانت طرابلس الغرب أحد مراكزها الهامة .

وكانت غالبية السكان تدين بالإسلام وتتبع المذهب المالكي وتتكلم اللغة العربية . وقد احتفظ البربر فضلاً عن معرفتهم باللغة العربية بلهجة خاصة وتبعوا المذهب الإباضي وكان المسيحيون أقلية ضئيلة وليس فيهم

أحداً من سكان البلاد الأصليين . وقد فاقهم اليهود عدداً وتكلموا العربية بلسنة خاصة .

* * *

وارتبطت طرابلس الغرب منذ أقدم العصور التاريخية بالمنطقة التي تحيط بها شرقاً وغرباً ، والتي هي اليوم الوطن العربي ، وتداخلت فيها . فلم يكن بينها وبين بلاد المنطقة سدود . وتعرضت جميع هذه البلاد لتيارات تاريخية واحدة ، كما اشتركت كلها في المساهمة الإيجابية للتأثير على هذا التاريخ وبناء حضارات المنطقة .

وكانت طرابلس الغرب بحكم موقعها الجغرافي من المنطقة ، ولا تزال مركز التقاء خطين رئيسيين يصل أحدهما بين شرق المنطقة وغربها ، أي بين آسيا الغربية ومصر وشرق أفريقيا من جهة وبين المغرب في الشمال الأفريقي من جهة أخرى . ويصل الخط الآخر بين أوروبا من جهة وبين قلب أفريقيا من جهة أخرى . وقد أثر هذا الموقع الجغرافي في تاريخ البلاد عبر العصور .

فهو أولاً يجعلها حلقة اتصال رئيسية بين أجزاء المشرق العربي وأجزاء المغرب العربي .

وهو ثانياً يضعها في مواجهة الساحل الأوروبي في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهو ثالثاً يتوغل بها في قارة أفريقيا مسافة كبيرة تصل إلى ألفي كيلو متراً^(١)

(١) انظر عن أثر الموقع . مصطفى بيودراس في التاريخ العربي من ١٦٧ وما بعدها وعبد العزيز طربيع الشرف جغرافيا ليبيا من ٣٠٩

ومن هنا كانت طرابلس في الوطن العربي جسر اتصال بين مشرقه ومغربيه . وكانت بالنسبة لأوروبا وفي نظر الأوروبيين بوابة أساسية لأفريقيا . فطرابلس - على حد تعبير كوبر - « واحدة من أقدم البوابات التي تتدفق منها ثروات أفريقيا إلى حضن أوروبا . وفيها تتركز خطوط التجارة من بورنو وتشاد ووادي وتبسي وتمبكتو ودارفور وجميع البلاد الخصبة في السودان ، فهي أقرب مخرج لهم على البحر الأبيض المتوسط .^(١) ونظراً لاتساع رقعة البلاد فقد كانت أجزاؤها الثلاثة الرئيسية أقاليم « طرابلس وربة وفزان » كثيراً ما تتدخل سياسياً مع الأجزاء المجاورة لها من المنطقة . فتتصو بربة ومصر تحت لواء علم واحد وتتصو طرابلس وتونس تحت لواء علم واحد . وكان طبيعياً بفعل هذا الواقع أن تتعرض البلاد إلى موجات عديدة من المهاجرين والعابرين وأن تضم آثارهم . وقد سجل تاريخ طرابلس هذه الموجات .

ويعود الوجود البشري في طرابلس الغرب إلى عصر ما قبل التاريخ . وفي بداية العصر التاريخي كانت البلاد موطناً لعدة قبائل توزعت في أنحائها الثلاث ، وكانت هذه القبائل تنقسم من الناحية الانثولوجية إلى قسم حامى أو عربى قديم يسكن الجهات الساحلية ، وقسم آخر أثيوبيزنجي يسكن الجهات الداخلية . وكانت هناك عناصر بيضاء اختلطت بتلك القبائل وجاءت على الأرجح من الشمال عن طريق البحر وكان التفاعل بين قبائل المنطقة الشرقية وبين مصر القديمة قوياً ومتصلاً . وقد حفظت الآثار المصرية أسماء هذه القبائل وصور رجال منها ، ومن أهمها قبائل النحنو والنحو واللبو والمشواش . كما أورد « هيرودت » أسماء قبائل الناسامونيين والمكاى والجندانيين واللوتوفاجيين والقرمانيين التي سكنت

غرب البلاد وجنوبها . وتدل آثار تلك العصور على تدرج سكان طرابلس في مضمار الحضارة .

وفي القرن الثامن قبل الميلاد استوطن الفينيقيون الساحل الغربى في البلاد ، وأقاموا فيه ثلاثة مراكز تجارية لهم هي أوبيا ولبدة وصبراتة ، اشتهرت باسم المدن الثلاث . ولم يلبث أن نسب الإقليم إليها فأصبح اسمه إقليم المدن الثلاث (Tripolis) . وكان هذا الإقليم جزءاً من امبراطورية قرطاجة .

وغزا الاغريق الساحل الشرقى من البلاد في القرن السابع قبل الميلاد وأسسوا فيه خمس مدن هي سيرين (شحات) وربة (المرج) وبرينيس (بنغازى) وتاو كيرا (طوكرة) وأبولونيا (سوسة) . وعرف الإقليم بها فأصبح اسمه اقليم المدن الخمسة « بنتابوليس » . وفي العصر الهلنستى انتقلت السيادة على بربة إلى البطالمة الذين حكموا مصر بعد أن احتلها الاسكندر المقدونى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وقعت طرابلس في القرن الثانى قبل الميلاد بإقليمها الثلاث تحت حكم الرومان بعد أن انتصرت روما على قرطاجة في الحروب البونية وسيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط كله . وحين تعرضت الدولة الرومانية في القرن الخامس بعد الميلاد لغزو القبائل الجرمانية استطاع أحد فروع هذه القبائل وهم « الوندال » احتلال شمال أفريقيا بعد أن احتلوا أسبانيا . وبفى الوندال في طرابلس الغرب حوالى القرن إلى أن قضى عليهم البيزنطيون وضموا البلاد إلى الدولة البيزنطية التي ورثت روما .

وقد ازدهرت الحضارة في أقاليم طرابلس الغرب إبان تلك العهود ،

كما تعرضت البلاد لما تعرضت له الدول التي تنالت على حكمها من حالات قوة وضعف .

* * *

وبدأت طرابلس مرحلة جديدة من تاريخها بالفتح العربي الذي حررها من السيطرة البيزنطية، وعرفها على دعوة الاسلام، وذلك حين فتح عمرو بن العاص برقة عام ٢٢ هـ وطرابلس عام ٢٣ هـ - ٦٤٢م واصططعت البلاد بالصيغة العربية الإسلامية وأصبحت جزءاً من الوطن العربي، كما أصبح تاريخها جزءاً من تاريخ الدولة العربية التي ضمت أيضاً بقية أجزاء المنطقة .

فقد انضمت طرابلس الغرب للدولة العربية في العهد الراشدي . ثم تنالت عليها عهود الدولة العربية، فحكمها الأمويون ثم العباسيون . وكانت جزءاً من ولاية أفريقية التي توارث حكمها الأغالب من ١٨٤ هـ - ٢٩٦ هـ في ظل اللواء العباسي . ثم أصبحت جزءاً من السدولة الفاطمية من ٢٩٦ هـ - ٥٦٧ هـ، وحكمها بنو خزرون في ظل اللواء الفاطمي من ٢٩١ هـ - ٥٤٣ هـ، وتعرضت مدينة طرابلس لغارات النور مندين منذ عام ٤٣٧ هـ . ضمن هجوم الافرنج على الوطن العربي بعد وقوف موجة الفتوحات العربية . ونجح النور مندين في إحتلال المدينة سنة ٥٤٣ هـ وبقوا فيها اثنتي عشرة سنة، وذلك إبان الحملات الصليبية على الوطن العربي . ثم أصبحت طرابلس الغرب جزءاً من دولة الموحدين وحكمها بنو حفص في ظلم من ٦٢٠ هـ إلى ٩١٦ هـ حين احتل الأسبان مدينة طرابلس .

وجاء إحتلال الأسبان لطرابلس الغرب سنة ١٥١٠م في فترة كانت تعاني فيها من حالة الضعف التي سيطرت على مختلف أجزاء الوطن العربي

في فترة الجمود، وفي الوقت الذي ظهرت فيه القوتان البحريتان الاسبانية والبرتغالية وأشدت الضغط الأوروبي على الوطن العربي وخاصة في أطرافه الشرقية والغربية . واستمر حكمهم لها حتى عام ١٥٣٠ م حين سلبوها لفرسان القديس يوحنا - حكام مالطة - الذين بقوا فيها حتى عام ١٥٥١م حين أخرجهم العثمانيون منها .

وكانت الدولة العثمانية قد برزت على مسرح الأحداث في الوطن العربي مع بداية القرن السادس عشر حين اتجهت ناحية الشرق، ونجحت خلال مدة قصيرة لم تتجاوز الأربعين سنة في إحتلال غالبية أجزاء الوطن العربي وقضت على دولة المماليك وبقايا الحفصيين .

* * *

دخلت طرابلس الغرب مرحلة جديدة في تاريخها في ظل الحكم العثماني الذي استمر فيها ثلاثمائة وستين عاماً بين ١٥٥١ و ١٩١١ م . وقد استطاع هذا الحكم أن يدافع عنها وعن بقية أجزاء الوطن العربي ضد الاستعمار الغربي لفترة طويلة من الزمن، ولكنه من ناحية أخرى دفع بها بسبب سلبته وعدم فاعليته إلى مزيد من الضعف وعدم القدرة على مواجهة القوى الغربية عندما خارت قوى العثمانيين^(١) . ويجب أن نلاحظ - كما يقول الحصري - أن استيلاء العثمانيين على البلاد العربية - وطرابلس الغرب جزء منها - إنما حدث عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها، وكادت تصل إلى أقصى حدود اتساعها، فإن طور التوسع والإستيلاء في الدولة العثمانية انتهى تقريباً بانتهاء عهد السلطان العاشر سليمان القانوني . ثم لم تتوسع الدولة توسعاً يذكر، بل بعكس ذلك أخذت تنقلص وتراجع شيئاً

(١) محمد أنيس الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤) ص ٤

فشيئاً. كما أن تنظيمات الدولة وقوانينها اكتملت في عهد السلطان سليمان حتى أن المؤرخين اصطاحوا على تلقيه بلقب القانوني .^(١) ولم تلبث الدولة العثمانية أن سارت بعد عهد سليمان نحو الضعف وتضايفت عليها عوامل شتى بعضها داخلي يتصل بحال السلاطين والجيش والإدارة وبعضها خارجي يتصل بأطماع الدول الأجنبية ، لتؤدي هذه العوامل في النهاية إلى تفككها وفسادها .

وتجل طابع الحكم العثماني في طرابلس الغرب بشكل واضح . وقد اعتاد المؤرخون على تقسيمه إلى ثلاثة عهود هي الحكم العثماني الأول ، وامتد مائة وستين سنة بين ١٥٥١ و ١٧١١ م والحكم القره مانلي وامتد مائة واربعاً وعشرين سنة بين ١٧١١ و ١٨٣٥ م والحكم العثماني الثاني وامتد سبعاً وسبعين سنة بين ١٨٣٥ و ١٩١١ م حين احتلت إيطاليا طرابلس الغرب .

وكان العهد العثماني الأول في طرابلس عهد فوضى وفساد تسلطت فيه الأنكشارية التي أحضرها القائد درغوت على البلاد . وكان الخلل قد دخل النظام الأنكشاري منذ القرن السادس عشر بعد مضي حوالى قرنين على تأسيسه ، وأدى فساد الإنكشارية إلى فساد الإدارة التي ارتبط نظامها بنظام الإنكشارية . وقد ظهرت الفوضى وبان الفساد في الولاية بعد سنوات قليلة من بداية الحكم العثماني حين بدأ تدخل الإنكشارية والقولوغية - أبناؤهم من تراوهم مع الأهالي - في أمورها . وتتابع في هذا العهد الذى امتد مائة وستين عاماً واحد وثلاثون والياً حكم خمسة منهم نصف هذه المدة ، بينما لم يتجاوز مجموع سنوات حكم تسعة عشر آخرين خمسة وعشرين عاماً فقط . وكان أكثر هؤلاء الولاة خفيف

(١) ساطع الحصرى البلاد العربية في الدولة العثمانية ص ١١ ، ص ١٢ الطبعة الثالثة بيروت .

القيادة ، عاجز الرأي ، واهى العزيمة أو سيم السيرة ، يبسط في الناس يد الجور ، ويطلق يده في ظلم الرعايا ، وأيدى جنوده في استباحة المدن والقرى » . وكان أقلمهم « ذو شهامة وحزم وكفاية ، يرعى حرمان الله » . وكان الجند طامعين منقسمين إلى طوائف تتصارع فيما بينها على السلطة وهم يحق - كما وصفهم المؤرخون - آلات شر وفساد . وعانت الرعية من الظلم والجور ولم تجد أمامها إلا الانتفاضات والثورات تعبر بها عن غضبها ورفضها للظلم ولا تلبث أن تغلب على أمرها وتبتي بانتقام الجند ، فتهدأ لتنتهي للانتفاض من جديد .

وبدأ العهد القره مانلي حين نجح أحمد القره مانلي أحد أعيان الجند في مسك السلطة وفرض وجوده على الباب العالي ودام هذا العهد مائة وأربعاً وعشرين سنة انفردت فيها - خلال فترة قصيرة - أسرة القره مانلي بحكم الولاية . فكان أحمد مؤسس أول أسرة حاكمة في ولايات الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر . وكان هذا العهد امتداداً للعهد الذى سبقه فلم يشهد أى تغيير جذرى للأوضاع السائدة في البلاد . وبقيت العلل التي كان يشكو منها الحكم العثماني عامة مستفحلة على الرغم من محاولات جرت لإصلاح الأوضاع . وتميز العهد بأن كرسى الولاية شهد نوعاً من الاستقرار فيه في ظل حكم أسرة واحدة ، فتتابع عليه منها خمسة ولاية .^(١)

وعادت طرابلس الغرب إلى حكم الدولة العثمانية المباشر عام ١٨٣٥ فبدأ العهد العثماني الثاني الذى امتد ستاً وسبعين سنة حتى عام ١٩١١ .

(١) يراجع رودلفو ميكاكي طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القره مانلي ترجمة ماله فوزى ١٩٦١ ، احمد النائب المنبل العذب ، ابن غلبون التذكاري فبين ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار تحقيق الطاهر الزاوى ١٩٦٧ .

وكانت عودتها للحكم العثماني المباشر نتيجة تفاعل سياسة المركزية في استانبول مع الظروف الدولية المحيطة . وكانت الدولة العثمانية وقتذاك تعيش تجربة الإصلاح والتجديد في عهد السلطان محمود الثاني (١٧٠٨ - ١٨٣٩م) . وتتابع على كرسى الولاية حتى عام ١٨٨٢م - وهو بداية فترة هذه الدراسة - أربعة وعشرون والياً خلال سبع وأربعين سنة . ومن بين هؤلاء تسعة ولاه استمرت ولاية كل منهم سنة واحدة أو أقل ، وستة ولاه حكموا بمعدل سنتين لكل منهم ، وسبعة ولاه حكموا بمعدل أربع سنوات لكل واحد منهم . وكان من بين هؤلاء الولاة القوى المقتدر الذي حاول الإصلاح ، كما كان من بينهم الضعيف العاجز الذي لم يستطع ضبط أمور الولاية . وقد استمرت ثورات الأهالي خلال هذه الفترة امتداداً لثوراتهم في العهدين السابقين . كما استمر تدخل الدول الأوروبية في شؤون الولاية الذي بدأ في العهد القرمانلي ، وازداد هذا التدخل قوة . وقد برزت في البلاد خلال هذه الفترة بعض الانجازات من ثمار حركة الإصلاح والتجديد . وأولت الدولة العثمانية اقلية برقة اهتماماً خاصاً عند قيام الحركة السنوسية فيه فربطته مباشرة باستانبول تمهيداً مع سياسة المركزية وذلك عام ١٨٦٣ .

* * *

كانت الفترة موضوع هذه الدراسة ، والممتدة بين عامي ١٨٨٢ - ١٩١١م على مدى تسعة وعشرين عاماً ، فترة حاسمة في تاريخ طرابلس الغرب في الفترة التي سبقت الغزو الإيطالي للبلاد عام ١٩١١م فشهدت مقدمات الغزو وارهاساته . وكانت طرابلس الغرب فيها - كما سبق أن ذكرنا - هي الولاية الوحيدة الباقية للدولة العثمانية في الشمال الافريقي ، وقد حاصرها الاستعمار الغربي من عدة جهات بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م ، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م وامتدت منها إلى السودان جنوباً عام

١٨٩٦م : ثم احتلت فرنسا السودان الأوسط عام ١٩٠٢م . وكان واضحاً أن الاستعمار الغربي يسعى لاستكمال سيطرته على منطقة الوطن العربي كلها .

وهي الفترة التي كان فيها الرجل المريض في النزاع الأخير يحاول التثبيت بالحياة فقد شهدت استحكام الضعف في الدولة العثمانية التي حكمت منطقة الوطن العربي - باستثناء المغرب - منذ القرن السادس عشر الميلادي وشهدت المحاولات التي جرت في الدولة لانقاذ ما يمكن انقاذه ، سواء في عهد عبد الحميد الثاني الذي حكم أكثر سنوات هذه الفترة أو العهد الدستوري الذي تلاه . وكان واضحاً أن نهاية الدولة العثمانية باتت وشيكاً .

وهي الفترة التي تفتحت فيها البقعة العربية الحديثة ، واشتد خلالها النضال الفكري العربي . فقد شهدت منطقة الوطن العربي وهي تتوج بتيارات البقعة الفكرية التي بدت ملاحظها قبل قرن والتي عملت على إخراج الأمة العربية من ظلمات انحطاط دام عدة قرون . وكان واضحاً أن هذا النضال الفكري يستهدف تحرير المنطقة من سوء واقع جائم واططار مستقبل قادم .

وهكذا كانت طرابلس الغرب كجزء من الوطن العربي تعيش في هذه الفترة ، مثل بقية الأجزاء العربية ، صراعاً عنيفاً بين هذه القوى الثلاث . قوة الاستعمار الغربي ، وقوة الدولة العثمانية ، وقوة البقعة العربية . فجاءت أحداث الفترة محصلة هذه الصراع العنيف .

* * *

وكان الاستعمار الغربي وقتذاك في عنفوانه . . قوة ضخمة لها تأثيرها

الفعال في العالم أجمع . وقد دخل منذ أواخر القرن التاسع عشر مرحلة جديدة واتخذ شكل الاستعمار الرأسمالي ، بعد أن خطت الرأسمالية الغربية بعد عام ١٨٨٠ « خطوة ثالثة في مجال تطورها ، إذ ظهر في مجال العلاقات الاقتصادية ما يعرف برأس المال كعامل فعال في التطور الاقتصادي^(١) . ودخل النشاط الاقتصادي في أوروبا مرحلة جديدة « فلم يعد اهتمام الأوروبيين منصرفاً بصفة رئيسية إلى التجارة ، بل اتجه إلى تنمية موارد البلاد ومصلحتها ، وخاصة إلى طرق المواصلات والسيطرة عليها إما مباشرة بالحصول على الامتيازات ، وإما بطريق غير مباشر بتقديم القروض المالية للحكومات المحلية^(٢) » .

وقد جاءت هذه المرحلة الجديدة بعد أن تطور الاستعمار الغربي خلال القرون الأربعة التي تلت عصر الكشوفات الجغرافية في أوروبا ، وتغيرت تبعاً لذلك الأشكال التي اتخذها الزحف الاستعماري الغربي في العالم وفي الوطن العربي . فأول هذه الانقلابات وهو الانقلاب التجاري حدث في أواخر القرن الخامس عشر وارتبط « بالكشوفات الجغرافية كسبب وبالموجة الأولى للاستعمار في القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة^(٣) » وسام فعالة في نمو الطبقة البرجوازية الأوروبية ، واتخذ شكل الاحتكار التجاري . وحدث الانقلاب الثاني - وهو الانقلاب الميكانيكي - في أواخر القرن الثامن عشر حين بدأت الثورة الصناعية الأولى واستخدمت القوة الميكانيكية بدلاً من العمل اليدوي في الإنتاج

(١) محمد أنيس الدولة العثمانية والشرق العربي ص ١٨٢

(٢) برنارد لويس العرب في التاريخ ص ٢٤١ تعريب نبيه أمين فارس وعمود يوسف

زايد دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤ .

(٣) جمال حمدان استراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٥٦ دار الهلال .

الصناعي وفي وسائل المواصلات ، واستخدم المصنع بدلاً من نظام الحوانيت . فتغيرت أشكال التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المدينة وأصبحت الرأسمالية صناعية واتخذ الاستعمار شكل الاستعمار الصناعي وصار هدفه الحصول على المواد الخام للصناعة في أوروبا من جهة وفتح أسواق في المستعمرات لتصريف منتوجات هذه الصناعة من جهة أخرى . ثم حدث الانقلاب الثالث - وهو الانقلاب الصناعي - فخطت الرأسمالية فيه خطوة ثالثة في مجال تطورها ، واتجهت إلى تصدير رأس المال لاستغلاله في المستعمرات في شكل قروض أو إنشاء بنوك أو شركات الملاحة والسكك الحديدية . وتطورت الأوضاع الاقتصادية في عدد من أقطار أوروبا ، وتحولت تدريجياً من مرحلة الرأسمالية الحرة إلى مرحلة الامبريالية والاستعمار .

ولقد كان الانقلاب الصناعي - وهو الطور الثاني في الثورة الصناعية - أخطر الانقلابات الثلاثة وأعظمها تأثيراً في تاريخ الاستعمار الغربي وفي تاريخ الإنسانية . ومع أن تباشيره ظهرت في بريطانيا منذ عام ١٨٢٠ إلا أنه لم يعم القارة الأوروبية والولايات المتحدة واليابان ، ولم يستقر إلا في الربع الأخير من القرن الماضي . وقد برزت معه في الغرب ظاهرتان هامتان هما تطبيق العلم في الصناعة والزيادة الهائلة في الإنتاج . وترتب عليه ثورة جذرية في النقل والمواصلات وولادة الدول الضخمة في أوروبا وظهور الامبراطوريات ، ونتائج أخرى هامة اجتماعية وديموقراطية واقتصادية^(١) .

وكان الانقلاب الصناعي محركاً وضابطاً للاستعمار الغربي وللصراع

الدولى الذى استتبعه . وقد شهد العالم نوعين من الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر هما الاستعمار السكى « التوطنى » والاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى . وقد أخذ الاستعمار السكى مداه فى ظل الانقلاب الصناعى ، وتضاعف عدد من خرج من أوروبا فى القرن التاسع عشر حوالى عشرة أضعاف من خرج منها فى القرون الثلاثة السابقة ، وتوزعوا بين مختلف القارات وتغلغلوا بفضل ثورة المواصلات إلى أعماقها . كذلك نشط الاستعمار السياسى الاستغلالى أو الاستراتيجى فى ظل الانقلاب الصناعى ، واتجه إلى أفريقيا المدارية والشرق الأقصى والوطن العربى . وكانت أهمية الوطن العربى الاستراتيجية عاملا أساسياً فى جذب انتباه الاستعمار الغربى له فضلاً عما فيه من ثروات . ولم يأت الزحف الاستعمارى الحديث على الوطن العربى دفعة واحدة . بل جاء ببطئاً فى ثلاث موجات رئيسية متداخلة على مدى تسعين عاماً من ١٨٣٠ - ١٩٢٠ . فبدأت الموجة الأولى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فوقت الجزائر فى يد الاستعمار الفرنسى عام ١٨٣٠ ، ثم وقعت عدن فى يد الاستعمار البريطانى عام ١٨٣٩ . وتابع الاستعمار البريطانى زحفه على طول الساحلين الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية حتى أكمل سيطرته عليهما حتى الكويت قبل نهاية ذلك القرن . وتلت الموجة الثانية فى الثمانينيات حين مد الاستعمار الفرنسى سيطرته من الجزائر إلى تونس عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ ، وامتدت منها إلى السودان فأكملت احتلاله فى نهاية القرن . أما الموجة الثالثة فستلى فترة هذا البحث حين صفت القوى الاستعمارية امبراطورية الرجل المريض « الدولة العلية العثمانية » ، وانفقت على بقية أجزائها . وبدأت هذه الموجة بغزو إيطاليا لطرابلس الغرب عام ١٩١١ . وقد جاء به الاستعمار

فى غزوه الوطن العربى قوة الدولة العثمانية وقوة اليقظة العربية الحديثة مما بينهما من تناقض وتوافق .

* * *

وكانت الدولة العثمانية - القوة الثانية - وقتذاك فى النزاع الأخير بعد أن استحكم الضعف فيها وأطلقت عليها الدول الأوروبية الاستعمارية بحق اسم الرجل المريض . وشهدت هذه الفترة استمرار محاولات الإصلاح التى بدأت فى الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وللصمود فى وجه التحدى الأوروبى الاستعمارى المتزايد . وقد عرفت المرحلة الأولى من الإصلاحات باسم « التنظيمات » وجرت فيها محاولة تنظيم أمور الدولة على أسس جديدة فى جميع الميادين واستمرت هذه المرحلة بعد جهود سليم الثالث ومحمود الثانى طوال عهدي عبد المجيد وعبد العزيز من ١٨٣٩ إلى ١٨٧٦ . أما المرحلة الثانية فقد عرفت باسم « المشروطية » لأنها حاولت أن تقضى على نظام الحكم المطلق الذى كان قائماً حتى ذلك الحين ، وأن تجعل حكم السلطان مشروطاً بمراجعة القيود المقررة فى القانون الأساسى للدولة (١) .

وقد بدأت فى مستهل عهد السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٨٨٦ حين أعلن القانون الأساسى للدولة . وهى تنقسم إلى المشروطية الأولى التى امتدت عامين عطل عبد الحميد قبل مضمينها القانون الأساسى ، والمشروطية الثانية التى بدأت عام ١٩٠٨ حين أجبر عبد الحميد على إعادة العمل به واستمرت بعد خلعه عام ١٩٠٩ حتى قيام الحركة الكمالية وإعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٣ .

وارتبطت الدولة العثمانية جل الفترة الممتدة بين ١٨٨٢ و ١٩١١ —
وهي موضوع دراستنا — بالسلطان عبد الحميد الثانى الذى جلس على
كرسى السلطنة ثلاثاً وثلاثين سنة متتالية ، حكم طولها - عدا ثلاث
سنوات - حكماً مطلقاً . أما العامين الآخرين فى هذه الفترة فكان
الحكم فيها للاتحاديين الأتراك .

وكانت الدولة العثمانية حين اعتلى عبد الحميد العرش لاتزال امبراطورية
فسحة تمتد من حدود النمسا إلى بلاد العجم ومن البحر الأسود إلى الخليج
العربى شرقاً وإلى تونس غرباً . وقد ضمت خليطاً من الأجناس والقوميات
وبلغ تعداد سكانها عام ١٨٦٧ بناء على إحصاءات غير رسمية ثلاثة
وأربعين مليون نسمة منهم حوالى خمسة وعشرين مليون مسلم وحوالى
خمسة عشر مليون مسيحى . وفيهم حوالى خمسة عشر مليون تركى وستة
ملايين سلافي وأربع ملايين رومانى ومليونين وأربعمائة ألف ارمنى
ومليونى يوفانى . وكان الباقى وهم حوالى ثلاثة عشر مليوناً ونصف من
العرب وقليل من العجم (١)

وكانت الدولة لاتزال غارقة فى بحار الفوضى ، ولم تقلح محاولات
الإصلاح فى مرحلة التنظيمات فى القضاء على العلل التى تشكو الدولة
منها . فقد كانت جهود رجال التنظيمات تصطدم بعراقيل كثيرة متنوعة
أهمها نزوات السلاطين واستبدادهم وفساد رجال حاشيتهم . وقد تدهورت
مالية الدولة فى عهد السلطان عبد العزيز الذى اشتهر بالتبذير والترف
وأكثر من القروض الخارجية حتى أعلن إفلاس الدولة عام ١٨٧٥ ، وانتهى
أمر السلطان بالخلع والانتحار . ولم تطل ولاية خلفه مراد الخامس أكثر
من ثلاثة شهور بسبب اضطراب أعصابه وعقله .

(١) ألتاوتان . عبد الحميد ظل الله على الأرض ترجمة راسم رشدى القاهرة ١٩٥٠ ص ٧

وتولى عبد الحميد الثانى بعد أخيه مراد فكان السلطان الرابع
والثلاثين من سلاطين آل عثمان . وقد حكم الدولة بطريقة أثارت
الكثير من التساؤل والنقد ، ونالت شهرة واسعة . وقد استهل عهده
بإصدار القانون الاساسى أول دستور للدولة ، وتنظيم مجلس عمومى .
وتمت هذه الخطوة بتدبير رجال الإصلاح فى الدولة الذين رأوا أن الحاجة
ملحة لاستصدار قانون أساسى يقيد سلطة السلطان المطلقة ويعالج أهم
مشاكل البلاد الداخلية والخارجية (١) . وكان هذا القانون الاساسى
مستوحى من الدستور البلجيكى ، وهو امتداد لخطى شريف كوخانة
عام ١٨٣٩ وخطى همايونى عام ١٨٥٦ ، وقد أنضج مبادئ الإصلاح
وأنظمتها وجمعها وقيد سلطة السلطان فجعلها مشروطة . ولم تأخذ هذه
الخطوة مداها ، إذ سرعان ما تنكر عبد الحميد لها وتحول عنها وعزل
مدحت باشا أباً الدستور ونفاه بمقتضى إحدى مواد الدستور قبل انعقاد
مجلس المبعوثان ، كما أمر بفض المجلس قبل أن يتم دورة انعقاده الثانية ،
وعلق القانون الاساسى وعطل العمل به (٢) .

وسقط عبد الحميد فى مهادى الاستبداد حتى بلغ دركاً أسفل فيه .
وأصبح « الاستبداد الحميدى » أول ما يتداعى للخطر حينما يذكر
عبد الحميد . وقد تصافرت عدة عوامل وأدت إلى هذا الاستبداد
منها شخصية عبد الحميد وبيئته التى نشأ فيها ، وبلاطه وحاشيته ، وتكالب
القوى الاستعمارية على الدولة . وأسهب المؤرخون فى وصف هذا
الاستبداد وفى ضرب الامثلة عليه ؛ وتداخل الخيال فى بعض الروايات

(١) محمد فريد تاريخ الدولة العلية ص ٣٢٨ وسليمان البستاني عبرة وذكرى ص ١٣ .

(٢) يراجع عثمان نوري عبد الحميد دور سلطنتى وجلال نوري عبد الحميد من ولاية العهد

إلى التنى تعريب إبراهيم النجار ١٩١٤

ولكنها بمجموعها تصور الجوالعام الذي اكتنف حكم عبد الحميد، وتبرز الخطوط العريضة في سياسته الاستبدادية .

وكان لسياسة عبد الحميد الاستبدادية آثارها الواضحة في الدولة . فقد أورت الخوف والشك عبد الحميد ميلا قويا إلى الشعوذة والخزعات الأمر الذي أدى إلى سيطرة وسطوة بعض المشايخ والدراويش . وفسدت أجهزة الدولة الإدارية وانحدرت نحو مهاوى الخلل وعمت الرشوة فسيطر المرتشون الجشعون . وحملت سياسة الاستبداد الدولة أعباء مالية ضخمة على الرغم من محاولات الإصلاح المالي التي قام بها عبد الحميد . وأدت إلى نقيض ما كانت ترى إليه من تكميم الافواه فتألفت الجمعيات السرية لمسكافة الاستبداد داخل البلاد وخارجها . كما أدت أيضا إلى اشتداد الصراع القومي بين شعوب الدولة العثمانية .

واتجه عبد الحميد في سياسته الداخلية نحو مركزية الحكم والسلطة وغلا في ذلك غلوا كبيرا . وذلك استمراراً لخط سير الادارة العثمانية منذ بداية عهد التنظيمات من ناحية ، وانسجاماً مع نزوعه للحكم المطلق من ناحية أخرى . فسار في سياسة ربط الولايات بالعاصمة بشبكة من الاسلاك البرقية واسعة النطاق ، ثم بخطوط السكة الحديدية ، ونالت الولايات العربية منه اهتماماً خاصاً . وعمد إلى فصل القيادة العسكرية في الولايات عن السلطة الإدارية خشية خروج الولاة عن طاعته . ولم تحقق سياسة المركزية الغرض منها فلم تمنع تفكك الدولة بل لأنها ساعدت عليه بما سببته من زيادة نفمة شعوبها على السلطة . ولم يلتفت عبد الحميد إلى نصح المصلحين له بالأخذ بسياسة اللامركزية في الإدارة .

وكان عبد الحميد حريصاً على القيام بإصلاح أوضاع الدولة . ولم يمنعه انعطافه للحكم المطلق ونزوعه للاستبداد من السير في طريق الإصلاح الذي

رسمته « التنظيمات » . والحق أنه بذل جهوداً كبيرة لإصلاح الوضع المالي المتدهور في الدولة ، واهتم باستخدام العلم الحديث لتنمية الموارد الاقتصادية في البلاد وللغاية بالصحة العامة . فأمر ببناء المدارس والمراكز الثقافية المتعلقة بصناعات صيد الأسماك والغابات وتربية دودة القز وأسس مدرسة للطب ، واستدعى العالم الألماني فون ديرنغ لمحاربة الأوبئة ، ووضع نظاماً لشبكة جديدة من مياه الشرب في العاصمة ، وأمر ببناء غرفة للتجارة ومصنع للأسمنت وآخر للفسيج . وأنشأ مصرفاً زراعياً ومدارس زراعية ، ونفخ حياة جديدة في زراعة القطن وصناعته ، وأمر بغرس ثلاثين مليون شجرة توت^(١) . وقد امتدت هذه الأعمال إلى الولايات وسرى آثارها في طرابلس الغرب . واهتم عبد الحميد بالمواصلات انسجاماً مع سياسة المركزية ومع طبيعة عصره الذي كانت أبرز سماته ثورة المواصلات . كما فتح مدرسة لتعليم أولاد مشايخ الأعراب وزعماء الأكراد تخدم نشر العلم من جهة وسياسة المركزية والاستبداد من جهة أخرى . وقد أثمرت هذه المحاولات ثماراً قليلة - شأنها في ذلك شأن محاولات سلاطين عهد التنظيمات عموماً - لأنها انطلقت من فكرة نقل منجزات الحضارة الغربية دون الوعي إلى ضرورة تحقيق الانبعث الحضارى . وعمدت في الوقت الذي كانت تستعير فيه المنجزات الحضارية الغربية إلى كبت جهود المخلصين الواعين العاملين على بناء النهضة التي تحقق الانبعث الحضارى . ولقد سيطر على سلاطين عهد التنظيمات عموماً وهم امكان الانتقاء والاختيار من العناصر الثقافية الأجنبية .

واحتدم الصراع في عهد عبد الحميد بين قوة الإستعمار الغربى وبين قوة الدولة العثمانية . وكانت علاقته بالدول الأوروبية تعبيراً عن هذا الصراع

الكبرى عمد فيها إلى الاستفادة من التنافس الاستعماري بينها ، أسوة
بمن سبقوه من سلاطين القرن التاسع عشر . وكانت الاستفادة من هذا
التنافس قد أصبحت عاملاً ثابتاً في السياسة الخارجية العثمانية . وقد اتجه
عبد الحميد بأنظاره إلى ألمانيا القوة الجديدة التي برزت على المسرح الدولي
في تلك الفترة ، بعد أن تخلت بريطانيا وفرنسا عن سياسة الحفاظ على
التكامل السياسي للدولة العثمانية . ونجحت ألمانيا في النفاذ إلى الدولة
العثمانية بسرعة كبيرة ، وتعاطم نفوذها وتعددت مظاهره فكان هناك
التفوق السياسي الألماني في استانبول ، والبعثات العسكرية الألمانية التي
تولت تدريب الجيش العثماني ، والمشاريع الاقتصادية الألمانية . وكان
من مظاهر النشاط الألماني في تلك الفترة قيام عدد الرحالة الألمان بزيارة
طرابلس الغرب وغيرها من الولايات في عمليات استكشاف وجمع
معلومات . وكان تطلع عبد الحميد للاستعانة بألمانيا مشوباً بالخطر الذي
يلازمه وبالتردد الذي هو سمة بارزة في طبيعته .

وأوجد عبد الحميد عاملاً آخر في سياسة الدولة العثمانية تجاه أوروبا
حين تبني فكرة الجامعة الإسلامية وانتهج سياستها . وقد استهدف من
الفكرة استقطاب الشعوب الإسلامية في الدولة وخارجها ، والضغط على
الدول الأوروبية . واتخذها أيضاً سبيلاً لتوطيد موقفه الداخلي ضد
الأحرار المعارضين لحكمه ولتبرير وتعزيز سياسته الاستبدادية . وهكذا
اتصلت الجامعة الإسلامية بالصراع بين قوة الاستعمار الغربي وقوة الدولة
العثمانية من جهة ، وبين قوة الدولة العثمانية وقوة البقعة العربية من جهة
أخرى ، وبين قوة الاستعمار الغربي وقوة البقعة العربية من جهة ثالثة .
فكانت تعبيراً عن محصلة صراع هذه القوى في تلك الفترة^(١) .

الذي دخل طوراً جديداً حاسماً بعد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، اشتد فيه
انقضاء الدول الطامعة على أملاك الرجل المريض . وكانت العلاقات
الأوروبية العثمانية قد نشأت بعد الانقلاب التجاري وتطورت لصالح
تزايد النفوذ الغربي في الدولة العثمانية خلال القرون الثلاثة التالية . وجاء
مؤتمر برلين ليؤذن بانتهاء مبدأ « تمامية » السلطنة العثمانية الذي ساد في
القرن التاسع عشر ، وتخلت بريطانيا وفرنسا عن سياسة التكامل السياسي
للدولة العثمانية وأخذتا تعديان على مملكتها ، واشتد انقضاء الدول
الأوروبية عموماً على أملاك الرجل المريض ، ومنها منطقة الوطن العربي
وبرزت ألمانيا الموحدة في مجال التنافس الاستعماري الأوروبي ، وفتح التنافس
في هذه المرحلة باباً للتفاوض بين الدول المتنافسة مكن من تفاهمها واتفاقها
إلى حد ليس بالقليل ، فنجح انقضاها على تركة الرجل المريض . ويلاحظ
أن الإستعمار الغربي كان أسبق إلى احتلال المغرب العربي وأفريقية
العربية منه إلى احتلال المشرق العربي وآسيا العربية . كما يلاحظ أن
التغلغل الإقتصادي الأوروبي في الدولة - ومن أبرز امثله شركات إنشاء
السكك الحديدية والتنقيب على المعادن - سبق الاحتلال السياسي وكان
إرهاصاً له ، ومثله التغلغل الثقافي عن طريق المؤسسات الأجنبية
الثقافية والخيرية والدينية التبشيرية .

واستغل عبد الحميد عهده بالانشغال في حرب روسيا ومؤتمر برلين .
ولم يمض وقت طويل بعد مؤتمر برلين حين تعرضت الدولة العثمانية لفقدان
ولابنتين هامتين من ولاياتها . ففي عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس
وفرضت عليها الحماية ، وبأن عجزت الدولة العثمانية في مواجهة هذا الاحتلال .
وفي عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر بعد ثورة عرابي تحقيقاً لأمل قديم
في السيطرة على مصر . وانتهج عبد الحميد سياسة تجاه الدول الأوروبية

(١) برامج - ستودارد حاضر العالم الإسلامي وتوينبي دراسة في التاريخ

تبنى عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن بان فشل سياسة التقليد والاقتراب من حضارة الغرب التي اندفع فيها سلاطين فترة «التنظيمات»، وبعد أن تزايد الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية وسلب جانباً هاماً من ممالكها ووقف متربصاً بالباقي. وقد جاء تبنيها للفكرة بعد أن شعر بمدى قوة موجة الشعور الديني التي كانت تعم العالم الإسلامي أواخر القرن التاسع عشر كرد فعل لطغيان الاستعمار الأوروبي. وكانت الفكرة قد تبلورت بفضل عدد من المفكرين المصلحين في مقدتهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي. كما كانت امتداداً للحركات الإسلامية الإصلاحية التي ظهرت منذ أواخر القرن الثامن عشر. وقد اتجهت الفكرة لمجابهة الخطر الأوروبي الداهم، ولحاول الأفغاني وقف الزحف الأوروبي «عن طريق القوة المنظمة للحكومات الإسلامية الموجودة، وهذه هي العروة الوثقى لا انفصام لها»^(١). ولم تغفل عن الدعوة الإصلاحية ضد المساواة الاجتماعية والدينية في المجتمعات الإسلامية. وحين أحس عبد الحميد بفعالية هذه الفكرة تبناها وأعطاهما الدعم اللازم لتعزيز ركنين أساسيين فيها هما الالتفاف حول الخلافة الإسلامية والحلج إلى بيت الله الحرام. فتسكك عبد الحميد بصفة خليفة المسلمين ولم يكن من سبقه من سلاطين آل عثمان حريص على إبراز هذه الصفة أو التسمي بهذا الاسم. وعمل على إحياء عظمة الخلافة واسترداد ما كان لها من الهيبة. واعتمد عدداً كبيراً من الدعاة لنشر الفكرة، وأخذ يستميل الشخصيات الدينية ووجاه العالم الإسلامي إليه ويجري عليهم الرزق، وحرص في هذا المجال على استدعاء جمال الدين الأفغاني إلى استانبول. كما أرسل البعثات إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، وشجع على

حل الخلاف بين المذاهب الإسلامية وخاصة السنة والشيعة. وبذل المساعدات المالية بسخاء كبير للدارس الدينية، وسخر الصحافة لهذه الدعوة.

كما عني عبد الحميد لتعزيز الركن الثاني بمشروع خط الحجاز لتسهيل على المسلمين، واتخذ قراره بإنشاء الخط ربيع عام ١٩٠٠. وكان لإنشاء الخط وقع طيب في نفوس المسلمين، وكان الخط يخدم أيضاً سياسة عبد الحميد المركزية.

حققت هذه السياسة الجديدة نجاحاً ملموساً، كان من الممكن أن يتعاطم لو أن عبد الحميد خلصاً من التناقضات التي كانت تطبع تصرفاته، والتي برزت في سياسته الاستبدادية وغلوها في المركزية وموقفه من العرب والقوميات عموماً. وقد شعر الأوروبيون بخطر هذه السياسة على نفوذهم فتصدوا لها على المستويين الفكري والسياسي واندفع رجال الفكر الاستعماري من أمثال هانوتو والساسة الاستعماريون من أمثال كرومر وغراي إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة للتعصب الديني القصد منها تحدى قوات الدول المسيحية. وأثار هذا الهجوم الفكري بدوره عدداً من مفكري العرب والترك فأخذوا يدافعون عن الجامعة الإسلامية وينفون عنها صفة التعصب، وبلغ بينهم الأمر حد الدفاع عن عبد الحميد.

ويقود الحديث عن سياسة عبد الحميد الإسلامية إلى الإشارة إلى موقفه من العرب الذي يتصل بالصراع بين قوة الدولة العثمانية وقوة الميمنة العربية. وبجمل القول في هذا الموقف أن سياسة عبد الحميد اقتضت أن يستميل العرب وأن يكون للوطن العربي عنده أهمية خاصة لمساكنته الدينية مفضلاً عن أهميته الاستراتيجية. ولكن من المؤكد أيضاً أن

عبد الحميد بطبيعته التي لا تتق بأحد لم يثق بالعرب . وكان زهوه بنجاح مشروع حركة الجامعة الاسلامية - كما تقول وتلن - يظلمه خوفه الدائم من العرب ^(١) . فجاءت سياسته المركزية لتضمن أحكام قبضته على الولايات العربية . وجاءت محاولته مرج الاستبداد بتقريب بعض العرب كمشاهدة لصد الشعور النامي بالذات العربية وكسر شوكة المطالبة بكيان عربي . فقد كان عبد الحميد كما يقول الدوري ^(٢) يخشى بصورة خاصة من انتشار الدعوة إلى خلافة عربية . ولم تخف الدوافع الحقيقية وراء موقف عبد الحميد على كثير من العرب .

وجاءت نهاية عهد عبد الحميد الاستبدادي في منتصف عام ١٩٠٨ حين فجر فريق من الضباط العسكريين حركة جماعية تطالب بإعلان المشروعية ثانية وإعادة المجلس النيابي ووجوب الحكم بالمبادئ الدستورية الحرة . واضطر السلطان حين فشل في تدارك الأمر إلى إعلان الرضوخ للأمر الواقع فأصدر أمره في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ بإعادة الدستور وإجراء الانتخابات وإلغاء الرقابة والجاسوسية . وكان الضباط العسكريون الذين فجروا هذه الحركة من جمعية الاتحاد والترقي التي حكمت الدولة في المشروعية الثانية . وقبول إعلان الدستور بابتهاج لا مثيل له في كافة أنحاء الدولة ، وحصل ائتلاف معنوي بين مختلف القوميات فيها . وقد أسهب المؤرخون في وصف مظاهر هذه الفرحة العامة التي عمت البلاد وجو الأمان والآمال الذي خيم عليها . إذ لم تكن المشروعية هذه المرة من عمل جماعة محدودة من رجال الدولة ومفكرها كما كانت المشروعية الأولى بل أنها

كانت وليدة تخمر طويل وحركة واسعة النطاق . كما يقول الحصري - وأصبحت في عهد عبد الحميد مطلباً شعبياً عاماً ^(١) .

وشهدت عاصمة الدولة قبل أن تنطوي صفحة حكم عبد الحميد نهائياً ، قيام ثورة مضادة للعهد الجديد رتبها عدد من رجال عبد الحميد السابقين وحرکوا فيها الجنود والدرأوش في نهاية مارس ١٩٠٩ ^(٢) . واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي قمع هذه الحركة واجتمع مجلسا المبعوثان والأعيان وتقرر خلع عبد الحميد .

وكانت الفترة الباقية حتى عام ١٩١١ مليئة بالأحداث على قصرها ، تفجرت فيها أوضاع الدولة المتركة خلال قرون . فقد نشرت جميعة الاتحاد والترقي برنامجها السياسي إثر استلامها الحكم . وكان واضحاً منه أن الجمعية لم تكن تستهدف تصفية الدولة العثمانية بل تقويتها ، وذلك بتوحيد جميع العناصر فيها وعثمة كافة قومياتها . ولم يلبث أن وضع بعد قليل لجميع القوميات من خلال أعمال الجمعية أنها تنحرك بدافع من التعصب التركي لمصلحة الأتراك على حساب مصالح الآخرين ، وأن الحكام الجدد أسوأ من أسلافهم في هذا المجال وأقدر منهم وأنهم إن تشبوا بالفسكرة الاستخدامية فليستخدموها في سياستهم . ولم تكن قد مضت إلا شهور معدودة حين انطلقت الشرارة التي أضرمت نار الحقد بين العناصر المختلفة وكشفت عن التعصب التركي . فقد تخلص الاتحاديون من أكثر الموظفين العرب في الوزارات المختلفة ، وحاولوا فرض اللغة التركية على بقية القوميات في الدولة وحاربوا في سبيل ذلك اللغات القومية . وكانت

(١) وتلن ص ١٨٧

(٢) عبد العزيز الدوري الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٦٩ دار العلم للعلايين

(١) الحصري ص ١٠٨ و١٠٩ ورود ص ٧٥ ورفيق العظم ص ١٢٣ وأنيس ص ٢٥٧ ونجلاء عز الدين العالم العربي ص ١٣٢

(٢) حسب التقويم اليوناني القديم وهو يوافق ١٢ و ١٣ أبريل ١٩٠٩ من التاريخ الميلادي

العثمانى فى الوطن العربى عموماً بالانهيار . فجاءت هذه البدايات استجابة لتحدى الأوضاع السيئة التى سيطرت على حياة الناس . وهذا يعنى أنها كانت بدايات ذاتية نتيجة أوضاع داخلية^(١) . وتجلت البدايات فى مجموعة التيارات الفكرية التى ظهرت فى مراكز العلم تدعو إلى إصلاح المجتمع بالعودة إلى أصول الدين ، وفى مجموعة الانتفاضات المتتالية على الحكم العثمانى فى مختلف أرجاء المنطقة . وقد تنالت هذه الانتفاضات على مدى القرن الثامن عشر حين اختل التوازن بين السلطة المركزية من ناحية والحاميات العثمانية من ناحية أخرى فى الولايات ، واستفاد القائلون بها من النزوع القومى الذى كان واضحاً لدى العرب طوال وقوعهم تحت وطأة الحكم العثمانى .

وبدأ الوعى الذى ظهر فى المجتمع العربى فى تيارين أساسيين متداخلين هما التيار العربى القومى والتيار الإسلامى الدينى . والتداخل بينهما مفهوم وطبيعى حيث كان الأول تعبيراً عن النزوع القومى وكان الثانى تعبيراً عن النزوع الروحى . وقد بدأ هذا التداخل فى المظاهر المشتركة التى عبرت عنها وأهمها الاهتمام باللغة العربية لغة القرآن والاهتمام بالتاريخ الإسلامى الذى هو تاريخ ثورة العرب الكبرى وما شيدته العرب من حضارة .

ومن الملاحظ أن بدايات البقطة العربية ظهرت فى مختلف أرجاء الوطن العربى ، فكانت شاملة لا تقتصر على جزء دون آخر ، وكونت فى جميع الأجزاء تياراً واحداً . ومرد ذلك إلى الترابط المتين القائم بين أجزاء المنطقة العربية منذ أقدم العصور ، والذى أحكمته الدولة العربية التى عمرت قروناً ، والذى لم يستطع الحكم العثمانى إضعافه بل لعله بأبقيائه

أعمال الاتحاديين تعبيراً عن آرائهم واتجاهاتهم السياسية التى نادى بالتسكك بمبدأ المركزية فى تنظيم إدارة الدولة ، والاتجاه إلى الدعوة للقومية التركية وانتهاج السياسة الطورانية مع رفع شعار العثمانية والحرص على الاستفادة من السياسة الإسلامية .

وكان طبيعياً أن تعجل هذه السياسة بتفجر الصراع القومى فى الدولة بين الترك وجميع القوميات الأخرى وعلى الخصوص بين الترك والعرب باعتبارهما أكبر قوميتين فى الدولة . وقد حفل العامان الأخيران بصورة هذا الصراع سواء فى نطاق الحرب الصحفية التى اشتدت بين العرب والترك أو فى الحرب داخل مجلس المبعوثان حول قضايا كثيرة من بينها قضية لنش وحمة اليمن^(٢) . وأدى ذلك كله إلى تفاقم الأوضاع فى الدولة . كما استمر الصراع بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية التى تنالى فقدانها لأجزاء من ممتلكاتها . فقد استقلت بلغاريا نهائياً والحقت البوسنة والمهرسك بالنمسا بصورة رسمية ، والحقت جزيرة كريت باليونان . وبلغت هذه الأحداث ذروتها عام ١٩١١ حين غزت إيطاليا طرابلس الغرب .

• • •

وكانت منطقة الوطن العربى فى الفترة ما بين ١٨٨١ و ١٩١١ توجع بقوة بقطة عربية صاعدة تحدت معالمها وأثرت تأثيراً فعالاً فى الأحداث الجارية من خلال صراعها بالقوتين الأولى والثانية ولو أننا تتبعنا بدايات هذه البقطة لوجدنا أن بوادرها ظهرت فى القرن الثامن عشر الميلادى بعد مضى قرنين على الاحتلال العثمانى للمنطقة أصيبت خلالها نظم الحكم

(١) قضية لينش هى قضية فتح امتياز الملاحة النهرية فى نهري دجلة والفرات الى شركة لينش الانجليز عام ١٩٠٩ . وحمة اليمن تزعمها طاعمت من الاتحاديين حين تولى وزارة الداخلية براج العرب والترافى ١٤٧٧ و ١٧٦٦ .

المنطقة العربية وحدة ضمن الدولة العثمانية كان عاملاً مساعداً عليه وعلى زيادته - كما لاحظ أنيس - فكانت المنطقة وحدة لا تفرق بينهما حواجز سياسية أو اقتصادية أو ثقافية . وكان يزيد في هذا الترابط عاملان هامين أولهما الحج بما فيه من مجال كبير للتجارة والتبادل الثقافي ، وثانيهما استمرار تبادل الزيارات العلمية بين طلاب وعلماء المشرق والمغرب العربيين^(١) . ونلاحظ هذا الترابط في كتب الأعيان والتراجم ، وفي مراكز العلم التي كانت تجمع طلاباً من شتى أرجائه أو في تاريخ الرجال المصلحين الذين تنقلوا بين هذه الأرجاء .

وإذا كانت بدايات البقعة العربية قد ظهرت في القرن الثامن عشر قبل الموجة الأوروبية الغازية فما لاشك فيه أن هذه الموجة كانت عاملاً جديداً زاد فيها . وكانت تحدياً آخر جابه الأمة العربية فاستجابت له بمزيد من الوعي . وأصبح لزاماً على العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر مجابهة تحدى الأوضاع القديمة الفاسدة في ظل الحكم العثماني وتحدي الموجة الأوروبية الغازية في وقت واحد .

وقد وضع الغزو الأوروبي العرب في موضع احتكاك مباشر بالحضارة الأوروبية المزدهرة فكان لهذا الاحتكاك تأثيره في دفع حركة العلم وتطويرها في المنطقة . فكان أن تعاضمت البقعة العربية في القرن التاسع عشر . وتجلت في نهضة اجتماعية أدبية كان من أهم ميزاتها إنشاء المدارس الحديثة على النسق الأوروبي لتعليم العلوم الحديثة ، وانتشار الطباعة والصحافة ، وتأليف الجمعيات الأدبية والعلمية ، وإنشاء المكتبات العامة

والمناحف وظهور فن التمثيل واشتغال المستشرقين بالفرج بأدب اللغة العربية وبتراث العرب العلمي الخالد^(٢) .

وهكذا بدت مظاهر البقعة العربية في مختلف أجزاء المنطقة وإن كانت في بعضها أسبق إلى الظهور منها في البعض الآخر . فانتعشت حركة التعليم وتم إنشاء مدارس كثيرة قام بعضها في نطاق حركة التنظيمات العثمانية التي بدأت بإنشاء معاهد عسكرية جديدة لإخراج ضباط اكفاء ثم عمت وقام بعضها الآخر على يد الرسائل التبشيرية الأجنبية التي مثلت طلائع الغزو الأوروبي . وقام بعضها على اكتاف الهيئات الوطنية المحلية في البلاد . وتضاعف عدد المدارس خلال القرن التاسع عشر اضغافاً كثيرة . ودخلت الطباعة عدة أجزاء من المنطقة العربية فساعدت على نشر الثقافة ولعبت القاهرة وبيروت دوراً خاصاً في هذا المجال . وانتشرت مع الطباعة الصحافة فخرجت عشرات الصحف في المنطقة . وتأسست الجمعيات الأدبية والعلمية ، وكانت بداياتها في بلاد الشام ومصر ثم عمت بقية الأجزاء . وهكذا تضافرت هذه العوامل فساهمت في نمو الوعي العربي وتزايد البقعة العربية .

وكان طبيعياً أن تعبر النهضة الثقافية العربية عن نفسها بالعمل السياسي العربي . وقد بدا هذا التعبير بشكل واضح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتم ذلك تدريجياً . وهكذا فإن الحركة القومية الحديثة في الوطن العربي بدأت أدبية ثقافية ثم تطورت لتصبح سياسية شأنها في

(١) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع من ٢٠ بروس ١٤ وراجع جورج انطونبوس بقعة العرب ترجمة الركابي

ذلك شأن الحركات القومية عامة . فالبعث الأدبي يسبق الوعي السياسي ويمهد له .

وبانت البقطة العربية في عهد عبد الحميد وحتى عام ١٩١١ قوة بارزة . وقد أجبته عوامل عدة تضافرت في هذه الفترة ، منها ظهور الحركة القومية التركية في تركيا وتزايد الخطر الأوروبي في الربع الأخير من القرون التاسع عشر واشتداد الاستبداد الحميدي . وهكذا نشط العمل السياسي العربي خلال حكم عبد الحميد ، واتجه إلى محاربة الاستبداد والتشديد بالظلم والفساد ، وإلى مجابهة الخطر الأوروبي المتزايد ، وإلى النهوض بالامة وإصلاح أحوالها . وقد شارك النواب العرب في عهد المشروطية الأولى في هذا العمل السياسي ولكن الدور الأكبر فيه قام به المفكرون المصلحون الذين ظهوروا في تلك الفترة .

كان جمال الدين الأفغاني أحد هؤلاء ، وقد اضطر عام ١٨٧٠ أن يغادر الأفغان فقصده استانبول ثم القاهرة ثم عاش في أوروبا منفياً ثم عاد إلى استانبول ومات فيها عام ١٨٩٧ . وهو أبرز دعاة الجامعة الإسلامية ، كرس جهده لتطهير الإسلام من الشوائب والبدع وجمع المسلمين وتوحيد كلمتهم في مواجهة الخطر الأوروبي الذي اعتبره الأفغاني أكبر الأخطار التي تتهدد المسلمين . وقد نظر إلى حركة الاستعمار الغربي على أنها حركة دينية نصرانية موجهة ضد الإسلام وهو متأثر بنظراته هذه فيما برز في هذه الحركة الاستعمارية من حقد على الإسلام موروث منذ الحروب الصليبية . ومن هنا كانت استجابته لتحدي الغزو الأوروبي بدعوة العالم الإسلامي إلى الاتحاد في مواجهة هذا الخطر « اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذب عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل » (١)

ووجد الأفغاني أن من الممكن قيام هذا الاتحاد تحت لواء حكومة إسلامية يقوم على رأسها خليفة المسلمين . . ولم يغفل عن ضرورة التقدم العلني للوقوف في وجه الغرب « وللاصول إلى هذه الغاية الكبيرة إنما يجب اكتناء الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته » .

وشجع الحركات القومية ولم ير في ذلك تناقضاً مع دعواته للجامعة الإسلامية التي تضم قوميات عدة ، لأن الجامعة الإسلامية إنما تستهدف تعاون هذه القوميات التي تدين بعقيدة واحدة للوقوف في وجه الخطر الأوربي وتحقيق التقدم ، فهي بذلك إطار واسع ودائرة كبيرة تضم الدوائر القومية الصغيرة . وقد دعا إلى جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للجامعة الإسلامية . وقبل استجابة لواقع قائم ترشيح السلطان العثماني ليكون خليفة المسلمين وتمنى لو أنه استعرب . وكان يقول « لو انصف الاتراك أنفسهم لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا سنن الرشيد والمأمون ، ولكانوا أعز جانباً وأغنى عسكاً من دول الأرض » (٢) . وقد نشر أفكاره هذه عن طريق صحيفة العروة الوثقى التي أنشأها في باريس باسم الجمعية السرية التي أسسها في مصر ، وعن طريق ارتحاله المستمر بين أقطار العالم الإسلامي . وارتبط بجمال الدين عدد من كبار المفكرين تأثروا به وعاونوه ومن أبرزهم محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الله النديم .

وحين قبل الأفغاني التعاون مع عبد الحميد حدد تعاونونه في نطاق الجامعة الإسلامية ، ولم يكن غافلاً عن طبيعة حكم عبد الحميد الاستبدادي ، وقد شعر في آخر أحياته وبعد أن خاض التجربة بقلّة جدوى هذا التعاون . فيما رواه عنه عبد الحق حامد شاعر الترك في مذكراته أنه قال له حين قابلته في استانبول قبل وفاته « لم يكن للسلطان ثقة بأحد حتى تكون له ثقة بي .. »

(١) محمد بدیع الشریف ص ٥١ و بروس ص ٧١

(١) ستودارد واتس ص ٢٤

وأنى لما كنت أسكن الغرفة العلوية في لندن كنت أستطيع خدمة أمي أكثر مما استطعها هنا ، وكلمة "على" الوقت هنا ازداد يقيناً بأننى لن أعمل شيئاً (١) .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان للأفغانى شأن كبير في بقطة العالم الاسلامى عامة والهنزة العربية خاصة ، وبرز دوره في الثورة العربية في مصر وفي مناطق الانجليز وكان أينما ذهب - كما يقول برنارد ميشيل - « يترك وراءه ثورة تغلي مراجلها » (٢)

وكان عبد الرحمن الكواكبي أحد هؤلاء المفكرين المصلحين ، وهو حلي زامل الأفغانى ومحمد عبده ، وذهب إلى مصر هرباً من ظلم عبد الحميد وهو أبرز مفكرى البقطة العربية ، ساهم بنصيب كبير في بلورة فكرها والتعبير عن الوعي القومى ، وتحديد الصلة بين التيارين العربى والإسلامى . وقد استشعر الكواكبي كفيره من الرواد الأخطار الثلاثة التى هددت الوطن العربى - وهى خطر التخلف والتأخر وخطر الحكم العثمانى وخطر الغزو الأوروبى - ودعا إلى مجابهتها . ويبدو لنا من خلال كتابه « طبائع الاستبداد » وهأم القرى « أنه اعتبر دفع الخطرين الأول والثانى - التخلف والحكم العثمانى - سبيلاً لدفع الخطر الثالث الأوروبى . ومن هنا ركز دعوته على القضاء على التخلف ومحاربة الاستبداد والتحرر من الحكم العثمانى ، وبلور في دعوته الفكرة العربية في هذا المجال . ويعتبر كتابه « أم القرى » من أهم ما صدر في تلك الفترة . وقد ناقش فيه مسألة تنهقر الإسلام والمسلمين ، ووضعها في إطار مؤتمر يضم أعضاء من مختلف الأفطار العربية والاسلامية مثلوا جميع أجزاء الوطن العربى وأفطار الإسلام . وما يلفت النظر في هؤلاء الأعضاء أن

(١) مجلة الزهراء المجلد الاول ص ٦١٣

(٢) عن محمد أبو رية جال الدين الافغانى ص ٣٥

« كلهم يحسنون العربية » إشارة لضرورة سيادة اللغة العربية - لغة القرآن . ويحدد الكواكبي من خلال مناقشة المسألة مدار البحث الأسباب الأصلية والفرعية لفتور المسلمين ، ثم يناقش الوضع في الدولة العثمانية . فيجده يؤكد على ضرورة « أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى إدارى يناسب عاداتهم وطباع بلادهم » .. ويهاجم بشدة « هضم الدولة العثمانية حقوق العرب في المناصب والارتزاق من بيت المال هضمأ لا نسبة فيه حال كونهم ثلثى رعيها » . وي طرح بصدق وصراحة كراهية الترك الحاكمين للعرب المحكومين واستعلاهم عليهم . ويستدل على ذلك بأمثالهم ومواقفهم . ويدعو كحلصة للمناقشة إلى برنامج للنهوض من الواقع الفاسد يتضمن إقامة خليفة عربى قرشى يصدق على تولية السلاطين في شتى ممالك الاسلام ويحكم بالشورى . ويجعل الكواكبي مركز الجمعية المؤقت في مصر « دار العلم والحريه » (١) . ويخاطب العرب من غير المسلمين مستشعراً الرابطة القومية فيدعوهم إلى تناسى الإساءات والاحقاد ولإلى الاعتبار بتجارب أمم آخرين مثل اوستريا وأميركا . قد هداها العالم لطريق شتى واصول راسخة من الاتحاد الوطنى دون الدينى والرفاق الجنسى دون المذهبي والارتباط السياسى دون الإدارى ، فما بالنا لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها . وينهض إلى مشيرى الشحاء من الأنعام والأجانب ، ويهيب أن يقول عقلاؤنا لهم ودعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالآخاء وننوامى في الضراء وننساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلما سواء ألا وهى « فلتحنى الأمة فليحنى الوطن فلتحنيا طلقاً أعزاء » ويحذرهم من دسائس الأوروبيين ومن فظاعة الاستعمار الأوروبى ضارباً الأمثلة بالهولنديين في جزائر الهند والروس في قازان والفرنسيين في الجزائر والانجليز في بلادنا « فهلا والحالة هذه

(١) عبد الرحمن الكواكبي أم القرى المطبعة المصرية حلب ١٩٥٩

تصورون يا أولى الألباب ». وقد يبدو السكواكبي للبعض خيالياً مثالياً في دعوته للاتحاد الإسلامي، ومتناقضاً مع دعوته للارتباط القومي بين العرب مسلمين وغير مسلمين^(١). ولكن حقيقة الأمر - في رأينا - أنه كان ينطق في دعوته العربية من منطلق قومي يعنى حقيقة النزوع القومى عند العرب، ويحمد في الإسلام ما يعزز هذه الدعوة. وكان ينطلق في دعوته للاتحاد الإسلامى من استشعاره ضرورة تجاوز الدائرة القومية إلى دائرة أوسع تضم أخوة العقيدة لمحاربة الخطر الأوروبى والتعاون من أجل التقدم، وذلك من خلال قومياتهم، وليس بتجاهلها.

ونشير إلى الإمام محمد عبده المصرى كواحد من هؤلاء المفكرين المصلحين. وكان رفيق الأفغانى، وهوارى دعاة الإصلاح ومرسئ قواعد حركة التجديد في الإسلام فقد ركز دعوته من أجل القضاء على الأخطار الثلاثة على ضرورة الإصلاح الداخلى للقضاء على العلل التى يعانى منها العرب والمسلمون عموماً. وكانت صيحته «إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» تعبيراً عن هذا الاتجاه. وقد بدأ نشاطه الرسمى كقاض ثم أصبح عام ١٨٩٩ مفتياً للديار المصرية وتوفى عام ١٩٠٥.

ونشير أيضاً إلى رشيد رضا تلميذ محمد عبده الذى تابع دعوته، وعبد الحميد الزهاوى وكلاهما رفض خلافة الترك، وطرح الزهاوى آراء جريئة في الدين. كما نشير إلى نجيب عزورى الذى ألف كتاب «يقظة الأمة العربية في آسيا التركية»، وأسس في باريس «جمعية الوطن العربى» عام ١٩٠٥ وتلخصت دعوته بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وإنشاء دولة عربية مستقلة تشمل أقطار المشرق العربى، وأن توضع مقاليد الخلافة في يد شريف مكة الذى يتمتع بسلطة معنوية على جميع مسلمى العالم. ولم تلق دعوته صداها في البلاد العربية بوكان صاحبها معروفاً بكونه داعية

للدول الغربية وخاصة فرنسا وإنجلترا. وما يلفت النظر في الدولة العربية التى دعا لإنشائها أنها تقتصر على المشرق العربى وتستثنى المغرب العربى، بل تستثنى حتى مصر التى كانت تعاني من الإحتلال البريطانى، في الوقت الذى برزت فيه أهمية الترابط العربى بين جميع الأجزاء العربية في مواجهة الأخطار الثلاثة.

ومن الطبيعى أن تعبر هذه البقطة العربية عن نفسها في تكوين جمعيات تسعى لتحقيق أهداف البقطة. وقد تكونت بعض الجمعيات في أنحاء مختلفة من المنطقة. ولاشك أن إرهاب عبد الحميد أعاق حركة التكوين، وفرض على هذه الجمعيات أن تعيش في سرية مفرقة أو تعلن عن نفسها خارج الدولة العثمانية. وقد عرضنا بالإشارة السريعة لهذا النشاط. وحاول عبد الحميد بسياسته تجاه العرب التى سبق أن شرحناها أن يجابه هذه البقطة العربية كما سبق أن أوردنا ويصد الشعور بالذات العربية ويكسر شركة المطالبة بكيان عربى. «وكان يخشى بصورة خاصة من انتشار الدعوة إلى خلافة عربية^(٢)». ولكن من الواضح أن البقطة العربية كانت واعية بحقيقة موقف عبد الحميد، وحددت موقفها منه على هذا الأساس. وقد لاحظ استودارد في حديثه عن سياسة عبد الحميد الإسلامية ومحاولة تقريبه العرب «أنه قد ظل جانب كبير من العرب أهل غضب ونفور، على ما استطاعه عبد الحميد من التوفيق والإستئالة والإرضاء». وأشار إلى أن الحركة العربية عادت في أواخر القرن التاسع عشر «فظهرت مظراً جديداً دل على شدة سخط العرب وشأنهم للترك، فسارعت الحكومة التركية للحال في اضطهاد رجال الحركة الوطنية وأهل العصية من العرب شر اضطهاد، وأكثرتهم من السوريين فنفتهم وابعدهم لتأمين شرمهم فاستقر حال بعضهم في مصر وبعضهم الآخر في غرب أوروبا، ثم شرعوا جميعهم ينظمون القيام بدعوة ثورية فأنشأوا الجمعية الوطنية

العربية في باريس عام ١٨٩٥^(١) والحق إننا نلبس في مواقف كل المفكرين العرب نقمة على الاستبداد الحميدى ووعياً لسياسته العربية . وقد عبر السكوا كى عن ذلك اصدق تعبير في « طبائع الاستبداد » « وأم القرى » وإن بدا أن بعض المفكرين العرب التقوا بعد الحميد فلقاء مبعثه الرغبة في استنهاض همم الدولة العثمانية لمواجهة الخطر الأوربي ، وهذا يفسر موقف الحركة الوطنية في مصر في تلك الفترة التي وقعت فيها مصر تحت الاحتلال البريطاني وجاهدت للتخلص منه .

تلك هي بإيجاز أبرز الملامح العامة لتلك الفترة الحاسمة في تاريخ طرابلس الغرب وللقوى الثلاثة التي تصارعت فيها .

الفصل الثاني

طرابلس الغرب والوالي أحمد راسم (١٨٨٢ - ١٨٩٦)

بعد أن أوجزنا الحديث عن طرابلس الغرب في التاريخ تمهيداً للدراسة هذه الفترة بالتعرف على خلفية أحداثها ، وبعد أن عرضنا بإيجاز لأوضاع الدولة العثمانية خلال هذه الفترة ، وللصراع الذي احتدم في منطقة الوطن العربي بين القوى الثلاث . قوة البقطة العربية وقوة الدولة العثمانية وقوة الاستعمار الغربي ، نركز انظارنا على ساحة طرابلس الغرب في الفترة بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١١ لتتابع أهم ما جرى فيها من أحداث . ونتبع صورة الصراع فيها ومصلته .

ونبدأ بالتعرف على الحكم العثماني في طرابلس إبان تلك الفترة الدقيقة ، من خلال عرضنا لتاريخ ولاية طرابلس الذين تنابحوا فيها .

تنابح على كرسي الولاية في طرابلس الغرب بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١١ م واحد منهم نصف هذه المدة والنصف الأول من تلك الفترة . وحكم آخرون ثلث هذه المدة ، وكان معدل حكم الخمسة الباقين عاماً واحداً لكل منهم . وقد تنابح ستة من هؤلاء التسعة في عهد عبد الحميد واستمر واحد منهم بعد الانقلاب عليه ، أما الثلاثة الباقون فسكانوا في عهد المشروطية الثانية^(١) .

(١) تختلف المصادر في عدد وأسماؤهم هذه الفترة والعدد الذي اثبتناه وصلنا إليه بعد تحقيق ، وستفصل آراء المصادر وتقدمها في موضع آخر .

عمل ولاية العهد الحميدى في طرابلس على تنفيذ سياسة عبد الحميد ، فبدا واضحاً طابعها في تلك الفترة . فقد بان الاتجاه إلى مركزية الحكم الذى هو - كما رأينا - أبرز خصائص عهد التنظيمات عموماً وحكم عبد الحميد على وجه الخصوص ، في كثير من أعمال الولاية . وكان في أحد وجوهه رد فعل للإخطار التى أحاطت بطرابلس بعد الاحتلال الفرنسى لتونس والاحتلال البريطانى لمصر . ولذا فقد قوى هذا الاتجاه مع اشتداد هذه الأخطار . ولكنه كان يصطدم دوماً بالعقبات التى يفرضها موقع الولاية الجغرافى . فقد كانت طرابلس من الولايات البعيدة في الدولة العثمانية عن عاصمة السلطنة استانبول ، في وقت كانت المواصلات فيه داخل الدولة متخلفة وسيئة ، الأمر الذى زاد في هذا البعد وضاعفه . وكانت طرابلس أيضاً ولاية واسعة الأرجاء قليلة السكان لا تصل كثافتها السكانية في معدلها إلى شخصين في الكيلو متر المربع ، ولم يكن يربط بين أرجائها أى نوع من المواصلات الحديثة . وقد لاحظ محمد فريد هذه الحقائق أثناء مروره السريع بطرابلس في رحلته من خلال ما جمعه من معلومات ، فكان مما قاله في هذا الشأن « بإالة طرابلس إقليم متسع جداً تقدر مساحته بمليون كيلو متر مربع وسكانه بمليون ونصف فقط . وسبب قلة سكانه أن أغلب أراضيه قحلة لا ماء فيها ولا نبات . وزد على هذا السبب الطبيعى عدم وجود طرق للمواصلات بين أطرافه المتباعدة لا برأ ولا بحراً ، إذ لا توجد بطوله وعرضه سكة واحدة تصلح لمرور العربات ، ولا قيد شبر من الخطوط الحديدية ، مع أن المسافة بين طرابلس وفزان بالحيل أو الجمال مسيرة ثمانية عشر يوماً » كما أشار إلى سوء المواصلات بين الولاية وعاصمة السلطنة أو بين الولاية والولايات العربية الأخرى في معرض تسجيله استياء الأهالى من عدم ربط هذه الأجزاء المتقاربة بالوضع الجغرافى المتباعدة بسبب عدم وجود المواصلات ، وقال « ولا يربط طرابلس بممالك الدولة لتلغراف برى أو بحرى مع

سهولة الأمر ، وإمكان توصيل السلك التلغرافى برأ .^(١) » وواضح أن هذا الموقع الجغرافى وواقع المواصلات المتخلفة كان يفرض الاتجاه إلى سياسة الأمر كـمركزية في الحكم وليس إلى مركزية .

وظهرت إبان العهد الحميدى في طرابلس محاولات الإصلاح التى هى أيضاً من خصائص عهد التنظيمات ، والى قوى مع اشتداد الأخطار على طرابلس في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . وكانت هذه المحاولات أيضاً رد فعل للخطر الأوروبى . وقد اندفعت الدولة للقيام بها في شتى المجالات بعد احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ، ثم اندفعت مرة أخرى وبقوة أعظم بعد احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ حيث شعرت الدولة بالخطر محدقاً بالولاية . ولكن محاولات الإصلاح العثمانية في طرابلس لم تأخذ مداها ولم تثمر إلا نتائج قليلة ، شأنها في ذلك شأن محاولات الإصلاح العثمانية في مركز الدولة وبقية ولاياتها ، حيث اصطدمت بالفساد المتأصل في الإدارة العثمانية وكان ينقصها الوعى بطبيعة واقع البلاد . كما اصطدمت بجوانب سياسة عبد الحميد الأخرى - وخاصة مركزية الحكم - وبجو الاستبداد الحميدى عموماً ،

وبدا واضحاً إبان العهد الحميدى في طرابلس جو الحذر والشك الذى أحاط بالسلطة العثمانية هناك ، وهو جو سياسة عبد الحميد الاستبدادية . وقد ضخمه في الولاية ، وزاد فيه اشتداد الضغط الأوروبى عليها وظهور نشاط الجاسوسية الأوربية - وخاصة الضغط الإيطالى والجاسوسية الإيطالية . . ولم يتجه هذا الحذر والشك إلى الأجانب لحسب بل اتجه أيضاً إلى المواطنين فعانوا منه الأمرين ، وسععرض لبعض الأمثلة عند سرد أهم أحداث تلك الفترة .

وباختصار يمكننا أن نصف الحكم العثمانى في طرابلس خلال فترة

هذه الدراسة وقبل الغزو الإيطالي بأنه كان في صحوة الموت وفي النزاع الأخير يحاول عبثاً الهروب من قدره المحتوم دون جدوى .

* * *

ولاية أحمد راسم باشا

(١٨٨٢ - ١٨٩٦ م) و (١٢٩٩ - ١٣١٤ هـ)^(١)

كان أحمد راسم هو أول ولاية هذه الفترة وأطولهم مدة ، حيث استمرت ولايته على مدى خمسة عشر عاماً . وقد جاء تعيينه والياً على طرابلس في وقت كانت البلاد فيه تعيش ظروفاً صعبة . ففي أثناء ولاية سلفه محمد نظيف باشا احتلت فرنسا تونس وأعلنت حمايتها عليها ، وجب اتفاقية أجبرت الباي على توقيعها في « قصر باردو » في ١٢ مايو (أيار) ١٨٨١ . فكان لهذا الحدث صدى كبير بين الأهالي في طرابلس ، حيث تجاوزوا مع أشقائهم عرب تونس في محتهم وشعروا بالخطر الأوربي على مقربة منهم فتبلبلت خواطرهم وصدرت عنهم ردود فعل غاضبة .

ففسدت الولاية « قيام مظاهرات ضد الروم »^(٢) الأوربيين تعبيراً عن هذا التجاوب وعن الشعور بالخطر الأوربي الداهم على طرابلس . واشتدت عداوة الأهالي للأجانب في طرابلس^(٣) وحدثت في البلاد ضجة كبيرة^(٤) . وطالب الأهالي الباب العالي بتحصين الولاية وبمد يد العون لتونس . فحاولت استانبول تهئية خواطر الأهاليين بأن أمرت شيخ البلد ورئيس البلدية في طرابلس السيد أحمد النائب بالسفر في مهمة إلى تونس^(٥) . ولم يذكر النائب شيئاً عن طبيعة هذه المهمة في كتابه المنهل العذب ، بل إنه لم يشر في كتابه ولو بكلمة إلى احتلال فرنسا لتونس ، وهو أمر يلفت النظر . ويمكننا أن نفهمه إذا عرفنا أن النائب نفى من طرابلس بعد فترة وجيزة في قضية كبيرة سنعرض لها ، وألف كتابه في منقاه بالأساتنة خلال حكم عبد الحميد .

كما استجابت الدولة العلية لمطلب تحصين الولاية بإرسال الفريق وصفي باشا للمحافظة على سلامة البلاد ، بعد أن بدا تقصيرها الفاضح في الدفاع عن تونس . وجاء وصفي باشا على قيادة جيش مزود بالسفن الحربية ، وأخذ من مكتب الصنائع الذي أسسه عزت باشا مخزناً لأرزاق العساكر الشاهانية ، وجعل منه معسكراً للجند^(٦) . وأمر بإبقاء أبواب المدينة مفتوحة في الليل وكانت تغلق بعد العشاء ويتعطل سكان خارج المدينة إذا

(١) A. J. Cac hia-Libya Under Th Secand Ottoman Occupation 1835-1911 Tripoli 1945

الترجمة العربية يوسف المشي ١٩٤٦ ص ٥٢ ، اصطلاح أهالي طرابلس على تسمية الأويين بالروم والأروم .

(٢) Rossi, Ettore. Storia Di Tripolitania Dalla Conquista Araba, 1911 p. 329
(٣) Féraud, L. C. Annales Tripolitaines. Paris 1929 p. 491.

(٤) أوراق قضية إبراهيم سراج الدين دار المحفوظات
(٥) طرابلس غرب تأليف محمود ناجي وعثمان نوري ص ١٥٨ ، والنائب ص ٤٠٥
الجزء الأول ، وكاكبا ص ٥٢ من الترجمة

(١) كان التقويم الهجري مستعملاً بصورة رسمية في الدولة العثمانية وسنورده في تاريخ المحوادث ، وقد نورد معه التقويم الميلادي وهناك تقويم ثالث كان يستعمل رسمياً في الدولة العثمانية أساسه السنة المالية وهي السنة الشمسية نفسها ولكننا لا نبدأ بـ ١١٤٤ للمسيح .
وشهورها هي مارت نيسان مايس النخس وكانت تبد بشهر مارس ، وقد عمت الدولة جدول توافقي بين السنين المالية والسنين الهجرية فتلا وافق أول مارت من سنة ١٣٠٠ المالية الساس عشر من جمادى الاول من سنة ١٣٠١ هـ . وقد لجأنا في هذه الدراسة الى اثبات السنة المالية احياناً والتي كانت تسمى أيضاً السنة الرومية .

دعتم ضرورة لما في المدينة من طيب ونحوه، وكذلك أهل المدينة إذا دعتم حاجة للبنيّة. ويعلق النائب على هذا الإجراء الذي كان سائداً لانعدام الأمن بقوله « ويقبح هذا في بلد واحدة وقد زالت أسبابه^(١) ». وواضح أن الفريق وصفي استهدف من الأمر الذي أصدره تطمين الناس وبث الثقة في نفوسهم بقدرته الدولة على حمايتهم. « وقد تمت عدة بوآخر سلطانية مشحونة بمدافع كروب والمهمات والذخائر الحربية »، ومعبأة بالجنود « فلم تسعهم الشكنات فنصبوا خياماً خارج الباب الجديد وفي ساحة البلدية^(٢) ».

وجدد وصفي قلاع المدينة على طراز حديث ونصب فيها مدافع ضخمة وبنى استحكامات جديدة في برج التراب وسانية الباشا. ودعى الأهالي لمشاهدة هذه الانجازات بغية تطمينهم. فكان ذلك اليوم - على حد تعبير النائب بأسلوب عصره الركيك - « يوماً مشهوداً ومن مواسم الأعياد موعوداً ». وامتلات العيون هيبة وحصل للقلوب السرور بعناية مولانا أمير المؤمنين^(٣). وعزز الوالي محمد نظيف جهات الحدود بعد معاهدة باردو - كما جاء في حوليات طرابلس - حيث كان العرب التونسيون يقاومون المحتل الفرنسي بشدة^(٤) وحين نجحت القوات الفرنسية في احتلال سفاقس يوم ١٦ يوليو (تموز) ١٨٨١ ترددت إشاعة قوية في طرابلس بأن الفرنسيين ان يقفوا عند حدود تونس جنوباً بل سيحتلون طرابلس أيضاً^(٥). وكانت مشاعر الطرابلسيين نائرة، ومع ذلك فلم يحرص القنصل الفرنسي على احترامها، ودعا في العيد القومي الفرنسي يوم ١٤ يوليو (تموز) ١٨٨١ إلى حفل كبير في مقر القنصلية « أحيته

فرقة موسيقية ودعا إليه الوالي والفريق، ولكنهما لم يحضرا، وكان الوالي يهدهى الأهالي^(٦) ».

وكان من نتائج الاحتلال الفرنسي لتونس أن لجأت قبائل العربان النازرين في جنوب تونس الذين قاوموا الاحتلال إلى طرابلس. وتوزعت هذه القبائل في الجهات الغربية من الولاية، وكان لابد من التصدي لمشاكلها خاصة وأن عدداً فرادها جاوز المائتي ألف نسمة^(٧).

وحدث في ذلك العام - عام ١٨٨١ - أن « أجذبت البلاد حدياً عظيماً، وانتشرت المجاعة انتشاراً فظعياً. وأحضر الدقيق لأول مرة من تركيا لتفريقه على القبائل التي كان نصيبها من تلك المجاعة النصيب الأكبر. وعرف ذلك العام بين الناس بعام الدقيق^(٨) ». وتاريخ طرابلس يسجل ظاهرة تكرار سنوات الجذب في البلاد بشكل دوري تقريباً يتراوح بين سبع وعشرة سنوات.

واختل الأمن بشدة في البلاد خلال ذلك العام بسبب تلك الظروف الصعبة من جهة وفساد الإدارة من جهة أخرى، فحدثت سرقات كثيرة انقصت بالجرأة وكثرة حوادث السلب. ونستدل من إجراء الوالي بإغلاق أبواب المدينة بعد العشاء على اختلال الأمن. وهناك وثيقة تتضمن احتجاجاً على حكومة الولاية تقدم به قناصل الدولة الأجنبية في طرابلس مجتمعين - وهم قناصل دول النمسا وبلجيكا وأسبانيا وأميركا وفرنسا وبريطانيا العظمى واليونان وإيطاليا وهولندا. بسبب « سوء حالة الأمن العام في طرابلس البربر Barbaoy والسرقات الجريئة العديدة التي اقترفت في الاوقات الأخيرة. » والوثيقة مؤرخة في ٤ مايو (أيار)

(١) Rossi p: 330

(٢) الوثائق التي جمعها عبد السلام ادم. دار المحفوظات

(٣) كاكيا من ٥٣ من الترجمة

(١) النائب من ٤٠٥ الجزء الأول، ناجي من ١٥٨ ويلاحظ أن كاكيا عكس المعنى حين

ذكر أن وصفي اقتل أبواب طرابلس أثناء الليل من ٥٢ من الترجمة

(٢) ناجي من ١٥٨ (٣) النائب من ٤٠٦ الجزء الأول

Feraud p. (54) 442

١٨٨١ وفيها اقتراحات « من شأنها تقوية القانون وتثبيت النظام في طرابلس لكي يقضى على حوادث السرقة التي تكررت أخيراً . » ومن هذه الاقتراحات إزاحة الفاسدين في البوليس والانتظام في دفع رواتب أفراد البوليس وتسجيل زوار الفنادق^(١) .

تلك هي الظروف الصعبة التي عاشتها طرابلس في مستهل هذه الفترة قبيل تعيين أحمد راسم والياً عليها . ومن المتوقع أن يكون السلطان عبد الحميد قد أخذ بعين الاعتبار هذه الظروف حين اختياره للولاية فقد كان راسم عند صدور فرمان توليته في ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ . « أحد وزراء السلطنة المشهورين بالسياسة والكياسة^(٢) » وكان سجل خدماته حافلاً .

فقد ولد أحمد راسم باستانبول سنة ١٨٢٥ ، وتلقى تعليمه الابتدائي والعالي في أمينا واتقن من اللغات اليونانية والإيطالية والفرنسية . وتقلد أول وظيفة له لدى الباب العالي بقسم الترجمة . وفي سنة ١٨٤٤ انتقل إلى وزارة الخارجية وأسند إليه حل كثير من المشاكل السياسية في سالونيك ومناستر وجزيرة سيسام . وفي سنة ١٨٦٣ عين متصرفاً فوق العادة في « طولجي » وبعدها في « ويدن » بولايات البلقان . وفي سنة ١٨٦٧ عين والياً في « يانية » ثم في سنة ١٨٧٢ بولاية طرابزون ونقل بعد عام إلى ولاية اشقودرة بألبانيا . ونقل بعد ذلك والياً لولاية ديار بكر ثم رجع استانبول حيث عين مديراً للجنة الصحية بوزارة الصحة وعميداً للعاصمة ، ثم عين لطرابلس الغرب فوصلها في الرابع من شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٩ هـ (عام ١٨٨٢ م)^(٣)

(١) دار المحفوظات ملف القناصل انظر الوثيقة في ملحق الوثائق

(٢) ناجي ص ١٥٨

(٣) مجلة الافكار طرابلس العدد ١١ يولية ١٩٥٧ مقال « الوالى احمد راسم واصلاحيته في طرابلس الغرب »

عمل الوالى الجديد على معالجة أوضاع الولاية والنهوض بها وفقاً لسياسة عبد الحميد وقد أوجزت سالنامة الولاية عمله بقولها « وقد حصر أنظار عنايته منذ تشريفه السامي في إصلاح كل ما رآه محتاجاً للإصلاح من المواد والخصوصات في كافة شعبات أمور الولاية ، فأصلحه شيئاً فشيئاً بتدابيره الصائبة المناسبة مع الزمان والمكان ، وعطف نظر دولته العالي إلى الإجراءات المهمة العائدة لترقي عمران المملكة وإزدياد ثروتها ، فتوفق لكثير من الآثار والإجراءات الجليلة المادية والمعنوية لحد الآن^(١) . وجاء هذا القول في مقدمة سرد أعماله في السالنامة ، ولم يورد النائب الذى نقل لنا هذا النص تاريخ السالنامة ، وإن بدان السياق أنه في أواخر سنوات ولايته .

فإذا نظرنا في تدابير وآثاره وإجراءاته نجد أنه تجمع منها خلال مدة ولايته الطويلة والمتصلة سجل مليء حافل إذا ما قورن بسجلات باقى ولايات العهد العثماني . ومرد ذلك إلى طول مدة ولايته من جهة والتي كانت ظاهرة فريدة في ذلك العهد ، وإلى أن تلك الفترة كانت تتضمن الاستجابة العثمانية للتحدى الأوربي والليقطة العربية من جهة أخرى . ويمكن أن نضيف أيضاً إلى هذين العاملين قدرات الوالى الشخصية .

تصدى أحمد راسم بعد توليه مجموعة مشاكل جابهته كانت الولاية تعاني منها . وكان قسم كبير من هذه المشاكل متصل بشكل أو بآخر بالخطر الأوربي الذى شغل الناس بعد احتلال تونس ومصر ، وبعد أن تكشف أطماع بعض الدول الأوربية بطرابلس وبدت سافرة ، وتزايد نشاط القناصل الأوربيين المشبوه ونشاط الرحالة الأجانب المرتبط بهذه الأطماع . وكان القسم الآخر من المشاكل متصل بالأوضاع الداخلية

(١) النائب المنهل المذهب الجزء الثانى ص ١

للولاية ، وبيوادر البيقطة التي ظهرت فيها . كما قام أحمد راسم بإجراء مجموعة إصلاحات تنفيذاً لسياسة عبد الحميد في هذا المجال . واستعراض هذه المشكلات والأعمال التي قام بها الوالي في مواجهتها يعطينا فكرة واضحة عن واقع الولاية في جوانبه المختلفة ، وعن سير الأحداث فيها ، كما كان خلال فترة ولايته .

مشكلة المهاجرين التونسيين والوقف من الاحتلال الفرنسي لتونس

برزت مشكلة المهاجرين التونسيين في طرابلس أثر استكمال الفرنسيين احتلال تونس . فقد لجأت القبائل العربية التي تعيش هناك إلى طرابلس الغرب بعد أن قاومت المحتل الفرنسي بضراوة . وذلك لتكون في كنف الدولة العثمانية وتنازع جهادها ضد الفرنسيين . واتخذت هذه المشكلة أهمية خاصة ، ومع ذلك فإن أكثر الكتب التي تناولت الفترة لم تورد لها أو أشارت إليها بإيجاز . ولكن الوثائق الرسمية العثمانية التي تضمنت الكثير حولها تكشف لنا عن أهميتها . وقد اعتمدنا على هذه الوثائق في المقام الأول في دراستنا لهذه المشكلة .

يبدو لنا من خلال وثائق دار المحفوظات اهتمام استانبول الكبير بموضوع القبائل التونسية المهاجرة . فقد تناوبت المراسلات بين السلطة المركزية هناك وبين أحمد راسم بعد توليه مباشرة حول هذا الموضوع . وكانت أغلب المراسلات تجري بين الوالي والمباين الهمايوني ، مما يشير إلى اهتمام عبد الحميد الخاص به ، ويجري بعضها مع الصدر الأعظم . وقد استفسرت استانبول في رسائلها عن عدد المهاجرين وقيادتهم وأماكن توزيعهم في الولاية . وأفادت إجابات الوالي وتقاريره أن هجرة القبائل

تدفقت في أواسط عام ١٢٩٩ هـ . وبلغ عدد المهاجرين ما ينوف عن المائتي ألف مهاجر . وأهم قبائلهم نفات وجلاص والسواسي وابن يزيد والهامة وأولاد رضوان وأولاد سعيد وورغمه - التي كانت تضم التوازن ودارنه والخزور وعكاره - ، وأولاد معمر وأولاد سعيد . وحددت رسائل الوالي أسماء زعماء ومشايخ هذه القبائل ، كما ذكرت أنهم نزحوا في الزاوية والجبل وغدامس والجهات الغربية عموماً . ويبدو من المراسلات أن استانبول استمزجت الوالي حول تقديم عون نقدي لهم فكان رده المؤرخ في ١٨ رجب ١٢٩٩ هـ « أننا لو فكرنا في تقديم العون النقدي هؤلاء لما كفانا صرف الملايين ، إلا أنه يمكن صرف مساعدات لبعض المحتاجين منهم من صناديق البلديات . »

شعرت الدولة العثمانية - كما يستبين من الوثائق - أن هؤلاء المهاجرين يشكلون عبئاً ثقيلاً على كاهلها . فقد اتجهت سياسة عبد الحميد في قضية الاحتلال الفرنسي لتونس إلى عدم الاصطدام بفرنسا والسكوت على الأمر الواقع الذي فرضته فرنسا ، مكتفياً باحتجاج صوري . بل وسعت هذه السياسة إلى إعادة العلاقات الطيبة مع فرنسا واعتبار قضية تونس سحابة صيف تنقشع في سماءها ، « تماماً كما حدث عام ١٨٣٠ عند احتلال فرنسا للجزائر »^(١) . ومن هنا عملت الدولة العلية على التخلص من هذا العبء الثقيل بتشجيع هؤلاء المهاجرين على العودة إلى ديارهم أو توطينهم بعيداً عن مناطق الحدود ، حتى لا يكون لديهم مجال للجهاد الفرنسيين والاحتكاك بهم . وقد تناولت الرسائل من استانبول إلى الولاية تحت على إعادة المهاجرين إلى تونس أو نقلهم من الجهات الغربية إلى الدواخل وإلى منطقة سرت على الخصوص .

اتفقت هذه السياسة العثمانية مع سياسة فرنسا تجاه هؤلاء المهاجرين

التي تولى تنفيذها في طرابلس القنصل الفرنسي مسيولاكو . فقد رأت فرنسا في وجود هؤلاء المهاجرين في طرابلس وعلى مقربة من الحدود ومن ديارهم خطراً يهددها ، ووجوداً يطالب بتحرير أرضه ، فسعت إلى إعادتهم ليسكنوا في قبضتها . ونجحت مساعي مسيولاكو في هذا المجال « فعاد أكثر هذه القبائل إلى تونس في أكتوبر ١٨٨٢ ، وعاد الباقيون بعد سنتين »^(١) .

ولابد أن نشير ونحن في مجال الحديث عن هذه المشكلة إلى أن الرأي العام الطرابلسي اتخذ موقفاً مخالفاً لسلك من موقف الدولة العثمانية وفرنسا . حيث أحسن استقبال هؤلاء المهاجرين وشجع على استمرارهم في الجهاد ضد المحتل الفرنسي ، وطالب الدولة العثمانية بدعمهم ، معتبراً أن بقاء المهاجرين في طرابلس بمثابة عدم اعتراف الدولة العثمانية بفقدان تونس وبعزمها على استعادتها وتحريرها من الاحتلال الفرنسي . وقد برز هذا الموقف في التحقيق مع إبراهيم سراج الدين وصحبه الذين حركوا في تلك الفترة - وسنعرض لمحاكمهم بالتفصيل - وشرحه سراج حين أخذ على الدولة العثمانية عدة أمور كان منها « إرجاع التونسيين المهاجرين إلى مواطنهم » وقال فيه « كما أني لا أعلم ماذا أراد حكام طرابلس أن يكتب أهل الديانة في كتبهم والمؤرخون في كتبهم ، وماذا يقول أهل السياسة ، فهل أرادوا أن يقول أهل الديانة إن الله فرض الهجرة على التونسيين وأن حكام طرابلس منعوها ، وأرجعهم . أم هل أرادوا أن يقول المؤرخون إن التونسيين استقنوا بالدولة العلية في سنة كذا وأنها أرجعتهم بعد أن أساءت حالهم . وأنها لم تسع أدنى سعى في راحتهم ، وإلا لما رجعوا . أم أرادوا أن يقول السياسيون إن بعض رجال الدولة العلية الذين كانوا سبباً في رجوع التونسيين قد خفى عليهم أن بقاء التونسيين في طرابلس بمنزلة بقاء تونس تحت يدها ، وأن

رجوعهم بمنزلة ذهاب طرابلس والعياذ بالله . ومن المعلوم أن التونسيين لما كانوا مقيمين في طرابلس كانوا يعدون أنفسهم من أول عساكر الدولة العلية الصادقين ، وكانوا يتمنون أن تدرهم على السلاح الجديد بالكيفية التي تريحتها وترحبهم »^(٢) . كان هذا هو المنطق الشعبي تجاه هذه القضية ، وقد تردد بين الناس في طرابلس الحديث عن تفریط أحد راسم فيها . والحق أن الوالي كان منفذاً لسياسة استانبول تجاهها . وقد حلت عودة أكثر المهاجرين إلى ديارهم للمشكلة جزئياً ، ولكنها لم تحلها تماماً ، فظهر بقاياها في صورة مشكلة ثانية وثيقة الصلة بها بل هي في حقيقة الأمر امتداد لها . وهي مشكلة حوادث الحدود بين طرابلس وتونس التي شغلت أحد راسم والولة الذين جاءوا بعده . حيث استمرت حتى نهاية العهد العثماني الثاني في طرابلس الغرب .

مشكلة حوادث الحدود التونسية الطرابلسية

وصفت السالنامة هذه المشكلة بأنها « مسألة مهمة تعسر حلها جداً من القديم ، حتى صارت في حكم المحال » . وحددتها بأنها « قضية الهجوم والغارات التي كانت تقع بصورة دائمة على القبائل الطرابلسية من أشرار قبيلة « ورغمة » الكبيرة الكائنة على حدود طرابلس الغرب وتونس ، والتابعة لتونس ، وعدم امتناع قبائلنا أيضاً على إيصال الضرر بتلك القبيلة على طريق مقابلة العدوان بالعدوان » . وتمضى السالنامة في شرحها « وذلك لأن قبيلة ورغمة هذه ، وقبيلة النوايل والمحاميد من قبائل ولايتنا القريبة من الحدود هم عبارة عن عربان رحالة ونزلة ، يبدلون مكانهم تبعاً للطر والمرعى ، غير مختصين بمحل للإقامة كما هو معلوم ، ودأبهم من قديم الزمان التعدي والتجاوز سواء على بعضهم ، أو على سائر الأهالي من الطرفين بقتل النفوس وغصب الأموال والحيوانات

(١) أوراق عا كمة إبراهيم سراج وصحبه بدار المحفوظات وثيقة تقرير المستنطق

بحيث كان ذلك سبباً دائماً لتهديد أمن الحدود وإخلاها ، على أن التدابير المتخذة في بعض الأحيان من حكومتى الطرفين لم تجد نفعاً » . وتشير الساننامة إلى خطورة الموضوع بعد ما جد على تونس من احتلال فرنسي « فإن هذه المشكلة الجسيمة التي تفهم درجة أهميتها من تعريفها المجلد المحرر أعلاه ، والتي كادت تكتسب شكل مسألة سياسية ، خصوصاً في هذه السنين الأخيرة قد تبسر حلها وفصلها بتوفيق الله تعالى في ظل صاحب الخلافة الأعظم ، وبفضل المساعي الجليلة التي بذلها حضرة الوالي المشار إليه العارف بمهام الأمور وكيفية حسمها ، فقد تمت اتصالات بين طرابلس وتونس انتهت بالإتفاق على قرار يقضى « باسترداد الحيوانات وسائر الأشياء التي غصبها أهالي الطرفين اعتباراً من كانون الثاني لسنة ١٣٠٤ المالية » . وألقي القبض على بعض مشاهير أرباب الغايات من الجهتين مع من يحميمهم من المتفتذين وأدبوا منعاً لوقوع مثل تلك الغارات فيما بعد هذا . وقد انقطعت حوادث النهب والغارة في الحدود بفضل هذه الإجراءات المددوحة وتقرر فيها الأمن والسكون كما ينبغي ، وصار كل من أهالي الطرفين يذهب ويجيء لأجل التجارة وغير ذلك بدون أن يتعرض له أحد بأذى » (١) .

ذلك هو موضوع الحدود بين طرابلس وتونس كما شرحته الساننامة . وهو الموضوع الذي تصدى له أحمد راسم في مستهل ولايته والذي نال اهتماماً من الأوساط الدبلوماسية الأوربية في هي صراعها الاستعماري . وشرح الساننامة يوحى بأن المشكلة أمكن تسويتها اعتباراً من بداية سنة ١٣٠٤ المالية ، والحقيقة أن المشكلة لم تنته - كما تؤكد الوثائق - آنذاك ، كذلك فإن شرح الساننامة (الجريدة الرسمية) لم يطرح المشكلة بأبعادها ، وتبسط في طرحها فنه ورها نزاع بدوى بين قبائل متجاورة ، ولم يبين

(١) النائب للملح المذهب الجزء الثاني ص ٣٥؛

علاقة هذا النزاع وحوادث الحدود عامة بالإحتلال الفرنسي لتونس ، واكتفى بالإشارة إلى أن هذه المشكلة (كادت تكتسب في السنين الأخيرة شكل مسألة سياسية) . ومن هنا يحسن متابعة الموضوع في وثائق ذلك العهد .

لدينا نوعان من الوثائق في هذا الموضوع . فهناك الوثائق العثمانية وخاصة مراسلات الولاية حوله . وهناك الوثائق الإيطالية التي تضم ما كتبه قنصل إيطاليا في طرابلس على الخصوص وبقية قناصلها وسفرائها في عدة دول أوربية وفي استانبول ومصر حول هذا الموضوع .

ويتضح من هذه الوثائق أن المشكلة لم تكن دوماً كما صورت الساننامة - نزاعاً بين قبائل متجاورة تقيم على طرفي الحدود . وخاصة قبيلة « ورغمة » التونسية وقبيلتي النوايل والمحاميد الطرابلسية . فالوثائق العثمانية نفسها تبين أنه لم يكن ثمة نزاع بين هذه القبائل أحياناً ، بل كان هناك تحالف واتفاق . وأن النزاع كان بين هذه القبائل في صف وبين المحتل الفرنسي في تونس والجزائر في صف معاد . فقد بقي بعد عودة أكثر المهاجرين التونسيين إلى ديارهم مجموعة منهم تابعت إقامتها في الجهات القريبة من الولاية على مقربة من الحدود ، وعمدت إلى شن الغارات على تونس والجزائر المحتلتين . وعاونتها بعض القبائل الطرابلسية التي تعيش في تلك الجهات . وربما حدث أن استهدفت بعض هذه الغارات أموال قبائل عربية أخرى في تونس والجزائر لخلافات قديمة موجودة . وهناك وثيقة مؤرخة في ٢ شباط ١٣٠٢ و ١٤ فبراير ١٨٨٦ هي تقرير مقدم للوالي أحمد راسم عن « أحوال قبيلة أولاد يعقوب الظاهر من مهاجرى تونس » الذين « التجأوا إلى ناحية الجبل وأقاموا وراء فساطو في جهات نالوت ، وقاموا « مع رهط من الحوامد والريانة والخلايفة بالذهاب إلى دواخل تونس وإلى مقربة من الجزائر فغابوا قرابة ثلاثة شهور واغتصبوا مائة وخمسين بعيراً

وأربعة من العبيد ». ويفصل التقرير في علاقات هذه القبائل بديارها في تونس وبقبائل عربية أخرى مجاورة لها .

وقد كتب وإلى طرابلس تعليقاً على هذا التقرير بخطه أن « تكتب رسالة إلى متصرفية الجبل للتأكد بوجوب ترحيل قبيلة أولاد يعقوب هذه أيضاً إلى غير جهة من الولاية . »^(١) وتؤكد وثيقة ثانية مذهبنا إليه من أن النزاع كان بين القبائل العربية التونسية والطرابلسية في صف والمحتل الفرنسي في صف آخر . وهي عبارة عن (بيورلدى) إلى مشايخ وأعيان النوايل - القبيلة الطرابلسية - مؤرخ في ٢٥ شعبان ١٣٠٦ هـ و ١٣ نيسان ١٣٠٥ الموافق عام ١٨٨٩ ، يتضح من ثناياه أن جماعة من قبيلة ورنجمة - التونسية - أقاموا مع النوايل بعد هجرتهم ، وكانوا يشنون بالاشتراك معهم الغارات على الأراضي التونسية المحتلة . فكتب الوالى هذا البيورلدى إلى مشايخ النوايل يحذرهم من معاونة (ورنجمة) ويذكرهم بضرورة طاعة الدولة ويكلفهم بإبعاد ورنجمة عن منطقتهم « فعليه يكن منكم بقدر وصول بيورادينا هذا تكليف الوردغمين جميعاً بالرحيل من هناك ، فإن كان قصدكم المهاجرة صحيحاً والإقامة هنا دائماً فليقدموا إلى سرت بعيالهم وحيواناتهم جميعاً وسريعاً لأجل الوطن والإسكان . وإن ما كان قصدكم في المهاجرة فاطردوهم إلى جهة تونس عاجلاً ولا يبقوا منهم أحداً هناك) . ويحملهم البيورولدى المسؤولية وينذرهم^(٢) .

وهكذا اتجهت السياسة العثمانية في مشكلة حوادث الحدود إلى إزالة مسبباتها حرصاً على عدم الاحتكاك بفرنسا ، فبدت المواقف العثمانية متخذة ضعيفة . ولم تُجدد هذه السياسة نفعاً في حل المشكلة ، أمام مشاعر القبائل

المتحفزة وأمام أطماع الاحتلال الفرنسي التي لم تنته . فاستمرت حوادث الحدود هذه ، وكانت تشتد بين فترة وأخرى . ويتضح من الوثائق أنها اشتدت في نهاية عهد أحمد راسم وفي عهد خلفه نامق طوال عامي ١٨٩٦ و ١٨٩٧ م . فقد تحركت السلطات الفرنسية في تونس لأخذ مواقع جديدة لها في الجنوب والتسلل إلى ولاية طرابلس . وتطور الموقف الفرنسي من الدفاع إلى الهجوم . ويبدو أن السلطات الفرنسية استطاعت استيعاب بعض رجال القبائل التونسية في الجنوب ونظمهم في قوات الحدود ، ثم اتجهت إلى محاولة رسم خط الحدود بما يناسب مصلحتها كمحتلة لتونس .

وبأشرت فرنسا ببناء حصون على طول الحدود الطرابلسية تصلح قواعد إنطلاق للتوسع . وقد سبب هذا التحرك عدة حوادث خطيرة اشتمكت فيها قوات الحدود في تونس بالقبائل الطرابلسية وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى . وأثارت هذه الحوادث ضجة كبيرة في الأوساط الدبلوماسية الأوربية المتنافسة على الاستعمار ، وخاصة في الخارجية الإيطالية التي كان يهمها المحافظة على الأمر الراهن في طرابلس وكانت تتصرف وكأن طرابلس ستنبع لها لا محالة وبالتالي فهي غيرة عليها . ونلاحظ من الوثائق التي سنعرضها خلال حديثنا عن الأطماع الاستعمارية أن الموقف الفرنسي كان موزعاً بين الرغبة في التوسع والحشية من أن تؤدي حوادث الحدود إلى ما أسمته فرنسا « هياجاً إسلامياً » يهدد وجودها في تونس والجزائر . وما يلفت النظر في الموقف العثماني أن السلطات العثمانية لم تصد لهذه الاعتمادات حتى بمجرد موقف واضح إلى درجة أن قائمقام نائوت « الذى تعب من كثرة غزوات السباهى والوردجمة التي تبقى بدون عقاب قدم استقالته ورفض العودة إلى مقره » ، بعد أن مل من طلب دعم الوالى . كذلك فقد شكى الوالى إلى أصفياه أنه « طلب تعليقات من استانبول حول مشكلة الحدود فلم يحظ بشيء » . وبقيت قبائل الحدود

(١) دار المحفوظات بمجموعة الحاج عبد السلام ادهم أنظر الوثيقة كاملة بالمحق

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادهم أنظر الوثيقة كاملة بالمحق

نهاية القرن الثامن عشر والذي لعب دوراً كبيراً في حركة الكشف الأوربي لأفريقيا. كما برز أيضاً منافسه القنصل الفرنسي روسو .

وقد اهتمت السلطة المركزية العثمانية بهذا الموضوع ، وحاول عبد الحميد التصدي له . وكانت أولى خطوات هذا التصدي تحديد خصائص قنصل الدول الأجنبية القاطنين في الممالك السلطانية » وتعميمها ضمن نشرة على الولاية من قبل «خامتلو دولتورئيس الوكلاء» حتى لا يكون هناك سوء فهم يمكن القناصل من استغلاله . وتمت هذه الخطوة في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٨ وهي الفترة التي تولى فيها أحمد راسم . وقد نقل النائب في كتابه نص هذه النشرة عن جريدة الجوائب المؤرخة في السابع من المحرم سنة ١٢٩٩ والتي كان يصدرها في استانبول أحمد فارس الشدياق ، وكانت من الجرائد المقروءة في طرابلس^(١).

تبدأ النشرة بالإشارة إلى الحلل الذي نتج عن عدم تحديد ووضوح أصول التشريفات للقناصل فتقول « لا يخفى عليكم أنه لعدم وجود أصول تشريفات خاصة بكيفية المعاملة مع قناصل الدول القاطنين في السلطنة العثمانية جرت المعاملة على كفيات شتى ، وتجاوزت الحدود في كثير من الأحيان، فنشأ عن إجراء أمر تشريفاتي في بعض الأحيان قيل وقال وأحدث مسائل مرتبكة بدون الوصول إلى نتيجة ما، فن ثم لزم وقف هذا الأمر، ورأيت من المناسب أن أبلغكم بعض تعليمات مبنية على قاعدة عمومية يجب إلغاؤها بالنظر إلى علاقة مأموري الولايات مع قناصل الدول وسفرائها إذا سافروا إلى الولايات على سبيل السياحة » ثم تعرض النشرة لأصل وظيفة القنصل واختلافه عن وظيفة السفير ، فهي « للنظر في المصالح التجارية التي تتعلق ببلادهم (يعني القناصل) فلا يسوغ لهم إذا

تطالب بالسلاح للدفاع عن نفسها دون أن يستجاب لطلبها^(٢). وقد بقيت مشكلة الحدود هذه بدون حل حاسم حتى أبرمت اتفاقية خاصة بها بين الدولة العثمانية وفرنسا تم توقيعها في ١٩ / ٥ / ١٩١٠ بطرابلس الغرب . وسنعرض لها بالتفصيل في موضع آخر .

الحمد من نشاط القناصل الأوربيين والنشاط الأوربي المشبوه فيه

ومن الأمور التي تصدى لها أحد راسم النشاط الأوربي المشبوه الذي كان على رأسه قناصل لدول الأوربية في طرابلس ، والذي كان يدخل ضمنه نشاط الرحالة الأجانب وسياحاتهم في البلاد . فقد كان القناصل الأوربيون في الولايات العثمانية عامة قد غالوا في استغلال امتيازاتهم منتزعين فرصة ضيف الرجل المريض وتهمل الإدارة العثمانية . وكان لهم في طرابلس نفوذ تعاضم منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر في العهد القره مانلي ، وبلغ أوجهه في القرن التاسع عشر . وتضخم مع تعاضم نفوذهم البروتوكول والتقليد الخاص بتشريفاتهم ، وكانوا شديدي الحرص عليه . وقد نقلت مابل تود في كتابها « طرابلس الغامضة » نصاً من مخطوطة الصحائف اليومية لممثل بريطانيا بين عامي ١٧٦٨ و ١٧٧٢ م وجدت في مكتبة القنصلية البريطانية ، يكشف عن هذا التضخم ويبين طرافته . وما جاء فيه « يجب أن أهتم بأن أحيي بسبع طلاقات ، لأن هذا امتياز لي »^(٣) . وأصبح لبعض هؤلاء القناصل شأنًا عظيمًا في تسير شؤون الولاية ، ولعل من أبرزهم في تاريخ طرابلس (وارنجتون) القنصل البريطاني الذي استمر في مركزه ما يزيد عن أربعين سنة منذ

(١) مجموعة مراسلات الخارجية الإيطالية رسائل قنصل إيطاليا بطرابلس في ١٦ / ٤ / ٩٦

و ١٩ / ٤ / ٩٦

(٢) مابل تود ص ٧٨ من الترجمة العربية دار الفرجاني طرابلس ١٩٦٨

(١) على مصطفى المصراي الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية ص ١٠٠ ، الكتاب الثاني يناير ١٩٦٨ .

أن يحسبوا أنفسهم أن لهم صفة كصفة السفراء ، وعلى هذا فليس لهم حق في أن يطلبوا أن تجرى لهم أمور تشريفية تتعلق بكيفية استقبالهم وملاقاتهم . ثم تحدد الفثرة أصول التشريفات المتعارف عليها دولياً وتوضح « أنها مطابقة للأصول عليها في المادة الخامسة من النظامات التي قررها مؤتمر برلين في ٩ مايس ١٨١٥ »^(١).

كان هذا التحديد أمراً ضرورياً للحد من تصرفات القناصل التي تجاوزت حدود مهامهم وصفاتهم ومع ذلك فقد استمرت ظاهرة استغلال القناصل ضعف الرجل المريض تحركها أطماع دولهم وأساليب التحرش بالدولة العثمانية للضغط عليها . وقد نشبت أزمة بين الباب العالي وإيطاليا بسبب القنصل الإيطالي في طرابلس الغرب في السنوات الأولى من ولاية أحمد راسم . وتعطى تفاصيل أحداث هذه الأزمة فكرة عن سلوك قناصل الدول الأوروبية الطامعة واستغلال دولهم لأي خلاف ينشب بغية لإرباك الرجل المريض ، وتذكرنا بالأزمات المماثلة التي اصطفتها بعض الدول الأوروبية لإحتلال بعض ولايات الدولة العثمانية . وقد نقل لنا النائب عن جريدة الجوابب المؤرخة في ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ هـ هذه التفاصيل التي اهتمت بنشرها صحف إيطاليا وبريطانيا . وكانت الجريدة حريصة على إثبات وجهات النظر المختلفة في رواية أحداث الأزمة ، ويبدو أن عمل أحمد راسم للحد من تصرفات القناصل المشبوهة وتنفيذه تعليمات الباب العالي بهذا الشأن وتقيده بأصول التشريفات ، جلب عليه نقمة القناصل . كما يبدو أن قنصل إيطاليا الطامعة بطرابلس والتي جاهرت بأطماعها بعد احتلال فرنسا ، أراد أن يتحدى الوالي وفق أساليب التحرش الأوروبية .

وأصل الأزمة أن أحمد راسم أصدر أمراً أنه لا يسوغ لأحد من الأهالي أو الأجانب أن يتوجه إلى خارج المدينة مسلحاً إلا برخصة وإذن ، وذلك في نطاق ضبط أمور الأمن في الولاية . فكان أن تحدى القنصل الإيطالي الأمر وخرج للصيد مع خادمه حاملاً بندقية ، فاعترضه أحد الحفراء على باب المدينة . وقد سردت المصادر الإيطالية الرواية على هواها ، فكانت كما قالت الجوابب « وعلم من روايات استيفاني التلغرافية التي تتلقى اخبارها ورواياتها من وزارة رومية أن أصل المناقشة التي وقعت في طرابلس أن القنصل لما كان في القنص جرت مشاجرة بين خادمه الذي كان حاملاً سلاحه وبين أحد الطرابلسيين فأراد القنصل أن يتوسط بينهما للمصالحة ، وإذا بأحد الخصمين يضربه بالسوط . وتعقب الجوابب هذه الرواية بمرور رواية صحف لندن التي قالت إن قنصل إيطاليا ضرب أحد العساكر السلطانية بسوط . ثم تورد الجوابب الأحداث كما جاءت من طرابلس « وعلم أيضاً من المحررات التي وردت من الوالي إلى الباب العالي أن القنصل المذكور كان متوجهاً إلى القنص ومعه خادمه ، فلما أراد القنصل العبور من باب المدينة طلب منه الحفير أن يطلع على رخصة الصيد فأبى وقال له : إن قنصلاً مثلي لا يحتاج إلى رخصة . فقال له الحفير : لا يمكنني أن أميز القنصل من غيره إلا بالملبوس الرسمي ، فلا أعرفك الآن إلا صياداً ، وضابطي أمرني ألا أدع أحداً يتوجه إلى الصيد بدون رخصة . فن تم ضربه القنصل بسوط ، ولولا تدارك بعض الضباط لهذا الأمر لكان من الممكن أن رعا الناس يقتلون القنصل ولكن قدر المولى تبارك وتعالى أن تدارك بعض الضباط الأمر ومنع التعدي على القنصل . فتبين من هذا أن القنصل هو الذي تعدى على العسكري ، فإنه كان يلزمه ألا يتوجه إلى القنص بدون رخصة عملاً بالقواعد الجارية والأصول

المرعية في البلاد»^(١). وكانت هذه الحادثة سبباً في حدوث قطيعة بين الوالى وقنصل إيطاليا، ولم يلبث أن انتقل الموضوع إلى الدولتين. وتقول الجواب «إن جرنالات الآستانة روت أنه بعد ورود تلافير الوالى إلى الباب العالى في هذه القضية أرسل في الحال رقيماً إلى سفير الدولة العلية في رومية إشعاراً له بأن يطلب من دولة إيطاليا عزل القنصل المذكور، وأن ناظر خارجية الملك أجاب بأنه منتظر من القنصل تفصيل متعلقات هذه الواقعة» وبالمقابل طالبت الصحف الإيطالية أنه «لا بد للباب العالى أن يعطى دولة إيطاليا الترضية». وقد علقت الصحيفة العثمانية على هذه الروايات بما يدل على وعى بالأطباع الإيطالية فقالت «ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فلا يترك أن قنصل إيطاليا قد عمد إلى فتح باب المناقشات مع الوالى، بل الأحرى أن نقول مع الدولة العلية لغايات لا تخفى على من أمعن نظره في مطامع إيطاليا في طرابلس مما يعبر عنه أهل السياسة بامتداد منافعها التجارية في سواحل إفريقيا، كما أنها تسعى أيضاً في امتدادها في سواحل البحر الأحمر». ثم تحاول الصحيفة أن تغطي الواقع العثماني الهزليل في الولاية برعم وجود قوة عسكرية تزيد على ثلاثين ألف نفر من العساكر النظامية يجعلوا مطامع إيطاليا هناك طائشة عن الغرض.

واشتدت هذه الأزمة خلال الشهر النالى وامتلاّت بأخبارها صحف أوروبا حين نشب خلاف ثان بين الوالى والقنصل الإيطالى نجم عن حادثة صغيرة كبرها قنصل إيطاليا ومقادها «أن القنصل اتخذ وليمة عمومية تحت حمايته حضرها كثير من الأهالى المسلمين وغيرهم (ويبدو أنها كانت تظاهرة منه لإثبات وجوده) فأساء أحد المدعوين - المغفلين على حد

تعبير الجواب - السيرة في كونه هرج في الملمى مما اقتضى مداخلة قواس القنصل، فأدركه القواس وضربه.. غير أن القنصل رأى أن هذا الأمر أهان شأنه المسكان الذى اتخذ فيه الوليمة، واتخذة مشكلة طلب فيها شرفه وناموسه وأصر على ذلك...، وقد رفع الموضوع إلى الدولتين وأرسل الباب العالى أمراً إلى الوالى بتفويض المسألة إلى المحكمة الابتدائية وفق اتفاق بين ناظر الخارجية بالباب العالى مع السكونت كورتى سفير إيطاليا باستانبول.

وقد نعت الجواب على «بعض رعاى الناس الذين يجهلون السياسة.. ويوقمون الباب العالى في ارتباطات دولية.. ومن ترصد قناصل بعض الدول الأجنبية لأن يحدوثا في ولايات السلطنة السنية ما يحجف بالراحة والسلامة». وطالبت أرباب الأمر والنهى في الولاية بالمزيد من الحزم والعزم في منع طرق الخلل وتكدير الخواطر. كما طالبت أعيان المدينة «أن يرشدوا رعاى الناس إلى ما فيه نفع وخير للبلاد في الحال والاستقبال»^(٢) وقد سبق أن أشرنا إلى تحدى القنصل الفرنسى مشاعر الطرابلسيين وإقامته حفل استقبال كبير بعد احتلال فرنسا لتونس في العيد القومى الفرنسى أحيته فرقة موسيقية. ويبدو أن أحمد رسم نجح إلى حد ليس بالقليل في الحسد من عنجبية القناصل الأوربيين ومراقبة نشاطهم المشبوه. ونلس في مراسلات قنصل إيطاليا (موتا) إلى الخارجية الإيطالية تحسبه من إثارة غضب الوالى.

كذلك تابع أحمد راسم تطبيق قرار صدر عام ١٨٨٠ م يقضى بمنع جميع الأوربيين من السفر في دواخل البلاد، وقد أشار إلى هذا القرار الرحالة الانجليزى (كوبر) في مقدمة كتابه، وأوضح أنه حين زار طرابلس في ربيع عام ١٨٩٥ م كان القرار نافذاً. ولكنه استطاع مع ذلك القيام برحلتين

(١) النائب المنهل الجزء الثانى من ١٤ - ١٨

(١) النائب المنهل الجزء الثانى من ١٥ و ١٤

عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٦ م فى مناطق غريان وترهونه ومسلاته ، بما يشير الى وجود خلل واضح فى الإدارة العثمانية^(١) . ويبدو أنه سبق اتخاذ هذا القرار صدور أمر من والى طرابلس عام ١٨٧٧ م بمنع إقامة الرعايا البريطانيين من الإقامة خارج المدينة وحتى فى القرى المجاورة لها . وهناك وثيقة تتضمن مذكرة من السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية العثمانية تطلب إبطال هذا الأمر^(٢).

رفع الحماية الأجنبية عن الرعايا العثمانيين

وكان فى مقدمة المواضيع التى تصدى لها أحمد راسم فى هذا المجال موضوع الحماية الأجنبية بالنسبة للرعايا العثمانيين ، ويشرح النائب نقلا عن السانامة هذا الموضوع بقوله « كان بعض أشخاص مسلمين وموسويين من أهالى مركز الولاية قد راجعوا قناصل الدولة الأجنبية الموجودين هنا ، وتمكنوا — كيفما كان — من قيد أنفسهم فى سجلات الحماية الأجنبية ، وذلك إما بسبب ما كانوا يقاسونه إذ ذاك من التضييق والأذى من بعض المتنفذين والمأمورين المحليين ، ولما بمقتضى أغراضهم ومنافعهم الذاتية ، واعتادوا على تنفيذ أغراضهم بهذه الصفة كلها حدث لهم مصلحة لدى الحكومة أو المحاكم ، حتى أن البعض كان قد أحرز رسمياً صفة تابعة الدولة المدعى حمايتها ، فأول ما عني به حضرة الوالى المشار إليه بصورة مخصوصة هو هذا الأمر المهم^(١) .

والحق أن هذا الموضوع كان أمراً مهماً ، وقد بدا فى تلك الفترة ظاهرة متفشية فى ولايات الدولة العثمانية وفى مدنها التجارية على الخصوص . وذلك بعد أن غدت الامتيازات الأجنبية تعنى وضعاً خاصاً يمتاز الرعايا الأجانب فى القرن التاسع عشر . ولم تعد كلفة الامتيازات تعنى ما كان مقصوداً منها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر حين بدأ السلطان سليمان القانونى بمنحها لتنظيم أوضاع الرعايا الأجانب (المستأمنين) فى الدولة . وقد ازداد عدد هؤلاء المستأمنين خلال القرن التاسع عشر وشكلوا جاليات عديدة تمثل دولاً أوروبية مختلفة « لكل منها قنصلها الذى تتمتع بمثل ما تتمتع به رئيس الطائفة فى دار الإسلام »^(٢) . واستغل هؤلاء ضعف الدولة العثمانية فقتسلوا

(١) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٢

(٢) غرابية ص ١٣٠ سورية فى القرن التاسع عشر

(١) كوبر Cowper ص ٩ من الترجمة العربية

(٢) دار الحفوفات أنظر الوثيقة فى الملحق

من خلال الامتيازات وخاصة في مجال التجارة ، فكانوا يحاكون أمام قناصلهم ويعفون من دفع كثير من الضرائب. ويوضح لنا شرح الساننامة أن بعض الرعاية العثمانية وأكثرهم من اليهود اندفعوا للحصول على رعية دولة أوربية بسبب سوء الإدارة العثمانية التي كانت تتيح لبعض الموظفين التحكم بالناس وتمكنهم من التضييق وإيذاء المواطنين ، وطمعاً بأوضاع الممتاز للرعايا الأجانب. ويبدو أن مثل هذه الحوادث تكررت في ذلك الوقت. ويبدو أن الرعايا المسلمين الذين اتجهوا هذا الاتجاه - ولم يكونوا كثيرة - كانوا من التجار الذين عانوا من منافسة المستأمنين غير المتكافئة ومن تسلط الموظفين العثمانيين فوقوا في حيائل القناصل. وقد أشار الرحالة ادوارد راي الذي زار طرابلس قبل ولاية أحمد راسم بعدة سنوات إلى ظاهرة الحماية الأجنبية فقال « تبنى قنصل أميركا في طرابلس ممارسة حماية المواطنين. وبديهي أن أي مغربي يكون مسروراً من التهرب من دفع بعض الضرائب وأن ينال فوائد حماية حكومة أجنبية قوية. وكما أخبرني مستر وارنجتون - نائب القنصل الإنجليزي - أن القنصل الإنجليزي لو فتح هذا الباب فإنه سيتلقى ثلاثة آلاف طلب في الأسبوع ». ثم بحث راي حكومته بطريق غير مباشر لتحقيق مزيد من التغلغل في طرابلس ^(١).

وواضح أن القناصل الأوربيين وجدوا في هؤلاء صيداً ثميناً لتثبيت نفوذ دولهم وتجنيد أعوان لهم. ويمكننا أن نلاحظ تفشي هذه الظاهرة في طرابلس حين نراجع ملفات الرسائل القنصلية، وخاصة رسائل القنصلية الإنجليزية التي لم تلبث أن فتحت باب الحماية حيث نجد أن أكثر هذه الرسائل تتعلق بشكاوى يرفعها أشخاص يحملون الجنسية الإنجليزية على

أشخاص من التبعية العثمانية. ونجد أن أكثر هؤلاء الإنجليز من اليهود الذين تجنسوا بالجنسية الإنجليزية. وفيهم عائلات أريب وركاح وغيرها من أسماء عائلات بقيت موجودة في طرابلس إلى أيام قريية. وقد كانت هذه الشكاوى تكتب غالباً بلغة أوربية وترجم أحياناً إلى العربية أو التركية ^(٢).

بذل أحمد راسم جهده للحد من هذه الظاهرة ، وتقول الساننامة « فكانت نتيجة همته العلية أن توفق لإخراج هؤلاء المحميين من الحماية واحداً فواحداً ، وأرجعهم لتبعيةهم الأصلية ، وذلك بأساليب سياسية حكيمة. وعلى هذه الصورة قد صار كل فرد في الولاية مثلاً بنبعة العدالة ، وآمنوا على كل حقوقه في ظل عدالة الحضرة السلطانية وبهمة الوالي المشار إليه الجلية ، ولم يخطر بعد ذلك ببال أحد أن يفكر في هذه الحماية الأجنبية ^(٣) ». ولا توضح الساننامة الأساليب الحكيمة التي لجأ إليها أحمد راسم ، وكذلك لم يفعل النائب. ولكننا نفهم من حديث الأخوين ناجي ونوري أنه ضيق على هؤلاء المحميين فخذ من إقبال الأهالي على أخذ الجنسيات الأجنبية ^(٤). ونجد في إحدى رسائل أحمد راسم إلى المجلس البلدي أنه يستفسر عن الأجانب وأصولهم. ويتبين من الرسالة أنه لاحق عدداً من اليهود والطرابلسيين الذين تجنسوا بجنسيات أجنبية. كما نجد في ملف محاكمة إبراهيم سراج وصحبه مثلاً على هذا التضييق، حيث يرد ذكر مواطن طرابلسي لاحقته السلطات لشبهة محاولته التوسط لبيع أراضي للإيطاليين في منطقة سرت، فيصفه التحقيق « بأنه من تبعة الدولة العلية وكان سابقاً يدعى الحماية الفرنسية ». ويركيه أحد وجهاء

(١) دار المحفوظات اوراق القنصليات (٢) النائب المنهل الجزء الثاني ص ٢

(٣) ناجي ص ١٥٨

طرابلس مبنياً أنه تاب عن ذلك « وهو الآن ومنذ ثمانى سنوات غير محتفى بالأجانب ولا مداخلا ولا مراسلا » (١).

وقد لاحق أحمد راسم محاولات بيع أراضى الولاية للأجانب وخاصة الإيطاليين ، وحال - كما يقول ناجى - دون بيع أهالى مرادة للإيطاليين بواسطة بعض المواطنين (٢). ويتضح من الوثائق أنه أصدر « أمراً عمومياً فى التفتيش على من تداخل فى واسطة بيع الأراضى السكانية بنواحي سرت المعروفة بمرادة للأجانب ». وكانت الحكومة قد أخذت الخبر عن أحد المواطنين « أنه تداخل فى ترويج بيع أراضى جسيمة فى نقطة مهمة حاوية لثلاثة قرى ذات نخل كثير معروفة بمرادة والجنة والمحريقة وكانت بقضاء سرت التابعة لسنجق الخنس إلى الأجانب ، فصدرت الأوامر فى التجزى عليه ». وكان الواسطة مع الإيطاليين مواطن آخر كان يعمل « أجيئة إيطاليا بطرابلس » وممسارفى وكالة وابورات إيطالية. وقد جرى الحديث مع أهل قبيلة الزاوية أثناء نزولهم عند أحد وجهاء مصراته. وكان من أهداف هذه الصفقة عند الإيطاليين أن يحتلوا موقعاً متوسطاً فى البلاد ويكونوا على مقربة من « الجفاليين موضع الأخوان السنوسية التى تبعد خمسة عشر يوماً منها ». وقد تنبه للأمر شيخ الزاوية السنوسية فى طرابلس أبو القاسم العيساوى ووقعت فى يده رسالة حول الموضوع يصف فيها المواطن الوسيط الأرض للممسار ، فكلف الشيخ من مخبر الوالى بالأمر. وأخذ الرسالة إلى « حضرة الأستاذ الشيخ المهدي » وقال أنه سيعرضها عليه « وهو ينهى العربان عن البيع حيث أنهم سالكون طريقته الشاذلية ويسمعون كلامه » ، وسارع الشيخ بالسفر إلى بنغازى

(١) دار المحفوظات أوراق قضية سراج

(٢) ناجى ص ١٥٨

ومنها إلى الجغبوب (٣). وهكذا يتضح لنا أن إخوة الطرق الصوفية لعبوا دوراً فى منع بيع الأراضى للأجانب ، وتميزوا بوعى لأهداف الإيطاليين شراء الأراضى.

محاولات الإصلاح العثمانية فى عهد أحمد راسم

حاول أحمد راسم - كما سبق أن أشرنا - القيام بعدد من الإصلاحات فى طرابلس تنفيذاً لسياسة عبد الحميد فى هذا المجال. وكان بعضها متصلاً بالضبط الأوربى وبعضها الآخر نابعاً من حاجة البلاد الماسة للإصلاح ، ويمكن أن تنتج هذه الإصلاحات فى مجالات منع تجارة الرقيق والتجهيزات العسكرية والمعارف والصحة والزراعة والمواصلات والإدارة .

* منع تجارة الرقيق وعق الإقواء فى طرابلس

تحدث صاحب المنهل العذب عن قرار الدولة بمنع التجارة بالرقيق نقلاً عن السانامة ، ومحاولة أحمد راسم تطبيق هذا القرار بعناية فقال « بعد أن كان يجلب الرقيق من البلاد السودانية إلى هذه الجهات قديماً بواسطة القوافل التجارية ، ويبيع ، قد عني حضرة الوالى غاية العناية بالإجراءات الشديدة التى وضعها الدولة على تجارة هؤلاء الأسارى الزنجيين ، وأعطى أوامر مشددة لمن يلزم فلم يعد يجلب منذ مدة شئ من أولئك الأسارى وإن تجاسر أحد على جلب أسير أو أسيرين بصورة خفية فتجرى فى حقه المجازاة النظامية » (٤).

كان منع تجارة الرقيق هو الشق الأول من قرار الدولة . والحديث الذى أوردناه للنائب يبين كيف كان الرقيق يجلب من إفريقيا الوسطى - التى عرفت آنذاك باسم السودان- إلى طرابلس حيث كان يباع فيها لتجار من مختلف الجهات . والحق أن تجارة الرقيق هذه كانت جزءاً من تجارة

(١) دار المحفوظات أوراق قضية سراج

(٢) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٥

القوافل التي لعبت فيها طرابلس دوراً كبيراً عبر التاريخ - وستتناولها بالحدث التفصيلي في مكان لاحق - وكانت مدينة طرابلس مركزاً رئيسياً لتجارة القوافل باعتبارها نقطة الالتقاء طرق عدة كانت تسلكها هذه التجارة، وقد أطلق عليها الأوروبيون - كما سبق أن ذكرنا - اسم «بوابة إفريقيا»^(١). وكانت تجارة الرقيق قد أخذت بالاختفاء في أوروبا عقب صدور قرار بتحريمها في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥. واتخذت الدولة الأوربية موضوع تحريم تجارة الرقيق ذريعة للضغط على الدولة العثمانية التي كانت في بعض ولاياتها بقايا من هذه التجارة. واهتمت الدولة بمجاعة الدول الأوربية في الالتزام بقرار التحريم تخلصاً من ضغط بعض هذه الدول وكسباً لود البعض الآخر فعممت على ولاياتها بتحريم الرق، وعممت الولايات على جميع موظفي الدولة لتنفيذ القرار الذي صدر في بداية عام ١٢٨٠هـ^(٢). ولعل من أبرز صور الضغط الأوربي ما مارسه إيطاليا الطامعة بطرابلس لتمهيد لغزوها وتضع الاعذار والتبريرات لاحتلال طرابلس. فقد كان من الحجج التي دأبت إيطاليا على ترديدها أن طرابلس فيها تجارة الرقيق. وما قاله «جوليتي» رئيس الوزارة الإيطالية الذي تزعم فكرة استعمار إيطاليا لطرابلس في هذا المجال «لا تزال أحوال الخلف تسير على ليبيا بصورة غريبة، ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر أن في بنغازي لا تزال تمارس تجارة العبيد الذين يختطفون بالقوة من أواسط أفريقيا ويباعون بعد ذلك في أسواقها. ومن المستحيل السكوت على بقاء وصمة كهذه على أبواب أوروبا». وكان هذا القول عهداً لحملة إعلانية دبرها (جوليتي) عام

(١) يراجع الفصل الهام الذي كتبه مصطفى بيبو «ليبيا وتجارة القوافل» ص ١٢٦ من كتاب دراسات في التاريخ اللبني وراجع أيضاً حاضرم العام الإسلامي وتلخيص أرسلان الكتاب «الإسلام والصيرانية إفريقيا» وتعليقه عليه. Bovill, The Golden Trade of the Moors.

(٢) هناك رسالة من قائمم غدامس بتاريخ ١٩ صفر ١٢٨٠ إلى الوالي تقول «دواكلو افندم حضر نلري تشرفنا واستبشمر نابورود امركم العام المطلاع مضمون عليا مادة الاساوى ان تماطى التجارة فيها ممنوع منعا كليا بموجب تطلق ارادة سنية - و امرهم عبدكم باشاعة ذلك. والذي يوجد عنده امرى يعاقب اول الامر بمحس سنتين ثم مدة مديدة وقد قرأت على المجلس».

١٩٠٥ على صفحات الصحف الإيطالية تمهيداً للغزو^(١). وهكذا حرصت الدولة العثمانية بعد فقدانها تونس على تطبيق قرار تحريم تجارة العبيد في طرابلس، وتولى أحمد راسم حال قدومه الإشراف على تطبيق القرار بنفسه ومنع جلب الرقيق. وترينار رسالة بعث بها إلى قائمم غريان بتاريخ^(٢) ١٢ جمادى الأولى ١٣١١ هـ مدى تشدده في منع جلب الرقيق، فقد جاء في الرسالة «بلغنا أنه يحجب خفية مع قوافل السودان بعض الرقيق الزنجي من السودان ويبيع أحاداً وأزواجاً داخل الولاية، فإذا حدث هذا الأمر يكون مخالفاً للأمر الفطمي بالمنع وموجب للمسؤولية الشديدة ضد موظفي الدولة الذين يغمضون العين ويتساحون مثقال ذرة واحدة في هذا الصدد». وهو يشير فيها إلى تواصيه المذكورة المكررة ويطلب بتوقيع العقوبات على المخالفين «والاعتناء وبذل الهمة لاستكمال أسباب المحافظة التامة على هذا المنع من كل يد».

وكان الشق الثاني من قرار الدولة عتق جميع الأرقاء الموجودين في طرابلس ممن جاءوا قبل صدور قرار المنع، وتدبير أمورهم. وقد لحقت السالمة هذا الإجراء بقولها «أما الأسراء الزنجيون المحبسون والمبيعون قبلاً فيعتقون حالاً إذا راجعوا الحكومة، وتعطى لهم أوراق العتاق، كما أن الإناث منهم يوضعن عقب عتقهن في بيت مخصص لهن من البلدية ويطعمن منها ويقمن هناك على صورة الضيافة بقصد وقايتن من السفالات والحالات غير المرضية إلى أن يزوجن لطالبن، أو يعطين لمن أراد بصفة خادمات بالأجرة الشهرية. وقد استكملت أسباب معيشتهن وراحتن على هذه الصورة»^(٣). ولا حظ اهتمام الولاية بمعالجة أوضاع هؤلاء الذين

(١) خليفة المنتصر ليبيا قبل الحنة وبعدها. عن مذكرات جوليتي ص ٤٤ وبيبو ص ١٩١ Cumming. p. 33.

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادم النصر الكامل في ملحق الوثائق

(٣) النائب المنهل الجزء الثاني ص ٥

شملهم قرار العتق بما يتفق مع متطلبات العيش الكريم. كما نلاحظ أن السالنامة وصفت الرقيق بأنهم أسارى زنوج تأكيداً لعدم شرعية استرقاقهم الذي كان مغالفاً في الروح والنص للشرعية الإسلامية. ويتضح من بعض الرسائل أن استانبول طلبت عدداً من الزنوج للخدمة في الحرس الملكي فتم إرسالهم^(١). وقد تابع أحمد راسم تطبيق قرار العتق، كما تابعه القناصل الأوروبيون من وجهة نظرم، واتخذوا هذا الموضوع ذريعة للتدخل إن سنحت لهم فرصة التدخل. ويبدو أن هذه الفرصة كانت تسنح لأن التطبيق لم يكن محكماً تماماً. فنجد من أمثلة ذلك رسالة من القنصل الأميركي لأحمد راسم في بداية توليه موضوعها أن أمة «عبدة» اسمها عايشة كانت ملكاً لأحد الطرابلسيين ثم تحررت ودفعت عن الضريبة ولكنها بعد ذلك لوحقت وحكمت المحكمة بعبوديتها وضربت بشدة من قبل سيدها وشيخ المحلة، «فدخل أصدقاؤها لدى لاتدخل... وأنا باسم الإنسانية والعدالة أعرض الحقائق السابقة لتتخذوا اللازم»^(٢). ونجد في تقرير كتبه متصرف الجنس سنة ١٣٠٢ هـ ما يوضح أن القناصل استغلوا حق العتق فكانوا يدعون الأرقاء إلى الذهاب إليهم. ويقول المتصرف «إنه لا يجوز أن يذهب العبيد إلى القناصل لأن الدولة تستطيع أن تحررهم»^(٣).

وقد حفز هذا الضغط الأوربي أحمد راسم على التشدد في تطبيق قرار التحريم، ولاحقه في مختلف أنحاء الولاية. ونجد ما يؤكد هذا في

(١) دار المحفوظات بمجموعة إدم رسالة بتاريخ ذي القعدة ١٣٩٩ هـ تفيد أن منصور باشا قداده من زليتن بعث ٤٤ زنجياً، كما بعث متصرف الجنس ١٥ زنجياً من متناهي الأعضاء ليتلقوا العرف بخدمة الدولة العلية. وشككا متصرف الزاوية من رفضهم.

(٢) أوراق القناصل دار المحفوظات انظر الملحق

(٣) أوراق تجارة العبيد دار المحفوظات

رسالة بعث بها أحمد راسم إلى قضاء غريان بتاريخ ٢٧ شوال ١٣٠٤ هـ تشير إلى تبليغ الجميع بتحريم الرق وتنذر المأمورين الذين يتساهلون في تطبيق الأمر بالتدخل أن الدولة لن تتردد في معاقبتهم. وتشير إلى أنه جرى اتصال مع قائمقام فزان حول هذا الموضوع. وتطالب الرسالة جميع المأمورين بأنه إن وجد رقيق في مناطقهم فيجب إرسالهم ليتسلموا أوراق العتق من الولاية^(١).

وقد نجح أحمد راسم في منع هذه التجارة إلى حد بعيد وسجل في رسالة بعث بها إلى وزارة الداخلية بتاريخ ٦ شعبان ١٣٠٦ هـ أنه منذ ٣٠ مارس ١٢٨٩ هـ وهو تاريخ الرسالة الواردة بشأن المحافظة على منع الاتجار بالرقيق حتى تاريخ رسالته بلغ عدد من عتق ١٤٢٠ شخصاً. وإن استمرت بقايا تجارة الرقيق قائمة في شكل مخالفات فردية كانت تتم بصورة سرية حتى نهاية العهد العثماني الثاني. واستمرت تشدد الولاية الذي كان يتزايد كلما اشتدت الدعاية الإيطالية ضد طرابلس. ونجد بين الوثائق رسالة من متصرف الجبل وأعضاء مجلس التصرفية إلى الولاية في سنة ١٣٢٥ - قبل الاحتلال الإيطالي بسنتين - تؤكد عدم وجود تجارة الرقيق بالجبل بالمره «حيث لا يوجد أي عبد». وهذه مرة تطبيقات القانون قبل عمدة سنوات^(٢).

* التجهيزات العسكرية

تابع أحمد راسم حال توليه الجهود التي بذلت في عهد سلفه لتحسين الولاية ضد الخطر الأوربي، استجابة للإلحاح الشعبي. وعاونوه في هذا المجال الفريق زكي باشا الذي عينه الباب العالي «قنطانا على العساكر

(١) أوراق تجارة العبيد دار المحفوظات انظر نس الوثيقة السكامل بالملحق

(٢) أوراق تجارة الرقيق دار المحفوظات

السلطانية» خلفاً للفريق وصفى باشا الذى عزل فى أواخر عام ١٨٨١م^(١). وقد اتجهت جهودهما إلى تدريب الأهالى على السلاح وإنشاء استحکامات للدفاع.

وبعدئنا النائب عن هذه الاستحکامات فينقل عن جريدة الجواب المؤرخة ٢٧ من رجب سنة ١٢٩٩هـ ما نصه : ذكر فى جريدة طرابلس الغرب ما نصه : من مقتضى القرار العالى إنشاء استحکامات فى نقاط مناسبة ، سواء بداخل البلد أو خارجها أو فى السواحل . وقد انشئت وأكملت إلى حد الآن استحکامات فى بعض المواقع من تلك النقاط متينة للغاية على موجب فن الحرب ، صالحة لكل نوع من المقاومات والمدافعات ووضع فى كل منها ما يلزم من مدافع كروب من الطراز الجديد .^(٢) ويمكن أن نلاحظ فى خبر جريدة الولاية الرسمية الحرص على إضفاء العظمة والاتقان على ماتم . وما يلفت النظر فى خبر الجريدة أنه تحدث عن تجاوب الأهالى مع هذا العمل واندفاعهم للمساهمة فيه . فقد مضى الخبر يقول : وإن أكثر ذوى الحمية من الأهالى يذهبون كل يوم على طريقة المناوبة لحل الاستحکام الكبير الذى بدى بإنشائه قبل هذا فى المنطقة الحاكمة السماء برج التراب السكينة داخل السور ، ويعاونون العساكر السلطانية فعلاً فى عمليات البناء للإسراع بإتمام ذلك الاستحکام . وإن إخواننا الكريدين الساكين فى طرابلس عاونوا أيضاً فى إنشاء الاستحکام المذكور باهتمام وغيره^(٣) . ثم تعلق الجريدة بمعبرة عن تقدير هذا الإحساس الوطنى لدى الناس واحترامه . ويعلق السيد الطاهر الزاوى الذى حقق «المنهل العذب» على ما أورده النائب نقلاً عن الجواب

بقوله « يحاول المؤلف رحمه الله أن يتحدث عن معاونة الأهالى للحكومة بدافع من حبهم لمعاونتها . والحقيقة أن هذه الأعمال كلها كانت فى زمن السخرة التى تسبب فيها الحكومة لنفسها تسخير الأهالى وحيواناتهم فى أعمال النقل وجميع أعمالها الأخرى بدون أجر » . وبفسر حديث النائب بأنه « أضر لمجارة الزمن الذى كان يعيش فيه . وقد أدرنا بعض هذا الزمن ورأينا كيف يجمع الأتراك الإبل بالقوة ويكلفون أهلها بالذهاب معها بدون أجر^(١) . ومع أننا نقدر أهمية رأى الزاوى باعتباره من أدر كوا نهاية العهد العثمانى الثانى ، واهتم بتاريخ جانب منه فى مقدمته لسكتابه (جهاد الأبطال) ونفق معه فى أن النائب اضطر إلى بعض المجازة فيما كتبه عن العهد الحميدى خاصة إلا إننا نميل إلى تصديق ما نقلته جريدة طرابلس الغرب عن معاونة الأهالى للحكومة فى تلك الفترة لتحسين البلاد بدافع من أنفسهم وليس بالسخرة . وقد اعتمدنا فى تكوين وجهة نظرنا هذه على تتبع الجور العام الذى ساد البلاد آنذاك ، والذى شرحناه فى حديثنا عن صدق احتلال تونس ومصر فى طرابلس . فأهالى طرابلس هم الذين طالبوا الحكومة بتحسين الولاية وتدريبهم على حمل السلاح . فمن الطبيعى أن يتجاوبوا مع استجابة الحكومة لمطالبهم ويندفعوا لمعاونتها فى تحسين بلادهم . ويؤكد وجهة نظرنا هذه ماورد فى وثائق محاكمة سراج ورفاقه من حديث أولئك الشباب عن ضرورة تحسين البلاد ومساهمة الأهالى فى هذا المجال . وربما صدق رأى الزاوى إلى حد ما بالنسبة إلى فترة تلت سقناؤها بالحديث ، ولكنه لا يصدق - فى رأينا - على بداية عهد أحمد راسم التى اعتقت احتلال الأجانب لكل من تونس ومصر . وهناك رسالة من أحمد راسم بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٣٠٣ إلى وزارة الحرية يقول فيها إن تطوع الأهالى لإصلاح القلعة أدى إلى تخفيض نفقات الإصلاح^(٢) .

(١) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٧ .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة أدهم .

(١) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٥

(٢) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٦

(٣) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٦

ويتضح من حديث النائب أن نشاط الوالى أحد راسم كان عظيماً في إنشاء الاستحكامات في بداية عهده فهو يتحدث عن عدة قلاع تم إنشاؤها خلال العامين الأولين من ولايته. وكان أولها برج التراب الذى يقع من جهة الغرب الجنوبى . وقد نقل النائب عن جريدة طرابلس الغرب المؤرخة ٣٠ شعبان ١٢٩٩ هـ في وصفه أنه « مرتفع على ساحل البحر بخمسين أو ستين متراً تقريباً وحفاً إنه لنقطة محكمة بنظر فن الحرب . . وكان إنشاؤه على ثلاث طبقات في غاية المتانة والرصانة ، ووضعت المدافع اللازمة من مدافع كروب القلاعية الجسيمة في الجنتين اليمنى واليسرى ، وجهاز اطرافه بغير هامن المدافع الجديدة » . ويذكر أنه كان في ذلك التاريخ قرب تمام إنشائه وتجهيزه بسعى وغيره العساكر السلطانية وبانضمام معاونه الأهالى فعلاً^(١) . أما القلاع الأخرى التى تم إنشاؤها فهي استحكام العونية أو حامدية طابية سى ، واستحكام برج فراره أو احملى طابية سى ، واستحكام المصرى أو مصر لى طابية سى ، واستحكام سيدى منصور أو كومندان طابية سى ، واستحكام قرقارش أو سلطانية طابية سى ، واستحكام قرقارش الثانى أو نصر تبة طابية سى . وجميعها بوشرى بنائها سنة ١٢٩٩ هـ وتم تجهيزها سنة ١٣٠٠ هـ^(٢) . وقد شاهد الرحالة الإنجليزى « كوبر » هذه القلاع خلال زيارته لطرابلس في نهاية عهد أحد راسم وذكر أن الأتراك يسيطرون على طرابلس بها . ولديهم ثلاث قلاع في المدينة وأربع قلاع أخرى خارجها . ومن هذه الأربعة الأخيرة اثنتان على الطريق إلى قرقارش ، وثالثة تقع قرب شارع الشط وتحمى الجانب الغربى من الخليج وتعرف باسم برج الانجليز . وتقع الرابعة إلى الجنوب الشرقى من المدينة على حافة الصحراء وهى تغطى الطريق إلى مسلاته وترهونه . وجميعها قلاع

(١) النائب المنهل الجزء الثانى ص ٨ .

(٢) النائب المنهل الجزء الثانى ص ١٠٩ .

ترابية في كل منها حوالى ثلاثة مدافع » . كما تحدث كوبر عن وجود معسكرات واسعة وبخيم في خارج المدينة وقال « إن جميع قطع الأراضى غير المبينة بالقرب من السور داخل المدينة مستخدمة كمخازن عسكرية »^(١) .

وعملت الدولة العثمانية في عهد أحد راسم على تعزيز وجودها العسكرى في الولاية . وكانت ولاية طرابلس الغرب تمثل دائرة عسكرية فرعية « تضم بعض الفيالق ، دون أن تكون جيشاً كاملاً » .

وكانت طرابلس كما أورد عزيز ساح « مركز فرقة نظامية يبعث جنودها من الأساتنة وهى الفرقة الخامسة عشرة النظامية ، ومعها الكتيبة الخامسة عشرة للقناصة ولوائى المشاة التاسع والثلاثين وآلايات فرسان ومدفعية »^(٢) .

وقد زادت الدولة عدد قواتها في طرابلس في تلك الفترة ، حتى أصبحت تضم في نهاية القرن التاسع عشر لوائى مشاة وأربع آلايات وآلايات خيالة وطابور قناصة^(٣) . وكانت هذه القوات موزعة في أنحاء الولاية . وتوضح لنا رسالة بعث بها المشير عارف باشا قائد فرقة العساكر إلى استانبول حول عدد العساكر في طرابلس عام ١٣١٤ هـ و ١٨٩٦ م . أنه « كان يوجد طابور من المشاة ثلاثون من الفرسان وخمسة عشر مدفعية في مواقع الزاوية والمعجلات وفروة وسيدى على ومركزهم في زوارة . ويوجد طابورين من المشاة مركز احدهما في يفرن والثاني في الزنتان موزعين على فساطو ومزدة والريانة وغدامس ونالوت مع عشرين من الفرسان . كما يوجد طابور من المشاة وعشرون من الفرسان وخمسة عشر مدفعية في زليطن ومسلاته ومصراته وسرت ومركزهم الجنس . ويوجد ثلاث سرايا

(١) صفحة ٤٠ من الترجمة Cowper p.39

(٢) عزيز سامح الأتراك العثمانية في أفريقيا الشمالية ترجمة عبدالسلام أدهم ص ٢٠٨

(٣) المصرى ص ٢٥٠

من المشاة في ترهونه وورفله وغريان والجفاره ومركزهم في طرابلس^(١). وقد استوجبت زيادة عدة القوات إنشاء ثكنات جديدة لإقامة الجند. ويحدثنا النائب عن «إنشاء كلوش عسكري بمركز الولاية» فيقول «أشئء كلوش منظم للعساكر الشاهانية بهمة الوالي المشار إليه من الوردات البلدية داخل باب الخندق في مدينة طرابلس الغرب، وباتصال المركز العسكري، في محل منشرح جداً على الجادة... يكفي لاستيعاب مائتين من العساكر»... ويصف داخله^(٢). كما عمل الوالي على تجديد المستشفى العسكري الكائن في شارع الزاوية بالمدينة سنة ١٨٩٢م. وقد بدت مدينة طرابلس في تلك الفترة مكتظة بالجند العثمانيين، الأمر الذي لفت انتباه الرحالة الأجانب الذين كانوا مهتمين بمعرفة قوة البلاد الدفاعية بحكم طبيعة مهامهم الاستطلاعية. وركز هؤلاء الرحالة في حديثهم على وصف وضع الجندى العثماني البائس. وكان مما كتبه (جاكاسي) الذي زار طرابلس عام ١٨٩٠م: «بالسلب متعصب متحامل» وهناك تحت تصرف الراعي التركي الذي يرعى القطيع لطرابلس عشرة آلاف رجل، يمثلون قوة تزيد عن حاجته لإبقاء البلاد في حوزته الإقطاعية. والغرض الرئيسي من وجود هذه القوة مقاومة هجوم متوقع من فرنسا أو إيطاليا. ويصف حال هؤلاء الجنود «إذا قامت إنهم يلبسون خرقاً فإنك تلمح للحقيقة فأحذيتهم. ولكن هل ما يلبسونه أحذية؟ وأى اسم تطلقه على قطع الخشب المربوطة بقطعة من الجلد بشكل عجيب. ومنظر تقدم فرقة الجند كمنظر قطع من الخراف كل واحد يذهب على هواه إن لم يدفعه جاره». ويشير إلى سوء حالتهم الصحية وقلة أجورهم الأمر الذي دفع بعضهم إلى طلب الإحسان. ويقول «أن نقطة الضعف في هذا الجيش هي في ضباطه الذي يدمر نضالهم اليومي

ضد البؤس لإخلاصهم وتنافسهم». ولكنه مع هذا كله يقرر أنه «مع كل رذائل وقصر باع هذا الجيش فإنه يمثل كتلة خفيفة، فالجند يقومون بواجباتهم ويحتملون الحرمان والمقاساة وبحاربون بغضب عنيد ويموتون سعداء بسبب اجتماعهم على عاطفة هي أدنى من الوطنية ولكنها أقوى وتلك هي التعصب. وقد ثبت هذا في حرب تركيا الأخيرة. التي أكدت أنهاستقام عدواً غازياً بعظمة ومجد^(٣)». وإذا كان حديث جاكاسي هذا ينم عن تعصب فإنه في الوقت نفسه يعطينا فكرة عن وضع القوات العثمانية السكي والكيفي.

ونلاحظ أن الرحالة كوبر الذي تواجد في طرابلس بعده بخمس سنوات يتفق معه في وصف بؤس الجندى العثماني. فقد كتب «أن طرابلس تعج اليوم بالجنود الأتراك. وهم يشكلون منظرأ غريباً حقاً، فهم قدرون لم يغتسلوا منذ زمن، ولم يمشطوا شعورهم، وملابسهم ممزقة، وأقدامهم في أحذية متشققة ونعال بالية، يتمددون حول بوابة المدينة وكانهم رمز حقيقي لإمبراطورية متداعية». ويتابع كوبر مشيراً إلى قلة رواتبهم ومعبراً عن الرثاء لهم «ومع أنهم يتقاضون رواتب ضئيلة أو لا يتقاضون شيئاً فإن هؤلاء المساكين يلوحون سعداء مقبطين يضحكون ويتصارعون كصبيان المدارس الكبار أو يتجولون متشابكي الأيدي في البساتين... ومنظرهم مثير للاشفاق^(٤)». كذلك فقد ذكرت مابل تود عن وجود عشرة آلاف جندى في طرابلس^(٥). وهكذا نجد أن الرحالة الأوروبيين قدروا القوات العثمانية في الولاية بعشرة آلاف جندى، ووصفوا لنا أحوالهم. ويمكننا أن نستخلص من هذا الوصف وبعد إزالة ما شابهه من تعصب أن

(١) Scribners Magazine Volume VII January - June 1890
Tripoli of Barbary By A.F.Jacassy. P 34-57

(٢) Cowper p.34 و ص ٣٤ من الترجمة العربية

(٣) Todd تود ص ٦٧ من الترجمة العربية

(١) دار المحفوظات بمجموعة أدهم
(٢) النائب المنهل الجزء الثاني ص ٣٩.

زيادة السكم في عدد القوات لم يصاحبها تحسن نوعي في السكيفية والنوعية ، وأن محاولات إعادة تنظيم الجيش العثماني على يد الضباط الألمان في عهد عبد الحميد لم تظهر لها آثار مباشرة في طرابلس . كما نتوقع أن يصدق الأمر نفسه على الاستحكامات والقلاع . ويشجعنا على هذا التوقع إشارة الزاوي في تعليقه على حديث النائب حول القلاع حيث ذكر أنها لم تكن معدة لأداء واجبها لما احتل الطليان طرابلس في أكتوبر عام ١٩١١م لما كانت عليه من الإهمال وسوء الإدارة ، فلم تبد أية مقاومة عدا برج التراب فقد أطلق بعض المدافع ولم يلبث أن اسكته مدافع الأسطول الإيطالي فبقى جائماً لا يبدى حراكاً^(١).

ويبدو أيضاً أن حال الجندي العثماني بلغت حداً شديداً من البؤس ، وأن راتبه لم يكن منتظماً . وقد تحدث الحشاشي التونسي في رحلته « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » عن الحالة العسكرية في طرابلس وقت زيارته لها سنة ١٣١٣ هـ و ١٨٩٥م فقد عدد العساكر بما ينيف على الثمانية آلاف جندي تامة العدد والعدد . وأشار إلى وجود فرق كبير بين حالة الضباط وحالة الجنود « فأما من كان من رتبة شاويش إلى رتبة أمير أمراء فإنهم على أكل حال وأنهم منوال يأكلون الطيبات ويسكنون الغرف الرفيعة وفيهم ذوات العيال بكثرة ومرتباتهم جارية يميلون إلى التنزه كالأوربيين ويلبسون اللباس الفاخر وحرمتهم في غاية التستر . وغالبهم يحسنون التكلم باللغة الافرنسية . أما العساكر فخالهم دون ذلك ومرتباتهم لبس جارية على أصلها في ذلك الوقت . وذكر أن ميناء طرابلس محصنة بالألغام البحرية بحيث لا تجوز سفينة كبيرة الا بدليل^(٢).

(١) النائب المنهل المذهب الجزء الثاني من ٩

(٢) الحشاشي ص ٧٠

وكان ضمن التجهيزات العسكرية التي تمت في عهد أحمد راسم تدريب الأهالي على حمل السلاح وإعدادهم للمقاومة الشعبية . ويقول روسي إن الوالي المذكور وزع السلاح على الأهالي بعد الاحتلال الفرنسي لتونس والاحتلال البريطاني لمصر في محاولة لتهديهم^(١) . وقد كان أهالي طرابلس وقتذاك معفيين من الخدمة العسكرية ، شأنهم في ذلك شأن أهالي بعض الولايات العثمانية الأخرى مثل استانبول واليمن والحجاز^(٢) . ويقول روسي « إن السلطات العثمانية عمدت إلى إعفاء القبائل من التجنيد الإجباري ، واستخدمت القوارغلية بدلا منهم وحصلت بدلا مادياً من هذه القبائل . »^(٣) وقد طلب أحمد راسم في بداية عهده من استانبول إرسال مزيد من السلاح إلى طرابلس وذكر أن العشرة آلاف بندقية من نوع شتايدر المرسلة لتسليح عشرة آلاف مقاتل عند الحاجة لا تكفي ، وعليه فهو يرجي إرسال عشرة آلاف بندقية أخرى^(٤).

وجاء تدريب الأهالي على حمل السلاح في طرابلس بعد طلب منهم . فقد برز مطلب التدريب إثر احتلال فرنسا لتونس وألح بعد احتلال إنجلترا لمصر ، فأصبح مطلباً شعبياً عاماً . ونستدل من وثائق محاكمة سراج وصحبه أن هذه المجموعة وغيرها نشطت في هذا المجال ، وكان بعض الشباب « يحرضون الناس على اقتناء السلاح وشرائه . » وكان مما قاله سراج في استنطاقه ومن العجب أن حكام طرابلس لم يسعوا في انشاء جيش وطني بطرابلس ولا سبياً بعد ما حصل لجيرانهم ما حصل ، فهذا الأمر عند أرباب السياسة لابد أن يكون لأحد أمرين إما لعدم حسن

(١) Rossi p. 330

(٢) المصري ص ٢٥١

(٣) عزيز سامح ص ٢٨٠ من الترجمة و Rossi p. 348

(٤) دار المحفوظات بمجموعة آدم تاريخ الرسالة ٢٤ ربيع الأول ١٢٩٩

سياسة الحكام الطرابلسيين مع الأهالي حتى كرهوا أن يستعدوا للدفاع عن وطنهم وأما لسباع البعض بعض دسائس الأجانب الذين يكرهون ذلك . ولا يخفى أن أعظم دليل على حب الوطنيين لأوطانهم رغبتهم في الدخول في العسكرية فلم تجد السلطات بدا من الاستجابة لمطلب التدريب ، خاصة بعد أن تصدت لنشاط أولئك الشباب . وقد أعلن الوالي خطوة التدريب في منشور تحت رقم ٧٥ بتاريخ ١٩ شعبان ١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م وزعه على المتصرفيات والأقضية والنواحي ، وحث فيه الشعب « على المبادرة لتعليم استعمال الأسلحة الجديدة التي وردت منها كميات وافرة إلى طرابلس والتي ستوزع على كافة الجهات في المراكز لتسلم إلى أفراد الشعب الذين يحضرون مواقيت التدريب الذي سيتولاه ضباط وجنود من الجيش مخصصين لذلك حتى يكون القادرون على أهبة للدفاع عن الوطن إذا ما داهمه أى عدد من الجيش ^(١) .

وقد ذكر عزيز ساح أنه أرسلت أربعون أو خمسون ألف بندقية إلى طرابلس لتوزع عند الحاجة على عساكر الرديف من الأهالي ^(٢) ونتوقع أن يكون الأهالي قد أقبلوا على التدريب في الفترة الأولى ، تعبيراً عن شعورهم بالخطر الأوربي ونستدل من تحقيق واستجواب جرى مع أحد المواطنين في الزاوية عام ١٩٠٢ م أن راسم باشا وزع أسلحة من نوع القاباق على أهل الزاوية للحفاظ على أنفسهم ، ثم عند ما استتب الأمن على الحدود التونسية استرد الوالي هذه الأسلحة من الأهالي ^(٣) كما نستدل من نداء وجهه الوالي نامق باشا الذي خلف أحمد راسم إلى السكان عام

(١) دار المحفوظات مجموعة أدهم .

(٢) عزيز ساح ص ٢٠٩ من الترجمة .

(٣) دار المحفوظات أوراق محاكمة نراج الدين .

١٣١٤ هـ للتدريب على النظم العسكرية ، أن بعض الأهالي لم يلبثوا أن أحجموا عنه بعد ترددت في البلاد إشاعات بأن الغرض منه جمع عساكر يخدمون في أنحاء الدولة النائية . فقد جاء في النداء بعد الحديث عن فوائد التدريب « ولقد سبق منا البيان مع القسم ، بأن لا أصل لما اختلقه المرجفون من أن المراد من هذا التعليم أخذ عساكر من هنا ورفعها إلى محل آخر ، بل إن المقصد العالي تدريب الأهالي حتى إذا لزمته الحاجة إلى إنضمامهم إلى العساكر والشاهانية المنصورة المرابطين بهذا الطرف من أولاد الأناضول والاستانة العليا وبلاد الشام ، وهم هاهنا من طرف أمير المؤمنين نصره الله حامية لهذه الديار عندما يتصدى إليها أحد ، فيشتكون معهم في الدفاع عن وطنهم وحريمهم والحال هم الأولى بالمحافظة والدفاع عن ديارهم وأعراضهم وأموالهم ^(١) . وقد قام نامق بجولة في أنحاء الولاية كان من أهدافها إقناع الأهالي بأن غرض التدريب الدفاع عن طرابلس ، ونفى تلك الإشاعات التي تنوق أن يكون للدول الأوربية وإيطاليا خاصة دوراً في طرحها وتعميمها . وقد كان لتلك الإشاعات صدى وتأثير في نفوس الأهالي لأن السياسة الحميدية - كما سبق أن شرحنا - عمدت إلى تجنيد رعايا الدولة للقضاء على الفتن الداخلية بأسلوب ضرب القوميات فيما بعضها ببعض . ونستدل مما نشرته مجلة المعلومات التي كانت تصدر باللغة العربية في استانبول حول التعليم العسكري في ولاية طرابلس أن برنامج التدريب حقق بعض النجاح . فقد كتبت في عددها العاشر بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٣١٥ - ٢٥ أغسطس ١٨٩٧ مشيرة إلى عناية الحكومة في السنين الأخيرة بولاية طرابلس ذات الموقع الهام وقالت « فن جملة ذلك ما هو واقع من السعي والهمة في تدريب الأهالي على الأصول والتعاليم العسكرية واستعمال الأسلحة الجديدة . ويقدر عدد المنعظين في هذه الكتابات بألف ومائتي فارس ونحو خمسة آلاف من

(١) نص النداء في مجلة الأبيكار السنة الرابعة العدد ٢٧ في يناير ١٩٦٠

المشاة، وكلهم مفطورون على الشجاعة والحماسة والفروسية وسائر الأوصاف العسكرية» ولا بد لنا أن نلاحظ أسلوب المبالغة في الوصف الذي كان سائداً لنضع هذا الكلام في حجمه الطبيعي، قبل أن نتابع حديث المجلة وهي تقول «وهم مفتخرون بصدقاتهم للدولة العلية وكال ارتباطهم بمقام الخلافة المقدس. فقد اقبلوا جميعاً بكل شوق وإرتياح لتلقى التعليم العسكرية منذ سنين في سائر أنحاء الولاية وواظبوا على أخذها واجرائها من اخوانهم العساكر النظامية الموجودين في الولاية فتدربوا عليها حتى اتقنوها وأعطيت لأكثرهم أوراق الشهادة باتمام هذه التعليم العسكرية وقد أظهر الذين أتموا التعليم ممنونيتهم وولاءهم لمعلمهم الضباط والشواش العسكرية بأن أهدوا لهم ساعات وغيرها. ولم تزل التعليم المذكورة جارية بمزيد الشوق والنشاط.^(١) والعدد الذي أوردته المجلة عن مجموعة من المدرسين ليس قليلاً، ونحن لانستعده لأن فترة التدريب استمرت سنوات، ولأن آثاره ظهرت في المقاومة الشعبية الطرابلسية للاحتلال الإيطالي فيما بعد. وهناك وثيقة تتضمن رسالة من الوالى إلى القائد العام سنة ١٣١٥ هـ جاء فيها قول الوالى «إننا نشئ كنيائهم الحميدية كما فعلنا في بلاد الكرد والعرب»، ويستدل منها أن التدريب كان عاماً في الولاية. ونجد في تقرير عسكري أنه تم تدريب ثلاثة طواير في طرابلس وخمسة في الساحل وواحد في جنزور الخ. وكان الشاب الذى يتم تدريبه يأخذ شهادة بذلك فيطلق سراحه على أن يعود للتدريب شهر أكل عام لمدة ساعتين يومياً^(٢)

ولم تلبث الدولة العثمانية أن فرضت الخدمة العسكرية على أهالى طرابلس بعد أن كانوا معفيين منها كما سبق أن ذكرنا. وقد جاء في حوлий طرابلس،

«أن القرار صدر في ٢٣ نوفمبر ١٩٠١م وهو خاص بالتجنيد الإجبارى وضرائب العقارات، فألقى القرارات السابقة. ولكن هذه الخطوة لقيت مقاومة كبيرة داخل البلاد. كما أوضح روسى أن المرسوم ألغى القولاغلية وما يتصل بها وطبق الخدمة العسكرية الإجبارية.

ولاحظ محمد فريد في رحلته عام ١٩٠٢ أن الدولة «اهتمت بتجنيد الأهالى وكانت قد عافتهم من ذلك أول الأمر، فعارضوها وامتنعوا ثم قبلوا الدخول في الجندية بشرط أن تكون خدمتهم قاصرة على الدفاع عن بلادهم فقط، وأن لا يرسلوا إلى الخارج مطلقاً. كما ذكره أن الحكومة مهمته الآن بإحصاء النفوس ليمكثها تنفيذ قانون القرعة العسكرية عليهم، وربما تم هذا الأمر بعد سنة على الأكثر»^(٣)

البريد والبرق (التلغراف) والمواصلات

اهتم أحمد راسم بتحسين وسائل الاتصال بين مركز الولاية وأطرافها انسجاماً مع سياسة عبد الحميد في هذا المجال. فتم في عهده تمديد خطوط البرق لأول مرة داخل ولاية طرابلس. ويقول النائب في حديثه عن هذه الخطوة «لما كان من مقتضى الإرادة السنية السلطانية تمديد الخطوط التلغرافية برأى إلى المواقع الهامة الكائنة داخل ولاية طرابلس، فقدمت هذه الخطوط على التوالى ابتداء من مركز قضاء الزاوية الذى أكمل وشرع في مخبرته في الرابع والعشرين من صفر الحير سنة ١٣٠٠ هـ. ثم إلى قضاءات ترهونة، وورفلة، وغريان، والعجيلات الملحقة بمركز الولاية. وإلى ناحية زواره الكائنة على حدود تونس، وإلى قضاءات مصر انهوزليطن، ومسلاته التابعة للواء الخمس، وقضاءى نالوت وفساطو

(١) مجلة المعلومات العدد ١٠،

(٢) دار المحفوظات

الملحقين بالجليل ، وذلك بشمرة الجهود الجليلة التي بذلها حضرة الوالى المشار إليه (١).

كما تم فى عهد أحد راسم « لإحداث البوسطة » البرية والبحرية - على حد تعبير النائب - الذى نقل لنا ما أورده جريدة طرابلس الغرب فى هذا الموضوع . فقد ذكرت الجريدة أنه « قد فتحت هذه المرة بداخل دائرة الولاية بوسطات برية وبحرية » وأوضحت أن المسكايب التجارية وغيرها أصبحت تنقل من طرابلس إلى فزان عن طريق « ترهونة وأورفلة وسوكنة » فى كل يوم اثنين . وهو اليوم المحدد لنقل البريد إلى ناحية جنزور وقضاءى الزاوية والعجيلات ومنها إلى زوارة . وكان يوم الثلاثاء موعد « توجه البوسطة من طرابلس إلى ناحية العزيزية وقضاء غريان ، ومنه إلى مركز لواء الجبل . » وفى كل يوم أربعاء كان البريد ينقل إلى مركز لواء الخمس على طريق ناحية تاجورا . (٢) وهكذا نلاحظ أن البريد كان يسلك أربع طرق رئيسية تصل بين طرابلس ومختلف أنحاء الولاية ، وهى طرق القوافل المعروفة منذ القديم .

وطرأ تحسن فى المعاملات البريدية ، وتوسع فى الخدمات . فأصبح ممكناً للتجار والأهالى الذين يتخابرون مع داخل الولاية أو مع الخارج لإيداع الأمانات النقدية مقابل اقتطاع أجر بسيط (٣) . وكانت الأمانات تنقل إلى الخارج على بواخر بوسطة الإدارة المخصصة التى تشتغل بين دار السعادة وطرابلس الغرب .

(١) النائب المهمل الجزء الثانى من ١٩

(٢) النائب المهمل الجزء الثانى من ٢٠ .

(٣) النائب الجزء الثانى من ٢١ وقد ذكر النائب قيمة الأجر المقتطع .

وجرى الاهتمام بتحسين الاتصال بالمواقع النائية فى الولاية ، وكان يستغرق وقتاً طويلاً . ونستدل من رسالة وجهها منصرف فزان بتاريخ ٢٧ شعبان ١٣٠٦ - ٢٩ أبريل لسنة ١٨٨٩ إلى الولاية « أن بوسطة غلات تروح وتأتى على خمسة وأربعين يوماً وبعض الأوقات على سبعمائة يوماً وكانت تصل عن طريق سوكنة على ظهور الجمال . ويقترح تعديل المنصرف نظام الأرسال وتعيين موظفين (سورجيون) جدد لتتقص المدة إلى خمسة وعشرين يوماً (١) .

ويتضح من حديث الرحالة كوبر أن البريد العثمانىبقى متخلفاً على الرغم من محاولات التحسين . وذكر مثلاً على هذا التخلف « أن مدير البريد وجد يوماً أن الطوابع الموجودة لديه لا تزيد على خمسة عشر طابعاً فحاول أن يجد بعض الطوابع فى الأسواق ، لأنه طلب الطوابع من القسطنطينية ولكن طلبه كان يهمل دائماً . وفى مرة أخرى كنت فى ميناء الخمس . ووصل ساعى البريد الأسبوعى إلا أن البريد لم يوزع . فأرسلنا من يسأل عن السبب وعرفنا أنه حين جرى فتح رزمة البريد وجدت خالية لأن مدير بريد طرابلس نسي أن يضع فيها الرسائل . » (٢) ويتحدث كوبر عن وجود دائرة بريد إيطالية إلى جانب دائرة البريد العثمانية يصفها « بأنها أهم منها بكثير » . ويبدو من حديثه أن الأوربيين نفذوا إلى مدينة طرابلس عن طريق الأعمال الفنية ، فأسسوا عدة شركات لتولائها . ومن هذه الشركات كانت شركة البرق (التلغراف) الشرقية التى تولت أمور الاتصال البرقى وكان مديرها العام سنة ١٩٠٠ انجليزياً - كما يتضح من حديث مابل تود - وكان الاتصال بين طرابلس والعالم يتم عن طريق مالمطة . ويذكر كوبر أيضاً أن الحجر الصحى ودار العزل تحت إشراف أوربى تتولاهما إدارة

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادهم انظر الرسالة كاملة بالمعنى

(٢) كوبر ص ٤١ من الترجمة

شبه دولية، وأن الفئار تتولاه شركة فرنسية . ويعلق بنفسية الأوربي أن أى شيء في طرابلس مما يحتاج لعمل جساد شاق هو في أيدي الأوربيين. (١)

وكانت المواصلات بين طرابلس والخارج في معظمها بأيدي شركات أوربية وعن طريق مالطة التي كانت تبعد عنها بنحو عشرين ساعة . وقد ذكر محمد فريد في رحلته عام ١٩٠٢ أن المواصلات بين طرابلس ومالطة متصلة في أغلب أيام الأسبوع بواسطة السفن الإيطالية والفرنساوية والانجليزية وغيرها . « ماعدا السفن العثمانية فقليلة التردد عليها » (٢) .

وكانت بواخر الإدارة المخصصة لتردد على طرابلس في عهد أحمد راسم - كما نقلنا عن النائب - ولكنها لم تعد تتردد بانتظام . ويقول محمد فريد مؤكداً ذلك « وقد أخبرت أن وابورات الشركة المخصصة كانت تأتيا (أى طرابلس) مرتين في الشهر ولو بغير انتظام ، ولكنها منذ سنة لم تخرج عليها ، والآهالي مستأثرون من ذلك لاضطرابهم إلى الركوب مع عائلاتهم على السفن الأجنبية لو أرادوا السفر إلى الأستانة أو غيرها . وهم يمتنون لو عادت الشركة المخصصة إلى سابق عاداتها أو أنشأت خطأ لها يمر بسواحل الشام ومصر ومنها إلى طرابلس ، فيربط هذه الأجزاء المتقاربة بالوضع الجغرافي المتباعدة بسبب عدم وجود مواصلات (٣) » . وأشار محمد فريد الأخيرة بالغة الأهمية ، فهي تتدخل على وعى أهالي طرابلس ضرورة ربط ولاياتهم بالولايات العربية الأخرى .

(١) كوبر ص ٤١ من الترجمة مابل تود ص ١٣٧ من الترجمة .

(٢) محمد فريد من مصر إلى مصر ص ١٣١ .

(٣) محمد فريد ص ١٣١ .

ونجد في وثائق دار المحفوظات أن البريد كان ينقل بين طرابلس ومالطة في أول عهد أحمد راسم بواسطة الباخرة طرابلس الغرب، وهذه الباخرة اشتراها أحد الطرابلسيين من إنجلترا وهو السيد علي القرقي الذي كان شيخ بلد في طرابلس . وجرى الاتفاق بينه وبين الدولة العثمانية على نقل البريد بين طرابلس ومالطة ثلاث مرات في الشهر اعتباراً من صيف ١٨٦٥ م . وقد أشار كوبر إلى وجود هيكل باخرة غارقة أسفل أسوار القلعة كانت تسمى طرابلس الغرب وتبحر بين طرابلس ومالطة ويقال إنها أغرقت عمداً بسبب المنافسة أو الخلاف (١) .

وكانت وسائل المواصلات في داخل الولاية متخلفة تقتصر على استخدام الدواب واستمر هذا التخلف حتى بداية القرن العشرين . فقد لاحظ محمد فريد ما سمعه في طرابلس « عدم وجود طرق مواصلات بين أطراف الإيالة المتباعدة لبرا ولا بحراً . إذ لا توجد بطوله وعرضه سكة واحدة تصلح لمرور العربات ، ولا قيد شبر من الخطوط الحديدية ، مع أن المسافة بين طرابلس وفزان الخليل أو الجمال مسيرة ثمانية عشر يوماً » . كما ذكر أنه لا يربط الولاية بممالك الدولة تلهراف برى أو بحرى مع سهولة الأمر وإمكان توصيل السلك التلهغرافي برآ . كل ذلك وإيطاليا تنقطع لإملاك طرابلس - كما يقول محمد فريد - ومع ذلك لم تلفت الدولة حتى الآن لأخذ الاحتياطات اللازمة لصد العدو . . فلو نشبت حرب بين الولاية وبين إيطاليا لا نقطعت عن الدولة أخبارها وقد شعر محمد فريد أن مشكلة تخلف المواصلات هي من أكبر مشاكل الولاية فركز حديثه عليها وختم كلامه بالإشارة إليها فمع أن التجهيزات العسكرية حسنت الوضع الدفاعي إلا أن المواصلات متعذرة بين النفور وبعضها

(١) كوبر ص ٤٦ من الترجمة

وبين الثغور وداخلية البلاد^(١). وهكذا نستنتج من كل ما سبق أنه جرت منذ عهد أحمد راسم محاولات لتحسين المواصلات داخل الولاية لربط أنحائها بالمركز، وبين الولاية والآستانة، ولكن هذه المحاولات لم تحقق إلا القليل من التقدم، وبقي حال المواصلات متخلفاً جداً في فترة حدثت فيها ثورة المواصلات في العالم، وازداد فيها الخطر الأوربي على طرابلس.

الإصلاحات البلدية والقروية والتأسيسات الخيرية

شهدت ولاية طرابلس الغرب في عهد أحمد راسم عدداً من الأعمال التي قامت بها السلطات العثمانية في نطاق الشؤون البلدية والقروية لتحسين أوضاع الولاية. وقامت إنشاءات عرفت باسم التأسيسات الخيرية. وقد أوجز كتاب طرابلس غرب ما حققه أحمد راسم في هذا المجال بأنه «رصف شوارع المدينة وبنى ثمانية وستين دكاناً في سوق الحميدية وبنى قصوراً للحكومة في الخنس والجفارة وسوكنه وبراك، وبنى مستشفى بمائة سرير وأدخل لأول مرة الماء الصالح للشرب بواسطة أنابيب إلى المدينة من بير بومليانة^(٢)...» وفصل النائب الحديث عن بعض هذه الأعمال، كما تضمنت الكثير عنها وثائق دار المحفوظات. ومن المفيد أن نستعرضها لنكون فكرة عن محاولات الإصلاح في هذا المجال ونقيمها.

تشكيل دوائر بلدية في الملحقات وإنشاء قصور للحكومة فيها

لعل أهم ما يلاحظ في هذا الأعمال أنها لم تقتصر على مركز الولاية، بل شملت أيضاً الدواخل. وكانت الدوائر البلدية — المعلومة درجة خدمتها لانتظام المملكة وعمرانها — منحصرة هنا بمراكز الولاية

والألوية إلى زمان الوالي المشار إليه، كما يقول النائب^(٣). فأهتم أحمد راسم بتشكيل دوائر بلدية أخرى، «ووفق لإحداثها على التوالي في قضاات: الزاوية وغريان، وورقلة، وزهونة، والعجيلات، ومصراته، ومسلاته، وزليطن، وغدامس، وفساطو ونواحي زوارة، وزنزور، وتاجورة» وقد استتبع هذا التشكيل أن زادت آثار العمران في تلك البلدان وأخذت في الترقى. وأصبح لها وارداتها البلدية السنوية التي استغلت في تحسين مرافقها العامة.

وكانت أهم الإنشاءات التي تمت في الدواخل بناء قصور للحكومة فيها. ويخبرنا النائب أن محلات الحكومة في بعض الملحقات «كانت بيوتا تستأجر من الأهالي بسبب خراب قصور حكومتها القديمة بحيث لا تصلح للسكنى. فلما تم تشكيل البلديات جرى ترميم ما أمكن تعميره وإصلاحه من محلات الحكومة الموجودة من القديم... كما أنشئت قصور حكومة جديدة كاملة في قضاء مصراته وزليطن حيث عمل الحكومة القديم لم يكن قابلاً للترميم. وكذلك أحدث قصر حكومة في مركز قضاء ترهونة الذي كان غالباً من كل نوع من الأبنية إلى عهد قريب. وابتدأ في بناء محل حكومة أخيراً في ناحية زوارة أيضاً^(٤). وقد جاءت هذه الإنشاءات خطوة هامة على طريق تعمير الدواخل التي كانت قبل ذلك تمكداً تبدو خالية من آثار العمران بعد أن طالت فترة إهمالها إلى درجة أن خربت قصور الحكومة القديمة.

وأهتم أحمد راسم بإنشاء فنادق في بعض الملحقات تابعة للبلدية، وحفر آبار تابعة لها، وإنشاء الأبنية اللازمة في مركز كل قضاء وناحية، وصرف

(١) تشكلت أول بلدية في الولاية في مدينة طرابلس في عهد الوالي علي رضا الجزائري جاريخ ربيع أول ١٢٨٥ هـ - الموافق يوليو ١٨٦٨ م. وتشكلت بلدية الخنس في عرم ١٢٩٠ هـ، مارس ١٨٧٣ (وثائق دار المحفوظات) بمجموعة ادهم

(٢) النائب المنهل الجزء الثاني ص ٤٥

(١) عهد فريد ص ١٣٤ و ١٣٥

(٢) طرابلس غرب ناجي ونوري ص ١٥٩

على هذه الإنشاءات من واردات الدوائر البلدية . وقد شرح النائب الغرض من هذه الإنشاءات فقال بما أن القسم الأعظم من أهالي ولايتنا يسكنون البادية متفرقين كما هو معلوم ، ولم يكن في أكثر أطراف الولاية شيء من البناء والعمران سوى مراكز الحكومة ، وبعض قصبات أخرى . فلأجل تكثير آثار العمران بالتدريج رأى حضرة الوالي إحداث فندق وبئر... وتمت هذه الإنشاءات في قضاء الزاوية والعجيلات وناحيتي جنزور وزوارة ، وبني فندقان بالنقازة وسیدی ابن نور على الطريق بين طرابلس والجنس^(١) . وتم إنشاء دائرة حكومية في سرت عام ١٣٠٣ هـ ودائرة أخرى لعائلات المأمورين وبقية اللوازم ، وفندق وعدة دكاكين وفرن وطاحونة ، وذلك في مجال اعمار قضاء سرت الذي كان معظم أهاليه يسكنون الخيام بالبادية ، ويكاد يخلو من الأبنية^(٢) .

ونجد في وثائق دار المحفوظات معلومات أخرى عن هذه الأعمال . وهي بمجموعها تكشف لنا عن حدوث حركة نشطة في هذا المجال قام بها أحد راسم . ففي رسالتين متبادلتين بين متصرف الجنس والوالي في النصف الثاني من سنة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣ م . اقترح المتصرف توزيع دوعين أو ثلاثة من الأراضي الحكومية الحالية المجاورة لناحية جفارة على الأهالي ليقیموا عدداً من الدكاكين ومقهى وفرن وطاحون لتكون فاتحة مدينة في المستقبل ، فأجابته الوالي أنه بموجب أحكام القانون الذي تبلى في الشهر الماضي للمتصرفية سنشكل في الناحية المذكورة إدارة بلدية . فيكون إنشاء مثل هذه المباني من قبل البلدية أفضل ، ويطلب من بلدية الجنس أن

تقرض البلدية الجديدة مبلغاً مناسباً من المال لإقامة المنشآت السالفة الذكر على أن يسدد القرض فيما بعد^(١) . ويتضح من رسالة ثانية أنه تم بناء قصر جفارة سنة ١٣٠١ هـ . ونفهم من الرسائل المتبادلة في سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٤ م أنه تم إنشاء بلدية في غريان في غرة هذه السنة . وكانت غريان قبل ذلك مربوطة بطرابلس ، وانتخب لها رئيس بلدية . وتم تشكيل بلدية فساطو في الجبل سنة ١٣١٠ هـ وجرى انتخاب رئيس وأعضاء البلدية ، ومن ثم تعيين أيام السوق وأمكنتها ، كما يتضح من الرسائل المتبادلة من الولاية ومتصرفية الجبل .

وتكشف إحدى رسائل الوالي إلى قائمقام غريان بتاريخ ٨ شعبان ١٣٠٣ هـ وتحمل رقم ٣٣ عن اهتمام الوالي بتشبيد مدرسة وفندقاً « يتناسبان مع الحاجة الملحة إليهما في مركز القضاء » . ويكون ذلك على نفقة البلدية . والرسالة تشير إلى رسالتين سابقتين في الموضوع نفسه ، وتطالب بالاهتمام وإرسال دفتر التقديرات والتصميم بسرعة .

ونستدل من رسالة أخرى تحمل رقم ١٨ بتاريخ ٤ رمضان ١٣٠٧ هـ أن الوالي أمر بالتحقيق لحصر عدد القرى التي تضم بين عشرين وأربعين بيتاً ولاحتوى على مسجد ومدرسة ، والتي يمكن أن يشيد فيها مسجد مخصص بجانب منه ليكون مدرسة . وتطالب الرسالة بتقدير تكاليف البناء ، والمبلغ الذي يستطيع الأهالي المساهمة به « وافادة النتيجة بسرعة » .

ويتضح من تقرير مؤرخ في ١١ رجب ١٣١١ أنه تم بناء قصر الحكومة في زليطن ، وأنه يحتوي على الدوائر الملكية والشرعية والعدلية والضبطية

(١) دار المحفوظات مجموعة ادهم

(١) النائب الجزء الثاني ص ٤٧

(٢) النائب الجزء الثاني ص ٤٤

مع عنبر للعساكر ولكل من أرباب الجنج والجنابات وبئر وغيره
بمجموعها ثلاث وعشرون حجرة مع مشتملاتها^(١).

الانشاءات في طرابلس

ونالت مدينة طرابلس - مركز الولاية - اهتماماً كبيراً من الوالي
أحمد راسم ، فأنجز فيها عدداً من الأعمال والانشاءات الهامة ونمت المدينة
في عهده فتجاوزت سور المدينة القديمة . وقد ذكر النائب « أن خارج
البلدة صار في شكل قصبة منتظمة أكبر من داخلها في ظرف مدة قليلة ،
كما هو معلوم عند كل من كان موجوداً هنا منذ خمس عشرة سنة » أي قبل
تولى أحمد راسم . فلم يكن خارج مدينة طرابلس آنذاك شيء من
الاماكن والأبنية سوى سوقى العريضة والحيدية . وكان فقدان الأمن
سبباً رئيسياً في حصر العمران داخل السور الذى كانت تغلق أبوابه مع
الغروب قبل تولى أحمد راسم - كما سبق أن ذكرنا - . فلما استتب
الأمن في المدينة وشعر الناس « بالاطمئنان والراحة والرقى » - على حد
تعبير النائب - اهتم بإنشاء أبنية جديدة خارج البلدة من بيوت ودكاكين
وغير ذلك .^(٢) وقد لاحظ كوبر أن مدينة طرابلس قد بدأت بالانمو خارج
السور في السنوات الأخيرة^(٣).

واهتم أحمد راسم بتبليط شوارع وأزقة المدينة ، وكانت عارية عن
التبليط من القديم ، وإنشأ مجار للباه فيها فتهبى إلى البحر^(٤).

وكان من أهم إنشائه في المدينة توصيل ماء بئر « بومليانه » إليها
وبناء سبيل للعموم فيها . فقد عانى أهالى طرابلس قبل إنجاز هذا المشروع
من نقص المياه وارتفاع أثمانها . وكانوا يحصلون على الماء بتجميع مياه
المطر في صهاريج تحفر في البوت . ولم يكن ما يتجمع فيها يكفي إلى نهاية
موسم الصيف . الأمر الذى يضطرهم إلى شراء ما يحتاجونه من المياه العذبة
التي يحملها « السقاين من الآبار السكّانة خارج البلدة » . وقد عانى الفقراء
من الأهالى على الخصوص مصاعب جمة في الحصول على الماء . حيث كان ثمن نقله
مرتفعاً ويتحدث النائب كيف استحسن أحمد راسم أن يجلب إلى البلدة
ماء بئر « بومليانه » التى تبعد عنها إلى الجنوب مسافة نصف ساعة ، وهى
مشهورة بلذّة مائها وغزارته . ويصف اتمام المشروع بالتفصيل بدءاً من
زيادة حفر البئر وتنظيفها جيداً وإتقان بنائها من الداخل ، ثم الإتيان
بآلة بخارية لرفع الماء من أوروبا ، إلى بناء العين « السبيل » في المدينة
خارج باب الخندق . وكان تدفق الماء منه في ١٥ شعبان ١٣٠٨ هـ^(١) ونجد
في رسالة بعثت بها الولاية للأستانة وصفاً دقيقاً للمشروع وللاحتفال
الذى أقيم في طرابلس يوم الافتتاح الذى حدث في التاسع من شعبان
حوالى الساعة الرابعة ، « حيث اصطف من حول السبيل باحترام طاوور
من العساكر الملكية . وبينما كانت جوقة موسيقية تدق الأنغام الشجية
حضر خارج باب الخندق حضرات الباشوات صاحب الدولة وسعادة القائد
وحضرات رؤساء أعضاء الهيئة التنفيذية وأركان الولاية والأمرام
العسكريون وغيرهم من موظفي الحكومة وهيتة دائرة البلدية وجمع غفير
من الأهالى . وبعد أن تلى بالمناسبة من قبل السيد مصطفى بن أبى بكر
مضى الولاية دعا بليغ بإزدياد عمر وعافية حضرة ظل الله وأن الحاضرون

(١) دار المحفوظات مجموعة ادهم

(٢) النائب الجزء الثانى ص ٣٥

(٣) كوبر ص ٤٥ من الترجمة

(٤) النائب الجزء الثانى ص ٣٣

صدحت الموسيقى نشيد السلاح وهتف الجنود كل الحاضرين لله المتعال دعاءهم الواجب الأداء ثلاث مرات يعيش السلطان ويستمر وصف الاحتفال الذى تكرر فيه الدعاء للسلطان عدة مرات مع اسباغ افخم الثغوت عليه. وقد قصدنا من اثبات هذا الوصف أن نوضح اهتمام السلطة بغرس الولاء للسلطان بين الأهالى ، ولجوء السياسة الحميدية إلى محاولات الإصلاح هذه لكسب رعايا الدولة .

وبالطبع لم تغفل الرسالة عن أجزاء المديح للوالى أحمد راسم «الذى يبذل جهوداً فى كل الأمور النافعة يقوم بالأعمال الحسنة التى توافق رضا الله والسلطان». وبهمننا من الرسالة أن هذا المشروع خفف عن الأهالى فقد سمرت الحكومة حمل الحمار من الماء بعشرين بارة بعد أن كان يستين بارة . وهناك إشارة إلى أن «السقاين نالوا الحماية والتسهيلات النامة» فى نطاق التنظيم الجديد. (١)

وقد أشار كوبر إلى السبيل بقوله « فإذا غادرنا المدينة من باب الخندق مررنا على عيشتنا مباشرة بنافورة كبيرة يتجلى فيها ذوق الأتراك السقيم وكان الباشا الحالى هو الذى أنشأها ونقل إليها الماء من مكان يدعى بومليان فى البساتين. (٢)

وأنشأ أحمد راسم فى طرابلس مستشفى لمعالجة فقراء الأهالى والغرباء عرف باسم «مستشفى الغرباء» وكان هؤلاء — كما يقول النائب — يداوون بمعرفة طبيب البلدية فى بيت غير مناسب تستأجره البلدية . فأمر الوالى بإنشاء المستشفى عام ١٨٨٣ م. «فأنشئ عمل غاية السكال والاتساع ، فوق أساس فندق قديم خرب قرب باب البحر . وبني على ثلاث طبقات فى الطبقة

السفلى عشر مغازات (حوانيت للتجارة) لتكون إيراداً للبلدية ، وفى الطبقتين الوسطى والعليا أربع عشرة غرفة تستوعب مائة وخمسين فراشاً . وتحول هذا المبنى فى أواخر عهد أحمد راسم إلى مكتب رشدى عسكري ، وتقرر إنشاء مستشفى خارج الأسوار فى نهاية شارع ميزران فى المحل الذى كان معروفاً بالسبخة وتم إفتتاحه فى عهد الوالى فائق باشا عام ١٨٩٧ (٣) .

وتم فى عهد أحمد راسم إنشاء رصيف سوق الثلاثاء الذى كان يعقد خارج المدينة فى الجهة الشرقية على شاطئ البحر فى ميدان واسع أمام قسلة برهان الدين الهمايونية . وكان يلتقى فى هذا السوق الذى يعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع عدد كبير من أهالى مركز الولاية والمحقات الغربية . وقد طغى البحر فى تلك الآونة على الجهة الشمالية من الميدان واستولى عليها تدريجياً ، وهدم عدداً من دكاكين سوق الحميدية التى أنشأها البلدية هناك . فرأى أحمد راسم إنشاء رصيف يرتفع يمنع ماء البحر ويمتد من سور البلدة إلى مرسى الحلفاء الكائنة فى منتهى الجهة الشرقية من ذلك الميدان . على طول ٧٥٥ متراً . وقد ذكر النائب فى كتابه أن العمل كان لا يزال جارياً فى اتمام هذا الرصيف . ووصف كوبر هذا المشروع بأنه كان فاشلاً وقال « وقد أنشئ على الساحل هنا مؤخر أحاجز بحرى من الأسمنت المسلح لمنع البحر من التقدم ولكن المشروع كان فاشلاً لأن المياه امتدت فى أكثر من موضع . وجدير بالذكر أن سوق الثلاثاء لا يزال يعقد فى طرابلس وقد تغير مكانه أكثر من مرة منذ ذلك العهد (٤) .

(١) النائب الجزء الثانى ص ٣٣ مجلة الانتكار العدد ٢٤ السنة الرابعة ١٩٥٩

(٢) النائب الجزء الثانى ص ٤١ وكوبر ص ٤٧

(٣ م) — ليبيا

(١) دار المحفوظات مجموعة ادهم انظر الملحق حيث نص الرسالة كاملاً

(٢) كوبر ص ٤٤ من الترجمة .

كذلك تم في عهد أحمد راسم توسيع دائرة الحريم الخاصة بالولاية بزيادة مبنى يتألف من طابقين . كما تم إنشاء برج الساعة بالمدينة . وتفيد رسالة مؤرخة في ٢٣ تشرين أول ١٣١٣ - ١٨٩٧ م أن تكاليف إنشائه بلغت ألفاً وثلاثمائة وقرشان وخمسة وثلاثين بارة بالعملة العثمانية . وتستفسر الرسالة هل تحسب هذه التكاليف من واردات وقف السور أو من واردات البلدية^(١). وقد عثرنا في مجلة المعلومات على أبيات شعرية نظمها الشيخ أحمد بن عبد السلام أحد أعضاء مجلس الإدارة مؤرخاً بها لإنشاء عمود الساعة .

الزراعة

اهتم أحمد راسم طوال فترة ولايته بتحسين الزراعة في طرابلس . وكان في هذا المجال أيضاً متمشياً مع سياسة عبد الحميد الذي اهتم بأمور الزراعة - كما سبق أن أشرنا - . ووجد والي الميدان أمامه فسيحاً وبحاجة إلى جهود جبارة ، فقد كانت طرابلس تعاني من تخلف أمور الزراعة فيها . ويحدثنا النائب أن راسم د عني بإيجار الأراضي الخالية الميرية الكائنة في الجهة الشرقية من مدينة طرابلس الغرب على مسافة نصف ساعة منها ،^(٢) فأحدث فيها « سواني » وحث الناس على شرائها . وكان الأهالي يتهيبون لإيجار تلك الأراضي لاختلال الأمن في البلاد طيلة عشرات السنين .

وأنشأ والي أول مزرعة نموذجية غرس فيها الكثير من الأشجار المثمرة ، وقد عرفت باسم « سواني راسم باشا » ولا تزال معروفة به^(٣). فأقبل الأهالي

(١) دار المحفوظات مجموعة أدهم انظر الابيات الشعرية في الملحق

(٢) النائب الجزء الثاني من ٤٣ والسبابة عند الطرابلسيين في لغتهم الفارسية البستان ، وهي في الأصل الحيوان الذي يتغذى لأخراج الماء من الأبار .

(٣) Cachia ص ٥٣ ، الانكار العدد ١١

على شراء السواني في تلك المنطقة فعمرت وازدهرت الزراعة فيها . ونتوقع أن يكون الوالي قد شجع على إعمار مناطق أخرى في مختلف أنحاء الولاية . ونستدل من ملف الزراعة في دار المحفوظات أن بعض الأراضي امتلأت بالأشجار المثمرة . ونضرب مثلاً بالمنطقة الممتدة بين العزيرية وغريان فالوفاق تشير إلى أن عدد الأشجار فيها قدر في أواخر العهد العثماني بحوالي عشرة آلاف شجرة ، من أشجار التين والخوخ والمشمش واللوز فضلاً عن الزيتون^(١) .

وجلب أحمد راسم عدة آلاف من شجر التوت ووزعها على بعض الزراع في مركز الولاية والملحقات بعد أن أجرى اتصالاته مع نظارة الديوان العمومية العليا لإدخال تربية دودة الحرير في طرابلس . وقد سبق أن ذكرنا أن عبد الحميد أمر بغرس ثلاثين مليون شجرة توت وأنشأ مؤسسة في بروسة اتربية دودة القز على طريقة باستير . ويبدو أن اهتمام أهالي طرابلس بتربية دودة القز بقيت محدودة ، وكذلك اهتمام الولاية الذين جاءوا بعد خلفه نامق فلم يلتفتوا إلى هذه الصناعة - كما يقول كاكيا - فأهملت وتركت على الرغم من أن أشجار التوت نمت في عدة مناطق^(٢) .

وقد شهدت الولاية في تلك الفترة محاولات إدخال زراعات جديدة فيها . ونجد في رسالة تحمل رقم ٢٨ بتاريخ ١٧ رمضان ١٣٠٧ هـ إشارة إلى رسالة سابقة تضمنت تعليمات بشأن التعريف بزراعة القهوة التي جلبت بذورها من ولاية اليمن لنشرها في الولاية واستحضر أحمد راسم خيراً بزراعة القهوة من اليمن لفحص اودية مسلاته وأودية غريان وكان

(١) المحفوظات ملف الزراعة .

(٢) Cachia ص ١٧٨ .

(٣) دار المحفوظات مجموعة أدهم .

رأى الخير أن تربة الجبل الأخضر صالحة لزراعة القهوة . وقد أجريت التجارب ولكن العناية لم تكن كافية . وقد جرت محاولة زراعة القهوة في أودية غريان التي تشبه أودية اليمن^(١) . ويحدثنا الحشاشي التونسي عن الزراعة في طرابلس كما رآها عام ١٨٩٥م فيقول إن الفلاحة تنقسم إلى قسمين في هذا البلد القسم الأول أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة إلى البلد يعنى أحواز طرابلس وأصحاب الآبار والمياه فإن هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الأرض جداً . وأما العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا بأصحاب حزم وكد ولا يتخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب لكن يميلون إلى المناجر أكثر مما يميلون إلى الفلاحة على عكس أهل بني غازي^(٢) .

المالية

كانت الأمور المالية في الولاية محل اهتمام الوالي أحمد راسم طيلة مدة ولايته . ونلاحظ أنه حاول ضبطها وتنظيمها ، بعد أن بلغت حالها درجة كبيرة من الفوضى . وكان في هذا المجال أيضاً ينفذ السياسة الحميدة التي حاولت تنمية موارد الدولة وتقليل المصروفات للخلاص من الديون الأجنبية وفوائدها المتراكمة منذ عهد عبد العزيز . ويمكننا أن نستكشف سياسة الوالي المالية في طرابلس من خلال تقرير أرسله إلى الصدر الأعظم مؤرخ في ٢١ شعبان ١٣٠١ هـ . يتحدث فيه عن سياسته عامة وما لمسه من فوائدها ويستشهد بدليل مادي ، وهو أنه أمكن في تلك السنة أن تبلغ ضريبة الأعشار في ورفلة - التي يصف أهلها بالعرفافة في البداوة - ٤٣ ألف كيلة بينما كان معدلها في السنين الماضية ٢٠ ألف كيلة ، وبأمل

« بإذن الله وبفضل تشجيع مقام الصدارة العظمى في ظل حامى التقدم جناب السلطان أن تبلغ إيرادات هذه الولاية إلى الضعف ، وتبذل المساعي لاستكمال أسباب ذلك »^(١) . فأحمد راسم كان مهتماً أن يضاعف إيرادات الولاية . ومن أجل ذلك قام بعدة إجراءات في المالية تخدم هذا الهدف مباشرة فضلاً عن قيامه بإصلاحاته الأخرى .

كان في مقدمة الإجراءات المالية تسوية الضرائب وجبايتها وقد برزت الحاجة للتسوية في أول عهد أحمد راسم حين لاحظ «أن التعديل والتسوية لم يقم في الولاية منذ مدة تقارب خمس عشرة سنة ، وأنه قد حصل بالطبع فروق وتفاوت في ثروة الأهالي بسبب امتداد الزمان وتغير الأحوال ، كما وقعت انقلابات وتبدلات كلية في الأشجار » . ويشير حديث النائب هذا إلى قصور في تسوية الضرائب استمر على مدى خمسة عشر عاماً . وكانت الضرائب في طرابلس قسمين ، قسم على الأشجار والديار يعبر عنه بالزعمة ، وقسم على النفوس الصائمة والحيوانات ويعرف بالمقطوع . والمقصود بالنفوس الصائمة المكلفون من الأشخاص الذين يصلون سن البلوغ . وهكذا كان الانتظام في جباية الضرائب متوقفاً على إحصاء الأشخاص والحيوانات والأشجار . وقد كان أول مافعله الوالي أنه أمر «بتنظيم تعليمات مخصوصة من مجلس الإدارة الولاية لتكون حافلة لحسن إجراء ذلك التعديل والتسوية بادرة العدالة والإنصاف ، ووضع هذه التعليمات موضع التنفيذ ، فحددت تسويات من يلزم من القبايل وفق التعليمات^(٢) » . ويبدو من وثائق دار المحفوظات أن مقدار الضريبة اختلف من قضاء إلى قضاء وأن الضرائب تنوعت . وكان مايجي عن كل ثلاثين زيتونة أو نخلة يساوي ما يجي من شخص مكلف صائم وما يجي عن مائتي شجرة تين . وقد جبيت

(١) دار المحفوظات مجموعة ادم .

(٢) النائب الجزء الثاني ص ٢٤ .

(١) الأفكار العدد ١١ يونية ٥٧ .

(٢) الحشاشي ص ٦٩ .

في قضاء غدامس ضريبة عن الماء الجاري^(١). كانت الحكومة تجبي عشر المحاصيل عيناً كخراج شرعى كان يعرف بالعشر الشرعى ، ويجوز أن تدفع قيمة العشر نقداً . وفرضت ضريبة على النخيل الذى يستخرج منه اللاجي^(٢) (شراب يستخرج من النخلة بعد قطع أغصانها ويتحول إلى مسكر) .

وأصدر أحمد راسم تعليمات تتضمن جميع ما يتصل بحماية الضرائب ووجهها للمأمورى الأعشار عن طريق مجلس إدارة الولاية . وقد جاء فى تعليمات مأمورى الأعشار التى صدرت بتاريخ ٢٨ شعبان ١٣٠٨ هـ حيث أن هذه السنة المياريك حل أوان إدراكها استنسب بمجلس إدارة الولاية ضبط أعشارها تخميناً على القاعدة المرعية بهذه الولاية وهى التوجه إلى الزراعات ومعاينتها وتخمينها . وقد تعين لذلك مأمورون وكتبة ومخمنون تطبيقاً لأحكام نظام الأعشار . . وهكذا كانت الضرائب تقدر تخميناً ، وجرى تعيين الموظفين اللازمين من مخمنين ومأمورين وكتبة . وكان جباة الضرائب يأخذون نسبة مئوية مما يجبونه تشجيعاً لهم ، الأمر الذى نتج عنه فى بعض الأحيان مغالاتهم فى التقدير وقد تضمنت التعليمات إتاحة فرصة الاعتراض المزارعين ، فتشعر بالامكان كان « ضبط عشر كافة المزارع بلا استثناء على وجه الحفاية والعدالة من غير ضياع لحق الخزينة أو عذر لجانب الأهالى . وكلما تخرص مزارع فى الحال يقع بمحض صاحبه أو وكيله أو شيخه أو جاره^(٣) » . ويتضح من الوثائق أنه كان يجرى عد الاغنام سنوياً لحساب الضرائب المترتبة عليها ، وكان لا يسمح بقطع شجر الزيتون إلا إذا ثبت أنه لا يثمر . وفى هذه الحالة يسمح بقطعه

ليصنع خماً شريطة أن يزرع بدلا من كل شجرة تقطع شتلات زيتون ، وذلك حفاظاً على ثروة البلاد الزراعية وعلى مستوى الضرائب^(٤) .

ومن الإجراءات التى اتخذها أحمد راسم لزيادة واردات الولاية إلغاء بعض المعافيات - على حد تعبير النائب - وهى الأمور التى اعفيت من الضرائب سابقاً . وكانت هذه الاعفاءات قد صدرت فى سنوات سابقة وشملت فئات مختلفة ، إذ كان « من مقتضى القاعدة القديمة المحلية أن يعنى من أداء المرتبات المبرية والأعشار الشرعية من كان أبرز فيها سبق خدمة وصداقة فوق العادة للحكومة السنوية ، أو من كان مشتغلاً فعلاً بتعليم القرآن وتدريس العلوم . وكانت المرتبات العائدة لهؤلاء توزع وتسوى على القبائل المنسوبين إليها . وقد نجح أشخاص كثيرون لم تسبق لهم خدمة من هذا القبيل ولم يكونوا مشتغلين بالتدريس ، فى أن يشمله الماعفاء واستندوا على أوامر « بيورلديات » استحصلوا عليها من الولاة . وكانوا يجددون هذه الأوامر كلما جاء وال جديد . فلما تولى أحمد راسم « أجرى التحقيقات العميقة فى حق الأشخاص الطالبيين تجديد معافاتهم ، وأعطى الجواب برد كثير منهم » . فقل عدد من يشمله الماعفاء . وحصر حق الماعفاء فى الأفراد فنع شمولها وانتقالها للولاد والأحفاد ، فتقلص عدد المعفيين كثيراً . ونستدل من إحدى الوثائق أنه ألغى إعفاء القولوغلية فقدم رؤساؤهم بعريضة بتاريخ ١٩ أيلول ١٣١٥ - ١٨٩٩ م « يطالبون إعفاءهم لأنهم تعودوا على ذلك »^(٥) .

واتخذ أحمد راسم إجراء يقضى بتعديل « مقامه المشايخ والاعضاء » . والمقامة هى ما يترك لمشايخ القبائل أو أعضاء المجالس غير الموظفين من

(١) دار المخطوطات مجموعة ادهم .

(٢) دار المخطوطات أوراق الضرائب .

(٣) دار المخطوطات أوراق الضرائب .

(١) دار المخطوطات أوراق الضرائب .

(٢) دار المخطوطات أوراق الضرائب .

الأموال الأميرية في مقابل خدمتهم . وكان يترك لهؤلاء « مقدار معلوم من أشجارهم ومرتباتهم الميسرية ، وهو خمس وعشرون كيلة شعيراً وثمان عشرة كيلة حنطة (قمحاً) ، وثمان وثمانون أقة زيتاً من عشر زرعهم وأشجارهم ، ومرتبات مائة وثمانين نخلة من أشجارهم »^(١) . ومن كانت أشجارهم زائدة عن هذه المقادير يحصل منهم المقدار الزائد حسب القاعدة المحلية . وقد زاد عدد المنتفعين بهذه « المقامة » حين كثر عدد أعضاء المجالس وانقسمت القبائل إلى عدة أقسام فتضاعف عدد المشايخ . فكان أن اتخذ أحمد راسم أصولاً حدد فيها أصول انتخاب شيخ القبيلة وعدد البيوت والخيم التي يترأسها ، فحصر أعدادهم وقللها .

كأحدث أحمد راسم تذاكر أداء الميرى الذى كان يتولى قبضه وتحصيله من الأهالى مشايخ القبائل . وكانوا « من قديم الزمان يعطون علماً وخبراً على ورقة عادية غير منتظمة ، كوصول للبالغ التي يقبضونها . وكثيراً ما كانت تضيق هذه الأوراق فيكون ذلك سبباً في نشوب نزاع بين الأفراد والمشايخ . فأصلح أحمد راسم هذا الأمر « وأمر بترتيب أوراق علم وخبر باللسان العربى لتعطى من المشايخ للأفراد ، كوصول للبالغ . وقد تضمن الوصل معلومات عن اسم القضاء أو الناحية والقبيلة واسم الشخص ونوع المال والسنة ، ونظمت جداول شرع في استعمالها من سنة ١٣١٠ المالية « فزاد انتظام حساب مشايخ القبائل . وارتفعت مشكلات الحساب السائدة بين الأفراد والمشايخ »^(٢) .

وإنشأ أحمد راسم قسماً لتحرير المقاولات بين الأهالى بمركز الولاية حوالى سنة ١٣٠٠ هـ مكوناً من « باش محرم وثمانية عدول » . كما أنشأ

سنة ١٣٠١ هـ غرفة تجارة بمركز الولاية . ويتضح من سجل ضرائب ارباب التجارة الخاصة أن الحكومة كانت تجبي منهم ضريبة سنوية تتراوح بين ٥ غروش لخصار و ١٠٠ غرش لتاجر كبير . وقد أثبتت هذه الضرائب في سجل « مقطوعة ارباب تجارته مخصوص » . وكان يكتب في السجل اسم دافع الضريبة وديانته وتابعيته ومسقط رأسه وحرفته ومحل سكنه ومحل عمله ومقدار ما يؤخذ منه^(٣) .

وقام أحمد راسم بتريك السجلات المالية في الأقضية . وكانت المعاملات التحريرية تجري من القديم فيها « بمعرفة مديرى المال على اللسان العربى » . فلم يكن يحصل الانتظام في المخبرات الرسمية - كما يقول النائب - ولذا فقد عين أحمد راسم « كتبة تحريرات جدداً للقضاءات » من خرجى المسكاتب الرشدية « لتجرى الأمور التحريرية باللسان التركى »^(٤) . ويعلق الزاوى على هذا الاجراء « بأنه نوع من الاستعمار فى اللغة عن طريق أندماج المحكوم فى قومية الحاكم » . وقد كان لهذا الإجراء وغيره رد فعل سلبى . بين الأهالى كما سنعرض فى فصل نال ، من ناحية التمسك باللغة العربية والحفاظ عليها . ولكنه من وجهة نظر أحمد راسم استهدف فى المقام الاول ضبط الأمور المالية وزيادة الواردات .

ومن الإجراءات المالية التي اتخذها الوالى لتحديد أسعار العملة المتداولة . وكان الأهالى يتداولون عدداً من العملات العثمانية والأجنبية . وقد قرر مجلس الولاية سنة ١٨٨٤م أن يعلم البلدية ويعلم فى الأسواق عدم تداول عملة أبو طيرة « ماريا تيريزا » لأن التجار الأجانب كانوا يتلاعبون به ،

(١) دار المحفوظات أوراق الضرائب .

(٢) النائب الجزء الثانى ص ٢٨ .

(١) النائب الجزء الثانى ص ٢٥ .

(٢) النائب الجزء الثانى ص ٣٢ .

ويشترون به الذهب بأقل من سعره لهربونه إلى الخارج . ونجد رسالة مؤرخة في ٢٣ ربيع ثان ١٣٠٧ هـ وتحت رقم ١٥٥ تأمر أنه اعتباراً من أول مارس ١٣٠٦ سيقبض الريال على سعر ١٦ قرشاً فقط . كما نجد كشفاً بأسعار العملة في السوق منذ أول مارس ١٣٠٦ ومعه أمر بمنع التداول بالبنود النحاسية التي توجد في السوق ، ويقضى الأمر بوجوب رفعها من السوق والتعامل « بالمتاليك »^(١) . وكانت جميع هذه الإجراءات تستهدف ضبط الأمور المالية وإصلاحها . ونجد بين وثائق الفترة ما يشير إلى حدوث خلاف في وجهات النظر بين الوالي والجهات المختصة بشأن استقلال موظفي المالية في الولاية ، فقد تلقى أحمد راسم منشوراً بتاريخ ٢٧ كانون أول ١٣١١ يفيد صدور قرار سام بإحالة أمور الجباية إلى موظفي المالية مع إعطائهم استقلالاً في إدارة أعمالهم . وقد خالف الوالي هذا الاتجاه وكتب شارحاً وجهة نظره التي استندت إلى أن « أغلب محاسبى الولاية مرتشين » والقسم الأعظم من الذين يقبلون العمل بها من غير الأكفاء والتافين . ويبدو أن استانبول تبعت وجهة نظره^(٢) .

أثرت لإجراءات أحمد راسم المالية زيادة كبيرة في واردات الولاية التي لم تسد - كما يقول كاكيا - « ما تصرفه الحكومة على الإدارة المدنية والعسكرية فحسب ، بل كانت ترسل في كل عام للباب العالي مبالغ لا يستهان بها من المال الذي كان فائضاً من حصيلة الضرائب المحلية »^(٣) . ونلاحظ أن الضرائب التي جبتها الدولة كانت كثيرة متنوعة وسنستعرضها في مكان لاحق .

(١) دار المحفوظات ملف المالية مجموعة ادم انظر الملحق.

(٢) دار المحفوظات مجموعة ادم انظر الملحق.

(٣) Cachia ص ٨٩ من الترجمة

المعارف

عرفت طرابلس في عهد أحمد راسم بداية الاهتمام بالمعارف ، حيث باشرت حكومة الولاية لإنشاء مدارس فيها . ولكن حركة التعليم فضحت بعد أحمد راسم على أيدي نامق وحسن حسنى ورجب . ونلاحظ في عهد راسم تحركاً نشطاً للأجانب لإقامة مدارس أجنبية تبشيرية في طرابلس . وكان اهتمام السلطة بالتعليم - في أحد وجوهه - رد فعل على هذا التحرك النشط . ونستدل من وثائق المعارف أن حكومة الولاية افتتحت مكتباً رشدياً في الخنس عام ١٣٠٣ هـ ، وقد بلغ عدد المدارس الابتدائية في آخر عهد أحمد راسم ٢٦ مدرسة بمعلم واحد لكل منها ، ويعلق الوالي على هذا العدد بأنه يعتقد بحاجة الولاية إلى مزيد من المدارس^(١) . وفي آخر عهد أحمد راسم بدأ التفكير بإنشاء مدرسة الفنون والصنائع لايواء الايتام وتعليمهم الحرف والصناعة وتزويدهم بالثقافة . كما تم عام ١٨٩٤ م تأسيس المدرسة الإسرائيلية للذكور « الالينس » ، ثم تأسست المدرسة الإسرائيلية للاناث « الالينس » ، عام ١٨٩٨ م في عهد نامق باشا ، وأشرفت عليها جمعية الاتحاد العام الإسرائيلي التي مركزها باريس^(٢) . وقد ساعدت حكومة الولاية في فتح مدارس اليهود لكي لا يدخل أبنائهم المدارس الأجنبية الإيطالية والفرنسية . وكانت مناهج التعليم في مدارس « الالينس » تتضمن تعليم اللغات العبرية والعربية والفرنسية والإيطالية وعقائد وتاريخ بني إسرائيل والجغرافيا والحساب وأصول مسك الدفاتر والأعمال اليدوية^(٣) . أما المواد التي كانت تدرس في المسكن الرشيدية العثمانية - كما تظهر من شهادة المكتب الرشيدى بالخنس عام ١٩٠٠ - فهي القرآن الكريم والتجويد ، وعلوم الدين ، واللسان العثماني ، والإملاء واللغة العربية ، واللغة الفارسية ، والتاريخ ، والجغرافيا والحساب

(١) دار المحفوظات أوراق المعارف.

(٢) دار المحفوظات أوراق المعارف وتاجي ص ٣٠.

(٣) تاجي ص ٣٠.

والهندسة والصحة والخط وعلم الأشياء والرسم . وكانت مجانية التعليم في المكاتب الرشيدية قاصرة على الطلاب الفقراء . أما في مدارس الليانس فكان كل طالب يعطى بدلين مجاناً ، ويعطى المحتاجون مساعدات مالية ويرسل المتفوقون من الطلاب في بعثات إلى باريس أو تونس .

أما المدارس الأجنبية التي افتتحت في عهد أحمد راسم وحتى بداية القرن العشرين فكانت فضلاً عن مدرستي الليانس مجموعة مدارس فرنسية وإيطالية وضمت المدارس الفرنسية واحدة للذكور يشرف عليها الأخوة سانت ماري ، وأخرى للإناث تحت إشراف الأخوات سانت جوزيف وتول المدرستين الجمعية الكاثوليكية الفرنسية . وتضم مناهج التعليم فيها تدريس اللغات الفرنسية والإيطالية والانجليزية والمطبخ والجغرافيا والتاريخ والحساب ، وتدرس مدرسة البنات فضلاً عما سبق الأعمال اليدوية والموسيقى .

وتوسعت إيطاليا في افتتاح المدارس في نطاق نشاطها الاستعماري تمهيداً لاحتلال البلاد فأنشأت مدارس إيطالية في بنغازي والخمس ومحلة الضهرة بطرابلس ، وملجاً للصبيان ومدرسة ابتدائية للإناث وأخرى للذكور ومدرسة عليا اسمها مدرسة العلوم والتجارة في طرابلس . كما أنشأت مدرسة ليلية لتعليم السكران . وعملت هذه المدارس المنهج الفرنسي باللغة الإيطالية مضافاً إليه اللغات العربية والعبرية واليونانية . وتولت الحكومة الإيطالية الانفاق عليها مباشرة . وضمت مدرسة العلوم والتجارة مكتبة ضخمة فيها ألني كتاب ، ومتحفاً ومكاناً للرصد^(١) . وقد أشارت مابل تود لبعض هذه المدارس في طرابلس في كتابها فقالت « وهناك مدرسة فرنسية للصبيان يديرها الرهبان الماريانيون ، وهناك مدرسة للبنات وملجأ تديرهما راهبات القديس فنسنت ، ومؤسسات بإدارة الاتحاد اليهودي .. وادارت إيطاليا مدرستين ابتدائيتين للصبيان والبنات وروضة أطفال

ومدرسة فنية تجارية ألحقت بها محطة مراقبة التقلبات الجوية^(٢) . وقد حفز هذا النشاط الاستعماري التبشيري الأجنبي في ميدان التعليم السلطات العثمانية لمزيد من الاهتمام بالمعارف فأُسست عدداً من المدارس ، وأصبح في طرابلس منها في بداية القرن مدرسة عسكرية رشدية اعدادية داخلية ، ومدرسة ثانوية ، ومدرسة ابتدائية وأخرى اعدادية للبنات ، ومدرسة الصنائع ومدرسة العرفان وداراً للمعلمين .

وكان منهج دار المعلمين يتضمن تدريس التركية والعربية والفارسية والفرنسية والجغرافيا والتاريخ والرسم ودروس الأشياء ويقول ناجي عن مكتب العرفان « إنه تأسس لمنافسة المدارس الأجنبية فتفوق عليها ، ودراسته أوسع ومنهاجه أرق^(٣) » .

وقد أثبت ناجي جدولاً بعدد الطلاب والمعلمين في مدارس المدينة العثمانية والأجنبية في بداية القرن العشرين تستدل منه أن الأقبال على التعليم كان جيداً في تلك الفترة ، وأن المدارس الأجنبية استطاعت جذب نسبة من الطلاب تقارب نصف مجموع عددهم الكلي^(٤) ويقول الزاوي إن أحمد راسم عارض بشدة إنشاء المدارس الإيطالية واستعمل نفوذه للتفجير منها ، وبالرغم من ذلك فقد تعلم فيها كثير من الفقراء واليهود وصاروا تجاراً بعد ذلك وربطوا معاملتهم التجارية بإيطاليا^(٥) . ويرى بعض المعمرين في طرابلس أن أحمد راسم كان يمنع موظفي الولاية من ارسال أولادهم إلى المدارس الأجنبية .

ومن الأعمال التي قام بها أحد راسم في مجال المعارف إصلاح مطبعة الولاية حيث أمر بتجديد حروفها التي لم تبدل - كما قال النائب - منذ

(١) Todd س ٧٢ من الترجمة و ٤٧ من الأصل .

(٢) ناجي س ٣٢ .

(٣) ناجي س ٣٢ انظر الملحق .

(٤) الزاوي جهاد الابطال س ١٢ .

(٥) دار المغفولات مجموعة ادم انظر الملحق

لأحدى وعشرين سنة ، وجلب لها سائر اللوازم المطبعية . . . فأحضرت من دار السعادة قبل أربع سنين « أى سنة ١٣٠٨ » حروف جديدة على أربعة أنواع وغير ذلك من اللوازم بلغ ثمنها اثني عشر ألف قرش ، كما استجلبت من أوروبا آلة جديدة مكملة للطبع بالحجر بثمن قدره ثلاثون ليرة ^(١).

سياسة أحمد راسم في الولاية وأهم أحداثها في عهده

بعد أن عرضنا محاولات الإصلاح العثمانية التي جرت في عهد أحمد راسم ، نعرض لأهم الأحداث التي جرت في عهده لنتعرف من خلال هذا العرض على سياسته الداخلية .

شهدت الولاية عدداً من الأحداث الهامة في عهد أحمد راسم . وقد تحدثنا عن الأحداث التي سبقت توليه والظروف الصعبة التي أحاطت بالولاية في مستهل عهده ، كما أشرنا لبعض الأحداث التي حدثت خلال حكمه أثناء عرضنا لمحاولات الإصلاح التي قام بها . وإذا كان رصيد عهده من الأحداث كبير فلأن مدة حكمه طال ، ولأن الفترة التي تولى فيها كانت دقيقة ، ولأن الاضطرابات في طرابلس كانت ظاهرة مستمرة في الحكم العثماني خلال فتراته الثلاث ، فكان طبيعياً ألا يغلو عهد أحمد راسم الطويل من هذه الاضطرابات .

انشغل أحمد راسم في العام الثاني من ولايته بقضية شغلت الرأي العام الطرابلسي والسلطة على السواء ، تلك هي قضية إبراهيم سراج الدين وصحبه . ففي منتصف عام ١٣٠٠ هـ تجمعت تقارير عدد من المخبرين « الجرنالات » تتضمن « إخباريات » عن نشاط يقوم به مجموعة من شباب طرابلس ورجالها مع إبراهيم سراج الدين المدني . وكان ضمن هذه المجموعة أحمد النائب صاحب المنهل العذب وشيخ البلد آنذاك ، والشيخ حمزة

المدني وعدد من الشباب الطرابلس المتفتح . وقد اتجه هؤلاء للقيام بنشاط ثقافي وفكري وتنظيمي في الولاية - سنفصل الحديث عنه في فصل خاص - والذي يهمننا هنا هو أن سلطة الولاية حاصرت هذا النشاط في بدايته ، وسجنت جميع القائمين به وقدمتهم للمحاكمة . ولم تشفع لهم الصلة القوية التي كانت قائمة بين شيخ البلد - رئيس البلدية وبين الوالي . بل ولم يشفع لرئيس البلدية مركزه وماضيه في خدمة البلاد والدولة . ونستدل من التحقيقات التي أجرتها الحكومة أن « الجرنالات » كانوا منتشرين في طرابلس شأنها في ذلك شأن بقية ولايات الدولة في العهد الحميدي ، وكان يرأسهم « مأمور الخفية » ويتلقى تقاريرهم ، وكان كل « جرنال » يحمل رقماً يوقع به . كما نلاحظ من قراءة بعض هذه التقارير أنه يشوبها المبالغة ويتداخل فيها الكذب . ومع أن التقارير كانت ترفع إلى عالي مقام ولاية طرابلس الغرب إلا أن نسخاً منها كانت ترسل إلى استانبول رأساً ولعدة جهات فيها . ولذا لم يكن أمام الوالي إلا مسايرة اتجاه السياسة الحميدية العام التي عتمدت « الخفية » والجورنالات ^(١) . وقد انتهت التحقيقات في هذه القضية إلى توجيه التهمة لسراج والمدني والنائب حيث « تبين خيانتهم للدولة العلية بإلقاء الفساد والاختلال الموجبان لسلب راحة العموم وتسبيل أسباب دخول الأجانب في هذه الولاية التي هي من الممالك الشاهانية المحروسة » . وأفرجت السلطات عن مجموعة الشباب لأنهم « لحداثة سنهم وعدم قوة تمييزية لهم يعرفون بها ما يضر وما ينفع . . فلا لزوم لإدخالهم مع المظنون عليهم بوجه من الوجوه ^(٢) » . وصدر الأمر بنفي كل من النائب والمدني إلى الأسبانية ، وحبس سراج الدين في سجن الولاية حيث قدر له أن يلعب دوراً آخر . ونلاحظ على الأوامر أنها كانت ذكية حين جعلت سراج الدين كبش الفداء فرمته في السجن ، وتخلصت من شخصيتي المدني والنائب بالنفي ، واسكتت الرأي العام الافراج عن الشباب الآخرين .

(١) دار المعظوظات ، مستنطق قضية سراج

(١) النائب الجزء الثاني ص ٣٠ .

ولم يكده أحد راسم ينتهى من قضية سراج وصحبه حتى جابهته قضية الشريف حميد في فزان أواخر سنة ١٣٠١ هـ. وقد استمرت هذه القضية عدة سنوات، وأثرت على وجود الدولة في فزان وغات على الخصوص، وسنفصل الحديث عنها في فصل تال. والذي يهمنا في هذا المجال أن الوالى احمد راسم تصدى بكل قوة لهذه القضية وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على الشريف الكاذب - كما اسمته السلطات العثمانية - وذلك بعد أن دعا حميد إلى الثورة والجهاد لمكافحة الظلم وإحلال تعاليم الدين الصحيحة وطرد الحكام الأتراك الذين عاثوا في البلاد فساداً حسب رأيه. وزاد من اهتمام احمد راسم بهذه القضية أنه كان مثغلاً بمد نفوذ الدولة العثمانية إلى السودان الأوسط عبر فزان، الأمر الذى تطلب وجوداً قوياً للدولة في فزان. وقد نجح بعد جهد كبير في القضاء على الشريف حميد وإحلال الهدوء في غات والشاطىء. وبقيت ذكريات هاتين القضيتين في نفسه ودفعته إلى اتخاذ إجراءات مشددة لمنع العرب من زيارة الولاية إلا برخصة وتبعية ومراقبة كل زائر. ونجد في برقية أرسلها بالشفرة إلى رئاسة الوزراء في ٢٨ كانون أول ١٨٩٢ ذكراً للقضيتين وإشارة إلى كون سراج مكابياً يخطمه بقوله: ولهذا أمرت بعدم السماح لأى أحد يصل برأ أو بحراً بقصد طلب الإعانة أو السياحة أولاًى غرض كان من مكسة أو من بلاد عربية أخرى للتجول داخل الولاية. وأصدرت الأمر إلى جميع الملحقات بأن يقبضوا على كل مشتبه فيه لا يحمل رخصة للسياحة من مركز الولاية ولإرساله إلى هنا للتحقيق في أحواله وإعادته للبلد التى جاء منها^(١) ونلاحظ في ملف التحقيقات بدار المحفوظات أنه جرى التحقيق مع عدد من الأشخاص المشتبه بهم خلال حكم أحمد راسم. وهذا كله يصور جو الحذر الذى أحاط بتلك الفترة سواء بسبب نشاط الأجانب أو بسبب تحرك الشعب.

ونقتبع سياسة أحمد راسم والأحداث التى جرت في عهده في وثائق تلك الفترة، فنلاحظ أنه كان حريصاً منذ توليه على إعادة هبة الحكومة في الولاية بوضبط الأمور فيها. وعدم من أجل ذلك إلى دراسة أحوالها وتفهم الأوضاع السائدة فيها، ثم اتخذ الإجراءات التى تمكن قبضة الدولة منها، ورسم سياسته لمخدمة هذا الهدف. وقد وجد أن عليه الاهتمام بإقامة علاقة موزونة مع أعيان البلاد، والعناية بموظفي الولاية وجهازها التنفيذي. وتشرح لنا رسالته التى بعث بها إلى الصدر الأعظم بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٠١ ملامح سياسته تجاه الأعيان والموظفين، كما تشير إلى واقع الحكومة المتفكك الذى كان سائداً في أولاية وجهوده لربطه وضبطه. فهو يقول:

« لا حاجة للبيان والعرض على انظار جناب مقام الصدارة العظمى الباحثة عن دقائق الأمور بأن جل حوادث الفساد في البلاد تأتي دائماً بتحريض أرباب المنافع الذاتية والأغراض الشخصية من هم في المقدمة، وكما أن ذلك من الأمور المجربة فقد ثبت لعبدكم من شهودات وتحقيقات العاجز منذ قدومه إلى هنا بأن رباط عقد الحكومة تفكك شيئاً فشيئاً بعد ولاية مشير الضبطية الأسبق أمين باشا. ولما رأيت تشعب نفوذ الحكومة وانفراد بعض الأعيان بالنفوذ كنت أعاملهم بالشدة أحياناً وباللين أحياناً وكنت من جهة احطم وأخو نفوذ البعض من الذين بلغ نفوذهم الغاية القصوى في الأولوية والأفضية والنواحي، ومن جهة أخرى أعمل لجعل حكم القانون في المستقبل بعينه وتماهه مرعى الإجراء في هذه الولاية بصورة حسنة اسوة بالولايات الملكية الأخرى، والحاصل أن يحسد مطلوب الدولة مكانه واستخدام ذوى وأرباب الكفاءات من أعيان الأهالى^(٢). وهكذا حرص الوالى أن يجعل حكم القانون مرعى الإجراء في الولاية، ويحد من نفوذ الأعيان الذى بلغ حداً كبيراً قبل

تولييه . وعمد إلى أسلوب مزج فيه الشدة باللين . وقد لاحظنا هذه السياسة في موقفه من قضية سراج حيث لم يتساهل مع صديقه النائب رئيس البلدية . ولا حظناها في إجراءاته المالية التي استهدفت التقليل من امتيازات الأعيان والمتنفذين . ولكن أحد راسم لم يشأ أن يقضى على نفوذ الأعيان تماماً لأنه شعر بحاجة السلطة لهم كداخل لها في مناطقهم ، فاستعان بهم ضمن الحدود التي رسمها ، وانتقد سياسة الأستانة في الاستغناء عنهم وتعيين موظفين من خارج الولاية بدلا منهم .

وكانت الدولة قد شكلت « لجنة انتخاب الموظفين السامية » ، واتخذت هذه اللجنة قاعدة اختيار القائماقين والنواب من الأستانة وإرسالهم إلى الاقضية . ويقول أحمد راسم في نقد هذا الإجراء : « بيد أن المستخدمين المحليين لما شاهدوهم طراً على مهمهم فتور وعلى عزائمهم رخاوة ، وهذا الحال سيؤدي إلى الاخلال بالمساعي المبذولة والنتائج المنتظرة ، لسياسته الروامية إلى مضاعفات إيرادات الدولة وضبط الأمور فيها . وهو يتحدث عن استياء الأعيان من هذا الإجراء ، فالأوفين بالقائمة والنيابة من الوطنيين — وإن لم يجهروا بعد بالقول — إلا أنه يفهم من أحوالهم وتصرفاتهم أن ذلك يوجب انفصالهم قليلاً . وبما أن بقاء أعيان الأهالي المألوفين بالتعيين من مثل هذه الوظائف على الاستيلاء لا يوافق العدل والحق وسياسة الدولة ، وبما أن الأهالي منذ زمن يرونهم كبراء فإن السكف عن استخدامهم جملة لا يتناسب مع المسكان والمصلحة . فهو يشير إلى نظرة الأهالي لهم وإلى فائدة الدولة من الاستعانة بهم . ويبدو من الرسالة أن أحمد راسم لاحق هذا الموضوع مع نظارة الداخلية في الأستانة فترة حتى وافقت الجهات المختصة على رأيه ، ولكن اللجنة تشبث بموقفها . وهو يصف من ترسلهم اللجنة بأنهم لا يصلحون لأي عمل . وليس لهم لدى العربان والعشائر هنا أية مكانة وحيثية ، ويحذر مرة أخرى من أن هذا الإجراء « سيعرقل المعاملات التنفيذية والسياسية ويؤدي إلى تأخر عظيم في جباية الأموال الأميرية وفي الشؤون

الإدارية . . . وإلى أنجاس مرة أخرى مكرراً عرض وبيان حقيقة الحال ، وفي كل الأحوال فإن الأمر والإرادة لحضرة من له الأمر » (١) .

وحرص أحمد راسم على متابعة أعمال كبار موظفي الولاية وعلى توعيتهم سياسته التي استهدفت ضبط الأمور وإقامة علاقة موزونة حسنة مع الأهالي . وقد حدث أن علم بأن متصرف الجبل راغب بك المصري ضرب أحد مشايخ الصيعان فرحل وقيبلته إلى تونس ، فكان أن تتبع أحمد راسم هذا الموضوع ودرس سياسة المتصرف في الجبل ، ثم كتب له رسالة شديدة في ٢٩ ذى القعدة ١٣٠٤ هـ تبصره بنتائج تصرفاته مع الأهالي وتشرح له السياسة التي يجب أن يتبناها في تعامله معهم ، وقد جاء في الرسالة « أن أحوال وطبائع أهل الجبل معلومة لدى العاجز . إن المتصرف الصحيح في كل الحالات حسبا هو مرتب على صفة الوظيفة يؤدي إلى النجاح . ولكن على الرغم من أننا خاطبناكم واندركنا كم مراراً عديدة فإنكم مستعربون في تصرفاتكم السابقة .

يروى أن بسبب ضربكم أحد مشايخ الصيعان رحلت قبيلته إلى تونس . كما أن عدم ذهاب مشايخ التوايل إليكم وقدومهم إلىناكل سببه الخوف من الضرب . إن هذا الإجراء من الأسباب الموجبة لنفرة الأهالي وتوحشهم . . . وتمضى الرسالة في شرح أخطاء المتصرف سواء في السماح لقبيلة نزحت من منطقها بالإقامة على حدود المنطقة ، أو بترك قبيلة أخرى تنوغل في الجزائر مما « قد يؤدي إلى قيام الفرنسيين بالشكوى والتحريك ضدنا » . ويطالب الوالي المتصرف بتحسين علاقته بالصيعان والتوايل وينذره بالتخلي عن سياسته الرعناء (٢) .

(١) دار المحفوظات مجموعة أدهم أنظر الملحق

(٢) دار المحفوظات مجموعة أدهم نص الوثيقة في ملحق الوثائق

ونجد بين وثائق تلك الفترة ما يشير إلى تور العلاقات بين عدد من أعيان الولاية من جهة والوالى أحمد راسم من جهة أخرى . وذلك في العام التاسع من ولايته سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٩٠ م . ويبدو أن سياسته الداخلية أغضبت بعضهم ، كما نتوقع أن يكون لطول المدة التى استمر فيها والياً أثره في ضيق البعض منه . وقد اتخذ التعبير عن هذا التوتر في العلاقات صورة حرب برقيات من طرابلس إلى الآستانة اختتمت ببعض الإجراءات . ونستدل من مطالعتنا هذه البرقيات أن عدداً من أعيان وأهالى طرابلس نعى إلى سمعهم بأن الوالى كتب إلى استانبول عن ميل أهالى الولاية إلى الأجانب ، فغضبوا لذلك أشد الغضب ، وكان ذلك الخبر الشرارة التى أشعلت حرب البرقيات والسبب المباشر فيها . أما أسباب السخط غير المباشرة فكانت متصلة بسياسة الوالى الداخلية ، وخاصة أسلوبه في التعيينات ، وانتشار الجاسوسية والمخبرين في الولاية . وقد اشتدت حرب البرقيات هذه التى سنفصل الحديث عنها في فصل تال . واتهم الأعيان الوالى تهماً كبيرة ورد هو بانهاهم . واستمر التوتر لعدة شهور جاء بعدها حكم السلطان وتضمن في اثنين من الأعيان الشاكين وإبعاد اثنين من انصار الوالى وتثبيت أحمد راسم في الولاية ليستمر عهده خمسة أعوام أخرى .

تقدم لنا هذه البرقيات والعرائض - التى سنعرض لها فيما بعد - فكرة عن كيفية سير الأمور في الولاية . وتسلط أضواء على سياسة أحمد راسم فيها وصدى هذه السياسة بين الأهالى . ويبدون أن الآستانة كانت راضية عن هذه السياسة في خطوطها العريضة لانسجامها في ناحية الأمن مع السياسة الحميدية . كما يتضح لنا من موقف الأعيان الشاكين وجود رأى عام في طرابلس له تأثيره . ونلاحظ أن السلطان كان الحكم الأخير وكنيته هي السككية الأخيرة والنافذة ، وهذه إحدى سمات الحكم العثماني الطويل الذى حرص أن

يجعل السلطان لجميع الرعية على اختلاف قومياتهم ، وأظهره باعتباره المنصف لهم من ظلم ولائه وتحكمهم .

ولم يكد أحمد راسم ينتهى من خلافه مع أولئك الأعيان حتى انشغل مرة أخرى بقضية جديد برز فيها ثلاثة أبطال . وكان أولهم قد شغل رأى العام الطرابلسى فترة ونعنى به إبراهيم سراج الدين الذى كان في سجن الولاية تحت التوقيف منذ حبسه في قضيته الأولى . واشترك معه هذه المرة محمد بوربيعة الذى تزعم معارضة الأعيان لراسم باشا واستدعى إلى استانبول . ويبدو أنه عاد منها بعد فترة وجيزة ودخل سجن الولاية بتهمة إخلال « الاسايس » - الأمن - وإلقاء الفساد بالولاية . وكان الثالث محام اسمه يوسف عبد الجليل الصيد قبض عليه بتهمة « تحقير ذات الحضرة السلطانية » . وقد صدر قرار بلزوم محاكمة الثلاثة بعد أن نشطوا من داخل السجن في معارضة الوالى واتخذ سراج الدين أسلوباً جديداً لإثارة قضيته بادعائه « المهدوية » . وسندرس هذه القضية تفصيلاً في فصل تال . والذى يهمنا منها في مجال حديثنا عن سياسة أحمد راسم الداخلية أنه تشدد في متابعتها ، وفتح تحقيقاً طويلاً استغرق عامين واستمر حتى سنة ١٣١٠ هـ واسترجع تحقيقات قضية سراج الأولى . ويبدو أن أحمد راسم كان منفصلاً من معارضة الأعيان له فتابع هذه القضية التى انتهت بإصدار حكم الإعدام على إبراهيم سراج الدين .

ويتضح من وثائق الفترة أن عرائض وبرقيات التأييد أو الشكوى إلى استانبول لم تتوقف . فنجد عريضة مؤرخة في ٢٨ محرم ١٣١٣ مقدمة من أهالى تاجورا تعبر عن الابتهاج بتجديد ولاية أحمد راسم . ونجد من بين الأخبار أن أحمد راسم أجرى تحقيقاً بتاريخ ٣٠ مارس ١٣١٤ مع بعض الأهالى بشأن شكايات ارسولها تلغرافياً لاستانبول^(١) . وهكذا بقيت مظاهر تور العلاقات بين بعض الأهالى والوالى إلى نهاية عهد أحمد راسم .

الموضوع فنجد مسودة رسالة موجهة من أحمد راسم إلى « حضرة الشيخ هاشم بن عمر الكانمي حاكم برنو » ومؤرخة في ٦ شعبان ١٣٠٣ ، و ٢٨ نيسان ١٣٠٢ نفهم منها أن الشيخ هاشم تولى حكم برنو بعد وفاة أخيه الشيخ إبراهيم ، وأنه أرسل رسالة مع رسول خاص إلى متصرف فزان ومنه إلى والي طرابلس يعلم بتوليته ويبدى رغبته « في دوام الود والصداقة التي كانت منذ زمن » بين الدولة والأسرة الحاكمة في برنو . ويقول أحمد راسم في رده « لقد فتحنا الرسالة بكامل التعظيم والتبجيل فقرأناها ودعونا لكم بالتوفيق وازدياد فضل وسعادة حكمكم السامي ، كما سرى وصول العبد الذي أهدبتموه والمدعو سليمان ، وهذا يؤيد دكم وصداقتكم الكريمة أسوة بأبيكم العظيم الشأن . » ويذكر أنه عرض في الحال مضمون الرسالة على « الخليفة الأعظم ومتبوعنا الأفخم صاحب الطول والشوكة الملك العظيم الشأن حضرة سيدنا السلطان الغازي عبد الحميد خان » ، وما يلفت النظر هذه السلسلة من الألقاب ، ويقول « لم يخف عليكم ما كان بحمله والدم من محبة وتبجيل لحضرة مولانا السلطان ، وما كان يخف به تجار طرابلس من رعاية ولطف وعناية ، كما أن من البديهي أن النفع من الاتجار مع برنو يعود على الطرفين . ولما كان دوامها وازدهارها منوط بهمة حكمكم السامي فإننا نرجو أن تستمر من الآن فضاء المراسلات والمخبرات بيننا وأن تدوم عواطفكم الكريمة في حق أهالي طرابلس وفي حق الداعي لكم وأن تردنا خطاباتكم الخاصة بمصالحكم في هذا الجانب »^(١) .

واضح من الرسالة أن العلاقات كانت قائمة بين طرابلس وبرنو ، وقد بدأت ثمرة طبيعية للعلاقات التجارية بين طرابلس وأفريقيا الوسطى . ويبدو أن أحمد راسم خطط لفتح هذه العلاقات ولربط برنو وما حولها بالدولة وبشخص السلطان الذي حرص على إبراز صفته

نشاط أحمد راسم في أفريقيا وعلاقته بالسنوسية

بعد أن عرضنا لسياسة أحمد راسم في الولاية وأهم الأحداث التي جرت في عهده ، لا بد أن نشير إلى جهوده لمد النفوذ العثماني في أفريقيا ، ونعرض لعلاقته بالحركة السنوسية التي كانت في أوج نموها آنذاك .

وقد اهتم بعض الولاة العثمانيين بتوسيع حدود الولاية من ناحية الصحراء الكبرى وخاصة بعد أن جد الفرنسيون في اكتشافها واحتلالها . وضمت غات في عهد والي مصطفي عاصم إلى الإدارة العثمانية . وفي عام ١٨٨١م أسس العثمانيون قضاء تورشادة في الجنوب وهو يضم منطقتي تبستي وبورقو وعينوا له قائمقام اسمه مينوتوكي^(٢) .

ولا نجد في الكتب التي أرخت هذه الفترة سوى إشارات عابرة عن جهود أحمد راسم لمد النفوذ العثماني في أفريقيا . من ذلك ماورد في كتاب « طرابلس غرب » عند الحديث عن أحمد راسم « وفي وقتئذ كانت برنو وباقرى ووادى وكاتم وبوركو وتبستي تحت نفوذ طرابلس . ووقع اتفاق عام ١٨٩٨ بين إنجلترا وفرنسا على أن تحتل فرنسا هذه الأماكن مقابل احتلال إنجلترا لدارفور وبحر الغزال التابعتين للأبالة المصرية . ورغما على احتجاج الباب العالي تم هذا الاحتلال »^(٣) . ويشير الشنيطي في كتابه « قضية ليبيا » إلى محاولات الدولة العثمانية لمد سلطانها في الصحراء جنوباً « فأرسلت حامية لتحتل منطقة تشاد بعد أن ذبحت حاميتها الأولى سنة ١٨٨٦ »^(٤) . ونبحث في الوثائق طلباً لمزيد من المعلومات في هذا

(١) عزيز سامح ص ٢١٢ من الترجمة

(٢) تاجي طرابلس غرب ص ١٥٨

(٣) الشنيطي قضية ليبيا ص ٢٧

كخليفة أعظم . وقد جرى التركيز على الروابط الدينية بين برنو والدولة باعتبار أهالي برنو من المسلمين ، وما جاء في رسالة أخرى لأحمد راسم وجهها لحاكم برنو « . . . واشتراكنا في الدين المبين الإسلامي والأخوة مع العبودية والإخلاص الذين تظهروهما بمقتضى الشرع الحنيف المحضرة عظيم الشأن مولانا وما تقتضيه السجدة والحمة الإسلامية تجعل من الواجب المحتم لإخطاركم وإعلامكم . . » وتاريخ هذه الرسالة الثانية ٢٨ نيسان ١٣٠٣ هـ أى بعد عام واحد من سابقتها . وموضوعها الرئيسي التحذير من الشريف حميد الذى ظهر في فزان وثار بالأهالي على الدولة ، وطلب التعاون للقبض عليه . وتصف الرسالة حميداً بأنه شريف مزعوم « وليس مسلماً بل هو جاسوس لادين له أو فدم من قبل الأجانب المبغضين للمسلمين لبث الفوضى والفساد . وتحقق أن غايته بث شروره أينما حل لخلع الحكام والحلول مكانهم . فالرجو المنتظر من همه وعناية مقامكم السامى إزالة وجوده الملوث بالفساد والإفادة لمن سندفع الحسماية ريال - قيمة المكافأة - التى ستعطى للقابض عليه والسلام » (١) .

وهكذا حاول أحمد راسم أن يستعين بحاكم برنو في ملاحقة الشريف حميد . وكان خروج هذا الرجل قد أثر على سير التجارة بين طرابلس وبرنو وقد لاحظ روسى أن عام ١٨٨٦ م شهد هبوطاً في تجارة السودان كان كارثة على اقتصاد طرابلس ، ويقول « إن الهبوط استمر عام ١٨٨٧ - وهو عام كتابة الرسالة الثانية - ونقصت المبادلات التجارية مع برنو ووادى » (٢) . ولم يقع بين أيدينا غير هذا القليل عن علاقة أحمد راسم بالسودان الأفريقى ، وهو يبين لنا وجود علاقة ولكنه لا يكشف عن مداها . ونستنتج من دراسة الفترة ككل أنها بقيت علاقته محدودة تقوم

على الصلات التجارية في المقام الأول ، ثم لم تلبث أن اهتزت بفعل التدخل الأجنبى الذى تزايد في السودان الأفريقى في نهاية القرن الماضى بعد عهد أحمد راسم مباشرة . كما نستنتج أن أحمد راسم حرص على أن يباشر بنفسه تقوية العلاقة ولم يستفد من جهود الحركة السنوسية في هذا المجال . وإذا نظرنا إلى علاقة أحمد راسم بالحركة السنوسية نجد أنها كانت عادية ونجد أنه لم يحدث اتصال وثيق بين الوالى والسيد المهدي لإمام الحركة آنذاك ، بل ولا نعر في وثائق عهد أحمد راسم إلا على إشارات طفيفة عن الحركة وبعض الرسائل المتبادلة . ومرد ذلك في الدرجة الأولى أن انتشار الحركة الواسع كان متركزاً في بركة ، وكانت بنغازى متصرفية مستقلة عن طرابلس وقتذاك وتقع لاستانبول رأساً . ومن الرسائل التى أرسلها أحمد راسم إلى السيد المهدي رسالة بتاريخ ١٧ صفر ١٣٠٣ يستفسر فيها عن مكتوب أدرج في الجرائد المصرية منسوب إلى السيد المهدي ينصح فيه اتباع المهدي السودانى بالالتزام بطاعة الدولة . والرسالة تتضمن عواطف طيبة (٣)

ونستدل من دراسة عهد أحمد راسم عموماً أنه على أية حال لم يكن من المتحمسين للسنوسية ، وأن الحذر الذى غلب عليه بفعل الظروف التى أحاطت بولايته شمل موقفه من الحركة . فتجده يقف موقفاً يخلو من الترحيب من أحد الأخوان السنوسيين قدم لزيارة الخمس . وقد جرت مراسلات بين الوالى ومتصرف الخمس أمر فيها الوالى المتصرف بتعقب محمد السنى وتبعية حركاته والقبض عليه فيما إذا ظهرت عليه أحوال توجب الشك في سياحته . وعندما رد المتصرف على الوالى بتقرير عن حركات السنى وأنه جاء لإتمام بناء مسجد ، كتب الوالى يسأل عن موعد سفره ويحث على استعجاله (٤) . ومع أن الدولة العثمانية نشطت إبان تلك الفترة

(١) الدجاني السنوسية ص ٢٩٧ نص الرسالة كاملة

(٢) دار المحفوظات ، مراسلات الولاة والدجاني السنوسية ص ٢٠٧

(١) دار المحفوظات مجموعة ادم أنظر الملحق

(٢) Rossi ص ٣٥٠

في التعرف على الحركة السنوسية وتقوية العلاقات معها، وانشغل السلطان عبد الحميد - صاحب سياسية الجامعة الإسلامية - إنشغالا خاصاً بهذا الموضوع، فإننا لانجد لأحمد راسم دوراً كبيراً في هذا النشاط . فقد كلفت الأستاذة متصرف بنغازي رشيد باشا بدور كبير وأرسل السلطان مبعوثاً خاصاً هو الصادق المؤيد لزيارة الكفرة بعد انتقال السيد المهدي من الجنوب إليها . واكتفى الصدر الأعظم سعيد نامق أن يوصي أحمد راسم في رسالة مؤرخة في ١٥ صفر ١٣١٣ هـ أن يحسن معاملة السنوسية وأن يبين له حرص السلطان على معرفة أسباب انتقال السيد المهدي^(١).

إنهاء ولاية أحمد راسم

انتهت ولاية أحمد راسم عام ١٨٩٦ م و ١٣١٤ هـ بعد أن استمرت على مدى خمسة عشر عاماً . وقد قرر السلطان عبد الحميد نقله لاستانبول ليكون أحد أعضاء « الدائرة الملكية بشورى الدولة » . وبعد أن انتقله جاء بعد أن اشتد عليه المرض ، وقد كتب في رسالة بعث بها إلى طرابلس بعد حلوله باستانبول يقول : « صحتي طيبة والله الحمد بالنسبة للأول ومن المأمول الاستفادة التامة من جودة الهواء تدريجياً » . والرسالة مؤرخة في ١٦ تموز ١٣١٣ الذي يوافق خريف ١٨٩٦ م، وهو يشير فيها إلى ماغمره به السلطان من رعاية وعطف^(٢) . ولم تطل حياة أحمد راسم في استانبول فقد توفي بعد عام في خريف ١٨٩٧ . وقد نشرت مجلة المعلومات في العدد ١٨ بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٥ و ٢٠ تشرين الأول ١٨٩٧ صورة له تمثله وهو شيخ مسن وكتب تحتها « أحمد راسم باشا أحد أعضاء الدائرة الملكية بشورى الدولة الذي توفي أخيراً »^(٣).

وهكذا يكون أحمد راسم قد بقى في طرابلس حتى جاوز السبعين من عمره . وزجج أن انتقاله كان بسبب تدهور حالته الصحية . وتبقى ولايته ظاهرة فريدة في تاريخ العهد العثماني الثاني من حيث طول مدتها . وقد طالت مدة ولايته لأنه استطاع أن يحافظ على ثقة عبد الحميد به ، فكان دائماً مثال الطاعة والإلتزام، ولأن الظروف الدقيقة التي أحاطت بتلك الفترة تطلبت وجود وال يعرف البلاد جيداً ويكون قادراً على القيام بالإصلاحات . ونستطيع بعد عرضنا التفصيلي لعهد أحمد راسم أن نقول إنه كان عهداً حافلاً بالأعمال والأحداث فتجمع فيه منها ما لم يتجمع لوال آخر في الفترة التي ندرسها .

(١) تراجع علاقة الدولة العثمانية بالحركة السنوسية بالتفصيل في كتاب الحركة السنوسية

ص ٢٠٣ - ٢١٥

(٢) مجلة المعلومات العدد ١٨ ص ٨

الفصل الثالث

طرابلس الغرب والولاة العثمانيون

بعد أحمد راسم

(١٨٩٦ - ١٩١١)

تتالى على طرابلس بعد أحمد راسم وحتى الغزو الإيطالى عدة ولاة حكموا خمسة عشر عاماً. وقد اختلفت المصادر فى تحديد عددهم ما بين ثمانية وعشرة ولاة. وتفاوتت مدد ولاياتهم بين أقل من عام وبين أربعة أعوام. وكان خمسة منهم فى عهد عبد الحميد، واستمر الخامس بعد الانقلاب على عبد الحميد، وتبعه ثلاثة أو أربعة آخرون فى عهد المشروطية الثانية الذى سيطرت فيه جمعية الاتحاد والترقى. ونلاحظ وجود اختلاف بين المصادر فى إيراد اسمائهم وتحديد تواريخ توليهم. وقد أثبت الزاوى فى (جهاد الأبطال) بعض هذا الاختلاف وأدلى برأيه فى ترتيبهم واعتذر إن «كان لعلماء التاريخ بعض الملحوظات على هذا الترتيب، وعذرى فى ذلك قلة المصادر ووقوفى عند ما وقفت عليه منها بعد الاستعانة بمعلومات بعض المواطنين على ترجيح ما اخترته^(١)». وسنستعرض تاريخ هؤلاء الولاة واقفين عند أهم الأحداث التى جرت فى عهودهم ومثبتين أهم أعمالهم. وسنحرص خلال ذلك على ذكر الترتيب الذى نرجح صحته لهم. وقد عدنا لأهم المصادر وللكثير من وثائق دار المحفوظات توخيًا للدقة.

(١) الزاوى جهاد الأبطال ص ١٢

ولاية سليمان نامق

(١٨٩٦ - ١٨٩٨ م) و (١٣١٢ - ١٣١٤ مالية)

تولى سليمان نامق الحكم في طرابلس بعد أحمد راسم . وقد باشر عمله في حزيران ١٣١٢ الموافق تموز ١٨٩٦ م^(١) . ويلاحظ كاكيا أن كلا المؤرخين « فيرو » و « بيريني » قد أدرجا خطأ اسم كمال باشا باعتباره الوالي الذي خلف راسم ويقول بأن « الالتباس وقع لأن كمال باشا كان حاكماً مقاطعة طرابلس ، وهو ضابط عثماني تزوج ابنة أحمد راسم . ويذكر كاكيا أن نامق هو الذي تولى بعد راسم في عام ١٨٩٨ . والواقع أن ولايته كانت في عام ١٨٩٦ - كما أورد ناجي وروسي - وكما يتضح من الوثائق وتواريخ الأحداث التي جرت في عهده .

ومع أن عهد نامق لم يمتد إلا عامين ، إلا أنه خلف ذكرى طيبة في الولاية . وقد شهد له سليمان الباروني بأن عهده كان نقطة تحول ومثبت روح جديدة . وكان الباروني يتحدث عن طرابلس الغرب مفتاح أفريقيا في جريدته الأسد الإسلامي عام ١٩٠٨ ، فعنى حظ الولاية العاثر بالكثير من ولائها وقال مضى على هذه الولاية المسلسلة الشاسعة الأطراف أمد وهي تحت حكم اللواء الهلالي الأحمر خادمة النفوس مينة الهمم لآحراك لها ، يحول في عامها فارس الجهل . . يرى المنتبه منها معاكسة الحكومة في كل مشروع سيادة . . فأصبحت مع تساهل بعض الحكام وحلم بعضهم وجبن آخرين خاوية من كل ما يؤذن بالرقى وسعادة الأمة أفرغ من فؤادهم موسى من كل أجل يدل على الحياة وينهض الأمم من هوة الفقر والتقهقر . ووصف بعض ولاه الأمور الذي كانوا سبباً في تردى أحوال الولاية بأنهم لا يهتم

الإصلاح أنفسهم . ثم تحدث الباروني كيف اهتم السلطان بالولاية « فوجه إليها نظره فشمعتها عنايته فتحرى الأكمل من رجاله في انتخاب ولائها وتولى تعيينهم بنفسه وكان أول ما أنبت فيها روح الحياة الجديدة في مدة صاحب الدولة نامق باشا^(٢) » .

فإذا تتبعنا أهم أعمال نامق نجد أنه أولى اهتماماً كبيراً للتجهيزات العسكرية وخاصة تدريب الأهالي على حمل السلاح . وقد سبق أن أشرنا إلى النداء الذي وجهه عام ١٣١٤ هـ إلى الأهالي يحثهم فيه على التدريب ، وذكرنا أنه قام بحولة في أنحاء الولاية للاستجابة عن تساؤلات الناس والتعرف على أحوال الولاية . ويقول كاكيا إن نامق « جرب أن يدخل الخدمة العسكرية الاجبارية ، ولكن الحالة لم تساعد على ذلك لحدوث عصيان كبير هوجمت به مدينة طرابلس . وقد اجتث هذا العصيان واستؤصل ، وسجن رؤساء بعض القبائل على أيدي بحرى باشا الجريء قائد حامية طرابلس^(٣) . ولا يوضح لنا كاكيا أمر هذا العصيان ، ولا يشير إلى مكانه . ولم نجد في الوثائق العثمانية بدار المحفوظات ما يجلي لنا أمره . ولكننا نستدل بما ورد في الوثائق أن نامق نجح إلى حد ليس بالقليل في برنامج التدريب العسكري لأهالي الولاية . فأنشأ كتاب الحميدية وعم التدريب في جميع أنحاء الولاية ونظمه كما سبق أن أوردنا . وقد حفظت لنا مجلة المعلومات مجموعة صور لفرسان ومشاة السكاكر الحميدية المحلية التي تشكلت في طرابلس الغرب بعناية الحضرة السنية السلطانية ويتضح من هذه الصور كبر الحشد ، وتوزع أما كن التدريب^(٤) . كما يتضح من الوثائق أن هذه الكتابات ضمت أكثر من سبعين طابوراً وثمانية عشر آلاياً . وهذا يدل

(١) سليمان الباروني صفحات خالدة من الجهاد جمع زعيمة سليمان الباروني ص ٥٩ .

(٢) كاكيا ص ٥٩ من الترجمة .

(٣) المعلومات العدد ١٠ بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٣١٥ و ٢٥ أغسطس ١٨٩٧ م .

(٤) انظر ناجي ص ١٥٩ وثبت الولاية في كتاب روسي .

على أن جهد نامق في اقناع الأهالي أمر إلى حد لا بأس به . وهناك رسالة موجهة من الولاية إلى الديوان السلطاني في استانبول مؤرخة في ٢١ شباط ١٣١٣ مالية وه مارس ١٨٩٨ . تعكس نجاح نامق في هذا المجال وتوضح كيفية تنظيم التدريب . وما جاء فيها .

« .. تمسكنا في بحر هذه المدة القصيرة من عرض وتلقين التدريب الابتدائي لأربعة عشر كنية من المشاة وخمس الايات من فرسان عساكر الحميدية المحليين . ولما كان أفراد الاسنان المكلفين بالخدمة يملعون مئات الألوف فإنه يتعذر اجتماعهم جملة في مراكز التدريب ، فقد تقرر ببنية المذاكرة مع قيادة الفرقة الملكية تقسيم مدة التدريب التي هي أربعة أشهر على موسمين في غير أوقات الزراعة والحصاد في شهور شباط ومارت واغستوس وايلول ، وأن يحضر أفراد كل قبيلة بالمناوبة على اربع أو خمس مجموعات ، فإن ما مجموعه السبعين كنبية مشاة والثمانية عشر آلاى من الفرسان المقرر والمتصور في الوقت الحاضر تشكيلهم من كافة الأهالي نامل ونتمنى من اللطف الجليل للقادر المطلق أن ننتهي قريباً من اتمام تدريباتهم كافة في انتظام تام . . » وتتضمن الرسالة كشفاً بتشكيلات الطواير والفرسان وتوزعهم على الاقضية ومراكز التدريب (١) .

ومن الأعمال التي اقترنت باسم نامق في طرابلس وحفظت ذكراه بناءه مدرسة الفنون والصنائع . وقد ظهرت فكرة تأسيس مدرسة تأوى أيتام الفقراء وتعلمهم الصناعة وتزودهم بالثقافة في أواخر عهد أحمد راسم . فتولى نامق ابراز الفكرة إلى حين الوجود واستعان بمجلس الولاية في طرحها كمشروع خيري يسهل فيه المواطنون . فتم جمع التبرعات للمشروع كما جيببت ضرائب إضافية على بعض الصادرات لتأمين ميزانية المدرسة .

ومن الوثائق التي نجدها في دار المحفوظات وثيقة تتضمن قرار مجلس إدارة الولاية بالموافقة على اقترح مجلس إدارة مدرسة الصنائع بجباية عشرة قروش لمكتب الصنائع عن كل نخلة تقطع لاستخراج « اللاجبي » منها (١) . كما نجد نصيب ميزانية المدرسة من واردات البلدية والحلفا وبيع اللحوم . وقد تضمن برنامج التعليم في المدرسة عدداً من مواد التعليم الفني والمهن كالنجارة والحدادة والحياكة والطباعة والتجليد والنقش والرسم والموسيقى والطلاء الخ . وكانت تدرس بها اللغات التركية والفارسية شأنها في ذلك شأن المدارس العثمانية الأخرى . وقد استمر العمل في إنشاء المدرسة التي ببيت خارج السور طيلة عهد نامق ولم يكتمل لإنشاؤها إلا في عهد الوالي حافظ . .

واهتم نامق أن يزود مدينة طرابلس بمزيد من ماء الشرب بعد أن ظهر أن ماء بر « بومليانة » الذي جلبه أحمد راسم للمدينة لم يعد كافياً لسد حاجات سكان المدينة بعد ازدياد عددهم . فعمل نامق على تأمين موارد أخرى للمياه ، ونقل مياه عين زارة على الخصوص إلى المدينة . ونجد في مجلة المعلومات صورة لنوع ماء عين زارة « الواقع التثبت بإجرائها إلى طرابلس الغرب » وصورة أخرى تمثل عمليات حفر جسيمة على عمق ١٣ متراً في مجرى ماء العين التي تقرر نقل مياهها إلى طرابلس ، وصورتين آخرين لسير العمل في هذا المشروع (٢) .

وفي عهد نامق ظهرت جريدة الترقى أول صحيفة شعبية سياسية صدرت بمدينة طرابلس الغرب . وكانت تصدر بالمدينة منذ عام ١٨٦٦ م جريدة رسمية تحمل اسمها وتنفذ اخبار حكومة الولاية الرسمية .

(١) دار المحفوظات بمجموعة أدم انظر الملحق

(٢) مجلة المعلومات العدد ١١ تاريخ ٣ ربيع الآخر ١٣١٥

وقد صدر العدد الأول من الترقى في ٢٦ محرم ١٣١٥ هـ - ٢٦ يونيو ١٨٩٧ . وكانت جريدة اسبوعية تصدر كل سبت وتطبع بمطبعة الولاية . وصدر هذه الجريدة في العهد الحميدى الذى كان يضيق بالصحف يشير إلى عقلية نامق التحررية . ولم تعمر الترقى في العهد الحميدى طويلا ، فما لبثت أن تعطلت . ويبدو أن طبيعة العهد الاستبدادى غلبت وتفاعلت معها صعوبة الظروف المادية ففرضت إغلاق الجريدة . وكان رئيس تحرير « الترقى » الشيخ محمد البوصيرى ، وقد أشار فى أول عدد إلى أن الجريدة « ستعمل على خدمة الأهالى وما يكون سبباً فى رفاهيتهم وراحتهم ونمو ثروة البلاد على اختلاف صفاتها من غير تفرقة إلى مذهب أو جنس حسبما تقتضى المدنية »^(١).

كما صدرت فى عهد نامق مجلة « الفنون » ، وكانت « صحيفة علمية صناعية زراعية مصورة » وتصدر مرة كل خمسة عشر يوماً . وقد ظهر العدد الأول منها فى شهر رمضان سنة ١٣١٦ هـ . واستمرت فى الصدور عاماً ثم كفت عن الظهور فى عامها الثانى . وكان برأس تحريرها داود افندى ، وهو منقف تركى تنقل بين بيروت ودمشق والأستانة ثم استقر به المقام فى طرابلس . وكان مهتما بالعلوم ونشر الثقافة . وقد وجد فى « نامق » مشجعاً له ومسانداً فى مشروع المجلة . وقد تضمن العدد الأول شكر الوالى وصورة له باعتباره المشجع الأول للمجلة^(٢) . ونسندل من تشجيع نامق على اصدار مجلة علمية فى طرابلس على عقليته الواعية . وقد حدثنا محمد فريد فى رحلته عن الساعات التى أمضاها فى طرابلس وكيف رحب به بعض اديانها الذين علموا بقدمومه من قراءة جريدة الحاضرة التونسية فيها ولا نزلا . « ومن هؤلاء صاحب جريدة الترقى محمد البوصيرى ودواد افندى صاحب المنزل والموظف بالولاية وهو يحسن العربية والتركية ».

وانشغل نامق فى العام الثانى من ولايته بأحداث الحدود بين طرابلس وتونس بعد أن تجددت . وكنا ذكرنا كيف تطور موقف الاحتلال الفرنسى فى تونس من الدفاع إلى الهجوم ، وعمل على استيعاب رجال القبائل التونسية فى الجنوب وتنظيمهم فى قوات الحدود ، واتجه إلى محاولة رسم الحدود بما يوافق مصالحته . وعرفنا من مراسلات الخارجية الإيطالية أن الفرنسيين باشروا بناء حصون على طول الحدود الطرابلسية تصلح قواعد للتوسع ، وأن حوادث الحدود أثارت ضجة كبيرة فى أوساط الدبلوماسية الأوربية المتنافسة على الإستعمار .

وتتبع هذه الأحداث وموقف نامق منها ، فنجد فى مجلة المعلومات بتاريخ ١٨ رمضان ١٣١٥ و ٩ شباط ١٨٩٧ خبراً يقول « كتبت بعض الجرائد أن البعض من أهالى ولاية طرابلس قد هاجروا منها إلى تونس ثم إلى الجزائر . وقد ظهر من تحقيقاتنا وتأييد الجرائد المعترة أن لصحة لهذه الرواية ، وانها محض كذب واختلاق »^(٣) . والخبر يدل على أن أحداث الحدود وجدت صدى لها فى الأستانة ولكن تفاصيلها بقيت مبهمه ومختلطة على الصحف هناك . فلم يكن الأمر هجرة أهالى ولاية طرابلس إلى تونس ثم إلى الجزائر ، ولكنه كان تعديلاً فى الحدود حول بعض الأهالى من التبعية لولاية طرابلس إلى التبعية لتونس أو الجزائر . ومعلوم أن حدود الولاية الغربية تشرتكت فى الشمال مع تونس ثم تمتد فى الجنوب متاخمة لحدود الجزائر . ونفهم هذا الموضوع من خلال رسالة طويلة بعث بها فى تلك الفترة القنصل الإيطالى بطرابلس « موتا » إلى الخارجية الإيطالية . وذكر أن بعض مشايخ نالوت كانوا موجودين فى طرابلس وطلبوا من الوالى مقابلتهم فاعتذر بحجة شهر رمضان ، وأشار إلى أن هؤلاء المشايخ تكتموا سبب حضورهم « تبعاً للعادة المألوفة عند العرب » . وهذا التكتم - كما هو واضح -

(١) مجلة المعلومات العدد ٣٤ من ٦

(١) على مصطفى المصراوى صحافة ليبيا س ٤٨

(٢) على مصطفى المصراوى صحافة ليبيا س ٤٠

يدل على وعى محمود . ثم ذكر أن المقابلة تمت بعد رمضان ، وعرضوا فيها شكواهم من الاعتداءات الفرنسية على الحدود في مناطقهم . وقال شارحاً أسلوب الفرنسيين في التوسع « وما يستحق لفت النظر تلك الطريقة الماهرة التي يتبعها الفرنسيون في جمع الشهادات لصالحهم . فهم لا يقولون أبداً للطرابلسيين أن يصبحوا فرنسيين أو أن يمتروا إلى الأراضي التونسية ، بل يقولون لهم بكل بساطة . . تريدون زرع الأرض والعمل عليها وحصد محصولكم بحرية .. إذن وقعوا بأختامكم على اقرار بأن الأرض التي تزرعونها هي أرض تونسية . وغرض الفرنسيين واضح وهو الحصول على شهادات تقدم أمام لجنة تخطيط الحدود » . فهذا هو الأسلوب الذي اعتمدته السلطات الفرنسية لرسم الحدود على هواها ، وتلك هي حقيقة أمر الهجرة التي لم تكن هجرة ، وإنما كانت تغييراً في التسمية .

وقد زعم القنصل موتا في رسالته أن المشايخ طلبوا الحماية والتسليم وأن الوالي رفض طلبهم . وذكر أن نامق أسرهم بأنه ينوي القيام برحلة داخل طرابلس ، وأنه « سيتوجه من زليطين إلى الجبل ثم إلى نالوت ويعيد الأمور إلى نصابها » . وأشار القنصل في آخر رسالته أن نامق « عازم على السفر بعد ثلاثة أيام في رحلة تفتيشية » . وطالب التعليمات في أمر مفاطحته . وقد جاءه رد الخارجية يطلب منه مفاطحة الوالي بمسألة الحدود على أن يتبع أسلوباً لا يثير الشك « واجتهدوا بكل اعتناء أثناء هذه المحادثات تجنب ما قد يثير حديثكم من شك لدى الحاكم عن سلامة النية (٢٤) التي دعت بكم إلى هذا الحديث » (١) .

ولقد اهتم نامق في القيام بجولة في بعض أنحاء الولاية للتعرف

القريب على أحوالها . وكان من أهداف الجولة كما يتضح من رسالة « موتا » لإعادة الأمور إلى نصابها على الحدود . وقد كان لهذه الجولة أثرها الطيب في نفوس الأهالي وبقيت ذكراها مقترنة باسم نامق ، ولكنها لم تحسم في مسألة الحدود . لأن المسألة كانت أكبر من أن يحسم بها وال . وهكذا استمرت أحداث الحدود في عام ١٨٩٧ ، وبلغ الصراع الدبلوماسي الفرنسي الإيطالي ذروته لينتهي في العام التالي ، حين أخذت العلاقات بين فرنسا وإيطاليا بالتحسن . ويقول كاكيا « وازدادت هذه العلاقات تحسناً يوم أول ديسمبر سنة ١٩٠٢ عندما أبرمت معاهدة ينظر بموجبها بعين العطف إلى المصالح الخاصة التي لفرنسا بمراكش والمصالح الخاصة لإيطاليا بليبيا » (٢) وستتناول تطور هذه العلاقات في مكان لاحق .

وكانت علاقة نامق بالسوسية - كما نستدل من إحدى رسائل السيد المهدي له - طيبة إجمالاً . وقد حاول الوالي التعاون مع الحركة في تعقب نشاط الأجانب . . وتتضمن رسالة السيد المهدي دعاء للخلافة ورداً على سؤال مسألة الوالي عن نشاط أحد الجواسيس . ويقول الرد بأن هناك خبر بمجيء « واحد إلى سيوه ورجع ولم ينل الوطر » (٣) .

وتلقى نامق خلال ولايته تقدير السلطان عبد الحميد لجوده ، بتقليده رتبة الوزارة السامية ، في منشور عال سلطاني صدر بتاريخ ١٤ ربيع الأول لسنة ١٣١٥ هـ الموافق أغسطس ١٨٩٧ م .

ويتضمن المنشور العالي السلطاني تقديراً لما ابرزه أحد أعظم رجال دولتي العلية والى ولاية طرابلس الغرب من المساعي الدالة على الروية والإقدامات الناشئة عن الصداقة سواء في خدمتي هذه الملوكة أو في

(١) كاكيا ص ٥٩

(٢) الدجاني السوسية انظر نص الرسالة كاملاً ص ٢٩٩

(١) مراسلات الخارجية الإيطالية انظر الملحق

سائر خدمات سلطنتي السنية التي وجد مأموراً ومستخدماً فيها لحد الآن بمقتضى ما هو مجبول عليه من كمال الدراية ومزيد الأهلية والاستقامة... ويسبغ المنشور على نامق ما يزيد عن عشرة ألقاب، ثم يتضمن توجيهاً له فليباً لاداء فريضة التشكر وليصرف جزيل السعي ضعفاً آخر لإثبات مدعى الدراية والصداقة وليبذل أنواع المساعي الجميلة والخدمات الممنوحة في هذا الأمر الأهم وهو وقاية راحة ورفاه كل صنف من الأهالي وتبعية دولتي العلية المتوطنين في المحلات المحولة لعهدته وحسن رؤيته وتمشيه مصالح سلطتي السنية في كل حال... ولا يعدل عن طريق النصفة والعدالة وعن جادة اكتساب الرضاء والصداقة... ولا يجوز ظهور حالات ذاتاً ومصلحة مما هو مضى ومخالف لإرادتي السنية الملوكانية بل يبذل جل المسكنة في العمل والحركة على موجب ومقتضى كل ملاءم موافق لقسطاس الشرع القديم ومقاييس منهج القانون المستقيم^(١).

وقد مدح الشيخ سليمان الباروني الوالي نامق ضمن قصيدة نظمها عام ١٣١٥هـ بعد حرب اليونان ومدح فيها عبد الحميد. وهو يصفه بالديانة والأمانة والشهامة ويدعوه لإلتزام العدل^(٢). وقد امتدت ولاية نامق ستة وثمانية أشهر.

ولاية هاشم

شوال ١٣١٥ هـ - محرم ١٣١٧ هـ

مارس ١٣١٤ - مايو ١٣١٥ م ١٨٩٨ م - ١٨٩٩ م

تعين هاشم والياً على طرابلس خلفاً لنامق. ولم يسجل له مؤلفاً «طرابلس غرب» شيئاً يستحق التسجيل. وقال كما عناه أنه كان قد تزوج ابنة السلطان عبد الحميد، وكان عهده قصيراً. ولم يكن النظام مستتباً في أيامه، وكان هناك خلاف بينه وبين النائب العام لطرابلس «راشد بك» الذي أبعد لفزان. ولقد ازدادت الحالة سوءاً يوماً بعد يوم^(١). وقد أشار الباروني في مقالته عن طرابلس الغرب أن الحركة عادت بطيئة بعد نقل نامق، وهو يعني بذلك عهد هاشم^(٢). ويتضح لنا من الشكوى التي تقدم بها الباروني إلى السلطان عبد الحميد أنه اعتقل في عهد هاشم بينما هو قادم من مصر على طريق أوروبا والجزائر وتوفس عام ١٣١٦ هـ وعومل بقسوة، وقد برأ من هذه القضية «هاشم باشا الوالي في ذلك الوقت لعدم معرفته بأحوال الولاية حيث كان جديداً». ونسبها إلى الشيخ المفتي ورجال الجاسوسية عموماً. ونستدل من الشكوى أن «هاشماً» كان ضعيفاً وأن جو الاستبداد الحميدي خيم في عهده بشكل واضح.

(١) كما كيا ص ٥٩ من الترجمة

(٢) صفحات خالدة من الجهاد ص ٢٩

(١) مجلة الملوامات العدد ١٧ انظر الملاحق

(٢) صفحات خالدة من الجهاد ص ٨٠

الناس بالدفع دون نظر لرتبهم ، أى أنه فرض على القور و غلية والأشراف والعلما أن يدفعوا الضريبة » ، وأصبحت الحكومة تجبي الضرائب بواسطة جباة تسميهم «تحصيل دار» ، وألغيت المقامة التي كانت مخصصة لمشايخ القبائل لقاء جبايتهم الضرائب . وأسس حافظ فرعاً لبنك الزراعة يقدم قروضاً وسلفاً للفلاحين^(١).

وقام حافظ بإجراء تحرير النفوس وتعداد السكان بغية حصر عدد سكان الولاية لضبط الضرائب وتطبيق قانون التجنيد الإجبارى . وقد عملت إيطاليا على مقاومة هذا الإجراء « وإفساد الأهالى على الدولة ، وكانت دعايتها أن بدء الدولة الثانية بتسجيل النفوس إنما هو لجمع الضرائب والتجنيد . وذلك توطئة لتدخلها »^(٢) . فوقع نفور من بعض الأهالى - كما يقول البارونى - بإغراء الأجانب^(٣).

وكانت إيطاليا قد ضاعفت نشاطها الإستعمارى فى تلك الفترة بعد أن تفاهمت مع الدول الأوربية المنافسة لها . ويقول ناجى « وتحصلت إيطاليا عام ١٩٠٢ وهى الطامعة بليبيا على موافقة بريطانيا وفرنسا على احتلال ليبيا . وبدأت آنذاك باتخاذ الوسائل التى تسهل لها هذا الاحتلال كشراء الأراضى وإرسال المهاجرين وتأسيس المدارس ومراكز البريد »^(٤) . وكنا أشرنا إلى ما أورده كاكيا عن تقارب إيطاليا وفرنسا وإبرامهما معاهدة فى ديسمبر عام ١٩٠٢ .

وقد تصدى حافظ للنشاط والإستعمارى الإيطالى ، فقام بجولة زار فيها عدة جهات من الولاية للتعرف على أحوال الأهالى واستعادة ثقتهم

ولاية حافظ محمد

ربيع الآخر ١٣١٨ - رمضان ١٣٢٠ هجرية

و ٣٠ يولية ١٣١٥ - ٢٦ كانون أول ١٣١٧ مالية و ١٩٠٠ - ١٩٠٢ ميلادية

تولى حافظ محمد بعد داشم ، واستمر عهده فى طرابلس حوالى عامين ونصف . وقد وصفه مؤلفا طرابلس غرب بأنه « رجل لا يعرف التعب فى خدمة البلاد »^(١) . وقرنه البارونى بنامق ووصفه بأنه « الرجل المتعفف المقدم الناصح الجسور الذى نفذ كل إرادة أهلها اسلافه عجزاً ورهبة . . . والشهم المتعفف الميال للإصلاح والحق »^(٢).

فإذا نظرنا فى أعمال حافظ نجد أنه اهتم باتخاذ عدد من الإجراءات المتصلة بتنمية موارد الولاية المالية متابعاً ما بدأه أحمد راسم فى هذا المجال . « فأمر بتحرير الأملاك والأراضى وتسجيل الملكيات لكي تجبي الضرائب بعدل وكى لا يتخاصم الناس »^(٣) . ويشير كاكيا إلى أنه « أقام طريقة جديدة لتسجيل الأراضى »^(٤) . ونجد فى وثائق الزراعة أن الأراضى صُنِّفت إلى ثلاث درجات أعلى ووسط وأدنى بحسب جودة الأرض ونتاجها وخصبها^(٥) . ولاحق حافظ جباية الضرائب من جميع فئات الأهالى « فأمر جميع

(١) ناجى ص ١٥٩

(٢) صفحات خالدة من الجهاد ص ٢٩ و ص ٨٦

(٣) ناجى ص ١٦٠

(٤) كاكيا ص ٦٠ من الترجمة

(٥) دوا المحفوظات - ملف الزراعة

(١) ناجى ص ١٦٠

(٢) ناجى ص ١٦٠

(٣) البارونى ص ٨٧

(٤) ناجى ص ١٦٠

بالحكم وإجابة طلباتهم . وأسس هيئة من الأهالي سافرت إلى استانبول لتعبر عن ولائها للسلطان ورفضها تدخل الأجنبي . وكانت الهيئة برئاسة حسونة باشا القره مانلي^(١) ويتضح من أوراق البارونى أن إرسال الوفد تم بطلب من الباب العالي ، وأنه كان مؤلفاً من عشر ذوات من أعيان مركز الولاية والمتصرفيات^(٢) . ويبدو أن الباب العالي شعر بالحاجة لهذه الخطوة ليقطع الطريق على إيطاليا أن تتدخل باسم الأهالي ، وليعزز موقفه أمام الدول الأوروبية . ونستدل من إحدى الوثائق أن حافظ نفى إلى بنغازى بعض أعيان أهل القبائل والساحل الذين وقفوا في وجه تسجيل النفوس وتحرير الأملاك . وقد سمح بعودتهم في عهد خلفه حسن حسنى عام ١٣١٩ هـ^(٣) .

واهتم حافظ بالتعليم في الولاية ، متابعاً ما بدأه أحمد راسم في هذا المجال . فأسس داراً للمعلمين ومدرستين ابتدائيتين كبيرتين ، وكبر مدرسة البنات . وأسس مدارس ابتدائية بمساعدة الأهالي في مراكز الأقضية . وأكمل بناء مدرسة الفنون والصنائع ، وألحق بها مدرسة أخرى للبنات وجلب لها الخبرات يعلن صناعة السجاد ، وبنى طريفاً للمدرسة^(٤) . وتوضح لنا إحدى وثائق دار المحفوظات أن دار المعلمين افتتحت في ١٤ كانون الثاني ١٣١٧ مالية (١٣١٩ هـ) . وخصص للطالب فيها عشرين قرشاً في الشهر ، واستقبلت الدار في السنة الأولى عشرة طلاب وتقرر أن تقبل عشرة آخرين في السنة الثانية^(٥) . ويتضح من وثيقة أخرى أنه

تم تأسيس إدارة معارف في طرابلس تتبع وزارة المعارف في استانبول في عهد حافظ . وفي رسالة من مدير المعارف إلى الوزارة بتاريخ ربيع الآخر ١٣٢٠ يطلب تعيين مساعد للسجل لأن معاملات التحرير كثيرة في فترة التأسيس . وفي رسالة أخرى بتاريخ ٥ محرم ١٣٢٠ يخبر بأنه جرى توسيع المدرسة الرشدية بالحسـن واقـمت حفلة باهرة بحضور عموم الموظفين العسكريين والمدنيين وباشترك جوقة الموسيقى العسكرية بمناسبة افتتاحها . وفجد في رسالة ثالثة مؤرخة في ٣٠ شوال ١٣١٩ م مدير المعارف يستفسر من الوالى عن التاريخ المحدد للجولة التي قرر القيام بها في أرجاء الولاية حيث كان الوالى قد اعلمه بأنه سيصحبـه في هذه الرحلة ليطالع بنفسه على الأمكنة التي يرى وجوب تأسيس مدارس فيها . ويتضح من تقرير لمصرف الجبل أنه أتم إنشاء مدرسة رشدية وأخرى ابتدائية في بفرن عام ١٣١٦ مالية ، ومدرسة ابتدائية في كل من جادو وغدامس وكسكة^(٦) .

كان هذا الاهتمام بالتعليم يستهدف فيما يستهدف مجاهدة النشاط التبشيري الإستعماري الذي تنزعه إيطاليا . وقد أصدر حافظ أمراً إلى الضباط يعلمهم فيه أن هناك أمر من السلطان بعدم إرسال أولادهم إلى مدارس الأجانب ، ويقول « وقد علمت أن الضباط يرسلون بناتهم إلى المدارس الفرنسية ، وحيث أن الحكومة افتتحت مدرسة للبنات تسير على منهج سليم ، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لإرسال بنات الضباط إلى المدارس الأجنبية ويمنع هذا رسمياً^(٧) » . وكالت قد وردت رسالة من وزير المعارف بتاريخ ١٣ رمضان ١٣١٩ إلى الولاية تتضمن الإرادة السنية .

وتم في عهد حافظ إقامة خط برقي بين سرت وفزان وصل فزان بمركز الولاية .

وتعاون حافظ إبان ولايته مع الفريق رجب باشا الذي كان

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادهم

(٢) دار المحفوظات ملف المعارف

(١) ناجى ص ١٦١

(٢) البارونى ص ٨٧

(٣) دار المحفوظات بمجموعة ادهم انظر الماهق

(٤) ناجى ص ١٦١

(٥) دار المحفوظات بمجموعة ادهم

يتولى قيادة الولاية العسكرية ، منذ عهد هاشم ، والذي أصبح فيما بعد والى طرابلس - كما سنرى - . ويشير ناجي لى هذا التعاون فى أكثر من مناسبة ، فيتحدث كيف أرسلت إيطاليا أسطولها لطرابلس وبنغازى فى عملية استعراض لقوتها « ولكن الإجراءات التى اتخذها حافظ باشا بمساعدة رجب باشا قائد الجيش أفسدت هدفها » . كما يقول « إن لباقه رجب باشا وحافظ باشا كانت كفيلة بإقناع الناس أن الإجراءات التى اتخذتها حكومة الولاية كانت لصالحهم » (١) . وقد حدثنا محمد فريد فى رحلته عن لقاءه « بدولة المشير رجب باشا فى دار الحكومة » وزيارته للوالى « دولة حافظ باشا فى بيته لانحراف مزاجه » (٢) .

ويتضح من تتبع سياسة حافظ فى الولاية أنه كان حريصاً على كسب ود الأهالى ، وعلى تخفيف جو الاستبداد الذى اشتد فى عهد سلفه . ونضرب مثلاً على سياسته هذه بموقفه من اعتقال سليمان البارونى وإبعاده . فيتحدث البارونى كيف صدر عليه حكم بالإبعاد سنتين من قبل قائمقام فساطو ، « وبمساعى والى وغيره قبلت منى ضمانته من معتبرى الولاية والمتصرفية وبقيت تحت المراقبة » . ويقول إن بعضاً من الأعيان قدموا للوالى خلال جولته استرحاماً فى حقه « ووعد بأن يخافى فى ذلك الباب العالى ، كما حرر بذلك جواباً لى والى والذى ذكر فيه أنه لا يقصر فى كل ما فيه حل مشكلتى بدار السعادة » . وقد كشفت النعمة عن البارونى وقذاك حين ذهب وفد الأهالى إلى الأستانة وطلب العفو عنه . ويقدم لنا البارونى صورة لجو الحكم الحميدى من خلال وصفه لزيارة الوفد . « فبعد مجرد

وصولهم أمر مولانا السلطان بإزالتهم فى المسافرين خاتمة العامرة (دار الضيافة السلطانية) وبعد عدة أشهر أنعم عليهم بالرتب والنياشين والجوائز وأذن لهم فى الطلب ، فكان فى مقدمة مطالبهم بإمضاء ذى العز « موسى عارف بك اليفرنى » طلب العفو عنى ، وفى الحال صدرت الإرادة السنية بذلك وبلغت للجرائد ، وأرسلت تلغرافياً إلى الولاية وبلغت لى . فكان لذلك اليوم عندى وعند اصدقائى شأن نال فيه بعض سعادة التلغرافات من الأعيان إحساناً يذكر ، وفى اليوم الثانى بلغ الخبر أقصى صحراء الجزائر تلغرافياً . ثم بقيت فى انتظار الوفد إلى أن رجعت فقلت قصيدة مخصّصاً فيها عارف بك بالذكر لما أبداه من الإقدام على مثل هذا الطلب الخطير فى مثل ذلك المقام الرهيب الذى تخضع فيه رقاب الكياسرة وتطأطئ فيه رؤوس الأسود والجبابرة . ولقد أعجب كثير أكل من له علم بحال ذلك المقام بهذه الجراءة . وكثيراً ما أتذكر كلاماً فى هذا الموضوع قاله المشير رجب باشا « أن هذا من الغرب فى شأنك لاذ لم تسبق إليه . فلك كل نقر ولا شك أنها عناية ربانية خصتك بذلك » ثم قال مازحاً ولعلك من أرباب سر الحرف ونحن لا ندرى فاستطعت فاستعطفك السلطان » (١) . وقد مدح البارونى كلام من حافظ ورجب فى أكثر من مناسبة .

وفى ولاية حافظ حدث فى طرابلس كسوف كلى سنة ١٩٠٠ . وقد سجلته ووصفته بإسهاب مابل لومس تود فى كتابها « طرابلس الغامضة » ، وهى زوجة دافيد تود رئيس البعثة الأمريكية التى جاءت لرصد هذا الكسوف السكلى فى طرابلس . ويتضح لنا من وصفها أن الحدث أشتت اهتمام الأهالى « فمعج كل سطح فى المدينة بالناس ، من عرب ومالطيين ويهود وجنود أتراك على ظهور مناريسهم ، وراهبان فرنسيسكانيين فى مكان

تريضهم العالي . ولقد ازدحمت حتى المآذن « وتم الرصد من على سطح
القنصلية البريطانية وكان الكسوف قصيراً هادئاً ^(١) . وقد تكرر حدوثه
مرة أخرى عام ١٩٠٥ ورصدته البعثة نفسها كما سيأتي .

تلك هي أهم أعمال حافظ في ولايته ، وأبرز الأحداث التي جرت في
عهده . وقد تم نقله من طرابلس « وعين والياً للبرية الثانية في قوصوة ،
ودفن هناك بجانب الشهيد مراد الثاني » ^(٢) .

ولاية حسن حسنى

١٣٢٠ هـ - ١٣٢٢ هـ ، ١٣ شباط ١٣١٨ -

٣٠ نيسان ١٣٢٠ مالية ، ١٩٠٢ م ، ١٩٠٤ م .

تولى حسن حسنى بعد حافظ . وبورده كاكيا باسم حسن حسنى محرفاً
لقبه ويقول عنه « إنه كان معتل الصحة ولم يلبث أن توفى عام ١٩٠٦ في
طريقه إلى مالطة عندما ذهب لإجراء عملية هناك » ^(١) . ويقول عنه
مؤلفا طرابلس غرب « إن الولاية في عهده كانت في حالة توقف . وحدث
خلال مدته فيضان وادى المجنين الكبير وسبب خسائر كبيرة في الأموال
والأرواح » ^(٢) . وقد جاء فيضان الوادى بعد أن هطلت أمطار غزيرة
ليلة الثلاثاء العاشر من شباط ١٣١٩ (٧ ذى الحجة ١٣٢١) وهبت اعاصير
شديدة قلعت في جنزور وحدها ما يقارب خمسة آلاف شجرة ^(٣) .

ولا نجد عهد حسن حسنى إلا القليل مما نقف عنده ، نستخلصه من
الوثائق . فهناك رسالة بعث بها إلى نظارة الداخلية باستأنول بفتح أسلوب
تعيين المتصرفين في الولاية ، ويثير قضية تعيين الوطنيين من أهل الولاية
وهي القضية التي سبق لأحمد راسم أن أثارها . ومناسبة الرسالة عريضة
مرسلة من « صاحب السعادة يوسف ضياء الدين بك متصرف الجبل
الغربي بشأن تبديل مكان عمله إلى لواء آخر معتدل الطقس » . وقد أرفق

(١) كاكيا ص ٦٠

(٢) ناجى ص ١٦١

(٣) دار المحفوظات مجموعة ادعم

(١) مابل نود ص ١٣٤ - ١٤٢ من الترجمة

(١) ناجى ص ١٦١

بها القائم مقام تقريراً طبياً . ويعلق الوالى على الرسالة بقوله « مما لا يحتاج لدى مقامكم للإيضاح أن الذوات الذين يطالبون بمتصرفيات الجبل والحسن وفزان لم يقصدوا المجيء إلى هنا للقيام بالخدمات النافعة في حدود الناية النبيلة ، بل إن قصدهم هو مجرد الترقية لدرجة ووظيفة أعلى ، وبعد البقاء عدداً من الشهور يقدمون عرائض ينتجلون فيها اعتذار وأسباباً لنقل وظائفهم للأمكنة التي يرغبون فيها ، وهذا يكلف خزينة الدولة نفقات انتقاهم في القدوم والذهاب ويوجب ضررها المادى والمعنوى . »

ويطالب الوالى باسم منفعة الدولة ويعرض ويسترحم « أنه إذا حدث وقررت لإحدى المتصرفيات إصدار الأمر لإنتخاب وتعيين الذوات الذين لهم معرفة بهذه الأرجاء وبأحوالها من الحازنين على الأوصاف المطلوبة أو التكرم بإصدار أمركم لنا بانتقاء المجربين لدينا . . . والأمر لمن له الأمر^(١) . » وتاريخ الرسالة ٩ جمادى الآخرة ١٣٢٠ - ٨ أيلول ١٣١٨ .

ويتضح من الرسالة الحلل الذى كانت تعانيه الإدارة العشائية عموماً وخاصة في الولايات البعيدة . ونجد رسالة أخرى موجهة إلى نظارة الداخلية أيضاً يلتمس الوالى فيها بسرعة الموافقة على تحويل العزيرية من مديرية إلى قائمقامية بعد أن وافقت الولاية على اقتراح قدمه أهالى العزيرية ومديرهم محمد التوغار هذا الشأن اعتباراً من ١ حزيران ١٣١٩ و ١٨ ربيع الأول ١٣٢١^(٢) .

ولاية رجب باشا

١٣٢٢ - ١٣٢٦ هـ ١٩٠٤ - ١٩٠٨ م

خلف المشير رجب باشا حسن حسنى على كرسى الولاية في طرابلس الغرب . وكان على معرفة عميقة بأحوال البلاد بعد أن أمضى فيها عدة سنوات قائداً للجيش . فقد قدم طرابلس في عهد هاشم (١٨٩٨ - ١٨٩٩) وأرسلته استانبول « خصيصاً لمعالجة وتحسين الحالة العسكرية في ليبيا - كما يقول كاكيا - فتحسننت الحالة على يديه واستتب الأمن^(١) » . وبذل جهوداً طيبة في عهود الولاة الثلاثة هاشم وحافظ وحسن حسنى لتعزيز القوة العسكرية في الولاية وتدريب الأهالى على حمل السلاح . وأمر تعاونه مع الوالى حافظ على الخصوص - كما سبق أن ذكرنا - نتائج طيبة . وقد أكسبته أعماله شهرة كبيرة في طرابلس قبل أن يتولى ولايتها . ومهدت له هذه الشهرة الطريق حين تحمل مسؤولياته كوال .

وقد طال عهد رجب باشا في طرابلس نسبياً حيث استمر أربع سنوات، ثلاثة منها في عهد عبد الحميد والرابعة في عهد المشروطة الثانية بعد الانقلاب الدستورى . وحفل هذا العهد بأعمال وأحداث هامة ، وبقيت ذكراه ماثلة في نفوس أهالى الولاية . وقد تحدث عنه الزاوى حديثاً طبياً في « جهاد الأبطال » فوصفه بأنه « كان مخلصاً في عمله ، لبقاً في أساليبه ، يدخل على الناس من حيث يجدون الطمأنينة في أنفسهم إلى ما يطلبه منهم . وقد ظهرت آثار هذه الأساليب الحكيمية في تكييف الروح العامة في مدة وجيزة مما جعل السياسة الإيطالية تنظر إليه بعين الاهتمام والجد^(٢) » .

(١) كاكيا ص ٦٠ من الترجمة .

(٢) الزاوى ص ١٠ .

وشهادة الزاوى لها أهمية خاصة لقربه من ذلك العهد ولما عهد به في كتاباته من إدانة للحكم العثماني في طرابلس في سنواته الأخيرة . كما نلس في حديث الباروني عنه عاطفة حارة ، وقد مدحه في عدة مناسبات بأبيات من الشعر^(١) . وجاء في حوليات طرابلس عنه أنه « كان رجلاً ذا عزيمه وقوة وصراحة ، وقد أجرى بمعونه بعض الشبان الترك المنفيين إلى طرابلس إصلاحات في الولاية »^(٢) .

ولو نظرنا في أعماله خلال فترة توليه ، اوجدنا أنه كان منصرفاً إلى إصلاح أحوال الولاية وتعزيز قوتها في مواجهة الخطر الاستعماري . وهذا يعنى أنه سار على النهج الذى رسمته الدولة العثمانية لسياستها في طرابلس منذ بداية الفترة التى ندرسها . وهو المنهج الذى التزم به الولاة المصلحون فى محاولة صادقة لانقاذ الولاية من الطامعين الغريين .

ويلخص لنا الزاوى سياسة رجب فى طرابلس فيقول « كانت تقوم على أساسين : معارضة سياسة إيطاليا ، ونشر التعليم ، وقد أفلح فى التاحيتين ، فوقف للسياسة الإيطالية فى كل طريق ، واستعمل نفوذه فى معارضتها إلى أبعد حدود المعارضة . فما سلكت إيطاليا سبيلاً إلا وجدت رجب باشا لها بالمرصاد . وأصلح القلاع والحصون ، وأتى بالجند والأسلحة من الأستانة ، وكان يشجع على الزراعة ويحث على تعلم العلم والاستزادة منه ، ويرغب الناس فى الجنديّة ، حتى وجد الناس ما طمأن نفوسهم إليها ، وانخرط كثير منهم فى سلكها »^(٣) .

جابه رجب خلال فترة توليه ازدياد الخطر الإيطالى على طرابلس ، ومضاعفة نشاط إيطاليا الاستعماري فى الولاية . فقد سيطر على الحكم فى

إيطاليا آنذاك « جوفاني جوليتي » قطب حركة الاستعمار الإيطالى لليبيا ، وترأس الوزارة الإيطالية بين ١٩٠٣ - ١٩٠٥ و ١٩٠٦ - ١٩٠٩ م ، وكان المسيطر الفعلى على وزارة فورس ١٩٠٥ - ١٩٠٦ م^(١) . وعمل جوليتي على تهيئة الجو الدولى لصالح التحرك الإيطالى فى ليبيا فانتهر فرصة زيارة ديلكاسيه وزير خارجية فرنسا إلى إيطاليا برفقة « لوييه » رئيس الجمهورية عام ١٩٠٤ وحصل على تأكيد الوعد باعتراف فرنسا بمصالح إيطاليا فى ليبيا ، كما حصل على وعد مماثل من ألمانيا خلال زيارته لها . ثم انطلق يعمل لتغلغل إيطاليا فى ليبيا توطئة لغزوها . فبث الجواسيس والعيون فى جميع أنحاء الولاية لدراسة أحوالها ورصد حركات السلطة فيها والبحث عن عملاء للسياسة الإيطالية . ورسم خطة لتغلغل الاقتصادى عن طريق البنوك والشركات الإيطالية ، وقام بحملة دعائية لفصل الأهالى عن السلطة وتهيئة اذهانهم لتقبل عملية الغزو ، وأرسل بعض السياسيين من وزارة الخارجية الإيطالية تحت رئاسة القنصل « جالو » الذى كان من أكبر أعوانه للاشراف المباشر على هذا النشاط^(٢) . وسنفصل فى شرح هذا النشاط الاستعماري فى فصل خاص . والذي يهمننا هو أن نعرض لموقف رجب باشا منه ومواجهته له .

عارض رجب بشدة تأسيس فرع لبنك دى روما فى طرابلس . ولكن النفوذ الإيطالى فى الأستانة نجح فى فرض الأمر على الولى عام ١٩٠٥ عن طريق الحكومة « التى اوعزت إليه بعدم التشدد خوفاً من القلاقل السياسية ، وانشئ البنك رغم أنفه ، وبدون استصدار مرسوم من حكومة الأستانة أو موافقة الحكومة المحلية »^(٣) . واشتد الضغط على رجب حين

(١) المنتصر ليبيا قبل الحقبة وبعدها ص ١١

(٢) الزاوى ص ٧

(١) الباروني ص ٧١

(٢) Féraud P. 444

(٣) الزاوى ص ٩

تمسك الطليان - كما يقول الزاوي - « من التأثير على حقى بك - السفير العثماني في روما - ليتوسط لدى الدولة العثمانية بنية التساهل مع بنك دى روما في شراء الاراضى » . فأوعز الباب العالى إلى حكومة الولاية أن تقبل بيع الاراضى الفراغ باسم المدير العام لبنك دى روما . فصمد رجب أمام الضغط وعارض هذه السياسة بشدة ومانع في بيع الاراضى للبنك ، « وحرص الأهل على الشراء بعضهم من بعض ، فإذا لم يوجد أحد التجأ إلى أصحاب الشفعة ، فإذا لم يوجد التجأ إلى المجلس البلدى ، فإذا عجز المجلس حرص دائرة الطابو على عدم التسجيل بحجة أن البنك معنوى . . وكان يوعز إلى الحاكم العثمانى في طرابلس أن لا تقبل قضايا البنك لأنه لم تتوافر في تأسيسه الشروط القانونية »^(١) . وحاول رجب أن يقطع الطريق أمام البنك بأن تشتري الدولة أو السلطان الاراضى التى يستطيع البنك شرائها . وذلك بعد أن حظر عليه شراء اراضى المواطنين ، ولم يبق أمامه إلا املك الأجانب فقدم اقتراحاً بهذا المضمون إلى الديوان الملكى في استانبول . وتوضح لنا رسالته إلى « حضرة السيد عاصم بك كاتب شيفرة مقام الديوان الملكى » هذا الشأن جوانب كثيرة في الموضوع . فهو يقول « معلوم لدى المقام السامى بالتفصيل أن الإيطاليين في سبيل وضع أسس المداخلات والمشكلات . ولتزيد نفوذهم هنا فتحوا بنسكا وهم يبدلون مساعيمهم باللغة لاستملاك العقارات » . ويشرح كيف منع تسرب اراضى المواطنين لهم باقراض المواطنين من البنك الزراعى العثمانى الذى أشرنا إلى افتتاح فرع له في طرابلس ، « وبالأسلوب المناسب يحال دون مشتراهم لأملك الأهل السذج بدفع أضعاف قيمتها الأصلية » . ثم يعرض الثغرة الباقية التى ينفذون منها . « إلا أنهم يقومون بمشتري

أملك الأجانب التى كانوا يملكونها في السابق . وكل ما يكلف به أرباب تلك الأملاك - كما يقال لهم - أن ينقلوا ملكيتهم إلى البنك والقنصل . وبما أن الأملاك المذكورة في مركز الولاية وملحقاتها ، وفي متصرفية بنغازى المستقلة تكون مساحة كبيرة ، فإنه منذ الآن وصاعداً لم تبق لساكنية الحيلولة دون بيعها لبنك روما أو للأجانب . . وأخيراً يطرح اقتراحه فيقول « بناء عليه فإنى أرى تأسيس فرع للأملاك السلطانية بالسرعة الممكنة في هذا القطر الذى تزداد قوته النامية أسوة بأهمية السياسة » تكون مهمته الأولى كما عرض آنفاً شراء الأملاك التى يراد منع بيعها للأجانب على أن يتوسع تدريجياً في نشاطه » . وتاريخ الرسالة هو ١٤ كانون الثانى ١٣٢٣ الموافق يناير ١٩٠٧^(٢) .

وقد زاد في صعوبة مواجهة إغراءات بنك روما في تلك الفترة حدوث قحط في بعض مناطق الولاية ، الأمر الذى كان يضطر البعض للتفكير في بيع أراضهم . وهناك رسالة من متصرف الخس عزت بك للولاية يقول فيها إنه بسبب عدم هطول الأمطار في مصراته « غادرها في شهر كانون الثانى ١٣٢٣ - يناير ١٩٠٧ ثمانى وثمانون شخصاً بدون عيالهم بعد أن حصلوا على تذكرة مرور وتوجهوا إلى تونس »^(٣) .

ولاحق رجب النشاط الإيطالى في الولاية ملاحقة فعالة ، فكان يتابع بنفسه صلات العملاء الإيطاليين بالأهل ، ويحذر القلة من المواطنين التى انساق للتعاون . ومن القصص التى يرويها المعمرين في طرابلس ، أن رجب كان يعرف العربية ويتحدثها باللهجة العراقية لمكوثه فترة في بغداد . فكان إذا التقى بواحد من الوجوه المتعاونين مع إيطاليا يقول « عبنى . . رجب موجود ، شعبان لا يدخل » . فهو يكفى عن أنه مدام

بيده زمام الأمر في طرابلس فلن يتمكن الطليان من الدخول إليها. ويرى أيضاً أن أسطولاً إيطالياً زار طرابلس في عهده. وحدث وقتذاك حريق في مسرح خارج السور، فحاول الجنود والبجارة الإيطاليون العمل على إطفائه. فكان أن تصدى لهم رجب لانهم نزلوا إلى البر بدون إذن وبدون طلب نجدة وقال «لو احترقت البلاد كلها لما كان لسحق الزول بدون إذن». وطلب منهم المغادرة في اليوم التالي قبل انتهاء مدة الزيارة المقررة^(١).

انتشرت مثل هذه الروايات عن رجب باشا بين الأهالي، واشتهر موقفه الحازم. ومحدثنا الباروني كيف رأى مقالة لسكران من إيطاليا في جريدة عربية ذكر فيها مطامع دولته في الولاية، ورأى مقالة أخرى ذكرت حزم رجب باشا وضبطه لأمر الولاية وحسم مكائد الطامعين، فدحه في آليات نشرها في بعض الجرائد المصرية^(٢). ويقول الزاوي إن رجب تمكن إلى حد كبير من منع انتقال الأملاك الطرابلسية إلى بنك دى روما رغمًا على الجهود التي بذلها الطليان والتهديدات المختلفة والأوامر التي تأتيه من الآستانة بعدم المعارضة^(٣) ويذكر كيف سمحت الآستانة بزيارة بعثة عسكرية إيطالية لطرابلس عام ١٩٠٦ بحجة أنها بعثة علمية للبحث عن الآثار فوصلت إلى سوكنة وفزان وتمكنت من وضع خرائط حربية لجميع المناطق التي مرت بها. ويبدو من وثائق الفترة أن موضوع النشاط الإيطالي في الولاية كان الشغل الشاغل لرجب باشا. ونضرب مثلاً بمراسلات جرت بين الولاية واستانبول حول تعيين مترجم بدائرة الشؤون الأجنبية في الولاية. فقد قدم طرابلس يهودى من سالونيك

يدعى ياقوب افندى حاملاً رسالة مؤرخة في ١٩ أيلول ١٣٢٠ تقضى بتعيينه مترجماً للشؤون الخارجية في طرابلس مكان المترجم الذي كان موجوداً والدعوى جرجس فائق ابن القس عبد الكريم من كلدان الموصل، وهو كما تقول الرسالة «قتوليكي العقيدة (أى مسيحي من المذهب الكاثوليكي) مقيم منذ سبع سنوات في طرابلس وكان يدرس في معاهد الرهينة بإيطاليا ويمتحن التدريس ويحيد ثمانى لغات ويعمل بمجد ودأب. وتحتج رسالة الولاية على إحلال الآخر مكانه وتشير إلى تعاون يهود طرابلس مع الأجانب «فليس من الأنصاف استبداله يهودى من أهل سلاتيك خصوصاً إذا عرفنا أن اليهود هنا أكثرهم يحملون الرعية الأجنبية ويميلون للأجانب، كما أن استخدام جرجس الموصل - كما تقول الولاية - يمكنها من سحبه كلية من التدريس بالمدارس الإيطالية، فيكون هناك صعوبة أمام الإيطاليين في إيجاد من يحل محله وهكذا تضرب الولاية عصفورين بحجر^(١)».

حققت جهود رجب في مجابهة النشاط الإيطالي بطرابلس نجاحاً ملحوظاً. «وأحسن دعاة الطليان - كما يقول الزاوي - بفشل سياستهم في تغيير الطرابلسيين من الجندية، فأجتمعت سياستهم إلى عزل رجب باشا». ويرى الزاوي أنهم ما زالوا يسعون به لدى حكومة الآستانة حتى عزل^(٢).

وتابع رجب - كما سبق أن ذكرنا - السير في محاولات الإصلاح العثمانية في الولاية. ويقول كما كتب «إن الأمن استتب في عهده، فانصرف إلى تجميل العاصمة وأنشأ سوق المشير المشهور. كما أنشأ المدرسة العليا والمدارس الابتدائية^(٣)». وقد ذكرنا ماقاله الزاوي عن جهود رجب في نشر التعليم وتشجيع الزراعة. وهو يشير أيضاً إلى إقبال الناس في

(١) دار المخطوطات مجموعة آدم انظر الملحق.

(٢) الزاوي ص ١٠

(٣) كما كتب ص ٦٠

(١) من احاديث الحاج محمد الاسطى.

(٢) الباروني ص ٧٠

(٣) الزاوي ص ٨

عهد رجب على التعليم والجندية مؤكداً تجاوب الأهالي مع الوالي الصالح. وسوق المشير لايزال قائماً إلى يومنا على محاذاة الحصن والصور، ولا يزال يعرف بهذا الاسم.

ونستدل من الوثائق أن رجب افتتح مدرسة للبنات سنة ١٩٠٤، كان يدرس فيها عدا المواد الأساسية الرسم والنقش والتطريز والخياطة والعزف على البيانو، وكانت مؤلفة من ثلاثة فصول. وكانت لجنة الامتحانات فيها تضم مفتي الولاية ومفتي الجيش ورئيس المحكمة الشرعية ومدير المدرسة الإعدادية ومدير مدرسة المعلمين والعلم الأول لدار المعلمين ومعلم من المدرسة الإعدادية وثلاث معلمات^(١). ونستدل من وثيقة أخرى على افتتاح مدرسة ابتدائية بالخمس عام ١٣٢٣ مالى كما افتتح مستشفى الخمس البلدى في ايلول ١٣٢٣. وتشير رسالة تحمل رقم ٩٤ إلى استعمال الآلة الكاتبة في طرابلس وشراء أول آلة كاتبة بتاريخ ١٩ نيسان ١٣٢٢^(٢).

وحدث في عهد رجب باشا كسوف كلى للشمس مرة أخرى عام ١٩٠٥، سجلت وصفه مابل تود في كتابها. كما وصفت الوالى والجسود المحيط به، « فهو رجل ذو ذكاء شديد، مهم اهتماماً عميقاً بالكسوف المقبل، حتى أنه قدم قلعته، وهي أقدم قلعة، لتكون مقراً للنواظير وآلات التصوير. وقد زارنا مراراً في القصصية متحرياً عن التقدم في الأجهزة المتزايدة، ومعبراً عن تأكده من أن الله سبب سموات صافية في اليوم الموعود ». وتتابع السيدة تود حديثها عن ضباطه وعن السياسيين المنفيين في طرابلس فتقول « وكان أقرب الضباط إلى الباشا رجلاً باعثن على المرور، ومهذبين تماماً، يتكلمون عدة لغات. ولما كانت طرابلس مقراً للشو بهين السياسيين، فإن عدداً منهم عاش في المدينة البيضاء جالِباً معه جو القسطنطينية

الحقيقي^(٣). ويبدو أن رجب باشا كان يحسن معاملة أولئك المنفيين ويستعين بهم - كما يتضح مما ورد في حويات طرابلس - لتحقيق اصلاحاته في الولاية.

وحدث الانقلاب الدستوري على عبد الحميد في يوليو ١٩٠٨ بينما كان رجب والياً على طرابلس. وقد أوضحنا في فصل سابق صدى هذا الحدث في أنحاء الدولة عموماً وفي الوطن العربي على وجه الخصوص. فإذا نظرنا إلى صدهاء في طرابلس نجد ماثلاً لصدهاء في الوطن العربي « فقد قوبلت الثورة في طرابلس بفرحة كبيرة كما حدث في بقية أنحاء الدولة العثمانية حيث نظر الناس إليها كبدائية لعهد جديد^(٤). وكان ذلك أول الأمر إذ لم يلبث أن خاب أمل العرب عموماً رجال تركيا الفتاة وبجمعية الاتحاد والترقي. فقد تصدى هؤلاء الشباب للعرب ولعلماء الدين ولم يتصرفوا بحكمة. وتقول حويات طرابلس إنه « وقعت حوادث كبيرة مؤلمة في طرابلس وحاول حسونة القره مانلى التخفيف منها ». كما يذكر الشنيطى أنه قامت في طرابلس اضطرابات أيدتها حسن القره مانلى حفيد الأسرة القديمة وطالبت أغلبية الناس بابعاد رجال تركيا الفتاة الذين كانوا منفيين في الولاية ». ويشير كما كيا إلى أن أهالي ليبيا نظروا لجمعية الاتحاد والترقي بغير عين الرضا وكرهوا رجالها لتدخلهم في مسائل الدين والعادات^(٥). وقد استدعى رجب باشا بعد الانقلاب بفترة قصيرة إلى اسيا نيول وعين وزيراً للحربية في الوزارة الجديدة. ويقول روسى عنه إنه « كان أحد رؤساء تركيا الفتاة، وأنه أبحر من طرابلس إلى العاصمة على متن الباخرة

(١) مابل تود ص ١٦٥ و ١٦٦ استبدل اسم رجب في الترجمة العربية خطأ باسم رشيد

(٢) فيرو ص ٤٤٤ الشنيطى ص ٢٧

(٣) فيرو ص ٤٤٤ الشنيطى ص ٢٧ كما كيا ص ٦٠

(١) دار المحفوظات ملف الماراف الافكار عدد ١١

(٢) دار المحفوظات مجموعة ادهم

سالونيك . وقبول بالقسطنطينية بترحاب . ثم مات موتاً مفاجئاً في ١٦ أغسطس ١٩٠٨^(١) .

ونتوقع أن تكون الحوادث التي وقعت في طرابلس قد جرت بعد مغادرة رجب ويقول كما كتبنا « رجب » عين قبل سفره نائباً عن الوالي قائم مقام منطقة الجبل وإسمه بكير بك . ويورد أن بكير بك لم يكن محبوباً من الأهالي وهذا ما حدا بحسونة القره مانلي أن يقدم اعتراضاً على تعيينه بعد أن تشاور مع أعيان البلد ، وأرسل الاعتراض إلى استانبول فتمت تنحيته . بينما يقول روسي « إن الذي خلف رجب باشا هو أمير اللواء محمد علي سامي باشا الرجل العسكري السياسي » . ويؤكد هذا القول الزاوي الذي قال إن محمد علي سامي أمير اللواء تولى الأمور بعد رجب باشا ، « وكان رئيس أركان حرب الولاية . وهو جندي ليس عنده من الحنكة السياسية والإدارية ما يكفل تصريف الأمور في وجهاتها الصحيحة . وبقى في الحكم نحو ثمانية أشهر ثم عزل »^(٢) . وقد التبس الأمر على الزاوي فأعتبره أحد ولايات طرابلس . والذي تأكد لدينا من وثائق دار المحفوظات أن محمد علي سامي تولى الوكالة لولاية طرابلس الغرب بعد مغادرة رجب باشا من ٢٨ تموز ١٣٢٤ إلى ١٩ كانون ثاني ١٣٢٥ ، وكان أمير لواء ورئيس أركان حرب الفرقة العسكرية . أي أنه مكث نائباً للوالي مدة خمسة شهور واثنين وعشرين يوماً^(٣) .

وجرت في تلك الفترة انتخابات مجلس المبعوثان العثماني التي صدرت « الإدارة السنوية » بالدعوة إليها في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ . وقد انتخب عن الولاية ستة نواب هم سليمان الباروني وصادق بن الحاج ومحمود ناجي

ومحمد فرهاد ومصطفى بك وعبد القادر جامي بك . وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد عمدت إلى ترشيح بعض أعضائها عن الولاية ، كما فعلت في ولايات أخرى . وقد سجل محمد البوصيري رئيس تحرير الترقى ومواطن آخر اسمه محمد حسن اعتراضها على انتخاب جامي نائباً عن فزان لأنه ليس من أهالي الولاية وهذا مخالف للنظام الأساسي لمجلس النواب (المادة ٧٢) . وكان أبرز المبعوثين سليمان الباروني الذي حاز على عدد كبير من الأصوات في منطقة الجبل . وكان قد عاد إلى البلاد بعد أن تشرد واعتقل أبان العهد الحميدي^(١) .

وشهدت طرابلس في تلك الفترة افتتاح فرع لجمعية الاتحاد والترقي في مركز الولاية . وهناك رسالة موجهة من رئيس فرع الجمعية إلى « جناب عالي مقام الولاية الجليلة » بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٣٢٤ تتضمن تحديد غاية الجمعية بأنها « خدمة الدولة والوطن وتوثيق أواصر الأخوة والمودة بين كافة العثمانيين ، وبذل الجهود لتلقين الأهالي وتفهمهم الوجبات المتممة لحقوقهم المكتسبة والعمل وفق أحكام القانون الأساسي والحفاظة عليه بكامله » . وتشير الرسالة إلى أن الجمعية وفقت في تأسيس ثلاثة مدارس واتخذت التدابير لتأسيس مدرسه رابعة . وسرفق بالرسالة نظام الجمعية^(٢) .

وأجرى العهد الجديد حركة تعيينات في طرابلس ، سار فيها على نهج المركزية ، فعين أشخاصاً من الأستانة ليسوا معروفين في الولاية . وقد كتبت الولاية إلى المقام السامي للصدارة العظمى في ١ كانون الأول ١٣٢٤ لتفقد هذه التعيينات ، وتثير قضية توظيف المواطنين من أهل الولاية . وهي القضية التي أثارها أكثر من وال من قبل - كإمر معنا - . وتكشف

(١) روسي ص ٣٤٨

(٢) كاكيا ص ٦٤ وروسي ص ٣٤٨ والزاوي ص ١١

(٣) دار المحفوظات مجموعة ادم

(١) بروس ١٠٠ والباروني ص ١٢٠ وفي الكتاب صورة وثيقة الفوز في الانتخاب

(٢) دار المحفوظات مجموعة آدم انظر الملحق

الرسالة عن العلة التي عانت منها الإدارة الثانية نتيجة تعيين الموظفين في اماكن غير مناسبة ، ونتيجة التثبيت بالمركزية . وكان قد صدر قرار بتعيين الموظفين محلياً فاغتنب الناس ولكن لم يلبث التطبيق أن جاء مخالفاً للقرار .

تقول الرسالة « لما كانت التبليغات الخاصة بتعيين الموظفين محلياً تبشر بمعد جديد زاهر في إدارة البلاد استناداً على أحكام القانون الأساسي الذي يمنح للولايات مزيداً من المسؤوليات والصلاحيات الواسعة . وبينما كان العديد من أصحاب الكفاءات الذين هم منذ سنوات على الاستيداع ضحية لتعسف رجال الدور البائد مغتبطين بهذا التشريع القويم . فقد ورد بالبريد المسجل سجل يحتوى على أسماء أشخاص من الأستانة يجمل هنا مبلغ كفأاتهم جرى تعيينهم مدرأ للنواحي » . وتنتقد الرسالة هذا التعيين « من البدهى أن أناساً ليس لهم اطلاع على العلاقات والسياسات المحلية ويجهلون التقاليد المرعية ، ولا يعرفون لغة التخاطب في هذا الاقليم وطريقة إدارته لا يستطيعون تمشية شؤون الإدارة والمحافظة على حقوق العباد » . وتشير الرسالة إلى أن هذا الخلل كان موجوداً في « العهد البائد » ومع ذلك اتخذ قرار استثنائي في عهد رجب بأن تقوم الولاية بالتعيين . ولكن لما تقدم عدد من أهل البلاد تتوافر فيهم كل الشروط بطلب تعيينهم في وظائف الشرطة رفضت طلباتهم « وهذا أمر يوجب للأسف والكدر » . وتلع الرسالة في إصدار الأمر لتعيين أهالي الولاية^(١) . ويمكننا من هذا العرض الوافي للرسالة أن نستشف سياسة الاتحاد والترقي ونلس الحيف الذي كان واقعاً على أهالي البلاد في بلادهم .

ولاية أحمد فوزى

١٩ كانون ثانى ١٣٣٥ - ١٨ أيلول ١٣٣٥ مالية

تولى الفريق أحد فوزى باشا ولاية طرابلس وقيادة القوات العسكرية فيها . وبأشر عمله في بداية سنة ١٣٣٥ المالية ، واستمر في الولاية ثمانية شهور . ولا يذكر كاكيا من أعماله إلا أنه « هدم قسماً من سور المدينة بقصد توسيعها من الجهة الغربية ، ودشن بيتاً كان يضم نواب الشعب^(٢) » . ويتناول الزاوى عهده بالحديث من زاوية نشاط السياسة الإيطالية ، فيتحدث كيف زاد نشاطها في زمنه وكثر أنصارها « ووجدوا من خزائنك دى روما مشجعاً لهم وأصبح لها أنصار من الموظفين في جميع مصالح الحكومة » . ويقول الزاوى إنه حدث أن أحدثت حكومة طرابلس تعديلاً داخلياً واستغنت عن بعض الموظفين فانتزها بنك دى روما فرصة ووظفهم عنده . كما تحدث عن نشاط المدارس الإيطالية في مقابل قصور المدارس التركية في ذلك العهد^(٣) .

فإذا تتبعنا أهم الأحداث والأعمال التي جرت في عهد فوزى القصير، نجد أولاً أنه صدرت في طرابلس عدة صحف في الفترة التي اعقبت عودة الدستور . فقد صدر قانون المطبوعات وعادت جريدة الترقى إلى الظهور بعد أن احتجبت عدة سنوات ، ومنحت السلطة عدة رخص بإصدار جرائد أخرى ، هي العصر الجديد والكشاف وأبو قشة وتعميم حريت . وكانت الصحف الثلاث الأولى تصدر بالعربية بينما صدرت الرابعة باللغة

(١) كاكيا ص ٦٠

(٢) الزاوى ص ١٢

التركية^(١). وقد شهدت البلاد حركة توعية ملبوسة بفعل هذه الصحف ، وسنتناولها بالتفصيل في فصل تال . وساهمت هذه الصحف في كشف النشاط الاستعماري وتنبيه الرأي العام له . ولكن حدث بالمقابل أن استطاع نفوذ إيطاليا لإنشاء مطبعة وإصدار جريدتين هما « ايكودي تريبولي » و « واستيلا » تنطقان بلسان بنك روما وتدافعان عنه^(٢) .

وتنصفح قرارات مجلس الإدارة في تلك الفترة فنجد قراراً بمنح بلدية طرابلس امتياز تنوير البلدة بالكهرباء ومد خط ترامواي فيها ، وتاريخ القرار ١١ حزيران ١٣٢٥ . ونجد قراراً آخر تاريخه ٢٨ حزيران ١٣٢٧ ينقل مركز القضاء من العجيلات إلى مصراته . وقراراً بنقل المدرسة الإعدادية إلى مبنى المستشفى . ونستدل من بعض التقارير والقرارات أن السيارة دخلت الولاية في ذلك الوقت ، وهناك مضبطة من مجلس إدارة قضاء زوارة بتاريخ ٥ نيسان ١٣٢٥ تطلب مد طريق معبدة من رأس اجدير السكائن على الحدود الغربية إلى زواره ومنها إلى مدينة طرابلس وتشغيل سيارة على هذا الطريق . ولم تلبث متصرفية الخس أن حذت حذو زواره في ١ نيسان ١٣٢٦ ، ولكن مجلس الإدارة في الولاية رفض الاقتراح لصعوبة استكمال ورشة وقطع غيارات للسيارة « بيننا تأسيس ترامواي أجدي وانفع مع وجود عروض فنية لإنشاء تراموايات » . ويبدو أن معاودة القحط في البلاد وحدث كوارث طبيعية فيها بسبب الأمطار والعواصف فرض ازدياد الهجرة من الدواخل إلى المدينة ، وترتب على ذلك امتحان بعض النساء البغاء بسبب الفقر . ونجد قراراً تاريخه ١٥ تموز ١٣٢٥ « بشأن مسكافة هذه الآفة الأخلاقية التي سببها

الفقر والمسغبة . وقد حدث في شتاء ذلك العام أن هطلت أمطار غزيرة على منطقة ساحل الأحامد جرفت قرابة مائتي منزلاً . وهناك قرار بتأسيس نقاط حراسة في مجزم وتدرات ومولاي في منطقة غدامس تاريخه ١٦ أغسطس ١٣٢٥ . كما نجد تقارير ضافية مقدمة من أعضاء المجلس العمومي يقترحون إجراء بعض الإصلاحات الادارية والعمرانية^(٣) .

ونتوقف عند تقرير قدمه الشيخ أحمد قراطم عضو المجلس العمومي إلى رئيس المجلس وإلى الولاية بتاريخ ٢ مايو ١٣٢٥ اقترح فيه أن يجيد جميع موظفي الولاية اللغة العربية « لغة الأهالي » وأن تسكنت القرارات بالعربية ثم تترجم إلى التركية . وهو يشرح في تقريره مايعانيه أهل الولاية من عدم معرفة الموظفين للفهم ويسهل التقرير بقوله « وأن ولايتنا ولاية طرابلس الغرب ولاية عربية ، وتارة يصير توظيف من لا يعرف اللسان العربي والقلم أيضاً مستنطقاً أو قاضياً أو مدعى عموم . . وغير خاف أن من لا يعرف اللسان والقلم العربي لا يؤدي حق وظيفته وتصير الأهالي معذورة » ثم يعرض طلبه المحدد « فطلب عدم توظيف من لا يعرف اللسان العربي والقلم العربي علاوة على التركية لعجزه عن الايفاء بحق وظيفته ولرفع المعذورة » . وينتقل إلى طلبات أخرى كتوحيد المكابيل والموازين وملاحقة الأشقياء في لواء الخس ، ويعود ليؤكد على موضوع اللغة العربية « ومن المعلوم أن قضاة ولايتنا الخارجة لا معرفة لهم باللسان التركي والقلم التركي إلا النادر ، ولا يخفى أن الحكومة محتاجة إلى توظيف أعضاء إدارة . . وفي السابق المعاملة جارية بالقلم العربي واللسان العربي والآن صارت بالقلم التركي واللسان التركي . . نسترح أن يكون القرار بالقلم العربي » . وبهنا في هذا التقرير تركيزه على موضوع اللغة

(١) المصراحي صفاة ليبيا ص ٤٣

(٢) الزاوي ص ١٣

(٣) دار الحفوظات . ج. ١ ص ١٧٥

العربية ، وهو يكشف عما عاناه الأهالي من عدم استعمال لغتهم في المعاملات الرسمية . وقد جاء طلب عضو مجلس الإدارة في وقت تشدد فيه الحكم التركي في استعمال اللغة التركية تمشياً مع سياسة التريك التي انتهجها رجال الاتحاد الترقى . ونستدل من التقرير غير من بعض رجال البلاد الواعين على اللغة العربية . وقد ناقش الوالي أحمد فوزى التقرير مع مجلس الإدارة وقرر أن اللغة التركية هي لغة الدولة الرسمية ، واستعمال لغة أخرى في المحابر والمعاملات الرسمية يتنافى مع القانون الأساسي الذي أقمنا على مراعاته ، وبما أن تأسيس دوائر للترجمة يستوجب الكثير من المصاريف وإضاعة الوقت فقد رفضت الفقرات الخاصة بـ «سألة اللغة»^(١) .

ويتضح من رسالة موجهة من وكالة متصرفية فران إلى الولاية بتاريخ ١٠ حزيران ١٣٢٥ مالية أن الأمن اختل في فران في تلك الفترة حيث «ازدادت غارات الذين تحت زعامة أبناء سيف النصر على الطرق والقرى والنواحي والمسافرين من حدود سرت حتى إلى هنا» . ولم تكن هناك قوة رادعة من قبل الحكومة - كما تقول الرسالة - تردعهم فازدادت جرأتهم يوماً بعد يوم . واقترحت المتصرفية تشكيل الشرطة المهجانة ه لأن الحاجة إليها آخذة في الإزدیاد هذه الأيام . حيث سلبت طمأنينة وأمن اللواء من قبل هؤلاء وغيرهم من قطاع الطرق . وحذرت من صعوبة استعادة الأمن بدون ذلك^(٢) .

ونلاحظ من محاضر مجلس الإدارة تطلع الناس للإصلاح ، ورغبتهم في النهوض بولايتهم .

وقد وقفت سياسة المركزية التي انتهجتها استاقبول عقبة في الإنطلاق لتحقيق تطلعات الناس ورغبتهم . وكان على الوالي ومجلس الإدارة أن يبحث عن سبيل لإقناع الباب العالي بما تحتاجه الولاية . وقد فكر أحمد فوزى أن يرسل وفداً من أهالي البلاد إلى العاصمة لعرض مطالب الولاية على غرار الوفد الذي سافر في عهد حافظ باشا ، فشكل الوفد واختار أعضاءه وكان ذلك سبباً في إثارة غضب بعض الأعيان الذين لم يعجبهم اختياره . وأثارت جريدة «الترقى» الموضوع وتبنته واقترحت في مقالاتها انتخاب عناصر الوفد من الأحرار المفكرين ، وساهم محرروها في كتابة عرائض إلى الباب العالي . الأمر الذي سبب غضب الوالي ودفعه لاعتقالهم فزادت نقمة معارضية ، ومجل ذلك كله في عزله^(٣) .

(١) دار المحفوظات مجموعة أدهم

(٢) دار المحفوظات مجموعة أدهم انظر الملاحق

الوطنيين في انشاء هذه الشركة ولكن السلطات العثمانية لم تستمع لما رخصتهم وتجلت الروح الشعبية في رفض البحارة الطرابلسيين حمل أحد دعاة بنك روما في مراكبهم حين عودته من حملة دعاية قام بها في استانبول .

وبدأت الجرائد الإيطالية في تلك الفترة المجاهرة في الدعوة لاحتلال الولاية « وتجاوزت كل حد في الغضب من كرامة الترك » . وألفت إيطاليا فرقة خاصة لاحتلال طرابلس ستمتها الفرقة الطرابلسية . وحين حاول الجمهور الطرابلسي التظاهر احتجاجاً على هذه السياسة الإيطالية وعلى حملات الصحف الإيطالية لمنعهم الوالى - كما يقول الزاوى - « بحجة أن الحكومة الإيطالية لم يظهر منها ما يؤيد لهجة الصحف » . فكان أن أ برق نحو خمسين من أعيان طرابلس إلى الأستانة معبرين عن رأيهم . وقد أكدوا في برقيتهم ارتباطهم بالخلافة والدولة وعزمهم على الدفاع عن هذا الارتباط « ولو انقضت عنه الحكومة العثمانية نفسها » . ونهوا الوزارة بكل وسائل التنبيه إلى « وجوب تحصين البلاد من الوجهتين البحرية والبحرية اللتين أهملت العناية بهما إلى الآن . وتلفت نظرهما إلى موافاة البلاد بالدخار والمؤن التي تكفيها مدة عام كامل على الأقل » . وأقسموا أن يريقوا آخر قطرة من دماهم قبل أن يندس تراب وطنهم أقدام السلطة الأجنبية . ويقول الزاوى الذى أثبت نص البرقية كاملة أن الصدر الأعظم رد بقوله « إن الحكومة ستدافع عن طرابلس ما استطاعت الدفاع . وإن واليا بكر سامى بك سيسافر إليها عما قريب ^(١) » . ولا ندرى ما إذا كانت استانبول مرشحة للولاية شخصاً باسم بكر سامى ، لأن الوالى الذى خلف حسن حسنى هو إبراهيم أدم . وما بلغت النظر أنه بينما كان الأهالى يطالبون بتقوية الولاية

ولاية حسن حسنى

١٨ أيلول ١٢٢٥ - ٣٠ أغسطس ١٣٢٦

١٩٠٩ - ١٩١٠

تولى الفريق حسن حسنى باشا والياً وقومداً على طرابلس ، بعد أحمد فوزى . واستمر في ولايته قرابة عام واحد . وهو غير حسن حسنى الذى تولى بين عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٤ . وقد اغفل كاكيا ذكره لإغفالا تماماً بين ولاية طرابلس ، بينما أشار إليه روسى . وتحدث الزاوى عن عهده حديثاً سبباً مركزاً على موقفه من النشاط الإيطالى الاستعمارى . وقد وصفه بأنه « كان من معاول السياسة الإيطالية الهدامة وكان ضعيف الإرادة سبباً الإدارة ، تركياً بجنسيته إيطاليا بروحه وأعماله ، أتى على كل ما بقى في البلاد من روح مقاومة السياسة الإيطالية . وأفسح المجال للتدخل الإيطالى حتى اشتأز الناس من أعماله وأدركوا سوء عاقبتها السيئة وتسربت إلى نفوسهم كراهة الحكم العثمانى ^(١) » .

واتخذت السياسة الإيطالية في عهد حسن حسنى مواقع جديدة لها في طرابلس ، فقد طلبت من حكومة الأستانة أن تأذن لها في إنشاء شركة فوسفات ، ولم يمانع الوالى . وألفت الشركة مبدئياً برأسمال قدره مليون فرنك يقسم على مائة سهم . . . وانضم إليها كل من استطاع من أنصار بنك روما . ويقول الزاوى أن الوالى نفسه كان من المشجعين لهذه الشركة ومعه يادره حسن بك وترجمانه اليهودى فروكر ومدير الرىجى فونومسكى الذى يصفه بأنه من أكبر دعاة لايطاليا ^(٢) . وقد عارض كثير من

(١) روى ٣٤٨ الزاوى ص ١٣

(٢) الزاوى ص ١٥

الكبير الذى لحق بهم بسبب تحديد الحدود بين الدولة العثمانية وتونس . إذ أن أملا كنا وأراضينا وأشجارنا التى ورثنا عن آبائنا وأجدادنا والبالغ طولها عشرين ساعة ضمت من قبل لجنة التحديد إلى تونس . وهم يحذرون وأنه إذا جوزت دولتنا السنوية لإجراء اللجنة المحجف فإننا سنضطر للهجرة إلى تونس لاحتياجنا بأرضنا لتأمين معيشتنا وسنتقلب نالوت إلى خرابة . وقد سبق أن أشرنا إلى أساليب الفرنسيين التى اتبعت لرسم الحدود على هواهم . وهناك مضبطة ثانية قدمها أهالى غدامس فى الفترة نفسها يشكون فيها من الأجحاف الذى لحق بهم بسبب تحديد الحدود مع الجزائر . ويوضحون أن الحدود بينهم وبين قبيلة السواقة فى الجزائر هى على بعد ستة أيام من غدامس ، واسكن : الحدود التى عرضت اليوم من قبل لجنة الحدود تبعد بالسكاد ثلاثين دقيقة من مركز القضا . ويرتب على هذا التعديل ضرر كبير للأهالى تعدده المضبطة . وقد تبنى سليمان البارونى نائب الجبل الغربى متابعة المضبطين وأرفقها برسالة إلى الصدر الأعظم مؤرخة فى ٢٨ شباط ١٣٢٦ أكد فيها الأجحاف الذى وقع واقترح حلولاً له ضمن أربع مواد فطالب ألا تشغل الحدود بمنطقة غدامس لأن مهمتها مقصورة على الحدود مع تونس ، وأن يبقى القديم على قدمه فى غدامس . واقترح التبرع وإقامة مخافر على الحدود لمنع التعديات وحفر آبار تسد حاجة الأهالى للماء (١) .

السواقة
أهل وادي كوني

وأبرمت الاتفاقية الخاصة بتحديد الحدود بين طرابلس الغرب وتونس فى ١٩ مايو ١٩١٠ . وجرى توقيعها فى طرابلس من قبل ثمانين عن السلطان وبأى تونس . وكان وفد تونس يتضمن ثلاثة فرنسيين وعربى تونسى واحد وجرى التحديد للحدود من البحر المتوسط إلى الأراضى الملحقة بمدينة غدامس فى أربع مواد . واتفق فى مادة مضافة على تشكيل لجنة خلال

ثلاثة أشهر للنظر فى حقوق الأهالى على جانبي الحدود ، تسترشد فى عملها بالمعادات المحلية وتصدر أحكاماً قطعية غير قابلة للاستئناف والتمييز (٢) . وقد أوضحت الاتفاقية خط الحدود بعد أن بقى تحديده معلقاً حوالى ثلاثين عاماً . ومع ذلك فلم تنته المشاكل كليا ولكنها حصرت . ونجد فى رسالة من الولاية إلى الداخلية مؤرخة فى ١٩ كانون أول ١٣٢٦ و ١ يناير ١٩١١ أى بعد عزل حسنى ، أن خلافا نشب بين وكيل قائمقام غدامس الذى عينته الولاية من أهالى البلاد وبين يوزباشى المساحة الفرنسية ، والتحقيق اثبت أن عمله كان نتيجة غضب وحماقة ، فحتمه الولاية وهى تطلب إلغاء تعيينه وتلتزم الموافقة على تعيين آخر اثبت جدارة (٣) . (٤) . (٥) . (٦) . (٧) . (٨) . (٩) . (١٠) . (١١) . (١٢) . (١٣) . (١٤) . (١٥) . (١٦) . (١٧) . (١٨) . (١٩) . (٢٠) . (٢١) . (٢٢) . (٢٣) . (٢٤) . (٢٥) . (٢٦) . (٢٧) . (٢٨) . (٢٩) . (٣٠) . (٣١) . (٣٢) . (٣٣) . (٣٤) . (٣٥) . (٣٦) . (٣٧) . (٣٨) . (٣٩) . (٤٠) . (٤١) . (٤٢) . (٤٣) . (٤٤) . (٤٥) . (٤٦) . (٤٧) . (٤٨) . (٤٩) . (٥٠) . (٥١) . (٥٢) . (٥٣) . (٥٤) . (٥٥) . (٥٦) . (٥٧) . (٥٨) . (٥٩) . (٦٠) . (٦١) . (٦٢) . (٦٣) . (٦٤) . (٦٥) . (٦٦) . (٦٧) . (٦٨) . (٦٩) . (٧٠) . (٧١) . (٧٢) . (٧٣) . (٧٤) . (٧٥) . (٧٦) . (٧٧) . (٧٨) . (٧٩) . (٨٠) . (٨١) . (٨٢) . (٨٣) . (٨٤) . (٨٥) . (٨٦) . (٨٧) . (٨٨) . (٨٩) . (٩٠) . (٩١) . (٩٢) . (٩٣) . (٩٤) . (٩٥) . (٩٦) . (٩٧) . (٩٨) . (٩٩) . (١٠٠) . (١٠١) . (١٠٢) . (١٠٣) . (١٠٤) . (١٠٥) . (١٠٦) . (١٠٧) . (١٠٨) . (١٠٩) . (١١٠) . (١١١) . (١١٢) . (١١٣) . (١١٤) . (١١٥) . (١١٦) . (١١٧) . (١١٨) . (١١٩) . (١٢٠) . (١٢١) . (١٢٢) . (١٢٣) . (١٢٤) . (١٢٥) . (١٢٦) . (١٢٧) . (١٢٨) . (١٢٩) . (١٣٠) . (١٣١) . (١٣٢) . (١٣٣) . (١٣٤) . (١٣٥) . (١٣٦) . (١٣٧) . (١٣٨) . (١٣٩) . (١٤٠) . (١٤١) . (١٤٢) . (١٤٣) . (١٤٤) . (١٤٥) . (١٤٦) . (١٤٧) . (١٤٨) . (١٤٩) . (١٥٠) . (١٥١) . (١٥٢) . (١٥٣) . (١٥٤) . (١٥٥) . (١٥٦) . (١٥٧) . (١٥٨) . (١٥٩) . (١٦٠) . (١٦١) . (١٦٢) . (١٦٣) . (١٦٤) . (١٦٥) . (١٦٦) . (١٦٧) . (١٦٨) . (١٦٩) . (١٧٠) . (١٧١) . (١٧٢) . (١٧٣) . (١٧٤) . (١٧٥) . (١٧٦) . (١٧٧) . (١٧٨) . (١٧٩) . (١٨٠) . (١٨١) . (١٨٢) . (١٨٣) . (١٨٤) . (١٨٥) . (١٨٦) . (١٨٧) . (١٨٨) . (١٨٩) . (١٩٠) . (١٩١) . (١٩٢) . (١٩٣) . (١٩٤) . (١٩٥) . (١٩٦) . (١٩٧) . (١٩٨) . (١٩٩) . (٢٠٠) . (٢٠١) . (٢٠٢) . (٢٠٣) . (٢٠٤) . (٢٠٥) . (٢٠٦) . (٢٠٧) . (٢٠٨) . (٢٠٩) . (٢١٠) . (٢١١) . (٢١٢) . (٢١٣) . (٢١٤) . (٢١٥) . (٢١٦) . (٢١٧) . (٢١٨) . (٢١٩) . (٢٢٠) . (٢٢١) . (٢٢٢) . (٢٢٣) . (٢٢٤) . (٢٢٥) . (٢٢٦) . (٢٢٧) . (٢٢٨) . (٢٢٩) . (٢٣٠) . (٢٣١) . (٢٣٢) . (٢٣٣) . (٢٣٤) . (٢٣٥) . (٢٣٦) . (٢٣٧) . (٢٣٨) . (٢٣٩) . (٢٤٠) . (٢٤١) . (٢٤٢) . (٢٤٣) . (٢٤٤) . (٢٤٥) . (٢٤٦) . (٢٤٧) . (٢٤٨) . (٢٤٩) . (٢٥٠) . (٢٥١) . (٢٥٢) . (٢٥٣) . (٢٥٤) . (٢٥٥) . (٢٥٦) . (٢٥٧) . (٢٥٨) . (٢٥٩) . (٢٦٠) . (٢٦١) . (٢٦٢) . (٢٦٣) . (٢٦٤) . (٢٦٥) . (٢٦٦) . (٢٦٧) . (٢٦٨) . (٢٦٩) . (٢٧٠) . (٢٧١) . (٢٧٢) . (٢٧٣) . (٢٧٤) . (٢٧٥) . (٢٧٦) . (٢٧٧) . (٢٧٨) . (٢٧٩) . (٢٨٠) . (٢٨١) . (٢٨٢) . (٢٨٣) . (٢٨٤) . (٢٨٥) . (٢٨٦) . (٢٨٧) . (٢٨٨) . (٢٨٩) . (٢٩٠) . (٢٩١) . (٢٩٢) . (٢٩٣) . (٢٩٤) . (٢٩٥) . (٢٩٦) . (٢٩٧) . (٢٩٨) . (٢٩٩) . (٣٠٠) . (٣٠١) . (٣٠٢) . (٣٠٣) . (٣٠٤) . (٣٠٥) . (٣٠٦) . (٣٠٧) . (٣٠٨) . (٣٠٩) . (٣١٠) . (٣١١) . (٣١٢) . (٣١٣) . (٣١٤) . (٣١٥) . (٣١٦) . (٣١٧) . (٣١٨) . (٣١٩) . (٣٢٠) . (٣٢١) . (٣٢٢) . (٣٢٣) . (٣٢٤) . (٣٢٥) . (٣٢٦) . (٣٢٧) . (٣٢٨) . (٣٢٩) . (٣٣٠) . (٣٣١) . (٣٣٢) . (٣٣٣) . (٣٣٤) . (٣٣٥) . (٣٣٦) . (٣٣٧) . (٣٣٨) . (٣٣٩) . (٣٤٠) . (٣٤١) . (٣٤٢) . (٣٤٣) . (٣٤٤) . (٣٤٥) . (٣٤٦) . (٣٤٧) . (٣٤٨) . (٣٤٩) . (٣٥٠) . (٣٥١) . (٣٥٢) . (٣٥٣) . (٣٥٤) . (٣٥٥) . (٣٥٦) . (٣٥٧) . (٣٥٨) . (٣٥٩) . (٣٦٠) . (٣٦١) . (٣٦٢) . (٣٦٣) . (٣٦٤) . (٣٦٥) . (٣٦٦) . (٣٦٧) . (٣٦٨) . (٣٦٩) . (٣٧٠) . (٣٧١) . (٣٧٢) . (٣٧٣) . (٣٧٤) . (٣٧٥) . (٣٧٦) . (٣٧٧) . (٣٧٨) . (٣٧٩) . (٣٨٠) . (٣٨١) . (٣٨٢) . (٣٨٣) . (٣٨٤) . (٣٨٥) . (٣٨٦) . (٣٨٧) . (٣٨٨) . (٣٨٩) . (٣٩٠) . (٣٩١) . (٣٩٢) . (٣٩٣) . (٣٩٤) . (٣٩٥) . (٣٩٦) . (٣٩٧) . (٣٩٨) . (٣٩٩) . (٤٠٠) . (٤٠١) . (٤٠٢) . (٤٠٣) . (٤٠٤) . (٤٠٥) . (٤٠٦) . (٤٠٧) . (٤٠٨) . (٤٠٩) . (٤١٠) . (٤١١) . (٤١٢) . (٤١٣) . (٤١٤) . (٤١٥) . (٤١٦) . (٤١٧) . (٤١٨) . (٤١٩) . (٤٢٠) . (٤٢١) . (٤٢٢) . (٤٢٣) . (٤٢٤) . (٤٢٥) . (٤٢٦) . (٤٢٧) . (٤٢٨) . (٤٢٩) . (٤٣٠) . (٤٣١) . (٤٣٢) . (٤٣٣) . (٤٣٤) . (٤٣٥) . (٤٣٦) . (٤٣٧) . (٤٣٨) . (٤٣٩) . (٤٤٠) . (٤٤١) . (٤٤٢) . (٤٤٣) . (٤٤٤) . (٤٤٥) . (٤٤٦) . (٤٤٧) . (٤٤٨) . (٤٤٩) . (٤٥٠) . (٤٥١) . (٤٥٢) . (٤٥٣) . (٤٥٤) . (٤٥٥) . (٤٥٦) . (٤٥٧) . (٤٥٨) . (٤٥٩) . (٤٦٠) . (٤٦١) . (٤٦٢) . (٤٦٣) . (٤٦٤) . (٤٦٥) . (٤٦٦) . (٤٦٧) . (٤٦٨) . (٤٦٩) . (٤٧٠) . (٤٧١) . (٤٧٢) . (٤٧٣) . (٤٧٤) . (٤٧٥) . (٤٧٦) . (٤٧٧) . (٤٧٨) . (٤٧٩) . (٤٨٠) . (٤٨١) . (٤٨٢) . (٤٨٣) . (٤٨٤) . (٤٨٥) . (٤٨٦) . (٤٨٧) . (٤٨٨) . (٤٨٩) . (٤٩٠) . (٤٩١) . (٤٩٢) . (٤٩٣) . (٤٩٤) . (٤٩٥) . (٤٩٦) . (٤٩٧) . (٤٩٨) . (٤٩٩) . (٥٠٠) . (٥٠١) . (٥٠٢) . (٥٠٣) . (٥٠٤) . (٥٠٥) . (٥٠٦) . (٥٠٧) . (٥٠٨) . (٥٠٩) . (٥١٠) . (٥١١) . (٥١٢) . (٥١٣) . (٥١٤) . (٥١٥) . (٥١٦) . (٥١٧) . (٥١٨) . (٥١٩) . (٥٢٠) . (٥٢١) . (٥٢٢) . (٥٢٣) . (٥٢٤) . (٥٢٥) . (٥٢٦) . (٥٢٧) . (٥٢٨) . (٥٢٩) . (٥٣٠) . (٥٣١) . (٥٣٢) . (٥٣٣) . (٥٣٤) . (٥٣٥) . (٥٣٦) . (٥٣٧) . (٥٣٨) . (٥٣٩) . (٥٤٠) . (٥٤١) . (٥٤٢) . (٥٤٣) . (٥٤٤) . (٥٤٥) . (٥٤٦) . (٥٤٧) . (٥٤٨) . (٥٤٩) . (٥٥٠) . (٥٥١) . (٥٥٢) . (٥٥٣) . (٥٥٤) . (٥٥٥) . (٥٥٦) . (٥٥٧) . (٥٥٨) . (٥٥٩) . (٥٦٠) . (٥٦١) . (٥٦٢) . (٥٦٣) . (٥٦٤) . (٥٦٥) . (٥٦٦) . (٥٦٧) . (٥٦٨) . (٥٦٩) . (٥٧٠) . (٥٧١) . (٥٧٢) . (٥٧٣) . (٥٧٤) . (٥٧٥) . (٥٧٦) . (٥٧٧) . (٥٧٨) . (٥٧٩) . (٥٨٠) . (٥٨١) . (٥٨٢) . (٥٨٣) . (٥٨٤) . (٥٨٥) . (٥٨٦) . (٥٨٧) . (٥٨٨) . (٥٨٩) . (٥٩٠) . (٥٩١) . (٥٩٢) . (٥٩٣) . (٥٩٤) . (٥٩٥) . (٥٩٦) . (٥٩٧) . (٥٩٨) . (٥٩٩) . (٦٠٠) . (٦٠١) . (٦٠٢) . (٦٠٣) . (٦٠٤) . (٦٠٥) . (٦٠٦) . (٦٠٧) . (٦٠٨) . (٦٠٩) . (٦١٠) . (٦١١) . (٦١٢) . (٦١٣) . (٦١٤) . (٦١٥) . (٦١٦) . (٦١٧) . (٦١٨) . (٦١٩) . (٦٢٠) . (٦٢١) . (٦٢٢) . (٦٢٣) . (٦٢٤) . (٦٢٥) . (٦٢٦) . (٦٢٧) . (٦٢٨) . (٦٢٩) . (٦٣٠) . (٦٣١) . (٦٣٢) . (٦٣٣) . (٦٣٤) . (٦٣٥) . (٦٣٦) . (٦٣٧) . (٦٣٨) . (٦٣٩) . (٦٤٠) . (٦٤١) . (٦٤٢) . (٦٤٣) . (٦٤٤) . (٦٤٥) . (٦٤٦) . (٦٤٧) . (٦٤٨) . (٦٤٩) . (٦٥٠) . (٦٥١) . (٦٥٢) . (٦٥٣) . (٦٥٤) . (٦٥٥) . (٦٥٦) . (٦٥٧) . (٦٥٨) . (٦٥٩) . (٦٦٠) . (٦٦١) . (٦٦٢) . (٦٦٣) . (٦٦٤) . (٦٦٥) . (٦٦٦) . (٦٦٧) . (٦٦٨) . (٦٦٩) . (٦٧٠) . (٦٧١) . (٦٧٢) . (٦٧٣) . (٦٧٤) . (٦٧٥) . (٦٧٦) . (٦٧٧) . (٦٧٨) . (٦٧٩) . (٦٨٠) . (٦٨١) . (٦٨٢) . (٦٨٣) . (٦٨٤) . (٦٨٥) . (٦٨٦) . (٦٨٧) . (٦٨٨) . (٦٨٩) . (٦٩٠) . (٦٩١) . (٦٩٢) . (٦٩٣) . (٦٩٤) . (٦٩٥) . (٦٩٦) . (٦٩٧) . (٦٩٨) . (٦٩٩) . (٧٠٠) . (٧٠١) . (٧٠٢) . (٧٠٣) . (٧٠٤) . (٧٠٥) . (٧٠٦) . (٧٠٧) . (٧٠٨) . (٧٠٩) . (٧١٠) . (٧١١) . (٧١٢) . (٧١٣) . (٧١٤) . (٧١٥) . (٧١٦) . (٧١٧) . (٧١٨) . (٧١٩) . (٧٢٠) . (٧٢١) . (٧٢٢) . (٧٢٣) . (٧٢٤) . (٧٢٥) . (٧٢٦) . (٧٢٧) . (٧٢٨) . (٧٢٩) . (٧٣٠) . (٧٣١) . (٧٣٢) . (٧٣٣) . (٧٣٤) . (٧٣٥) . (٧٣٦) . (٧٣٧) . (٧٣٨) . (٧٣٩) . (٧٤٠) . (٧٤١) . (٧٤٢) . (٧٤٣) . (٧٤٤) . (٧٤٥) . (٧٤٦) . (٧٤٧) . (٧٤٨) . (٧٤٩) . (٧٥٠) . (٧٥١) . (٧٥٢) . (٧٥٣) . (٧٥٤) . (٧٥٥) . (٧٥٦) . (٧٥٧) . (٧٥٨) . (٧٥٩) . (٧٦٠) . (٧٦١) . (٧٦٢) . (٧٦٣) . (٧٦٤) . (٧٦٥) . (٧٦٦) . (٧٦٧) . (٧٦٨) . (٧٦٩) . (٧٧٠) . (٧٧١) . (٧٧٢) . (٧٧٣) . (٧٧٤) . (٧٧٥) . (٧٧٦) . (٧٧٧) . (٧٧٨) . (٧٧٩) . (٧٨٠) . (٧٨١) . (٧٨٢) . (٧٨٣) . (٧٨٤) . (٧٨٥) . (٧٨٦) . (٧٨٧) . (٧٨٨) . (٧٨٩) . (٧٩٠) . (٧٩١) . (٧٩٢) . (٧٩٣) . (٧٩٤) . (٧٩٥) . (٧٩٦) . (٧٩٧) . (٧٩٨) . (٧٩٩) . (٨٠٠) . (٨٠١) . (٨٠٢) . (٨٠٣) . (٨٠٤) . (٨٠٥) . (٨٠٦) . (٨٠٧) . (٨٠٨) . (٨٠٩) . (٨١٠) . (٨١١) . (٨١٢) . (٨١٣) . (٨١٤) . (٨١٥) . (٨١٦) . (٨١٧) . (٨١٨) . (٨١٩) . (٨٢٠) . (٨٢١) . (٨٢٢) . (٨٢٣) . (٨٢٤) . (٨٢٥) . (٨٢٦) . (٨٢٧) . (٨٢٨) . (٨٢٩) . (٨٣٠) . (٨٣١) . (٨٣٢) . (٨٣٣) . (٨٣٤) . (٨٣٥) . (٨٣٦) . (٨٣٧) . (٨٣٨) . (٨٣٩) . (٨٤٠) . (٨٤١) . (٨٤٢) . (٨٤٣) . (٨٤٤) . (٨٤٥) . (٨٤٦) . (٨٤٧) . (٨٤٨) . (٨٤٩) . (٨٥٠) . (٨٥١) . (٨٥٢) . (٨٥٣) . (٨٥٤) . (٨٥٥) . (٨٥٦) . (٨٥٧) . (٨٥٨) . (٨٥٩) . (٨٦٠) . (٨٦١) . (٨٦٢) . (٨٦٣) . (٨٦٤) . (٨٦٥) . (٨٦٦) . (٨٦٧) . (٨٦٨) . (٨٦٩) . (٨٧٠) . (٨٧١) . (٨٧٢) . (٨٧٣) . (٨٧٤) . (٨٧٥) . (٨٧٦) . (٨٧٧) . (٨٧٨) . (٨٧٩) . (٨٨٠) . (٨٨١) . (٨٨٢) . (٨٨٣) . (٨٨٤) . (٨٨٥) . (٨٨٦) . (٨٨٧) . (٨٨٨) . (٨٨٩) . (٨٩٠) . (٨٩١) . (٨٩٢) . (٨٩٣) . (٨٩٤) . (٨٩٥) . (٨٩٦) . (٨٩٧) . (٨٩٨) . (٨٩٩) . (٩٠٠) . (٩٠١) . (٩٠٢) . (٩٠٣) . (٩٠٤) . (٩٠٥) . (٩٠٦) . (٩٠٧) . (٩٠٨) . (٩٠٩) . (٩١٠) . (٩١١) . (٩١٢) . (٩١٣) . (٩١٤) . (٩١٥) . (٩١٦) . (٩١٧) . (٩١٨) . (٩١٩) . (٩٢٠) . (٩٢١) . (٩٢٢) . (٩٢٣) . (٩٢٤) . (٩٢٥) . (٩٢٦) . (٩٢٧) . (٩٢٨) . (٩٢٩) . (٩٣٠) . (٩٣١) . (٩٣٢) . (٩٣٣) . (٩٣٤) . (٩٣٥) . (٩٣٦) . (٩٣٧) . (٩٣٨) . (٩٣٩) . (٩٤٠) . (٩٤١) . (٩٤٢) . (٩٤٣) . (٩٤٤) . (٩٤٥) . (٩٤٦) . (٩٤٧) . (٩٤٨) . (٩٤٩) . (٩٥٠) . (٩٥١) . (٩٥٢) . (٩٥٣) . (٩٥٤) . (٩٥٥) . (٩٥٦) . (٩٥٧) . (٩٥٨) . (٩٥٩) . (٩٦٠) . (٩٦١) . (٩٦٢) . (٩٦٣) . (٩٦٤) . (٩٦٥) . (٩٦٦) . (٩٦٧) . (٩٦٨) . (٩٦٩) . (٩٧٠) . (٩٧١) . (٩٧٢) . (٩٧٣) . (٩٧٤) . (٩٧٥) . (٩٧٦) . (٩٧٧) . (٩٧٨) . (٩٧٩) . (٩٨٠) . (٩٨١) . (٩٨٢) . (٩٨٣) . (٩٨٤) . (٩٨٥) . (٩٨٦) . (٩٨٧) . (٩٨٨) . (٩٨٩) . (٩٩٠) . (٩٩١) . (٩٩٢) . (٩٩٣) . (٩٩٤) . (٩٩٥) . (٩٩٦) . (٩٩٧) . (٩٩٨) . (٩٩٩) . (١٠٠٠) . (١٠٠١) . (١٠٠٢) . (١٠٠٣) . (١٠٠٤) . (١٠٠٥) . (١٠٠٦) . (١٠٠٧) . (١٠٠٨) . (١٠٠٩) . (١٠١٠) . (١٠١١) . (١٠١٢) . (١٠١٣) . (١٠١٤) . (١٠١٥) . (١٠١٦) . (١٠١٧) . (١٠١٨) . (١٠١٩) . (١٠٢٠) . (١٠٢١) . (١٠٢٢) . (١٠٢٣) . (١٠٢٤) . (١٠٢٥) . (١٠٢٦) . (١٠٢٧) . (١٠٢٨) . (١٠٢٩) . (١٠٣٠) . (١٠٣١) . (١٠٣٢) . (١٠٣٣) . (١٠٣٤) . (١٠٣٥) . (١٠٣٦) . (١٠٣٧) . (١٠٣٨) . (١٠٣٩) . (١٠٤٠) . (١٠٤١) . (١٠٤٢) . (١٠٤٣) . (١٠٤٤) . (١٠٤٥) . (١٠٤٦) . (١٠٤٧) . (١٠٤٨) . (١٠٤٩) . (١٠٥٠) . (١٠٥١) . (١٠٥٢) . (١٠٥٣) . (١٠٥٤) . (١٠٥٥) . (١٠٥٦) . (١٠٥٧) . (١٠٥٨) . (١٠٥٩) . (١٠٦٠) . (١٠٦١) . (١٠٦٢) . (١٠٦٣) . (١٠٦٤) . (١٠٦٥) . (١٠٦٦) . (١٠٦٧) . (١٠٦٨) . (١٠٦٩) . (١٠٧٠) . (١٠٧١) . (١٠٧٢) . (١٠٧٣) . (١٠٧٤) . (١٠٧٥) . (١٠٧٦) . (١٠٧٧) . (١٠٧٨) . (١٠٧٩) . (١٠٨٠) . (١٠٨١) . (١٠٨٢) . (١٠٨٣) . (١٠٨٤) . (١٠٨٥) . (١٠٨٦) . (١٠٨٧) . (١٠٨٨) . (١٠٨٩) . (١٠٩٠) . (١٠٩١) . (١٠٩٢) . (١٠٩٣) . (١٠٩٤) . (١٠٩٥) . (١٠٩٦) . (١٠٩٧) . (١٠٩٨) . (١٠٩٩) . (١١٠٠) . (١١٠١) . (١١٠٢) . (١١٠٣) . (١١٠٤) . (١١٠٥) . (١١٠٦) . (١١٠٧) . (١١٠٨) . (١١٠٩) . (١١١٠) . (١١١١) . (١١١٢) . (١١١٣) . (١١١٤) . (١١١٥) . (١١١٦) . (١١١٧) . (١١١٨) . (١١١٩) . (١١٢٠) . (١١٢١) . (١١٢٢) . (١١٢٣) . (١١٢٤) . (١١٢٥) . (١١٢٦) . (١١٢٧) . (١١٢٨) . (١١٢٩) . (١١٣٠) . (١١٣١) . (١١٣٢) . (١١٣٣) . (١١٣٤) . (١١٣٥) . (١١٣٦) . (١١٣٧) . (١١٣٨) . (١١٣٩) . (١١٤٠) . (١١٤١) . (١١٤٢) . (١١٤٣) . (١١٤٤) . (١١٤٥) . (١١٤٦) . (١١٤٧) . (١١٤٨) . (١١٤٩) . (١١٥٠) . (١١٥١) . (١١٥٢) . (١١٥٣) . (١١٥٤) . (١١٥٥) . (١١٥٦) . (١١٥٧) . (١١٥٨) . (١١٥٩) . (١١٦٠) . (١١٦١) . (١١٦٢) . (١١٦٣) . (١١٦٤) . (١١٦٥) . (١١٦٦) . (١١٦٧) . (١١٦٨) . (١١٦٩) . (١١٧٠) . (١١٧١) . (١١٧٢) . (١١٧٣) . (١١٧٤) . (١١٧٥) . (١١٧٦) . (١١٧٧) . (١١٧٨) . (١١٧٩) . (١١٨٠) . (١١٨١) . (١١٨٢) . (١١٨٣) . (١١٨٤) . (١١٨٥) . (١١٨٦) . (١١٨٧) . (١١٨٨) . (١١٨٩) . (١١٩٠) . (١١٩١) . (١١٩٢) . (١١٩٣) . (١١٩٤) . (١١٩٥) . (١١٩٦) . (١١٩٧) . (١١٩٨) . (١١٩٩) . (١٢٠٠) . (١٢٠١) . (١٢٠٢) . (١٢٠٣) . (١٢٠٤) . (١٢٠٥) . (١٢٠٦) . (١٢٠٧) . (١٢٠٨) . (١٢٠٩) . (١٢١٠) . (١٢١١) . (١٢١٢) . (١٢١٣) . (١٢١٤) . (١٢١٥) . (١٢١٦) . (١٢١٧) . (١٢١٨) . (١٢١٩) . (١٢٢٠) . (١٢٢١) . (١٢٢٢) . (١٢٢٣) . (١٢٢٤) . (١٢٢٥) . (١٢٢٦) . (١٢٢٧) . (١٢٢٨) . (١٢٢٩) . (١٢٣٠) . (١٢٣١) . (١٢٣٢) . (١٢٣٣) . (١٢٣٤) . (١٢٣٥) . (١٢٣٦) . (١٢٣٧) . (١٢٣٨) . (١٢٣٩) . (١٢٤٠) . (١٢٤١) . (١٢٤٢) . (١٢٤٣) . (١٢٤٤) . (١٢٤٥) . (١٢٤٦) . (١٢٤٧) . (١٢٤٨

الفرنسية عملية الغدر بالتباوين في وقت كانت القافلة فيه تستريح مع المفرزة . وكان الفرنسيون يصفونهم بالحوثة لأنهم قتلوا عشرين جندياً فرنسياً في موقعة سابقة. ولم يبق من تلك القافلة على قيد الحياة إلا الملازم كاتب التقرير^(١).

وقد أثار هذا الحادث الفظيع اهتماماً في استانبول بعد أن ابرق أهالي فزان إلى جامي بك نائبهم في مجلس المبعوثان بخبره . وتابع السفير الإيطالي هناك صدى الحادث ، وكتب إلى وزير الخارجية الإيطالية رسالة عرض فيها تفاصيله مؤرخة في ٢٢ أبريل ١٩١٠ ، وعلق بأن مجلس الوزراء اهتم بالحادث وكلف وزير الخارجية بالاتصال بالسلطات الفرنسية وطلب التحقيق وتوقيع الجزاءات ، وذكر « أنه ظن سابقاً أن تصرفات الفرنسيين هذه كانت ترمي إلى تحويل القوافل عن الطريق المؤدى إلى طرابلس إلى الطريق المؤدى إلى تونس وأن الحوادث جعلت هذا الظن في غير محله . والبعض الآخر رأى علاقة بين الحادث وموضوع تحديد الحدود بين طرابلس وتونس ، ولا يمكن قبول هذا الافتراض لبعد المسافة ، والواقع أن التصرف الفرنسي - كما يتضح من تقرير الملازم التركي - كان إجراءً انتقامياً لفرض رهبة الفرنسيين على رجال القبائل في الجنوب توطئة لمد نفوذهم هناك . وهذا الحادث وغيره من الحوادث المماثلة إنما كان يؤكد ضعف السلطات العثمانية ويجزها عن مجابهة التحدي الغربي المستمر .

ولاية ابراهيم ادم

من أيلول ١٣٢٦ - ٥ أغسطس ١٣٢٧ ١٩١٠ - ١٩١١

عين المشير ابراهيم ادم باشا والياً وقومانداً لطرابلس الغرب بعد حسن حسنى . ويوجز كاكيا سياسته فيها بأنها كانت ضد الايطاليين على خط مستقيم ، ولم يكن الوالى يتوانى في إظهار حقده عليهم أينما وجدوا^(٢) . ويتحدث الزاوى عنه فيصف أولاً الحال التي وجد البلاد عليها . ارتباك عظيم وفوضى ، ونفوذ إيطالي متغلغل ، وفساد في الإدارة الحكومية ، وهلع في نفوس الناس من مصير أصبح منهم قارب قوسين . ثم يعرض لجهوده في محاولة اصلاح هذا الحال . « فوقف من سياسة الطلبان موقفاً حازماً ، وشرع في اصلاح ما يمكن اصلاحه ، وقبض على الأور بشدة واستعمل نفوذه في كل صغيرة وكبيرة ، وشرع في جمع الرديف وتعليم المنطوعين ليجمع أكبر عدد ممكن من الجند للدفاع عن البلاد^(٣) » .

جاء تعيين ابراهيم ادم محاولة لانقاذ ما يمكن انقاذه في طرابلس . فقد كان من الولاة المصلحين وكان سجله في خدمة الدولة حافلاً بمجالات الأعمال . وتميزت سياسته في طرابلس بالوضوح ، وقامت على أساس الوقوف في الخطر الإيطالي خاصة والأور في عامة ، والعمل للنهوض بالبلاد وإصلاح أحوالها . وهو الأساس الذي اعتمدته جميع الولاة المصلحين في طرابلس .

(١) كاكيا ٦٥ وهو يثبت خطأ أن ابراهيم ادم عين خلفاً لقوزى في نهاية ١٩٠٩ لأنه أغفل حسن حسنى اغتالاً تاماً ، كما أنه يوجز العرض إيجازاً مغلاً .
(٢) الزاوى ص ١٨ وهو يثبت خطأ تاريخ ولايته في ١٩٠٩

استشعر ابراهيم ادم الخطر المحدق بالولاية من قبل إيطاليا ، فركز جهوده للإعداد ليوم المجابهة معها . ففرض الجندية على المواطنين ، وأمكنه أن يجمع من البلاد نحو سبعة آلاف جندي ، وكتب للحكومة في الأستانة منبهاً إلى الأخطار المحدقة بطرابلس ، ويذكر الزاوي أنه رفع اقتراحاً يقول : حيث أنه لا يوجد لدى الدولة قوة بحرية تؤمن توصيل الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت عليها دولة كدولة إيطاليا ، فإنه يجب إرسال كمية وافرة من السلاح لشركات طرابلس وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص على الأقل في نفس طرابلس ، بحيث يكون في أيدي الأهالي عدة كافية يدافعون بها عن أنفسهم لأنهم رجال أشداء ذوو بصائر في الحرب . وأهمل الباب العالي - كما يقول الزاوي - هذا الاقتراح رغماً عن النذر التي كانت تتالي بأن إيطاليا ستغير على طرابلس وبرقة .

واتخذ ابراهيم ادم عدة إجراءات في مواجهة النشاط الإيطالي ، فمنع بنك روما من إخراج الحجارة الأثرية من قرقارش وناحية جنزور بحجة أنه لا يجوز إخراج المعادن الحجرية بدون رخصة ، ولأن تلك المنطقة عسكرية لا يجوز الاقتراب منها . ورفض عرضاً لبنك روما بإئارة المدينة بالكهرباء بدون مقابل . وسمح بعودة الصحفيين الأرجنتيين كوزمان إلى طرابلس - الذي كان قد أبعد في عهد حسن حسنى - على الرغم من احتجاج الإيطاليين . وقد ضاقت السياسة الإيطالية به ، واعتبرته عدو إيطاليا الأكبر ، ورمت بكل ثقلها في الأستانة لإطاحه به ، وكانت لا تدع مناسبة إلا وتحتج على إجراءاته وأعماله . واستطاع النفوذ الإيطالي - على الرغم من وقفة الوالي الصامدة أن يتابع نفاذه للولاية عن طريق الأستانة ، فحصل البنك على إذن بالتنقيب عن الآثار في مواقع جديدة وسمحت الدولة العملية لبعثة إيطالية علمية جغرافية - هي في حقيقتها بعثة عسكرية - بزيارة دواخل الولاية (١) .

ونستدل من وثائق الفترة أن ابراهيم ادم عمل على حصر المؤسسات التبشيرية الأجنبية في الولاية وكتب إلى القنصليات بهذا الشأن وجاء الرد . وعقد اتفاقية مع أحد الفرنسيين لوضع مخطط للطرق المراد تنميتها من طرابلس إلى الخمس ومن يفرن إلى الزاوية ، كما يتضح من وثيقة بتاريخ ٢٠ تموز ١٣٢٧ . وعمل على تجديد حفر بئر سيدى المصرى وتجديد أنابيب مياهه (٢) .

واهتم ابراهيم ادم بتحصين الحدود الجنوبية والغربية للولاية في مواجهة النشاط الاستعماري الفرنسى ، حيث كان الخطر يحيط بالولاية وقتذاك من جهاتها المختلفة . وكانت فرنسا تتحرك من الصحراء في الجزائر لتنفذ إلى فزان وإلى السودان الأوسط . وقد تابعنا المذبحة التي قامت بها مفرزة فرنسية قرب غات في عهد حسن حسنى . وإذا فقد وضع ابراهيم ادم قوة عثمانية في جنت وغات ووضع خرائط جغرافية حربية للمناطق التي تصلح للحشد والدفاع . وكان متصرف فزان على اتصال وثيق بهذا النشاط .

ونستدل من مراسلات متصرف فزان محمد سامى مع الولاية ومع استانبول أنه تطلع إلى أن تقوم الدولة العثمانية باحتلال بعض مناطق السودان الأوسط وتسبق الفرنسيين في السيطرة عليها ، وذلك بينما كان الفرنسيون يسيرون بخطى حثيثة لبطس سيطرتهم على تلك المناطق . ويذكرنا تطلع المتصرف هذا بجهود أحمد راسم لد النفوذ العثماني إلى هناك . ونجد في رسالة من محمد سامى إلى الولاية بتاريخ ٤ كانون أول ١٣٢٦ ، ١٧ ديسمبر ١٩١٠ حديثاً عن الاطماع الفرنسية . وقد ارقق المتصرف

بالرسالة قصاصة من العدد الرابع من «بوليتن دي كوسيتي دي لافريك فرانسي» وهو يتعلق على ما جاء فيها بأنه «يجلب النظر إلى أقصى حد . إن فرنسا تعد الاستيلاء على بورقو وتبسى لاحقاها بامبراطوريتها الافريقية» ويشير إلى أن ما جاء في القصاصة مقتبس من كتاب الكابتن كورى «ثلاثة أعوام بين السنوسيين والوادادين» ويقول «إن هذين الاقليمين أُلزم لنا» . ويفصل المتصرف في شرح اخطاوا استيلاء فرنسا على هذه المناطق ، ويطلب بأن تبادر الدولة العثمانية لإرسال جندرمة من الهجانة بقيادة ضباط أكفاء ليستقروا هناك «لأن احتلال فرنسا لبورقو يعنى معاذ الله محو فزان وطرابلس وبنغازى» . ثم يفصل في شرح فوايدسيطرة الدولة على هذه المناطق «فسيؤدد اختلاطنا بأفريقيا الوسطى ، وسيكون لذلك تأثيراً كبيراً على سياستنا الخارجية . وستضطر فرنسا لمساربتنا من أجل الحفاظ على ممتلكاتها في الجنوب وربما ستحجم عن العنف والظلم الذى تعامل به مسلمى تونس والجزائر وكوار ودلتا بحيرة تشاد» . ويشير أيضاً إلى أخطار التبشير . ويوضح أن شعوب تلك المناطق تميل بقلوبها إلى الدولة العثمانية . يؤكد فى الختام على ضرورة أن يقدم الحكم الدستورى على اتخاذ هذه الخطوة . والتقرير بمجمله دراسة واعية عن أهمية أفريقيا الوسطى وصلاتها بالولاية ، وهو يدل على فهم لأبعاد السياسة الفرنسية فى تلك المناطق . وقد علق الوالى ابراهيم ادم عليه «لقد كتبت فى هذا الأمر المهم وتأييداً لذلك يحال للديوان للكتابة ثانية^(١)» . ويبدو أن الوالى اتخذ أوامر ، بنعزير الحدود الجنوبية والغربية استجابة لمطالب المتصرف واقتناعاً بها . كما يبدو أن الحكومة فى استانبول^(٢) تحاوبت مع هذه المطالب ووافقت على تحضير القوة اللازمة لاحتلال بورقو . ففى برقية أرسلها المتصرف محمد سامى بالشفرة من فزان إلى

الديوان باستانبول يقول «المائة جمل مهيأة . والاستعمال ألزم لأن من المحتمل أن يأتى الفرنسيون من الجنوب ويدخلون بورقو قبلنا» . ويطلب بأن يقدم رفعت بك ليذهب فى الحال بمدفع إلى بورقو ، وبلاستعمال فى الأمر^(١) . وقد تمت المحاولة التركية — كما يقول الشنيطى — واحتلت القوات التركية عين جالاكا واداي ، ولكن «صادف هذا التقدم مقاومة من القبائل النازلة هناك ، كما ناهضته فرنسا فاضطر الدشمانيون إلى التقهقر^(٢)» .

وتعرض ابراهيم ادم بعد حوالى ستة شهور من ولايته إلى حملة صحفية تناولته فيها جريدة «تصوير أفكار» التى تصدر فى استانبول ضمن مقالات كتبها عن بعض الولايات العربية ، وهى العراق ومصر وطرابلس الغرب وكان لهذه الحملة أثرها السىء فى نفس الوالى الذى أخلص جهوده للإصلاح بما حفلت به من مقتريات عليه . وقد تجلّى هذا الأثر فى رسالة جوابية بعث بها ابراهيم ادم إلى سليمان البارونى نائب الولاية فى مجلس المبعوثان وهو يطمنه فيها بأن الولاية آخذة بتأمين كل أنواع الاحتياجات التى تلزم البلاد ، فمنا العمل ومن الله التوفيق ، ثم يقول إن ما جاء فى «تصوير أفكار» سواء كان فى حقى أو فى حق سكان ولاياتنا من المقتريات ، يجب التحرر عن حقيقة صاحبها لأن اعتراضاته ومدعياته فى هذا الباب تجاوزت الحدود . وإن عدم معرفة هذا المخبر الكاذب لإزالة سوء تأثيره يجعلنى غير مستريح فى القيام بعملى وإدارة شؤون وظائفى^(٣) .

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادم الملاحق

(٢) الشنيطى قضية ليبيا ص ٢٦

(٣) البارونى صفحات خالدة ص ١٤٢

ولم يكن إبراهيم أدهم قد أمضى عاماً في طرابلس حين استدعاه رئيس الوزراء حقي باشا المعروف بموالاته للسياسة الإيطالية إلى استانبول وأصدر أمره بنقله في سبتمبر ١٩١١ . وقد علق الزاوي على هذا الاستدعاء بأنه « حادث لم يسبق له مثيل ، مما يدل على تأمر حقي باشا مع الإيطاليين على احتلال طرابلس . فبعد عزله - يقصد الوالي - بنحو خمسة عشر يوماً حوصرت طرابلس بالأسطول الإيطالي^(١) . ولما لم تكن الحكومة قد عينت والياً جديداً عند استدعائه فقد ترك إبراهيم أدهم وكالة الولاية لبيسيم بك الدفتردار وكان قد عين في أيام حسن حسنى وحسنت سيرته في الولاية من خلال قيامه بمهام منصبه . وتلقى أحمد بسيم الأنداز الإيطالي بتسليم المدينة في ١٩١١/٩/٢٧ فأبى أن يسلمها وقرر الدفاع عنها .

وهكذا كان إبراهيم أدهم هو آخر الولاة العثمانيين في طرابلس قبل الغزو الإيطالي ، ولكنه لم يكن الأخير ، فقد عينت الدولة العثمانية نشأت بك والياً أثناء الحرب وكان رئيس أركان حرب الجيش . وجاءه أمر التعيين عن طريق تونس . كما عينت بعد ذلك سليمان البارونى وهناك وثائق تحمل توقيعها باعتباره والياً وقومندان طرابلس^(٢) .

تلك هي صورة الحكم العثماني في طرابلس الغرب خلال تلك الفترة الدقيقة ، رأيناها من خلال عرضنا لتاريخ ولاية طرابلس الذين تنابوا على حكمها . ويمكن أن نوجز السياسة العثمانية في الولاية وتقدنا بأننا كانت في صحو الموت .

الفصل الرابع

النظم العثمانية في طرابلس الغرب

بعد أن تعرفنا على صورة الحكم العثماني في ولاية طرابلس الغرب من خلال تاريخ الولاة الذين تنابوا على كرسى الولاية فيها ، وذلك في مجال دراستنا للقوة الأولى - قوة الحكم العثماني - في الصراع الذي دار حول طرابلس . وقبل أن نعرض للقوتين الباقيتين بالحديث ، نستشعر الحاجة إلى استكمال صورة الولاية في تلك الفترة بالتعرف على الأحوال والأوضاع فيها . فنرى النظم العثمانية المطبقة فيها ، ونرى أوضاعها الاجتماعية وأحوالها الاقتصادية والمالية ، وحياتها الثقافية .

* * *

طبق العثمانيون في ولاية طرابلس نظم الحكم العثمانية المطبقة في الدولة العامة . وقد طرأ على هذه النظم تطور واضح في « عهد التنظيمات » خلال القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد صدور الخط الممايوني عام ١٨٥٦ . حتى « أنه يمكن اعتبار صدور هذا المرسوم كحد فاصل بين عهدين عثمانيين^(١) ، وإن بقيت الخطوط الرئيسية في هذه النظم كما هي إلى حد كبير . ويمكن بنا قبل أن نتحدث عن النظم العثمانية في طرابلس في فترة الدراسة أن نقدم نبذة عن تطورها .

(١) غراية ص ٣٩

(١) الزاوي ص ٢٠

(٢) دار المخطوطات مجموعات أدهم .

انقسمت الدولة العثمانية بين عامي ١٥١٧ و ١٨٥٦ إلى عدد من الوحدات الإدارية الإقطاعية عرفت بالألوية أو السناجق « على رأس كل منها أمير لواء أو سنجق بك له حق رفع لواء (سنجق ، علم) بصفته ممثلاً للسلطان في المقاطعة »^(١). وحينما اتسعت الدولة وكثر عدد الألوية شكلت الإيالة التي تجمع عدداً من الألوية في ولاية واحدة، وجعل على رأس كل منها والي يحمل لقب أمير الأمراء. وربطت بعض الألوية بالعاصمة ورفعت إلى درجة ولاية دون أن تنقسم إلى ألوية أو سناجق. وقد ذكر الحصري مستنداً إلى رسالة تركية قديمة عن التقسيمات الإدارية « أن الدولة العثمانية كانت تقسم في القرن السابع عشر إلى ٣٢ إيالة »، منها ١٤ إيالة عربية^(٢). وكانت طرابلس الغرب لإحدى هذه الإيالات العربية. ويلاحظ أن التقسيمات الإدارية العثمانية لم تختلف عن تقسيمات الممالك أو التقسيمات الإسلامية القديمة في الدولة العربية. « فاسماء الأولون جنداً أصبح مع تغيير بسط نيابة في عهد الممالك وولاية في العهد العثماني »^(٣).

وكان والي هو رئيس السلطة في الولاية. وقد مارس صلاحيات إدارية وعسكرية وقضائية وبلدية، وأشرف بصورة مطلقة على الشؤون الإدارية والإقطاعية، وحدث أن تضاربت صلاحياته مع القضاء.

وكان للوالي حاشية تضم عدداً من الموظفين المرتبطين به، وهم الكاشية أو الكتخدا أو الكيخيا مدير مكتبه الخاص، والمكتوبجي كاتب الرسائل، والمهردار حامل الإختام، والخزنة دار أمين الصندوق، والسلاح دار

حامل السلاح، واحتشامات أغامى النشربفاني، ومير اخور رئيس الاصطبل، وقبولر أغامى أو أغا البوابين الحاجب. وارتبط بالوالي موظفو الإقطاع العسكري في الولاية وهم أمراء الألوية وأمراء الألاي والسوباشية. وكان أمير اللواء حاكماً إدارياً للواء زمن السلم وقائداً لجنده زمن الحرب. وقد ساعده أمير الألاي الذي عهد إليه بالإشراف على جمع الفرسان الإقطاعيين زمن الحرب، والسوباشي مدير الشرطة وكبير موظفي الأمن في اللواء والمنفذ لأحكام القضاء وأوامر المحتسب. وساعد الوالي في إدارة شؤون الولاية عدد من الموظفين كان بعضهم مرتبطاً بالعاصمة ومستقلاً عنه مثل القاضي والدفتر دار مدير الخزانة وأغا الانكشارية قائد القوات العسكرية. فضمن الباب العالي بذلك وجود سلطات في الولاية تحد من نفوذ الوالي.

وأشرف القاضي إشرافاً عاماً على سير العدالة في منطقته القضائية بحيث غدا رقيباً على موظفي الولاية وأحوالها العامة، وممكنه صلاحياته من إنصاف الناس. وكان يرتبط به جهاز الموظفين. وقسمت الدولة العثمانية إلى منطقتين قضائيتين ارتبطتا بشيخ الإسلام الذي كان يرأس جهاز القضاء ويصدر تعييناته. وكانت المحاكم تقبل جميع القضايا ولم تنقسم إلى أولية واستثنائية، ولم ينقيد المتخاصمون بمنطقة قضائية معينة. واتصفت الأحكام بالسرعة وعدم التأجيل وقلة التكاليف وتمتع القضاة بسمعة طيبة إجمالاً. واتبعت الدولة في القضاء مبدأ شخصية القانون فكانت القوانين تطبق على الملل والطوائف وليس على أساس وحدات جغرافية أو سياسية. واستعان القاضي في كثير من أحكامه بالمفتي الذي كانت مهمته إعطاء الرأي في القضايا وفقاً لأحكام الشريعة. واعتبر المفتي الأكبر أو شيخ الإسلام أكبر شخصية قضائية وشرعية وعلمية في الدولة ولكن المفتي في المدن كان دون القاضي منزلة.

(١) غرايبة ص ٤٠

(٢) المصري ص ٢٣٠

(٣) غرايبة ص ٤١، Gibb, p. 162.

وكان الدفتردار مدير الخزانة مسؤولاً أمام الباب العالي عن أموال الولاية، وهو الذى يحاسب جميع موظفيها بما فيهم والى قبل مغادرتهم عند نقلهم أو عزلم، وله أن يضع الحراسة على الأموال. وقد فرض عليه أن يساعد والى على إرسال الميرى السنوى - وهو المبلغ الذى حددته الدولة لمساهمة الولاية فى نفقات الإدارة المركزية - إلى العاصمة.

وكان للقوات العسكرية دوراً هاماً فى الولايات. وقد وجد فى كل ولاية ثلاثة أنواع من القوى العسكرية.. القوى الإقطاعية وهى القوى التى يقدمها صاحب الإقطاع تلبية لنداء الحرب التى يعلنها السلطان. وقسمت إلى ثلاثة أنواع الفرق الوحيد بين فئاتها هو مقدار إيراداتها. وهذه الفئات هى تمار، وزعامة، وخاص. وقد قلت أهمية هذه القوى بعد انتشار الأسلحة النارية وازدياد أهمية التدريب العسكرى والجيش النظامى. والقوى الانكشارية المركزية القابوقول، وكانت جزءاً من وفاق الانكشارية المركزى وأسندت قيادته إلى أغا ارتبط مباشرة بأغا الانكشارية فى العاصمة وكان مستقلاً عن والى.. ثم قوى الانكشارية المحلية (برى) التى جندت فى الولايات وكانت مصدر ازعاج للدولة والسكان بسبب الدور الذى لعبته فى الولايات^(١).

تلك هى بإيجاز النظم العثمانية فى الدولة خلال الدور الأول، وقد طبقت فى طرابلس الغرب فى العهد العثمانى الأول، وفى العهد القره مانلى مع حدوث تعديل طفيف فيها فيما يتعلق بمنصب والى الذى أصبح من الأسرة القره مانلية، مع استمرار تعيينه بفرمان سلطانى، وفى أوائل العهد العثمانى الثانى.

وحدث تطور فى هذه النظم بعد صدور الخط الهمايونى عام ١٨٥٦. واستهدفت القوانين التى صدرت تنفيذاً لأحكامه، تنظيم أمور الدولة وفقاً للنظم المرعية فى الدولة الاوربية. وجاء قانون الولايات « فوضع حداً للاقطاعات القديمة، وحدد صلاحيات كل من الولاة والمنصرفين والقائماتمين. واقتبس كثيراً من أحكامه من النظم الفرنسية ». كما ألغى النظم المالية الباقية من عهود التيمار والزعامة. وعين لكل موظف راتباً يتلقاه من خزانة الدولة. ووضعت الأنظمة اللازمة لإصلاح شؤون المحاكم الشرعية، وجمعت الأحكام الشرعية فى « مجلة الأحكام العدلية ». واستحدثت محاكم نظامية بموجب قوانين جديدة، تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة. ووضعت قوانين جديدة « مختلف شؤون الدولة من إدارية ومالية إلى عدلية وتعليمية بقصد جعلها دولة عصرية »^(٢). ويتضح من هذا التطور فى نظم الحكم العثمانية أن دور الدولة كبر وزادت أهميته. « وقد أعلن السلطان فى المنشور الهمايونى أن الدولة عازمة على التدخل فى كافة أنواع النشاط الاقتصادى. وانها لم تعد تسكن فى بصيانة الأمن فى الداخل والخارج بل صممت على توجيه الأفراد إلى العمل لزيادة الإنتاج وتنمية الثروة العامة ». وأرسى هذا التطور مبادئ جديدة فى الحكم فأشرك الشعب بنوع من المسؤولية ونادى « بأن نفع الأمة هو فائدة للدولة وفائدة للأمة »^(٣).

وانقسمت الدولة فى هذا الدور الثانى ١٨٥٦ - ١٩١٨ إلى ولايات، على رأس كل منها والى يحمل لقب باشا. وقد عهد إليه « بالإدارة العليا لشؤون الولاية وبالإدارتين المالية والسياسية وشؤون الأمن وتنفيذ أحكام العقوبات الصادرة عن السلطة القضائية ». وتنفيذ القوانين العامة

(١) الحصرى ص ٩٠

(٢) غرايبة ص ٥٩

(١) انظر غرايبة ص ٤٠ - ٦٠، Gibb, p. 190.

المطبقة في الدولة . وأن ينفذ في حدود السلطات الممنوحة له القوانين التي تخضع إدارة الولاية لها^(١). وقسمت الولايات إلى عدد من الألوية (سناجق) على رأس كل منها متصرف يمثل الوالى فيها . وقسمت الألوية إلى أفضية يدير كل منها قائمقام . وقسمت الأفضية إلى نواح في كل منها مدير ناحية . وارتبط هؤلاء الموظفون جميعاً بطريق التسلسل الإدارى . مدير الناحية بالقائمقام والقائمقام بالمتصرف والمتصرف بالوالى والوالى بوزير الداخلية فى استانبول^(٢) . وقد ذكر الحصرى مستنداً إلى الحولية الرسمية لسنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م (السالنامه) أن البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية كانت تقسم فى هذا الدور إلى ٩ ولايات و ٤ متصرفيات مستقلة وإبالتين ممتازتين . وكانت طرابلس الغرب إحدى هذه الولايات ، كما كانت بنغازى إحدى هذه المتصرفيات المستقلة^(٣). ويلاحظ أن التقسيمات الإدارية حافظت على أساسياتها . وكذلك الأمر بالنسبة للهيكل الإدارى فى الولاية .

فقد ساعد الوالى عدد من الموظفين بينهم القاضى وهو نائب الحاكم ، ومعاون « مسلم » ، ومدير المحاسبة والشؤون المالية «الدقترار» ، وأمين عام « مكتوبجى وكبخيا » ، ومدير الشؤون الأجنبية « اجنبى مبرى » ، ومدير المعارف ، وباش مهندس « رئيس المهندسين » ، ومدير أوراق ، ومأمور طابو ، ومدير أملاك الدولة ، ومدير أوقاف ، وألأى بك « قائد الدرك » ، « وألحق بأكثر هؤلاء عدد من الأقلام السكتانية ضمت عدداً

من صغار الموظفين » . وبقي القاضى الشرعى محتفظاً بمكانته وأهميته ، كما كبر شخصية رسمية بعد الوالى . وإن شكلت محاكم جديدة مستغلة عنه . وانقسمت كل محكمة بداية إلى دارمين أحدهما حقوقية والأخرى جنائية . وتألفت كل دائرة من رئيس وعضوين . وضم للحكمة مدع عام ومستنطق ورئيس كتاب (باش كاتب) وعدد من الكتاب والموظفين والمستخدمين . ووجدت فى الألوية محاكم أولية ارتبطت ادارياً بمحكمة البداية فى الولاية . كذلك بقى للدقترار صلاحيات تشبه صلاحياته القديمة . وقد حددتها المادة السابعة من قانون الولايات التى نصت على أنه الشؤون المالية ومحاسبة الولاية تناط بموظف مالى يحمل لقب دقترار ويمثل السلطة المركزية العليا فى كل ماله علاقة بمالية الولاية . وهو موضوع تحت أمر الوالى ، ولكنه يرتبط مباشرة بوزير المالية . . فحفظت المادة للمالية نوعاً من الاستقلال عن الوالى . وتولى مالية الوالى . موظف مالى عرف بالحاسب ناب عن الدقترار فيه ، وسمى بمثله فى القضاء . مديراً للمال . وضمت دائرة الدقترار عدداً من الموظفين والكتبة وعدداً أكبر من الجبابة . ونشأت دوائر جديدة فى الولايات للاشغال والمعارف والزراعة والبرق والتعليم . وتأسست البلديات فى المدن ومراكز الأفضية والنواحي ، وصدر قانون انتخاب المجالس البلدية وقانون البلديات سنة ١٨٧١ وانتخب الأهالى أعضاء المجلس البلدى ، واختار الوالى أو المتصرف من بينهم رئيس البلدية وضم إلى الأعضاء عدداً من الشخصيات تعينهم الحكومة . وضم جهاز البلدية عدداً من الموظفين بينهم طبيب وجراح وصيدلى وطبيب محجر صحى وعدداً من الكتاب والمشرفين على نظافة المدينة وإطفاء الحرائق .

وشكل فى كل وحدة إدارية مجلس إدارة تألف من كبار موظفى الولاية وأعضاء منتخبين ، مهمته الإشراف على الشؤون العامة وسير الإدارة والجبابة . وينتق من مجلس تأديبى لصغار الموظفين يرأسه القاضى وشكلت

(١) غرابية س ٦٠

(٢) الحصرى س ٢٤٠ وغرابية س ٦٠

(٣) الحصرى س ٢٤٢

في الولايات والمدن مجالس أخرى مثل لجنة الأوقاف العامة ولجان المحلات ولجان البلديات .

وأعادت الدولة تنظيم الجيش وحققت نجاحاً في هذا المجال . وقسمت الممالك العثمانية من الوجهة العسكرية إلى سبع دوائر كبيرة في كل واحدة منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية . وكان هناك فضلاً عن ذلك ثلاث دوائر عسكرية فرعية تضم بعض الفيالق دون أن تكون جيشاً كاملاً . وكانت واحدة من هذه الدوائر في طرابلس الغرب . وجعلت الخدمة العسكرية إجبارية لمدة عشرين عاماً تبدأ من العشرين ، يدخل الفرد في السنوات الست الأولى في عداد « العساكر النظامية » ويقوم بالخدمة الفعلية . ويعتبر في السنوات الثماني التي تلي من صنف « العساكر الرديفة » فيدعى إلى الخدمة عند ميسر الحاجة . ويعتبر في السنوات الست الباقية من « العساكر المستحقة » فلا يدعى إلى الخدمة الفعلية ، إلا عند الحاجة القصوى .

وكان التسكليف العسكري محصوراً بالمسلمين ، ومع هذا فقد أعفى الأهالي المسلمون في بعض الولايات ، وكانت طرابلس الغرب حتى بداية القرن الحادي واحد منها . ولم يطر قانون الخدمة العسكرية على العشائر البدوية . وأسست الدولة عدداً من المدارس والمستشفيات العسكرية كان لطرابلس نصيب منها . وضمت فرقة طرابلس الغرب في أواخر القرن التاسع عشر لواء مشاة : ٨٩ و ٧٨ وأربع آليات مشاة : ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ وآلات خيالة : ٣٧ و ٣٨ وطابور قناصة : ١٥^(١) .

النظام الإداري في الولاية

تلك هي بإيجاز نظم الحكم العثمانية التي طبقت في طرابلس الغرب والدولة عموماً منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر . فإذا ركزنا النظر على ولاية طرابلس الغرب نجد أنها كانت مقسمة إدارياً في العهد القره مانلي وحتى عام ١٨٤٣ إلى ثلاث مقاطعات هي طرابلس ومصراته وبنغازي . وكان يحكم هذه المقاطعات في العهد القره مانلي أفراد من الأسرة القره مانلية . وفي عام ١٨٤٣ قسمت البلاد إلى ولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي التي ألحقت بالعاصمة استانبول إدارياً فيما عدا المسائل العسكرية والبريد والجمارك والعدلية فكانت تتبع الولاية^(٢) . وقد أعيد إلحاق بنغازي بطرابلس وفصلها عنها إدارياً أكثر من مرة . ونجد في الوثائق رسالة مؤرخة في ٢٦ رجب ١٢٨٩ ، ١٧ أيلول ١٢٨٨ الموافق ١٨٧٢ تقول إنه تقرر لأسباب مصلحية إعادة شكل الإدارة في بنغازي وجعلها متصرفية وتعيين ضيا باشا متصرفاً لها . كما وضع رسالة أخرى أنه صدرت إدارة سنية لجعل بنغازي متصرفية مستقلة ووجه بيورلديان ساميان الأول بتاريخ ٢٣ كانون ثاني ١٢٩٤ والثاني بتاريخ ٥ مارس ١٢٩٥ بفصل حساباتها عن حسابات ولاية طرابلس^(٣) . وبقيت بنغازي متصرفية مستقلة حتى نهاية العهد العثماني الثاني .

وصدر في عام ١٢٨١ هـ فرمان عالي الشأن بتشكيل إمالة طرابلس ولاية - كما يقول النائب - « وإجراء نظامها المخصوص » . فتلقاه الولى

(١) كما س ٨٧ راسم رشدي س ١ فرانسكو كورو س ١٤ ، عزيز سامح س ٢٠٨
Settantasei Anni Di Daminazione Turca In LIBYA (٢)
(1835-1917) Francesco Coro.

(١) المصري س ٢٥٠ - ٢٥٦ ، غرايبة ٦٥ - ٥٧ .

بكال التنظيم . ثم باشر بتوزيع الوظائف على مقتضى أحكامه ، ووضع مجالس الجنايات والحقوق والتجارة وفق نظامه (١) .

وقسمت ولاية طرابلس إلى أربعة أودية (متصرفيات أو سناجق) هي لواء المركز ومركزه طرابلس ، ولواء الخمس ومركزه الخمس ، ولواء الجبل الغربي ومركزه بفرن . ولواء فزان ومركزه مرزق . وقسمت هذه الأودية إلى أقضية (قائممقيات) بلغ عددها عشرين قضاء . كما قسمت الأقضية إلى نواحي .

وكان لواء طرابلس يضم أقضية طرابلس والزاوية والعجيلات وزوارة وترهونة وأورفلة وغريان ثم العزيزية (٢) وفيه نواحي تاجوراء وجنزور والجفارة والنواحي الأربع الساحل والمنشية والعلاونة والرقيعات . وكان لواء الخمس يشمل أقضية الخمس ومسلاته وزليطن ومصراته وسرت وناحية تاورغا . أما لواء الجبل الغربي فضم أقضية فساطو ونالوت وغدامس ونواحي الحوط ومزده والزنتان وكسكة . وضم لواء فزان أقضية تبستي وغات وازقر وسوكنة والشايطي . ونواحي زويلة وسبها وسمنو وهون والقطرون وودان وزلة . ويتضح من إحدى رسائل الولاية إلى نظارة الداخلية وتاريخها ١٣٢٧ أن النواحي في الولاية كانت على ثلاث درجات . فنواحي الدرجة الأولى هي جفارة والمنشية والساحل والرقيعات والوادي الغربي والوادي الشرقي وكسكة . ونواحي الدرجة الثانية جنزور وتاجوراء وساحل الأحامد وتاورغا ومزدة والحوض وزنتان وجانت والحفرة الشرقية وسبها وسمنو . ونواحي الدرجة الثالثة هون والقطرون وزلة .

وكان لواء بنغازي يضم أقضية درنة والمرج وجالو وطبرق وأصبحت الجنبوب قضاء عام ١٩١٠ ، كما ضم نواحي سلوق وقينيس واجداية وتوكره وبيرسيس وعيب وسيرا وسلنت وشحات والقبة وطلبيثة وهانية ومرسى البردية (٣) .

كان الوالي على رأس النظام الإداري في الولاية ، يجري تعيينه بفرمان سلطان على الشأن . ويحمل رتبة الوزارة ويلقب « بالدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدير أمور الجمهور بالفكر الناقد متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ممد بنيان الدولة والأقبال مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى » (٤) . ويتقاضى راتباً شهرياً مقداره مائة وخمسون جنهما ذهباً . وكان الوالي يمارس الصلاحيات التي أعطاه له قانون الولايات ، وقد سبق أن أشرنا لها ، ومن بين هذه الصلاحيات ترأسه لمجلس إدارة الولاية أو المجلس العمومي .

وتألف مجلس إدارة الولاية من الوالي ومعاونيه والقاضي والدقترار والمحرم — وهم كبار موظفي الولاية — وستة عشر عضواً من الأهالي ، بمعدل أربع أعضاء لكل لواء . وكان ينظر في مختلف مسائل الولاية ، واجتماعاته اسبوعية . وجرت العادة أن يستبدل ثلث أعضائه كل عام . وكان للمجلس محاضر اجتماعات يوقع عليها جميع الأعضاء ، ويسجل في المحضر وقت الاجتماع وأسماء الحضور والتاريخ وجدول الأعمال وما جرى في الجلسة وما اتخذ فيها من قرارات . ووجدت في الأودية مجالس إدارة اللواء ،

(١) Coro. p. 15. ، كاكيا ص ٨٧ ، ناجي الفصل الثاني ، كوبر ص ٩٢ ، عزيز سامح

ص ٣١٠ .

(٢) وردت هذه الألقاب في المنشور السلطاني المتضمن تقليد نامق باشا رتبة الوزارة .

(١) الثالث ص ٣٩٦ من الجزء الأول ، عزيز سامح ص ٢٠٨

(٢) فصلت العجيلات عن الزاوية وأصبحت قضاء بتاريخ صفر ١٢٩٧ ، وأصبحت العزيزية قضاء في آخر العهد .

كما وجد في الأفضية مجالس إدارة القضاء . وكان أعضاء مجلس إدارة الولاية ينتخبون من مجالس إدارة الأولوية (المتصرفيات) . وقد ضموا بينهم ممثلين عن الطوائف ، فكان في مجلس إدارة الولاية عضوان من اليهود الموسويين سنة ١٢٨٤ هـ ، ثم خلا المجلس منهم^(١) . وكانت مخصصات مجلس الإدارة الشهرية في إحدى سنوات الفترة تسمة وعشرون جنيهاً ذهباً .

وكان المتصرف على رأس اللواء ، وقد جرى تعيينه من وزارة الداخلية باستاينبول . وكان يلقب « افتخار الامجاد والاكرام جامع المحامد والمكارم » وكان راتب متصرف لواء الخنس أو فزان خمسة آلاف قرش ، وراتب متصرف الجبل اربعة آلاف قرش . كما كان مدير الناحية على رأس الناحية ولديه مكتب شرطة ، ولم تكن له سلطة على القبائل - كما يقول كورو - التي كان يحكمها مشايخ القبائل^(٢) .

النظام القضائي

تأسست المحاكم في طرابلس عام ١٨٦٩ وتركزت في المدن واكتمل نظامها عام ١٨٧٩ . وكانت درجاتها محاكم أولية (صلح) ومحاكمة بداية فيها دائرة حقوقية وأخرى جنائية ومحاكمة استئناف . وكانت محاكمة الصلح تنظر قضاياها في القرى والنواحي ، ويعين الولى محكميها من أعيان البلاد أماحكامها فتعينهم استاينبول ، وتفصل محاكمة الصلح في

القضايا المدنية والحقوقية البسيطة وفي القضايا الجزائية . ويمكن استئناف بعض قضاياها لتنظر أمام محكمة البداية التي كانت تنظر في القضايا المدنية والحقوقية الكبيرة في دائرتها الحقوقية ، وتنظر قضايا الجنايات في دائرتها الجنائية . وكانت هناك « محكمة الاجراء » التي تنفذ أحكام الاجراء الصادرة من جميع المحاكم وتفصل في الخلافات الناشئة حول تلك الاجراءات . وهناك مدع عمومي له مكتبه وموظفوه يمثل الحكومة في القضايا . ووجدت أيضاً « محكمة التجارة » لفض منازعات التجار ضمت رئيساً وعضوين دائمين واطباء مؤقتين^(٣) .

وكانت هناك المحاكم الشرعية التي تنظر في قضايا الأحوال الشخصية . ولكل محكمة قاض وله نواب وكان المفتي مستشاراً للقاضي ، وعمل القضاة كمستشارين لإدارة الأوقاف العامة . وكان قاضي القضاة يعين من قبل شيخ الإسلام في استاينبول ، وهو حنفي المذهب . أما منصب الإفتاء فكان يشغله اثنان أحدهما مالكي من مذهب غالبية أهالي البلاد ، والآخر حنفي يمثل مذهب الدولة الرسمي .

ووجدت في الولاية بحكم نظام « الامتيازات الأجنبية » محاكم قنصلية تفصل الواحدة منها بين شخصين من جنسية واحدة . أما القضايا التي تقوم بين الأهالي والأجانب أو بين أجانب من جنسيات مختلفة فكانت تنظرها المحاكم العثمانية ، وكان الأجانب يصبحون معهم تراجمة تزودهم بها قنصلياتهم . كما وجدت أيضاً « محكمة الربى » التي كانت تنظر في قضايا اليهود الخاصة أو الدينية^(٤) .

(١) دار المحفوظات بمجموعة أدب

(٢) كالكياس ٩٨ راسم رشدي ص ١٠٥ Coro, p. 16

(١) دار المحفوظات بمحاضرات جلسات المجلس

(٢) Coro, p. 16

النظام المالى

كان الدفتردار على رأس الجهاز المالى فى الولاية ، ويمثل السلطة المركزية العليا فى كل ماله علاقة بمالية الولاية ، وهو موضوع تحت أمر الوالى ولكنه يرتبط مباشرة بوزير المالية - كما جاء فى المادة السابعة من قانون الولايات - وقد ناب عنه فى اللواء المحاسب وفى القضاء مدير المال . وكان عضواً فى مجلس إدارة الولاية ومثله المحاسب فى مجلس إدارة اللواء ومدير المال فى مجلس إدارة القضاء . وضمت دائرة الدفتردار عدداً من الموظفين والكتابة وعدداً ضخماً من الجباة . وكان جميع موظفى المالية بدءاً من الدفتردار مطالبين بتقديم كفالة مالية من كفيل معتبر . وقد طلبت الكفالة فضلاً عن الدفتردار من رئيس محكمة التجارة ومدير دائرة الأملاك وباشكاتب محكمة البداية وبأسمى الغاز والبتروى وجباة الضرائب (مركز تحصيل دار) ومأمور الأجراء الذى يقوم بالحجوزات وموظف الأملاك (الطابو) ومحرر المقاولات ومأمور اللاجبى (اللاجبى) وجابى ضرائب اليهود . وتعهد الكفيل فى الكفالة « أداء وغرم بحيث لو دخل فى ذمته (أى الموظف) شيء من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية أو أموال القول أو غلية فإننى أنا المسؤول والمطالب بذلك » (١) .

وكان الدفتردار يوقع فى ظهر الورقة التى تحمل الأوامر السلطانية التى تكتب من المالية ، وكان توقيع هذا بخط مطولا فسمى التوقيع « المذنب أو ذو الذنب » . كما كان يوقع على المراسلات الصادرة إلى الباب العالى مصدقاً عليها برسم إشارة صح سمي الصح الصغير .

(١) دار المحفوظات سجل الإدارة انظر نموذج الكفالة كاملاً فى الملحق .

الضرائب

وقام جهاز الولاية المالى بتنظيم الواردات والمصروفات ، وجباية الضرائب . وكان ما يجمعه من دخل الضرائب لا يسدّد مصروفات الإدارة فحسب بل ويساهم فى ميزانية الباب العالى - كما سبق أن ذكرنا - وشملت الضرائب أنواعاً متعددة ومعقدة يمكن أن نحصرها فى ثلاثة أبواب : الضرائب التى يصرف واردها على إدارة الولاية ، والضرائب التى يرسل واردها إلى استانبول ، والضرائب التى تجمع من مؤسسات مستقلة غير دوائر الحكومة .

وكانت أهم ضرائب الباب الأول :

١ - - ضريبة الوريكو : وهى الضريبة السنوية وتشتمل على الضريبة الشخصية التى يدفعها كل ذكر بالغ « صائم » - حسب التعبير الشائع . وقد اختلف مقدارها من جهة إلى أخرى ولكنها كانت بمعدل ٤٠ قرشاً على الصائم الواحد (١) . كما اشتملت على ضريبة الحيوانات ومقدارها ٤٠ قرشاً على كل جمل و ٢٠ قرشاً على كل ثور أو بقرة ، وأربعة قروش على الخروف وقرشان على الماعز . وعرفت هذه المبالغ « بالمقطوع » . واشتملت ضريبة الوريكو على ضريبة الأشجار والآبار التى عرفت باسم « الزمة » ، ومقدارها قرشان ونصف تدفع سنوياً عن كل نخلة أو زيتونة ، وخمسة وعشرون قرشاً على كل بئر خاص .

٢ - ضريبة العشر على المنتجات الزراعية ، وكانت تعرف باسم العشر الشرعى . وأخذ من الأراضى التى تسقى بمجد الإنسان نصف العشر

(١) كما كيا دار المحفوظات تراوحت الضريبة ومنطقة الزاوية من قبيلة أخرى بين ٥٩

قرشا و ٢١ قرشا .

تعطى بالالتزام (المزايدة) والذي يرسو عليه العطاء يدفع المبلغ على أقساط .

٣ - ضريبة الاعفاء الخدمة العسكرية أو البذل العسكرية ، وحبيت من الذين أعفوا من الخدمة العسكرية . وكان اليهود يدفعون هذه الضريبة بواسطة جمعيتهم . وكان مقدارها حوالى ٣٠ قرشاً .

٤ - ضريبة العقارات على البيوت والأراضي التي تؤجر ، وكانت بي من الأجانب ، بمقدار ١٠ ٪ من الدخل على كل عشرين ألف قرش و ٥ ٪ إذا قدر ذلك الاجتار بالثر من عشرين ألف فرنك .

٥ - ضريبة الدخل على ارباح التجار وأصحاب الحوانيت . وكان الأجانب معنون منها . ويستدل من سجل ارباب الخاصة أنها كانت سنوية وتراوح بين ٥ قروش على بائع خضار و ١٠٠ قرش على تاجر كبير .

٦ - وهناك ضريبة المعادن الثمينة الذهب والفضة وضرائب إضافية لصالح التعليم والجيش وتسجيل الاملاك ، فضلاً عن اعانات تجبي بالمنااسبات وقد اضيفت ضريبة التجهيزات العسكرية فى أول مارس ١٣١٦ وكان مقدارها ٦ ٪ من الويركو . وجبت ضريبة بدل طريق من المكلفين من سن العشرين إلى الستين من الاحياء الاصحاء ومقدارها اثنا عشر قرشاً فى السنة . واستثنى منها المسجونين والعميان والمعلونين والمعقدين وطلاب المدارس والمعلمين والإعامة والمختاتير^(١) .

وكانت ضرائب الباب الثانى تجبي وترسل إلى استانبول . وقد شملت .

١ - ضريبة الجمارك وكانت على الاستيراد والتصدير بمعدل ٨ ٪ وقد

بلغ مجموع وارداتها فى أحد الأعوام حوالى ٥٠٠.٠٠٠ ليرة تركية فى طرابلس وحوالى ١٥٠.٠٠٠ ليرة تركية فى بنغازى . وكان تعطى أحياناً للمتزمين خصوصيين .

٢ - ضريبة الميناء : وكانت على السفن ، وقد اعفيت منها السفن الأجنبية فقل وارداتها .

٣ - ضريبة البريد والبرق : وكانت على خدمات البريد والبرق وبلغ مجموعها فى العام حوالى ٢٠٠.٠٠٠ ليرة تركية .

وكانت ضرائب الباب الثالث متعلقة بالدين العثمانى العام ، وتحصل بالنيابة عن الإدارات غير الحكومية التى تنولى تحصيل هذا الدين . وقد وجد فى طرابلس منها إدارة الصحة والحجر الصحى ، السكراتينا ، وإدارة حصر الدخان والملح وإدارة المنارات وكانت تضم ممثلين من الدول الأوروبية . وكانت إدارة المنارات بيد هيئة فرنسية تتقاضى عشرين بارة كرسوم عن كل طن من البواخر .

وقد فرضت ضرائب خاصة على الملح والحرير والطوايع والكحول لتسديد الدين العثمانى . كما جبت دائرة الأوقاف ضريبة على التركات .

ميزانية الولاية - الواردات والمصروفات

وكانت أوجه الانفاق فى ميزانية الولاية تتضمن صرف معاشات الموظفين ورجال الجيش ومحصى الإيرادات ، ومصروفات دائرتى الصحة والمعارف والصيانة ومعاشات التقاعد . وكان ثلث معاشات الجيش يرسل من استانبول . وكانت الميزانية تصاب أحياناً بمعجز وأحياناً تزيد وارداتها على المصروفات . وفيما يلى جدول بالواردات والمصروفات لسنة ١٣٢٣ مالية أورده مؤلفا طرابلس غرب

جدول بالواردات والمصروفات لسنة ١٣٣٣ المالية

المصروفات		الواردات	
٢ - حركات	١ - مصاريف محلية	١ - مصاريف محلية	٢ - حركات
٢٤٢٠	٤٣٨٧٤٤	٩١٠٤٨٠	أمولاك وعقار ويري كومي
١٢٢١٩٢٥	١٦٥١٣٨١	٧٩٧٠	تفتيح ويري كومي
٢٦٤٠٠٠	٥٠٣٢٠٢	٢٤١٧٤٨	بدل عسكري
٥٠٢١٤١	١٥١٤٠٠٠	٤٧٨٤٧٨	رسوم أقسام
١٤٦٨٧٣٣	٢٧٤٢١٥	٨٥٣٥٨٩	اعشار مقطوعة
١٩٨٤٣٥	١٠٥٠٠٠	١٠٤٣٨٢٦٩	اعشار إدارة
٣٦٠٠	صحبة	١٤٨٠٠	اعشار الاملاك الأميرية
٤٢٠٠	حركات منفردة	١٥٩٢٦٦	رسوم متنوعة
١٤٦٦٣٨٥٤	يكون	٧٨٦٢٤	املاك وطاير خرجي
قرشاً	١٩٠٦٥٤٢٩٨	٤٧٨٢١٩	حاصلات منفردة
	جملة يكون	٢٢٠٦٥٣٦٧	الحاصل

يوضح لنا الجدول أوجه الصرف والواردات ، ونلاحظ منه ضخامة الرقم المخصص للحرية الذي كان يرسل إلى استانبول ، كما نلاحظ أن مصروفات الداخلية في الولاية كانت كبيرة وكان جلتها ينفق رواتب شهرية لموظفي الداخلية . وقد بلغ مجموع مصارف الموظفين سنة ١٩١١ شهرياً ٥٤٨٧١٠ قرشاً تركياً موزعاً وفق الجدول التالي (١)

١ - في المركز

الوالي	١٥٠٠٠ قرشاً
مدير التحريرات	٣٠٠٠
قلم التحريرات	٥٦٥٠
قلم الأوراق	٣٧٠٠
مجلس الإدارة	٢٩٠٠
مدير النفوس	١٢٠٠
مأمور الجوازات	٤٠٠
مدير الشؤون الأجنبية	٢٥٠٠
	٣٧٨٥٠

ب - مأمورو الولاية الملحقة

متصرف فزان (من الدرجة الأولى)	٦٠٠٠ قرشاً
متصرف المجلس (من الدرجة الثانية)	٥٠٠٠
متصرف الجبل (من الدرجة الثالثة)	٤٠٠٠
مديرو الدوائر والتحريرات	١٠٧٠٠
كتاب مجلس الإدارة	٢٥٥٠٠
مأمورو النفوس وكتابتها	٣٧٥٠
	٢٢٠٠٠

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادعم

ح - مأمورو الأفضية

١٢٥٠٠	خمس من أفضية الدرجة الأولى
٢٤٠٠٠	أثنا عشر من أفضية الدرجة الثانية
٤٥٠٠	ثلاثة من أفضية الدرجة الثالثة
٨٥٠٠	كتابة التحريات
١٣٧٥٠	مأمورو وكتاب النفوس
٦٣٢٥٠	

د - مأمورو النواحي

٥٦٠٠	سبعة من نواحي الدرجة الأولى
٥٤٠٠	تسعة من نواحي الدرجة الثانية
١٥٠٠	ثلاثة من نواحي الدرجة الثالثة
٤٠٠٠	كتاب النواحي
١٦٥٠٠	

هـ - مقررات

٨٥٠٠	ألف من المستخدمين ورؤساء المشائري الجبل
٣٦٩١٠	اللوازم
٣٩٠٠٠	النثريات
٤٨٠٠	السجون
١٦٠٠	طبيب الجبل
٣٠٨٣٠٠	أجور وتعيينات ومصالحه
٣٩٩١١٠	

ويلاحظ أيضاً من جدول الواردات والمصروفات أن الدخل الأكبر من الواردات كان من الاعشار ثم من الاملاك^(١).

ملكية الأراضي

سنت الدولة العثمانية قانون ملكية الأراضي سنة ١٨٥٨ . وصنفت الأراضي بموجبها إلى خمسة أصناف . فهناك أراضي الملك الخاص التي يمتلكها أفراد اشتروها من الدولة ، وكان معظمها يقع في الولاية خارج حدود المدن . وهناك أراضي الميرى الحكومية التي تؤول للأهالي بموجب إذن « الطابو » ، وكانت تشمل الأراضي الزراعية والغابات . وهناك أراضي الوقف التي يوقفها البعض على أشياء محددة أو أشخاص محددين . وكانت تدار من قبل دائرة الأوقاف . وهناك الأراضي المتروكة للرعى أو لمرافق الطرق والمنافع العامة الأخرى . وهناك أخيراً الأراضي الموات البعيدة عن العمران والتي لم يستغلها أحد . وقد أقر القانون العثماني أن ملكية هذا الصنف لمن يحمي الأرض وفقاً لما جاء في الشرع الحنيف . وكان في طرابلس دائرة لتسجيل الأراضي تمنح ورقة طابو يسجل فيها اسم صاحب الأرض وحدود ملكيته . وكانت واردات الطابو تحول إلى الدفترخانه باستانبول عدا خمسة آلاف قرشاً تبقى في صناديق الطابو بالولاية^(٢) .

النقود « العملة »

وصف « كوبر » العملة المتداولة في طرابلس في تلك الفترة بأنها معقدة . وكانت هناك عملة عثمانية و عملات أجنبية . فأما العملة العثمانية ففيها القرش التركي « القرش » ويساوي ٤٠ بارة ، والقرش الطرابلسي ويساوي ٢ قرشاً تركياً وهو يعادل ٢ فرنك أو ١٠ محبوس ، والقرش الفضي الصغير ويساوي ٥٠ بارة . والبوتسعين ويساوي ٩٠ بارة ، والمحبوس

(١) كاكيا ص ٨٩ ناجي طرابلس غرب

(٢) دار المحفوظات عممت وزارة المالية منشوراً بتاريخ ١٣ أبريل ١٩٠٢ بهذا الشأن .

ويساوى ٢٠ قرشاً تركياً ويعادل ٤ فرنكات أو أربع ليرات إيطالية ، ولم يكن له عملة مسكوكة أو ورق بنسكوت فوصفه كوبر بأنه ليس له وجود . وهناك أيضاً المجيدى ويساوى ٢١ قرشاً تركياً أو ١٩ قرشاً فضياً صغيراً . وقد وصف الحشايشى سكه البلد فقال : وأنواعها ليرة عثمانية وهى قطعة من الذهب صرفها مائة وتسعة وعشرون قرشاً ، والمجيدى عبارة عن قطعة من الفضة صرفها أربعة وعشرين قرشاً ، والبوشليك قطعة من الفضة عبارة عن فرنك تقريباً ، والبارة عبارة عن قطعة صغيرة من الفضة صرفها ثمانى زلطات ، والزلاطة قطعة نحاس مقدار الصولدى التونسى^(١) . .

وكان من العملات الأجنبية المتداولة الجنيه الانجليزى ويساوى ١١٣ قرشاً فضياً صغيراً أو ١٢٧ قرشاً متداولاً . والنايلون ويساوى ٩٠ قرشاً فضياً صغيراً أو ١٠٢ قرشاً متداولاً^(٢) . وهناك أيضاً بوطيره (ماريا تيرزا) وهو من أشهرها - كذا كرراى - وكانت تتداول في غات ، ومنعت حكومة الولاية تداولها في طرابلس لتلاعب الأجانب فيها . وبومهراس (عملة نابولى) وبوخمسة وبو أربعة (عملة تونسسية) والفلورين والفرنك (عملة باباوية) الخ^(٣) . .

النظام البلدى

طبق قانون البلديات العثمانى فى طرابلس فى العام التالى لصدوره سنة ١٨٧٢ . وكان المجلس البلدى للبلدية مؤلفاً من عشرة أشخاص ينتخبهم الأهالى من جاوزوا الخامسة والعشرين وسددوا ضرائبهم . وكان الولى يختار رئيس

(١) الحشايشى ص ٩٣

(٢) كوبر ص ٩٤ اورد كاكيا بعض أنواع العملة فى ملاحق كتابه ص ٢١٠

(٣) انظر ملحق اسعار العملة منذ أول شباط ١٣٠٤ ، الحشايشى ص ٢٠٤ وأصهار

البلدية من أعضاء المجلس المنتخبين . وقبل صدور قانون البلديات كان يوجد للبلدية عدة بلقب بشخ البلد ويعينه الحاكم .

واختصت البلدية بتنظيم الأسواق ومراقبتها وتسعير حاجياتها^(١) وتنظيف البلدة وإطفاء الحرائق والإشراف على أماكن اللهو العامة وإدارة بعض المرافق العامة . وكان المجلس البلدى يجتمع مرتين فى الأسبوع . وكانت ميزانية البلدية تشتمل على إيرادات مكوس الأسواق والمذبح وضرائب المقاييس والمكاييل والأوزان . ويتم الاتفاق على رواتب الموظفين العاملين فى البلدية وعلى المرافق العامة كإدارة الشوارع ومياه الشرب والمستشفى . وفيما بلى جدول لوارادات ومصروفات بلدية طرابلس سنة ١٣٢٣ مالية .

وارادات		مصروفات	
٨٩٣٠٠٠	رسوم	١٨٥٨٣٩	مامورىين
٤١٠٠٠	املاك	٣٠٠٠٠	قرمانيين
٦٠٠٠	قصابخانه	٣٢١٣٦	موظفى المستشفى
١٠٠٠	رسوم اراضى	٦١٥٠٦	عاملى البلدية
١٠٠٠٠	عقود	٤٤٣٥٢	محتاجين
١٦٠٠	جزاء نقدى	٣٥٨٠٠	توأم ولقيط
١٥٠٠	رخص الأبنية	٣٠٧٨٣٥	مصارف مقفنة وغير مقفنة
٨٠٠٠	رسوم عربات	١٠٩٧٥٥	إنشاءات وتعميرات
٢٥٠٠٠	الصيدلية		
٦٤٠٠٨	بقايا		
١٠٥١١٠٨	المجموع	٨٠٧٣٢٣	المجموع

(١) هناك وثيقة تتضمن رداً من البلدية إلى القيادة العسكرية تعلمها فيه بسعر الأكولات

وتاريخها سنة ١٩٠٠ .

(٢) عن كتاب طرابلس غرب

ويتضح من مراجعة أسماء أعضاء مجالس البلديات في السنوات الأخيرة للحكم العثماني تكرور ورود اسم حسن باشا القره مانلي بينها . وقد تولى رئاسة البلدية عدة مرات منذ عام ١٣٢٤ هـ مالية ١٩٠٨ م . وكان رئيساً للبلدية عام الغزو الإيطالي فقد أجريت انتخابات البلدية في المدينة والنواحي الأربعة في الربع الأول من عام ١٣٢٩ الهجري بإشراف لجنة تحت رئاسته، وصادق مجلس الإدارة عليها في ٦ أبريل ١٩١١ ونورد النتيجة فيما يلي لتأخذ فكرة عن الأصوات والأسماء (١).

الناجحون من مركز الولاية	عدد الأصوات	الناجحون من النواحي الأربعة	عدد الأصوات
حسن باشا القره مانلي	٨٩٨	علي سليمان شلابي	٥١٣
محمد البدرى	٢٢٢	بلعيد الكوش	٤٥٧
محمد المزعفر	١٧٨	سميد بن رحال	٣٥٢
حسن قرجي	١٤٢	محمود بك درنه	٣٤٨
الأمين القرقي	١٣٦	الحاج محمد البهليل	٣٣٢
الحاج إبراهيم الحدادين	١٢١	الحاج أحمد المجراب	٢٠٩
علي عياد	١٠٦	الحاج خليفة الساعدي	١٨٩
أحمد النائب	١٠٤	الفتية محمد بن صابر	١٧٥
الحاج علي زغوان	٩٧	الحاج محمد بن عويدان	١٥٨
محمد الفتية حسن	٩٣	إبراهيم سميد الخليقي	١٥٤
		السيد بركه الشريف	١٤٤

ويلاحظ من أسماء أعضاء مجالس البلديات تكرور ورود عدد منها عدة مرات ، كما وجد بينها في أكثر من عام عضو يهودي .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادم

الفصل الخامس

الأوضاع الاجتماعية

كانت الكثافة السكانية في ولاية طرابلس الغرب ضئيلة - كما سبق أن ذكرنا - وقد قدر عدد سكانها في تلك الفترة بمليون ونصف المليون نسمة في طرابلس وبرقة وفزان ، نصف هذا العدد في طرابلس وحدها . فيما أورد البستاني في تعريفه بطرابلس « أن مساحتها ١٢٥ ألف ميلاً مربعاً ، وطولها نحو ٦٥٠ ميلاً وعرضها بين ١٣٠ - ٣٠٠ ميلاً ، وعدد سكانها ٧٥٠ ألف نسمة ، وإذا أضفنا برقة وفزان تضاعفت المساحة وتضاعف عدد السكان (١) » وذكر محمد فريد أن أياالة طرابلس « إقليم متسع جداً تقدر مساحته بمليون كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها بمليون ونصف نسمة (٢) . كما أورد الحشاشي أن بعض أعيان طرابلس أخبروه « أن عدد سكان الإيالة الطرابلسية يتيف على المليون من الأنفس وذلك على سبيل التقريب لأن التحقيق لا يعلم إلى يومنا هذا (٣) » . كما ذكر رأى أن سكانها قدروا في نصف القرن الأخير بين مليون ونصف مليون نسمة (٤) . ولم يكن هذا التقدير دقيقاً وهو أكبر بكثير من الرقم الذي سجله إحصاء السكان الرسمي في الولاية . فقد ظهر من الإحصاء أن عدد سكان الولاية بكاملها يقارب الثمانمائة ألف نسمة . ويتضح من جداوله التي أوردناها في كتاب طرابلس غرب أن عدد سكان إقليم

(١) البستاني دائرة المعارف مادة طرابلس

(٢) محمد فريد ص ١٣٢

(٣) الحشاشي ص ١١٠

(٤) RAE P. 80

طرابلس بألويته الثلاث - المركز والخمس والجبل - بلغ ٥١٥٤٣٧ حوالى ثلاثة أضعافهم فى لواء المركز . ونسبة الذكور فيهم أكبر من نسبة الإناث ، وجيلهم من المسلمين مع وجود قلة من الموسويين عددهم ١٤٣٨٦ نسمة يقيمون فى المركز وفى عدد من التواحي . وهناك أيضاً قلة من الأجانب عددهم ٣٧٠ شخصاً يقيمون فى المركز^(١) . ويتضح من رسالة بعث بها متصرف فزان إلى الولاية بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٣١٦ - ١٠ أيلول ١٣١٤ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٩٨ أن إحصاءاً للنفوس تم فى فزان وأن العدد الذى تم تسجيله هو ١٥٧٠٤ يضاف إليه أربعة آلاف ونيف لم ترد سجلاتها بعد فيكون المجموع حوالى عشرين ألفاً^(٢) . أما سكان برقة فقد قدر عددهم بحوالى ٢٣٠ ألف نسمة . وهكذا يكون مجموعة السكان فى الولاية لا يزيد عن ٧٥٠ ألف نسمة . وقد أورد كاكيا أرقاماً قريبة مما ورد فى الجداول ، ولكنه ذكر أن عدد سكان متصرفية فزان حوالى ٧٠ ألف نسمة ، فبلغ المجموع الكلى عنده حوالى ٨٠٠ ألف نسمة^(٣) . ولنا أن نتوقع أن تكون الأرقام الرسمية العثمانية للسكان التى حددها الإحصاء أقل من عدد السكان الفعلى ، لأننا نعلم بأن السكان تخوفوا من الإحصاء فى بعض المناطق فأحجموا عن التسجيل ، ولأن الوعى الإحصائى لم يكن على المستوى المطلوب ، ولأن أساليب الإحصاء أيضاً لم تكن دقيقة . وعلى هذا فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد سكان طرابلس يكاملها كان بين التقدير الأول وبين تقدير الإحصاءات ، وبلغ حوالى المليون نسمة .

توزع هذا العدد القليل من السكان فى مساحة الولاية الواسعة . وتركز الأهالى فى الدرجة الأولى فى ساحل طرابلس ثم فى ساحل برقة ثم فى الجبل الغربى

والجبل الأخضر . وارتفعت الكثافة السكانية فى الواحات ، بينما كادت أن تنعدم فى الصحراء الشاسعة .

وكان جل سكان الولاية من أهالى البلاد الأصليين . ووجدت جاليات أجنبية صغيرة تركزت فى مدينة طرابلس . فإذا نظرنا فى أحوال أهالى البلاد الاجتماعية نجد أنهم كونوا وحدة دينية إلا من أقلية يهودية . فغالبية الأهالى يدينون بالإسلام ، ويتبع جل هؤلاء المذهب المالكي بينما لا تتبع بعض أهالى الجبل الغربى وبلدة زوارة الساحلية المذهب الإباضى وعرفوا بالخواص .

وكان أهالى البلاد الأصليون متجانسين إلى حد بعيد . فجميعهم يتكلم العربية . وهناك عدد قليل منهم يتكلم فضلاً عنها اللهجة البربرية ولغة الطوارق . وكان جميع الأهالى من العرب الذين سكنوا البلاد منذ مئات السنين ، وحتى القبلة من البربر فى إقليم طرابلس كانت من جماعات العرب القدماء - عرب ما قبل الإسلام - كما رجح العلماء^(١) . ومن لم يكن منها فقد تعرب . وتجلت عروبة الأهالى فى اللغة والدين والانتساب أمامنا ناحية الجنس فقد أختلط فيهم أجناس عدة - شأنهم شأن عرب المنطقة عموماً - بفعل عوامل البيئة والتاريخ والدين . ويمكننا مع ذلك أن نلاحظ فى الجبل الغربى وبين البدو والملاحم المغربية والملاحم العربية بشكل واضح وكان اختلاط أهالى البلاد فى الدرجة الأولى بالأفريقيين الزنوج سواء فى جنوب الولاية بحكم الجوار أو فى الساحل نتيجة تجار الرقيق .

وتجلى اختلاط الأجناس أكثر ما تجلى فى مدينة طرابلس ، ولفت انتباه جميع الرحالة الذين زاروها فى تلك الفترة . وقد تحدث كوبر عن سكان مدينة طرابلس فذكر العرب « الذين يؤلفون العنصر الأكبر أهمية »

(١) ناجى طرابلس الغرب جداول السكان

(٢) ذار المحفوظات مجموعة ادعم

(٣) كاكيا من ٨٨

واليهود الشرقيين ، « وهناك جنس مختلط بالزواج مع زنوج السودان .. ونجد عدداً كبيراً من الزنوج الحقيقيين . وهناك الفزانيون والطوارق والتونسون . » هذا عدداً عن المسيحيين الذين يضمون الماطليين ومجموعات (١) أوربية . وقالت مابل تود في معرض حديثها عن المدينة « انه لمن الصعب حل اللغز القوي لسكانها . وما تظهره المدينة من اختلاط كبير بين الأجناس بالزواج ، جعل مهمة معرفة القوميات أكثر صعوبة . » وأشارت إلى وجود الأوربيين والفزانين والسودانيين الزنوج واليهود فضلاً عن العرب المغاربة (٢) . وتحدث جاكamy أيضاً عن اختلاط الأجناس في طرابلس ولاحظ أن زواجها يضمون عينات من مختلف الأجناس الأفريقية . وقد أورد البستاني أن معظم سكان طرابلس من العرب ، وأنهم يضمون بينهم عرباً ومغاربة وأتراكاً وماليك ويهوداً وزنوجاً وليفياً من النصارى (٣) . نلاحظ التمييز بين العرب والمغاربة في قول البستاني وغيره ، حيث اطلق لفظ المغاربة على البربر العرب القدماء أو المتعربين . أما الممالك الذين ذكرهم البستاني فأغلب الظن أنه يعنى بهم القولوغلية الذين انحدروا من زواج الجنود الأراك بنساء عربيات . وإذا كان منظر اختلاط الأجناس في المدينة قد أثار انتباه وربما عجب الرحالة الأجانب فالحق أنه منظر معهود في مدن المنطقة وموانئها على الخصوص ، وقد أشار كوبر الذي زار بعض هذه المدن إلى هذا الأمر .

كان العرب المغاربة إذن هم غالبية السكان . وهم أهالي البلاد الأصليون ، وجميعهم يدينون بالاسلام . وكانوا يعيشون في المدن القرى والبادية . فأما سكان المدن منهم فقد عملوا في التجارة على الأغلب . وقد وصف كوبر

(٢) كوبر ص ٢٦ من الترجمة

(١) مابل تود ص ٦٤ من الترجمة

(٢) البستاني دائرة المعارف مادة طرابلس غرب

عرب طرابلس بالاحترام والنبل والنظافة ، وفضلهم على اليهود والماطليين واليونانيين . وذكر أن النموذج المغربي بينهم (البربري المتعرب) يتصف بالمهارة والنشاط ، بينما اتصف النموذج العربي بالحماسة الدينية (١) . وقال عنهم الحشاشي أنهم لا يميلون للغرباء أول الأمر ولستهم « إذا عاشروا الغريب أكرموا واعتبروه كأفسهم (٢) » . وكانت مدن طرابلس وبنغازي ومصراته ومرزق مراكز تجارية فيها عدد كبير من التجار ، وكذلك واحنا غدامس وغات . ولم يهتم عرب المدن بالصناعات وتركوا مزاولتها لأفراد الجاليات الأجنبية واليهود .

أما سكان القرى منهم فقد عملوا في الزراعة ، وكانوا يتقنوها . وقد لاحظ ذلك الحشاشي حين زار البساتين المحيطة بمدينة طرابلس . وقال عن أهالي بنغازي « إنه ليست لهم إلا صناعة الفلاحة » . وأشار إلى أن البدو في طرابلس من العرب والعروش البعيدة على البلد ليسوا بأحباب حزم وكذا لا يخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب (٣) . وكان البدو عامة يشتغلون بالرعى ويمارسون الزراعة في بعض الأحيان .

وكانت العلاقات بين الأهالي تقوم على أساس الارتباط القبلي . وقد قامت صلات قوية بين أهالي جبل نفوسة العربي وبين قبائل الجزائر الأمازيغية . وكذلك بين الطوارق في غات والقبائل السودانية في إفريقيا ، وبين قبائل الجبل الأخضر وقبائل الصحراء الغربية .

وضم المجتمع البدوي عدداً من القبائل ، كان بعضها من جماعات العرب القدماء أو عرب ما قبل الاسلام (البربر) ، ومن هؤلاء الرابانية والخلايفة

(١) كوبر ص ٦٦ من الترجمة

(٢) الحشاشي ص ٦٦

(٣) الحشاشي ص ٨٩ و ٦٩

ودرجى والزنتان والرجبان وسلميات وأولاد شبل وأرهبات وهرايا وقناذف وكابا ونالوت وهم يقيمون في الجبل الغربى . وموجرة وأجبل في واحة جالو وبني وليد وبني وازيت في واحة غدامس . وكان بعض القبائل من العرب المحدثين ، عرب مابعد الاسلام ، ومن هؤلاء العواقر وإشتة والعبيدات والبراعة والحسا والدرسا وهم يقيمون في برقة ، وأولاد على الوافدين من مصر السفلى إلى مارمايكيا ، وزويه في واحات الكفرة ، ولوليد بليل في غدامس وأولاد سليمان في غرب طرابلس وفزان ، وريه بين سوكنه والخروج الأسود ، والخطيان في وادى الشياثى ، وبني جهم والقناذفة وأولاد بوسيف وأولاد يوسف وحدات وبوعجيلة والنوايل وأورفلة وورشقانة وبلاسة وأرجات ، وأكاره في سهوب الجفارة حتى حدود تونس والدراهيب وولاد بوسيد وولاد على وولاد بوماره ومارغانا وفرجان وولاد يوسف وولاد مهادا وناجى وولاد بومسلم وخواريش وجرا كتاو بوساباوشفاترا والرحيمية^(١) . كما عاشت في فزان قبائل الطوارق والتبو .

وكما هو واضح فإن عدد القبائل كان كبيراً . وهو يتضاعف إذا عدنا العشائر والبطون والأفخاذ التي تنقسم لها هذه القبائل . وقد أورد كوبر في كتابه قائمة بأسماء ستة وثلاثين قبيلة في منطقة ترهونة بينما كان بارث قد ذكر تسعة عشرة فقط . كما وصف كوبر ما رآه من أسلوب معاشهم فقال « يظهر لى أن رجال قبائل ترهونة ينتمون إلى جنس يغلب فيه الدم السامى ولم أجد أثراً للدم النجى بينهم . وهم جميعاً يسكنون في الخيام أو الكهوف ، ولا توجد أية بيوت مبنية في المنطقة كلها عدا موقع أو موقعين للحامية العثمانية . وهم من البدو ولكن إلى درجة معينة لأنهم رغم اقتنائهم آثار المراعى لا يتعدون حدود منطقتهم .. وهم كغيرهم من العرب ينقسمون إلى قبائل . والمظهر الرئيسى عندهم هو أسلوب السيطرة الأبوية والتجمع في

(١) رزقانة من ٢٧٤ و ٢٧٥ .. انظر الملحق كشف بأسماء قبائل القراضى والحارزة بتاورغا .

عوائل . وهم قوم طوال القامة جملاء يرتدون جميعاً « الحولى » الذى يرتديه السكان في طرابلس ، ويحمل كل رجل بدقية ولا يتحرك خطوة بدونها رغم أنها لا تستعمل دائماً . وهناك درجة معقولة من النظام والنظافة في كل مخيم . وهم يحافظون بدقة على شعائر دينهم .. ويتخفون نساءهم عن الأنظار بكل عناية وتزمت .. وهم يعملون في الزراعة وتربية الماشية فيزرعون الشعير والحنطة والتبن ويربون الأبقار والأغنام والجمال^(١) . وتحدث كوبر بالتفصيل عن بعض عاداتهم وخاصة عند لقاء بعضهم ببعض ، وعن عملهم في جمع الحلفا . وأشار إلى عزلتهم عن الحضارة الغربية على الرغم من أنهم يعيشون على بعد بضعة أيام عن الساحل وقال « ويبدى الترهونيون فضولاً واستغراباً شديدين حين يرون أشياء مثل سكين الجيب ذات الشفرات المتعددة والبوصلة وحالة الكاميرا ، ويذكرنا قوله بحديث الرحالهاملتون عن بدو برقة . وما أورده كوبر عن قبائل ترهونه يصدق في خطوطه العريضة على المجتمع البدوى في البلاد عامة .

وقد كان هذا المجتمع البدوى مجتمعاً منعزلاً بعيداً عن سلطان الدولة ، وقد طبعته البيئة بطابعها . وكانت تحكمه العادات والأعراف والتقاليد البدوية ثم القوة إذ لم يحدث الاتفاق حول خلاف . وكانت طباع البدو تتصف بالخشونة والصلابة وفي نفوسهم بساطة وصفاء وتنبع منها خصال فبيلة تستدعى الإعجاب . وكانت حياتهم بسيطة يعيشون في الخيام ويقومون بالرعى والزراعة وينتقلون في مناطقهم مع تنابع فصول السنة . وكانوا بسبب عزلتهم جاهلين بالعالم الخارجى المحيط بهم . وقد ذكر الرحالة أحمد حسنين عن بدو برقة أنهم كانوا قبل السنوسية سادرين في غيابات الضلال ، وعلق بعبو أنهم يشتركون في هذا الوصف مع بقية شعوب

(١) كوبر ص ٥٨ من الترجمة

البلاد الإسلامية في ذلك الوقت^(١). ولاحظ بريتشارد - الدارس الإنجليزى الذى سكن بينهم فترة - أنهم على الرغم من جهلهم لديهم خصال نبيلة تنال إعجاب كل من سكن بينهم^(٢). وكانوا متمسكين بدينهم وإن جهلوا الكثير من تعاليمه. وقد وصف الحشايشى سكان الجبل الأخضر أنهم «اعراب بادية لسانهم طلق فصيح بالعربية وطباعهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدون في شيخهم السنوسى اعتقاداً لا زحزحه الجبال ويخافون الله ورسوله. والأمن وعدم الخوف ضرب اطنابه في ربوعهم»^(٣). وقد انتشرت الحركة السنوسية بينهم خاصة في برقة وفزان ولعبت دوراً كبيراً في الاستفادة من طاقاتهم ونجحت في تنظيم مجتمعهم ضمن نظام الزوايا^(٤).

وتجمع في الولاية عدد كبير من الزوج بسبب تجارة الرق على الأغلب، وإن كان بعضهم من آثار الهجرة الزنجية القديمة إلى الشمال. وقد أسسوا قرى خاصة بنوا بيوتها على الطريقة الأفريقية. وذكر رأى الذى زار إحدى هذه القرى قرب مدينة طرابلس أنها كانت قرية كاملة من قلب أفريقيا تضم من ثلاثمائة إلى اربعمائة زريبة - وهى كوخ من عسف النخل - وكان بيت الرئيس نظيفاً وبسيطاً، كما كان بعض هؤلاء الزوج يشربون البوخم المسكر. وكان من عادة النساء أن يحملن أولادهن على ظهورهن وهى عادة أفريقية. وقد أثنى رأى على أخلاقهم ونقل عن نائب القنصل الإنجليزى عثمان وارنجتون وصفه لهم «بأنهم شرفاء مخلصين ودودين»^(٥).

وقال عنهم كوبر «لأنهم أسعد الطرابلسيين وأشدهم مرحاً وغبطة وخفة فهم يضحكون ويرقصون ويغنون أكثر الوقت»^(١). وكان كثيرون منهم يعملون في تستيف بالات الحلقا لصالح التجار الإنجليز. وقد حفظت مابل تود في كتابها صورة فوتوغرافية لإحدى القرى الزنجية شرق المدينة وهى تنطبق على الوصف الذى أورده رأى لها^(٢). وقد دخل العنصر الزنجى في تركيب الكثيرين من سكان فزان.

وكان القولوغليون إحدى فئات السكان في الولاية. ويعرفهم عزيز ساح بأنهم نتاج «اقتران العساكر والموظفين الأتراك الذين يعملون في طرابلس الغرب بالنساء الوطنيات»^(٣). وينقل آدم عن القاموس التركى معنى كلمة قول اوغلى أنه «صنف من الجند متشكل من أبناء المماليك والآهالى مأمور ببعض الخدمات ذات العلاقة بالعسكرية، ويوجد اليوم أمثالهم في طرابلس الغرب»^(٤). ويبدو أن أصل الكلمة بالتركية يعنى المملوك. وقد قدر ساح قولوغلية طرابلس الغرب بين الخمسين والستين ألف نسمة، وذكر أنهم كانوا يتمركون في نواحي العلاونة والمنشية والساحل والرقيعات وورشفانة والعريزة. ولعب القولوغلية دوراً واضحاً في تاريخ الولاية خلال الحكم العثماني حيث استعانت بهم الدولة لتثبيت سيطرتها، وعهدت إليهم بأداء خدمات الشرطة خارج المدينة. ويقول ساح إنهم «كانوا يؤلفون تشكيلات خاصة ويرأسهم شخص تعينه الحكومة يدعى باش آغا. وكان البوليس الرسمى للولاية «الجندرمه» ينظر في مسائل الأمن داخل السور، أما خارج السور فكانت المحافظة على استتباب الأمن منوطة بالقولوغليين». وقد استمر هذا الوضع حتى

(١) احمد حسنين ص ٤٨، يعقوب ص ٣٣، الدجاني احاديث في تاريخ ليبيا ص ٦٦

Pritchard P.63 (٢)

(٣) الحشايشى ص ٩٨

(٤) راجع الحركة السنوسية للدجاني

RAE P.76 (٥)

(١) كوبر ص ٢٧ من الترج

(٢) مابل تود ص ١١٣ من الترج

(٣) عزيز سامع ص ٢٢٨

(٤) شمس الدين سامى بك قاموس تركى ص ١١٠٦ عن آدم

سنة ١٣١٨ هـ . حين ألغى الوالى حافظ باشا الباش آغاوية وأسس قضاء النواحي الأربع .

وحاول القولوغليون معارضة الإصلاحات التى اجرتها الحكومة فى النظام الإدارى والعسكرى فى الولاية ، حيث جردتهم من امتيازاتهم . وعارضوا تسجيل الأملاك والنفوس وإجراءات الطابو ، ورفعوا السلاح فى وجه الموظفين الموفدين للقيام بتلك المهام . ولكن الحكومة فرضت عليهم الإصلاحات وتصدت لمعارضتهم . وحدثت عدة حوادث استمرت يوماً واحداً وسقط فيها بعض القتل والجرحى . ونفت السلطات اثني عشر شخصاً من أعيان القولوغلية فى الساحل إلى بنغازى^(١) .

وكان الطوارق يعيشون فى الصحراء ، وغات مركزهم الرئيسى . وأشهر قبائلهم — كما أورد الحشايشى — أزرق وهقار وفوغاس ، « وهؤلاء ضاربون آلاف حول غات وجباله ، وهم من المثلثين ولذلك ترى اللثام دائماً لايزال عن أوجهم ولو عند الأكل والشرب »^(٢) . وقد ميز كوبر نفراً منهم كانوا يزورون طرابلس أثناء وجوده فيها « من ملاحظهم المقنعة ومشيئهم المتحدية وعصيم الطويلة التى تشبه عصي ضباط الفرق الموسيقية »^(٣) . ونقل الحشايشى عن حاكم غات أن عددهم فى الولاية لا يتجاوز ثلاثة عشر ألفاً — وذلك عام ١٨٠٤ — « وقيل تسعة آلاف . . . وكانوا يتجاوزون هذا العدد سنة ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ م وسبب النقصان هو الشىء الذى وقع فى بلادهم والجوع ، ووقع غزوهم لبعض القبائل المجاورين لهم فكثرت فيهم الموت »^(٤) .

(١) عزيز سامح ص ٢٢٨

(٢) الحشايشى ص ١٢٠

(٣) كوبر ص ٢٨ من الترجمة

(٤) الحشايشى ص ١٢١

واهتم عدد من الرحالة بوصف عادات الطوارق وأشكالهم . وقد ذكر هورنمان أن أفراد قبيلة الهقار « يخفون القوام يميلون إلى الطول ، ومشيتهم رقيقة وحازمة ونظرهم ثابتة . وهم مولعون بالحرب ، قدراتهم الطبيعية عظيمة وتميز شخصياتهم بالازنان . والقبائل الغربية منهم بيض البشرة . ووصف لباسهم بأنه يتكون من سروال أزرق واسع وقميص أزرق اكمامه فضفاضة يرفعونها إلى أعلى ويربطونها خلف رقابهم حتى تتحرر سواعدهم . وهم يلقون رداء أزرق حول رأسهم ولا يظهر منها سوى عيونهم . . . ويلفون حول وسطهم حزاماً قائم اللون . وذكر أن تجارهم يتسلحون بالبنادق أو السيوف والخراب والسكاكين ، ويحمل الطوارق فى أيديهم حراباً جيدة الصنع ويحملون السكين على سواعدهم اليسرى^(١) .

وذكر جوتييه فى كتابه الصحراء أن الطوارق لهم شخصيتهم الخاصة ويتفقون مع التيبو فى ملبسهم إذ يرتدون المنسوجات القطنية السوداء أو الزرقاء الداكنة . وهم مثلهم فى وضع اللثام الذى يخفى أكثر الوجه ماعدا العينين ، ولا أحد يشبههم سوى التيبو كما جاء فى كتاب نشيجال . . وبما أنهم فى عزلة تامة عن العالم منذقرون فإنهم ما زالوا يحتفظون بعاداتهم الأولى ، فهم يصقلون الأحجار ليعملوا منها حلقات وأذرع لفؤوسهم . كما شرح جوتييه بعض عاداتهم وفسرها ، « فاللثام عندهم لاصلة له بالصحة العامة ولأنما يستعملونه ليحولوا دون خرافة اتصال الأرواح الشريرة بنفوسهم عن طريق الفم أو الأنف . فالطوارق عندهم محرمات تصل إلى درجة التأليه ، فهم لا يأتون كلون الأوران والسحلية الكبيرة ، وذلك لاعتقادهم أنها خؤولتهم . فهم يعتبرون أن آلهة الآم هم أصحاب الزعامة والاحترام فى كل شىء . والذين لهم حق الوراثة هم فرع الآم . . وهم يتكلمون لغة البربر ويكتبونها . ولها حروف هجائية تسمى تفينار . وهم يحملون

(١) هورنمان الرحلة ص ١٢١ من الترجمة

دائماً خنجر اليد كما جاء في وصف كوريوبوس . وهم الفئة الباقية من قدماء الليبيين ^(١) . ويلاحظ أن كلام جوتييه حفل بمحاولة إثارة التفرقة والفرقة بين الطوارق والعرب مما لا نلسه في تاريخ المنطقة، وذلك ضمن خططات الاستعمار الفرنسي الذي نشط في تلك الأجزاء . وقد لفت نظر متصرف فزان محمد سامي بشدة معرفة نساء قبيلة ايمن الطارقية القراءة والكتابة فسجل ذلك في رسالة بعث بها إلى والي طرابلس للبلغومية في ١٩١١ وقال فيها « شاهدت بنظر الاستغراب التام معرفة الإناث عامة للقراءة والكتابة في قبيلة ايمن القاطنة في جبال تاسيلي بغات . ويستدل من الآثار والسدود والمقابر القديمة أنه حكمت غات مدنية لمدة طويلة . . . والكتابة لم تكن بالحروف العربية بل بالخطوط البربرية القديمة المعبر عنها بحروف « تي . في . نو » ولسانهم اللغة التارقية ^(٢) » .

ومن قبائل الصحراء أيضاً التيبو الذين سكنوا منطقة تبستي في أقصى جنوب الولاية . وهم قلة ، كما ذكر جوتييه الذي اعتبر تقدير بعثة « تلهو » لعدددهم بأنه عشرة آلاف تقدير مبالغاً فيه . وأهالي التيبو سود البشرة ولكن شعرهم ليس مفلحاً وليس لهم الشفاه الغليظة ولا الأنوف العريضة التي للزنوج . وهم من الشعوب المولدة . وقد زار منطقتهم الرحالة الألماني ناختيجال واسترعى انتباهه نحافتهم المفرطة وضآلتهم ولكنهم مع ذلك مشهورون بالحركة الخفيفة . ويذكر جوتييه في هذا المجال أنه في سنة ١٩١٢ روى السكابتن باليف أن رجلاً من التيبو قطع ١٠٠٠ ك.م . بعد أن مات من كان معه من الرفقاء ، وكان ماشياً على قدميه وليس معه من المؤونة سوى لحم عزنزي . اصطادها وكمية من الماء اختزنها في جلد هذا العنز ^(٣) .

(١) جوتييه الصحراء ترجمة أحمد كال يونس ص ١٨٢ .

(٢) دار المحفوظات الملحق .

(٣) جوتييه ص ١٤٧ و ١٤٨ من الترجمة

وشكل اليهود ألمية كبيرة في الولاية ، وأقاموا في أكثر بلدانها . وكان لهم في مدينة طرابلس حارة خاصة بهم في الشمال الغربي من المدينة كان فيها بضعة آلاف منهم ^(١) . وقد غنى الرحالة بوصف أساليب معيشتهم ، ونوعا عليهم قذارتهم . فأسهب كوبر في وصف قذارته الحارة ، ولكنه وصف سكانها اليهود بأنهم نشيطون في العمل . وتحدث جاكاسي عن بعض عاداتهم الخمسية ، وخاصة تعاملهم بالربا حيث تقاضوا فوائد باهظة تراوحت بين ٢٠ و ٦٠ بالمئة . وأشار راي إلى وساخة الحى وذكر أن عقوبة رجم الزانية كانت في ساحة الحارة ، والأرجح أن تنفيذ عقوبة الرجم كان يعود لفترة ماضية . وجاء في الموسوعة اليهودية « أن الرحالة بنيامين اليهودي زار طرابلس عام ١٨٥٠ فوجد فيها ألف أسرة يهودية وثمانية معابد وعدة مدارس للتوراة والتلمود وأربعة ريبين . أما في القرن العشرين فقد أصبح في المدينة ثمانية عشر معبداً واحد عشر يشيفا Yeshives ومدرستي اليانس ونشرة دورية اسمها علم صهيون ^(٢) » . وقد عمل يهود طرابلس الغرب في الحرف والتجارة وكان بينهم عدد من أصحاب الثروات، وتجس بعضهم بجنسيات أجنبية نالوا بها حماية القناصل - كما سبق أن ذكرنا ^(٣) - وبما ذكرته مابل تود في كتابها أنها زارت قرية العمروس في ضواحي مدينة طرابلس « وهي قرية يهودية معظم رجالها من الحدادين . . وفيها كنيس هو أجمل ابنيها ^(٤) » . ولاحظ ناحوم شلوش حين زار طرابلس سنة ١٩٠٦ أن السلطات العثمانية كانت تعامل اليهود بالحسنى، وأشاد بالوالى المشير رجب باشا الذي كان يعاملهم دوماً بالحسنى والود وكان مستعداً أن يقدم الإمداد والعون للاليانس الإسرائيلي . كما ذكر شلوش أن فئة التجار

(١) ذكرت سالمة عام ١٣٠٩ هـ . أن عدد اليهود في مدينة طرابلس أربعة آلاف ،

وقدرهم كوبر بـ ٣٣٥ يهودي .

(٢) The Universal Jewish Encyclo مادة طرابلس

Cowper P. 39 RAEP. 98

Todd P. 80

(٣)

(٤)

من اليهود كانت تعيش في أوضاع حسنة ، وهذه لا تشكل إلا نسبة واحد من عشرة بينهم . وأغنياء اليهود هم الذين كانوا يشاركون في تجارة القوافل ، وقد تأثروا بتحول تجارة العاج وريش النعام من طرابلس إلى تونس ومصر . الأمر الذي دفع عدداً منهم للهجرة من طرابلس إلى هذين البلدين^(١) .

وكان المسيحيون محصورين في مدينتي طرابلس وبنغازي ، وجميعهم من أبناء الجاليات الأجنبية الذين استوطنوا المدينة . وكانت غالبيتهم من المالطين الذين يحملون الجنسية البريطانية ، ومن الطليان . وقد قدر كوبر عددهم بثلاثة آلاف مالطي وألف إيطالي ومائة أو مائتين من المسيحيين الآخرين . وقدرت السالنامة عددهم السكي عام ١٨٨٥ بثلاثة آلاف . ويقول كما كيا إن طرابلس ضمت في بداية القرن العشرين تسع جاليات أجنبية ، بينها ضمت بنغازي ست جاليات . وكان هناك فضلاً عن المالطين والإيطاليين جالية فرنسية تضم سبعمائة من الذين يحملون الجنسية الفرنسية معظمهم من تونس ويعملون بالتجارة ، ونفر من الأسبان يقدرون بحوالى مائة في طرابلس وخمسين في بنغازي ، وكان معظمهم من التجار اليهود وأصحاب الصنائع ، وبعض الهولنديين من اليهود عددهم حوالى سبعين شخصاً ، وبعض اليونانيين - حوالى مائة شخصاً - يتعاطون في الغالب صيد السمك والاصفنج ، وقليل من النمساويين والألمان - حوالى مائة - كلهم من اليهود^(٢) . وقد وصف كوبر المالطين بأنهم « قشيطون متدينون متنازعون قذرون . وكانوا يسكنون قرب القوس

الرومانى في باب البحر ، وأكثرهم من الكاثوليك . ونوه كوبر بالتسامح الدينى في طرابلس « فمسيحيو طرابلس أحرار تماماً . . وإذا أراد المرء أن يعرف حقاً كيف يعيش المسيحيون في طرابلس فعليه أن يذهب إليها في عيد الفصح لأن الكاثوليك يحولون المدينة إلى شعلة ملتهبة بالألعاب النارية . . فأين هو التعصب التركي؟ »^(٣) .

وضمت الولاية في تلك الفترة مجموعة متنوعة من رعايا الدولة العثمانية عاشوا فيها كمنفيين . فقد جعل الباب العالي طرابلس الغرب منذ أمد أحد المنافي التي يبعد المنفيون إليها^(٤) . وذلك لأن المدينة كانت محاطة بسور قوى ، ولأن المسافات في الولاية مترامية الأطراف ، ولوجود بعض القلاع الصالحة للسجن فيها ، ولعزلها عن العالم الخارجى . وتجمع من المنفيين في طرابلس لبان العهد الحميدى عدد لا بأس به ، كان فيهم المشبوهين السياسيين والضباط المبعدين عن استانبول والخارجين عن طاعة الدولة في أجزاء مختلفة منها . وكان المنفيون من رجال السياسة العثمانيين يثبتون وجودهم يومياً في مركز البوليس ، ويتقدم مدير البوليس بتقرير يومى عنهم إلى الوالى .

واستقبلت طرابلس في مستهل سنة ١٣١٥ المالية مائة وتسعة وخمسين منفيًا من اليمن ، وتشير بعض الرسائل إلى وفاة بعضهم وتسميمهم وأشقياء اليمن ، ، وإلى تحويل الباقيين إلى رودس بعد فترة^(٥) . كما نفي إلى طرابلس في سنة ١٣١٥ هـ ثمانمائة من الدروز . وقد شككت السلطات في الولاية من أن

(٢) كوبر ص ٢٨ و ٣٩ من الترجمة .

(١) عزيز سامح ص ٢١٣ من الترجمة .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادهم .

(٣) دار المحفوظات بمجموعة ادهم .

(١) Sloush , Nahum, Travels In North Africa P. 7

(٢) كما كيا ص ١١٤ من الترجمة .

هؤلاء الدروز الذين يتكلمون العربية إذا تسربوا بالأحرمة لا يمكن تمييزهم من أهل البلاد ولذا لا يمكن المحافظة عليهم إلا إذا كانوا موقوفين. وذكرت في رسالة إلى الباب العالي أن عدد الشرطة في الولاية لا يكفي للمحافظة على السجون فكيف يمكن مراقبة الدروز المنفيين وهذا حالهم^(١). كما نفي إلى طرابلس في تلك الفترة عدد من زعماء الأكراد. ومع اتساع المدينة خارج السور أصبح من الصعب مراقبة المنفيين وكتب الوالي سنة ١٣٢١ هـ إلى الجهات العليا في استانبول موضحاً أن المدينة لم تعد تصلح كمنفى بعد أن اتسعت وتوافرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي عن طريق بواخر البريد الإيطالية والفرنسية والبواخر التجارية، وبسبب قلة البوليس والجاندرمة، فلم يعد ممكناً أمر المحافظة على أمثال أولئك الأشرار ومنع مخابرتهم مع الخارج المطلوب من إرسالهم. واقترح الوالي صرف النظر عن إرسال المبعدين إلى طرابلس^(٢).

وكرر في عهد السلطان عبد الحميد عدد العسكريين الشباب المنفيين إلى طرابلس بعد أن شهدت المدارس العسكرية نشاطاً سياسياً سرياً. وكان من هؤلاء عدد من الضباط ينسبون لعدة أسلحة. فرسان وبحرية ومشاة ومدفعية وأطباء. وعدد أكبر من طلاب المدارس العسكرية وخاصة كلية الطب.

وكانت فزان من الولاية أقصى منافي الدولة، لتوغل قراها القليلة في الصحراء وبعدها عن التطور الحضاري وقسوة الحياة فيها. وكان في مرسى مركز المتصرفية سجن مبني من الطين ضاق بالمنفيين بعد أن كثر عددهم في عهد عبد الحميد فقاربوا المائة. وقد شكوا متصرف فزان في كتاب

بعث به للولاية من ضيق السجن وقلة عدد القوة الضابطة الموكل إليها أمر الحراسة، واقترح راجياً توجيه المنفيين إلى جهات أخرى. ويقول عبد الرحمن جامي في مقدمة كتابه «من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى» بأن ناظر الداخلية في ذلك العهد رد على الولاية قائلاً «إننا قطعاً بحاجة إلى سجن فزان. خبرونا عاجلاً بالنفقات اللازمة لتوسيعه». وكان جامي أحد المنفيين هناك قبل أن يصبح نائب فزان في المبعوثان في المشروطة الثانية.

وقد نقل بعض هؤلاء المنفيين من السياسيين جو استانبول معهم إلى طرابلس فأثروا في مجتمع المدينة ومن هؤلاء عجوز اسمه أدهم بك تحدثت عنه مابل تود ووصفت بيته الفوضى المليء بالتحف والصور والآلات الموسيقية والبنادق والمسدسات والآلات التصوير وسيارة لا تسير. وشاب ذو ثروة كبيرة أرسل في طلب أمه وأخته الأنيقتين. وكان هذا الصنف من المنفيين يتميز بالأناقة ورغد العيش وما إلى ذلك من طابع استانبول مما لم يستطع النفي إخفاؤه - على حد قول مابل تود^(١). ومن المتوقع أن يكون هؤلاء قد ساهموا في حركة اليقظة في طرابلس في مطلع هذا القرن.

وكان أهالي الولاية عموماً يلبسون «الحولي أو الجرد»، وهو رداء يلف حول الجسم ويمكن أن يغطي الرأس، ويلبس تحته القميص «السورية» و سروال أبيض في الغالب. وقد لفت هذا الزي أنظار الرحالة الأجانب الذين ربطوا بين الجرد وبين اللباس الروماني القديم «التوجا Toga»، ووصفه كوبر بأنه لباس أنيق وجميل إلا أنه غير عملي لتعويقه حركة لابس «ولا يشاهد هذا اللباس البديع في الشرق إلا بين تونس ومصر، ومع

(١) مابل تود ص ١٦٦ من الترجمة.

(١) دار المحفوظات مجموعة ادهم.

(٢) دار المحفوظات مجموعة ادهم نص الرسالة في الملحق

أن هذا اللباس أنيق جميل فنياً إلا أنه غير عملي كلباس للحياة اليومية . ولم كنت أضحك من الصعوبات التي يواجهها الرجال حين يمتطون صهوات جيادهم أثناء السفر في المرتفعات . وهناك طبعاً أنواع كثيرة فالذي يرتديه الفقراء من القماش الأبيض الميال إلى السمرة أو من القماش شديد السمرة . أما النوع الذي يرتديه الناس العاديون فهو من الصوف الأبيض ويرتدى الأغنياء قماشاً من الحرير المخطط الجميل^(١) . وارتدى الرجال غطاء رأس هو طربوش صغير واسع . ولبست النساء « الرداء » وفوقه الفراشية عند الخروج وهي رداء يلف جسم المرأة تماماً ورأسها فلا يبدو منها إلا عين واحدة^(٢) . وكان اليهودى خاص يميزهم يتألف من قميص أبيض وسروال أبيض ومشد في الوسط ، وهم غالباً ما يرتدون البرنس الأزرق كما يرتدون في الشتاء الجرد الأبيض^(٣) . وقد لاحظت جاكسى أن أزياء اليهود كانت تجمع بين الزي البلدى والزي الأوروبي . وكانت نساء اليهود يلبسن المناديل الملونة ويعقطن شعورهن . وكانت النساء عموماً يتزين بالحلي المصنوعة من الذهب والفضة على الخصوص ، ويعمدن إلى وشم الوجوه والأيدي . وقد رأت تود النساء في أحد البيوت التي زارتها مثقلات بالعقود والأساور ، وكانت الأقراط الضخمة وهي دوائر من الذهب والفضة تتدلى غالباً من ثلاثة ثوب أو أربعة في كل أذن . وكانت إحدى الشابات المتزوجات موشومة وشماً متقناً^(٤) .

وكانت الحياة في طرابلس الغرب تسير خلال تلك الفترة على نمط الحياة العربية عموماً . وقد حرص الرحالة الأجانب على وصف مظاهرها

وصفاً تفصيلياً . ونشير في هذا المجال إلى أحاديث مابل تود وكوبر عن عادات السكان الاجتماعية وأزيائهم ، كما نشير إلى ما كتبه كايغان هذا الجانب .

واهتم الرحالة أيضاً بوصف مدينة طرابلس الغرب والبلدان والمواقع التي زاروها ومروا بها . ونالت مدينة طرابلس على الخصوص اهتماماً كبيراً منهم . وكانت في أول الفترة تكاد تقتصر على المدينة القديمة . شكلها خماسي ، ومحاطة من جميع جهاتها بالأسوار التي كانت في حالة سيئة بسبب الإهمال . وكان يغلب على المدينة اللون الأبيض وهذا شأنها منذ القديم . وقد قسمت إلى أربعة أقسام هي حومة باب البحر وحومة البلدية وحومة كوشة الصفار وحومة غريان . وكانت شوارعها مستقيمة لذلك بدت للتيجاني الذي زارها وكأنها لوحة شطرنج . وكان يسكن في حومة باب البحر الماطليون واليهود ، بينما سكن المسلمون في حومة كوشة الصفار وحومة غريان . أما حومة البلدية فكانت تضم الأسواق والحمامات والبلدية .

وسجل الرحالة التقاليد العربية في طرابلس . وكان لرمضان رونقه الخاص في حياة المدينة الاجتماعية . وما قاله كوبر في وصفه - وقد أمضى رمضان فيها - « العمل في رمضان صعب والحال فيه قربة مما هي عليه في بغداد والمدن العربية الأخرى . وفي اليوم الأول منه يمكن ملاحظة الجنود الترك وهم يشترون المسابح الخرزية . وتفتح الدكاكين في الليالي ويضاء سوق الترك بالأنوار وتفتح المقاهي بالرواد . وفي آخر شارع فندق الريح تقوم المقاهي الصغيرة بعرض القراقوز^٢ . ويتابع وصف العبد الذي يحيا بالمداغ التي تطلق طيلة أيامه في أوقات الصلاة . « وفي أول أيام العيد يقام في وقت مبكر عرض رسمي ، ثم يتبع باللعب البارود يشترك فيه مئات من الأعراب يرتدون أحسن ثيابهم . ويتم اللعب أحياناً على ظهور الخيل ، وأحياناً على الأقدام - ويبدأ بعد أن يجتمع أكثر من خمسين رجلاً في ساحة ويتم النزال بين لئنين أو أربعة . ويدخل اللاعبون الساحة

(١) كوبر ص ٢٨ من الترجمة .

(٢) مابل تود ص ٦٨ من الترجمة .

(٣) كوبر ص ٣٧ من الترجمة .

(٤) مابل تود ص ١١٤ من الترجمة .

ويواجهون بعضهم ثم يصرخ كل منهم في وجه الآخر ويشرع في رفع بندقيته ومحاربة خصمه . « . ويلبس الناس في العيد أفضل ثيابهم ويتزاورون ومنهم من يشرب البوخة - شراب النمر المسكر - مخالفاً أوامر الشرع^(١) .

وكان الدين سمة واضحة في حياة السكان . وكان للطرق الصوفية والمرايطين شأن بين الأهالي . وقد أشار كوبر وغيره إلى أن لهم قوة كبيرة في المدينة . وكان الناس يترددون على قبور المرايطين . كما كان من عادة أهل الطرق أن يخرجوا للاحتفال في يوم المولد النبوي الشريف ويحملون في احتفالاتهم أعلاماً مختلفة . وكان ممنوعاً على غير المسلمين الخروج يوم الاحتفال بالمولد خوفاً من حدوث تصادم بينهم وبين المسلمين ، ولكن هذا المنع لم يلبث أن زال . وكان للطوائف الأخرى حرية العبادة . وقد ساد في البلاد اجمالا جو التسامح الديني . وكان النصارى يحتفلون بعيد الفصح بإشعال النيران ويحون باشا طرابلس ، ويقوم الباشا باستقبال قناصل الدول الأوروبية . وقد علق كوبر متسائلاً وهو يصف التسامح الديني : « اين إذن التعصب التركي الذي نسمع عنه في أوروبا .. وهل يوجد في بلادنا مثل هذه الحريات الدينية ؟ »^(٢) .

وكان مستوى المعيشة في الولاية منخفضاً في معدله شأنه في الدولة العثمانية عموماً التي عانت من اقتصادها المتخلف . وقام اقتصاد الولاية على الزراعة والتجارة في المقام الأول . وعانت قطاعات كثيرة من السكان من الفقر . ومع تأسيس شركات الحلفا في الولاية ظهرت نواة عمالية بين الأهالي بالمفهوم الغربي لفئة العمال . وكان عمال شركات الحلفا يخضعون لاستغلال أصحاب العمل الأجانب وفق أسوأ صور الاستغلال . وقد تضمنت رسالة بعث بها متصرف الجنس بتاريخ ١٧ يوليو ١٩١٠ إلى الولاية

(١) كوبر ص ٣٤ من الترجمة الدجاني احاديث عن تاريخ ليبيا ص ١١٩ .

(٢) كوبر ص ٣٢ من الترجمة .

وصفاً لأحوالهم وجاء فيها « أن الطريقة التي تتبعها شركات الحلفا لا يرضاها الضمير الإنساني . إذ أن العامل المسكين لقاء قرشين أو ثلاثة قروش من الأجر يأتي صباح كل يوم قبل طلوع الشمس ويباشر عمله بجهد ونشاط حتى وقت الظهر فيستريح حينذاك نصف ساعة ، ثم يجبر على الاستمرار في العمل لمدة أكثر من أربعة عشر ساعة كل يوم . إن مواطنينا هؤلاء المتألمين بسبب الفقر والحاجة ، والذين لا فرق بينهم وبين الحيوانات إلا بالنطق ، يحرمون حينذاك حتى من التحدث إلى بعضهم ، وهذا أمر لا يتناسب مع كلمة التمدن التي تجد وتسعى الأمم الراقية إلى تأسيسها وتعميمها وترسيخها^(١) . . . » وكانت شركات الحلفا تتلاعب بحقوق هؤلاء العمال ، كما تلاعبت بحقوق جامعي الحلفا من رجال القبائل ، عن طريق غش الأوزان وتخفيض الأسعار . وقد وصف تحقيق جرى بهذا الشأن هذه العمليات ، فعند جلب الحلفا بحال البائعون إلى المشرف على القبان فيزن شبكة الحلفا ويخصم أولاً ١٥ أقة عن الشبكة الفارغة مع أنها لا تزيد عن الخمس أو الست أقات . . . ويعينهم المشرف إلى المكبس وهناك تعانين الشبكة من موظف خاص وإذا وجد بعضاً من الخضراء والجذور فيها ينزل من وزنها ١٥ أو ٢٠ أقة . . . ثم يخصم من القيمة السككية باسم رسم مبلغ . . . ويدفع المجيدي وابو التسعين بأقل من قيمته بعشرة بالمئة^(٢) . . . وهكذا حتى لا يبقى للبائعين إلا أقل من القليل . وقد جرت محاولات حكومية للرقابة على الشركات وانصاف العمال ، ولكنها جاءت متأخرة في نهاية العهد .

ويتضح من أوراق دار المحفوظات أنه وجد في المدينة حتى للبعاء قرب باب الجديد منذ عهد احمد القره مانلي ، واستمر حتى عهد الإدارة البريطانية بعد الاحتلال الإيطالي .

(١) دار المحفوظات مجموعة ادم .

(٢) مجموعة ادم . دار المحفوظات .

أما في فزان فكانت في الأودية والواحات . وفي برقة كانت في سهل المرج والجبل الأخضر والواحات . وقد لاحظ الحشاشي بأسف أن العثمانيين لم يلقفوا لمهارة الجبل الأخضر « وأراضيه هي من اخصب ارض الله ، ولم أر معمراً واحداً يملك شيئاً من الأرض في ذلك التاريخ »^(١) .

اعتمدت أكثر هذه الأراضي في زراعتها على الأمطار التي كانت قليلة عموماً ، ولا تنوزع على اشهر السنة توزعاً منتظماً أو بصورة تناسب المزروعات مما يسبب — كما سبق أن أشرنا — متاعب صعبة للمزارعين . وكانت تتتابع سنوات القحط بمعدل مرة كل سبع إلى عشر سنوات ، فتزيد في المنابع ، وتفرض على البعض الهجرة إلى المدينة أو خارج الولاية في بعض الأحيان . وقد ذكر كاكيا عن حدوث محل وجفاف عام ١٨٨١ تكرر مرة أخرى عام ١٨٩٢^(٢) وكنا أشرنا إلى هجرة أهالي الخنس ومصراته إلى تونس في إحدى سنوات القحط في هذه الفترة . كما كان يحدث أن تنزل الأمطار بغزارة فتسبب اضراراً كبيرة وتسهيل الأودية فتزيد في هذه الاضرار . فحتى فزان التي يندر نزول المطر فيها حدث أن هطلت عليها أمطار غزيرة ، وتبين إحدى الوثائق أن مطراً غزيراً هطل لمدة ساعتين على مرزق في ١٦ مارس ١٩١١ فأصبحت مبانيها غير قابلة للسكن ، وتهدمت الشكنة العسكرية بكاملها . وقد شرح المتصرف السبب وهو أن المباني كانت تقام من التراب المخلوط بالملح والطرونة فإذا ابتلت الجدران من الأمطار ثم طلعت عليها الشمس تنهدم في الحال .

وكان الرى يمثل عقبة في ازدهار الزراعة ، وقد حفرت حكومة الولاية الآبار لتذليل هذه العقبة . كما كان عدد السكان القليل عقبة أخرى لما عناه من نقص في الأيدي العاملة . أما التربة في الأراضي الصالحة للزراعة فكانت

(١) الحشاشي ٩٩ .
(٢) كاكيا ص ١٢٥ من الترجمة .

الفصل السادس

الأوضاع الاقتصادية

كانت أحوال الولاية الاقتصادية منتعشة نسبياً في الفترة التي ندرسها . وذلك بفضل محاولات الإصلاح العثمانية التي جرت فيها . وقد سبق أن أشرنا لما قاله كاكيا عن ارتفاع الدخل الحكومي في الولاية . ولكن حدث أن تأثرت أحوال الولاية الاقتصادية بسبب القحط الذي كان يصيب البلاد في بعض السنين بشكل يكاد يكون دورياً . كما ساءت هذه الأحوال بسبب ما طرأ من تحول على تجارة القوافل في تلك الفترة وفي أواخرها على الخصوص ، نتيجة لتحريم تجارة الرقيق ولتحول طرق القوافل بعد الاحتلال الفرنسي لتونس والاستعمار الأوروبي في أفريقيا .

ونعرض فيما يلي بالحديث للزراعة والصناعة والتجارة في الولاية خلال تلك الفترة .

الزراعة

تحدثنا عن جهود أحمد راسم وغيره من الولاة في مجال الزراعة . ويقول كاكيا « إن الايطاليين اعترفوا بأن الأتراك حاولوا رفع مستوى الزراعة وتشجيعها في طرابلس »^(١) . ومع أن الأراضي الصالحة للزراعة في الولاية لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من مساحتها الكلية ، فإن هذه الأراضي الزراعية كانت واسعة ولم يستغل منها إلا القليل . وقد توزعت في الأقاليم الثلاثة ، وكانت في طرابلس تمتد على الساحل وفي الجفارة وفي الجبل الغربي .

(١) كاكيا ص ١١٩ من الترجمة .

طبية ، وأثبتت في حالة توافر الماء محاصيل جيدة . وقد وصف رأى هذه المحاصيل فقال « التربة على إمتداد الساحل غنية جداً وتنتج المحاصيل الأوربية بسهولة . فالقمح يمتد لعلو الرجل والشعير يحصد مرتين كما في أوروبا ، وترتفع شجرة النخيل في الداخل إلى مئة قدم ، وقد تنجح زراعة التوت والقطن والخروع »^(١) .

وكانت معظم حاصلاتها - كما يقول البستاني - « من الزيتون والتين والعنب واللوز ، وفيها أكثر أنواع الفواكه وأحسن أجناسها » . وأضاف كاكيا من أشجارها المثمرة النخيل والليمون والرمان والمشمش والتوت . وكانت تزرع في أراضيها الحبوب والشعير والذرة والدخان والطماطم والبطيخ والبطاطس . وكان مشروب « اللابي » يستخلص من النخيل بعد قطع أغصانها . وهو شراب يشبه في طعمه شراب جوز الهند عندما يكون طازجاً ثم يتخمر ويصبح مسكراً . وقد لوحظ - كما أورد كاكيا - أنه في كل عشر سنوات كانت هناك أربع سنوات طبية المحاصيل ، وأربعة أخرى متوسطة الإنتاج ، وفي السنتين الباقيتين يكون المحصول قليلاً . وكان يسمح بزراعة الدخان في واحات طرابلس كي تسهل مراقبتها . ولم تكن هذه الزراعة جيدة على وجه العموم حيث كان الإنتاج الجيد يحتاج إلى رى كثير وتربة طينية وجو مناسب . وقد حددت مساحة الأراضي التي تزرع بالدخان بحيث لا تتجاوز الخمسة عشر هكتاراً .

وكانت المنطقة المحيطة بمدينة طرابلس الغرب على الساحل مليئة بالسواقي والآبار . وقد أفردت مابل تود فصلاً في كتابها للحديث عنها . فذكرت أن الآبار البدائية تتناثر لرى السواقي ، ويقوم بعملية سحب

الماء من البئر ثور صبور ، وهناك أكثر من ثمانية آلاف بئر في طرابلس وما جاورها ، وربما كان العدد أكبر . . ولكل ساقية بئرها ونظام ريها البسيط ، وتحيط بها أسوار طينية عالية تقيها من الرمال . والأساليب العتيقة في الزراعة لم تستبدل والطموح ليس موجوداً ، فحتى عدة البئر البسيطة يهمل تزيينها . . وأشارت تود إلى ما كتبه بعض المؤلفين اللاتين عن خصوبة التربة هناك ، فقليل من الماء وقليل من العمل يأتي بحصاد وافر « والاعتماد الرئيسى على الثمر ، ولكن الزيتون والرمان والبرتقال والموز والمشمش تنمو نموّاً غزيراً وكذلك البطيخ الخلي الممتاز » . ووصفت « تود » سواقي الأغنياء من المسلمين واليهود بأنها نقاط جمال حقيقية تكثر فيها أشجار الفاكهة والأزهار . وارتبطت هذه السواقي بالمدينة بطرق جذابة تمتد على جانبيها أشجار الصبار الكثيرة القديمة^(٢) .

وكانت الولاية متسعة المراعى ، وفيها - كما أورد البستاني كثير من الحيوانات البرية والأهلية . وخبولها جيدة وغنمها وجمالها « وفي برها الذئب والضبع والغزال وابن آوى ، ولأهلها عناية مخصوصة بتربية النحل واستخراج عسله » . كما ذكر البستاني أن الجراد كان يكثر في البلاد فيجمعه الأهالي والعربان غذاء طيباً كما يفعلون في بادية العرب^(٣) . وقد استمرت هذه الظاهرة إلى وقت قريب وشهد كاتب هذه السطور بيع الجراد في سوق الزاوية عام ٥٩هـ ويبدو أن ثروة الولاية الحيوانية كانت جيدة . وبما نقله كوبر عن تقرير تركي أنه كان في الولاية ٣٥٠ ألف جمل و ٣٠ ألف حصان ، ورجح أن هذين الرقيقين لا يشعلان جمال وخبول فزان^(٤) . وقد أورد

(١) مابل تود ص ١٠٣ من الترجمة .

(٢) البستاني مادة طرابلس مادة .

(٣) كوبر ص ٩٧ وكاكيا ١٢٦ من الترجمة

كما كيا أن الأبقار والثيران والأغنام كانت كثيرة العدد في البلاد، وكان أهم سوق للماشية يقام في بنغازي وقد بلغ تعداد أغنام المعجلات سنة ١٣١٩ مائة ١٠١٢٢ رأس وأن ٧٩٩٣ من الماعز^(١) ويقال إن الولاية صدرت عام ١٩٠٦ نصف مليون رأس. وجاء في تقرير لقنصل إيطاليا في بنغازي عام ١٩٠٨ أن برقة صدرت ٧٠٠ رأساً من البقر كل أسبوع إلى مالطا، وبلغ مجموع ماصدته لمصر في ذلك العام ٣٤ ألف رأس من الغنم و ٢٠ ألف رأس من البقر^(٢). وكان الجفاف في بعض السنين ينزل كارثة بالثروة الحيوانية فتفقد آلاف الحيوانات من العطش والجوع. وقد اشتد الحل والقحط عام ١٨٨١ فلم تترك معظم الحيوانات.

وتكرر الأمر عام ١٨٩٢. وكان الأهالي يجزون صوف الماشية لتصديرها شهرياً إلى فرنسا وإيطاليا. وقد انتشرت تربية النحل بين بعض القبائل في الجبل الأخضر، وكان العسل والشمع يصدران لتركيا. ويستدل من الوثائق أن حكومة الولاية أوجدت صندوق المنافع العمومية للتسليف الزراعي سنة ١٢٨٦ هـ. وكانت تجمع نقوده من الأهالي ثم تقوم بتسليفها للمزارعين المحتاجين، وفي حالة عجز المزارع عن تسديد دينه في الموعد المحدد تباع أرضه^(٣) ويمكن أن نوجز القول بأن الزراعة في الولاية ازدهرت في تلك الفترة، وحقت تقدماً عن الفترة التي سبقت، وأدخلت إلى خزينة الولاية مبالغ كبيرة من الضرائب التي كانت مفروضة عليها.

(١) دار المحفوظات بجمعة ادهم.

(٢) كا كيا ص ١٢٥ من الترجمة.

(٣) دار المحفوظات وكا كيا ١٢٦ من الترجمة.

الصناعة

كانت الصناعة في الولاية تسير على النمط التقليدي شأن الصناعة في المنطقة ككل، في وقت كانت أوروبا فيه قد دخلت عصر الإنقلاب الصناعي بما عناه من صناعة ضخمة حديثة. وكانت حياكة القطن والصوف والحرير في مقدمة صناعات الولاية. وهي تكون باستعمال الأنوال الاقفية التي تستعمل بالأيدي والأرجل، ولا تزال موجودة إلى اليوم. ويورد كا كيا أن عدد الأنوال المستعملة في طرابلس عام ١٩١١ م ١٣٠٠ نولا لنسج القطن و ٣٥٠ نولا لنسج الصوف و ١٥٠ نولا لنسج الحرير. وانتشرت هذه الصناعة في مصراثة التي كان فيها ٢٥٠ نولا أقفياً لحياكة الصوف، وفي بنغازي التي كان فيها ٤٥٠ نولا لحياكة القطن و ٥٠ أخرى لحياكة الصوف وعشرة لحياكة الحرير، وفي درنة وكان فيها ١٠٠ نولا لحياكة القطن و ١٢ نولا لحياكة الصوف^(١). ولم تخل بلدان الولاية الأخرى من هذه الصناعة، فكان هناك عدداً من الأنوال في غدامس وبفرن والزاوية والخمس.

كانت هذه الأنوال تنتج «الحوالي» و «الجرود» و «الأردية» على أنواعها. فقد صنع بعضها من القطن وعرف بالرداء، وصنع بعضها الآخر من الحرير أو الصوف. كما انتجت «العباءات» التي كانت تصنع من صوف ثقيل جداً وعلى نول رأسي. وتعددت ألوان المنتوجات وكانت الألوان المفضلة في الأردنية الأحمر والأصفر والأزرق والأسود، وقام

(١) هذه الاحصاءات أودعا كا كيا ص ١٢٩ و ١٣٠.

بعملية الصباغة مئآت من العمال العرب المسلمين واليهود . وكان جل المنتج يستهلك محلياً ويصدر الباقي — وهو حوالى الربع — إلى تونس . وكانت خيوط الصوف تنزل محلياً ولكن خيوط الغزل المحلى كانت غليظة ، ولذا فقد استورد الصانع الخيوط الصوفية الانجليزية من جزيرة جربة أولاً ثم من بريطانيا رأساً ، وقد انتجت طرابلس حوالى ربع مليون رداء كل عام .

وكانت صناعة السجاد مزدهرة في مصراته . وقد نسب السجاد المصنوع فيها إليها ، وكان ذا ألوان وزخارف متعددة ، وصنع على أنواع متعددة . وبلغ معدل الإنتاج كل عام حوالى سبعة آلاف سجادة وبساط تبلغ قيمتها ٢٠ ألف ليرة تركية . وكان قسم كبير منها يصدر لمصر أو يباع في بركة^(١) . كما بيع قسم آخر في استانبول .

وتم تصنيع الحرير في طرابلس بأدوات بسيطة خشبية ، وكان أكثر عماله من اليهود وجرى استيراد خيوط الحرير الصيني من مرسيليا ، والحرير الإيطالى من إيطاليا ، وصنع محلياً . ثم صنعت منه الحولى الحريرية والحزائم والمناديل .

وازدهرت في طرابلس صناعة الملابس المحلية . وكان أهالى البلاد يعنون كثيراً بلباسهم . وكانت ثيابهم توشى في بعض الأحيان بالخيوط الذهبية والفضية ، وكذلك وشيت الأحذية وسروج الخيل . ولا زالت

هذه الصناعة قائمة إلى يومنا هذا . وكانت هناك صناعة الجلد المطرز بالفضة ، وقد تخصص كثير من الصناع العرب وممروا فيها . وكان الكثير من هذه الصناعات — كما يقول كاكيا — يضاها أحسن منتجات أوروبا والهند ، ومنها بيوت الأسلحة كالسبلة والغلاف وهو حزام البندقية والمخزمة وهو صندوق الذخيرة والحزام الثلاثينى . وكذلك البلغة المنقوشة بالفضة والحرير وكيس الدخان إلى آخر هذه الأغراض .

وكانت صياغة الذهب والفضة من الصناعات المحلية الهامة ، وقد تخصص فيها اليهود . وغصت حارة اليهود في المدينة بحال الصاغة . وكان المعدن الثمين يستورد من فرنسا أو يشتري من الأهالى ويعاد تصنيعه . وقد أحب الأهالى اقتناء المصوغات التى شكلت جانباً مهماً من تقاليد الزواج . وجرى تكوين الحلى على أشكال مختلفة لكل منها اسم خاص . وبلغ متوسط محصول صناعة الذهب والفضة السنوى حوالى ٥٠ ألف ليرة تركية .

وكانت هناك صناعة الحصر التى كانت تصنع من نبات الحلفا أو من نبات السكتان . وقد مهر السكان فيها وتفوقوا على جيرانهم واعتمد كثيرون في دخلهم على هذه الصناعة . وكان المنتج يسوق محلياً ويصدر للاسكندرية وتونس . واشتهرت منطقة مصراته بهذه الصناعة ، وخاصة في تاورغا .

وكان صيد الاسفنج في سواحل الولاية ذات أهمية خاصة . وقد بلغ محصول الاسفنج في السنين الجيدة حوالى ٣٥ ألف ليرة تركية ، بما يعادل ثلث محصول الاسفنج في حوض البحر الأبيض المتوسط^(٢) . وكان

(١) كاكيا ص ١٥٥ من الترجمة .

(١) كاكيا ص ١٣٤ من الترجمة .

الاستخراج المستخرج وخاصة من بركة من أحسن الأنواع ، فزاد الاقبال عليه في الأسواق الأوربية . وكان يباع بالميزان أو بالواحدة . وتمت عملية استخراجها بواسطة جهاز الغطس الذى استعمله اليونانيون . وكان هناك موسمان لصيده أحدهما الموسم الصيفي وهو الأهم وهو يبتدىء بشهر مارس وينتهى بشهر أكتوبر والآخر هو الموسم الشتوى فى بقية الشهور . وقد تبع عملية استخراجها القيام بتصنيعه ، وذلك بتجفيفه تحت أشعة الشمس وإزالة الأجزاء الرخوة منه وتكسير المواد الجيرية العالقة به ووضعه فى بعض المحاليل حتى يصبح جاهزاً للعرض .

وكان صيد الأسماك منتشرأ على طول ساحل الولاية ، وكانت شواطئها غنية به وخاصة بأنواع الطونة والبلاميط . وقد أبيع الصيد للعموم لقاء رسم قدره مائه وعشرين قرشاً . وأهتم أحد المماليين اليهود من رعايا الدولة بالحصول على إمتياز صيد سمك الطونة من نقاط مختلفة على الساحل وإنشاء معامل لتعبئته وحفظه . وقد سمح له بالصيد ولكن رفض طلبه لإقامة المصنع ومساكن العمال لأن إنشاء المباني على طول الساحل كان محظوراً^(١) .

ويمكن أن ندرج فى صناعات الولاية صناعة الملح . وكان ساحل طرابلس غنياً بالملاحات فى درنة وبنغازى ومصراته وطرابلس وزوارة . وقد عهدت حكومة الولاية إلى أشخاص معينين باستخراجها لحسابها ،

وكان دخلها السنوى منه — كما يقول كاكيا — أربع آلاف ليرة تركية فى طرابلس وست وثلاثين ألفاً فى بركة . وما قاله البستانى عن طرابلس إنها مشهورة بملاحاتها التى تصدر لأوروبا مقادير وافية .

وهناك أيضاً صناعة الدخان . وكان محصول الدخان يجهز فى طرابلس ويصنع منه الشوق ودخان المضغ . كما وجدت صناعة الفخار « الحزف » فى غريان وطرابلس ولم تكن ذات أهمية كبيرة ، ولكنها سدت حاجيات الناس من أواني الطعام والشراب . وكان فخار وادى المجينين هو أحسن أنواع الفخار فى الولاية^(٢) . كما وجدت أيضاً صناعة الصابون لسد حاجات الأهالى منه ، وكان بعض إنتاجه يصدر لاستانبول للجيش . وهناك رسالة من وزارة الحربية بتاريخ ٢٠ رجب ١٣٠٠ هـ تطلب فيها لإرسال خمسة عشر ألف أقة من الصابون العربى لإستعماله فى صناعة المعامل التى تشرف عليها الإدارة العسكرية^(٣) . وجرت محاولة لإنشاء مصنع للورق من نبات الحلفاء عام ١٩٠٧ حين تقدم أحد الإيطاليين بطلب رخصة بذلك ، ولكن الرخصة لم تمنح له^(٤) .

وقد كان لتأسيس مدرسة الفنون والصنائع فى مركز الولاية عام ١٨٩٩ آثاره الملموسة فى تقدم بعض هذه الصناعات حيث جرى تدريب التلاميذ عليها فأصبحوا حرفيين متخصصين ، كما فتح المجال للتدريب على صناعات أخرى .

(١) كاكيا ص ١٨٦ من الترجمة .

(٢) دار المحفوظات مجموعة أدم

(٣) دار المحفوظات مجموعة أدم أنظر الملحق .

(١) دار المحفوظات مجموعة أدم تاريخ الطلب مارس ١٩٠٨ .

التجارة

كان للتجارة مكان هام في اقتصاد الولاية وفي حياة أهلها . فوقع طرابلس الغرب حدد لها دوراً تجارياً ، ودفع قطاعاً كبيراً من أهالي المدن فيها لامتياز التجارة . وكانت تجارة القوافل هي عماد هذه التجارة ، كما ظهرت إلى جانبها — في فترة الدراسة — تجارة نبات الحلفا . وقد طرأ على تجارة القوافل في تلك الفترة تطورات أثرت عليها تأثيراً سلباً بفعل الزحف الغربي على المنطقة ، بينما ازدهرت تجارة الحلفا .

ويحدثنا الرحالة « راي » في كتابه بلاد المغاربة عن الحلفا فيقول « وحشيش الحلفا الذي كان معروفاً للمستعمرين التيرانيين (الاغريق) والرومان يشابه حشيش الريش الجميل في جنوبي أوروبا . وقد استعمل منذ القديم في الأسطول الأسباني في صناعة الحبال ، كما استعمل لصنع السلال والأحذية والحصر .. واستوردته إنجلترا لأول مرة عام ١٨٦٢ ، وبلغ ثمن ما استوردته عام ١٨٦٨ نصف مليون جنيه استرلينياً ذهب إلى تونس وطرابلس . وبرزت أهمية الحلفا حين ظهرت صلاحيتها في صناعة الورق ، وبدا — كما قال راي — « أنها أحسن مادة معروفة بعد الخرق والظن لصناعة الورق . وكانت أول جريدة طبعت على ورق صنع منها هي جريدة الأخبار في الجزائر ^(١) » .

كان نبات الحلفا ينمو بكثرة ومن تلقاء نفسه حول مدينة طرابلس وفي أما كن كثيرة من الولاية . وقد غطى مساحات واسعة تمتد من

الشاطئ . حتى حدود الجبل الغربي . ثم قل وجوده في الساحل وفي جهات الموائى ، وبقي موجوداً بكثبات كبيرة في الدواخل . وقد ذكر « راي » الذي زار طرابلس عام ١٨٧٦ « أن الحلفا تنمو بكثبات كبيرة في سلسلة غريان . وكل تسكليفها في مجموعها ونقلها » . وتوقع أن تفتح مدينة الخمس من تجارة الحلفا فتجدد نجاح لبلدة الغار ^(٢) . كما ذكر « كوبر » الذي زار البلاد عام ١٨٩٥ أن حشيش الحلفا « ينمو برياً » في غرب تهرونة وغريان ومقاطعة الجبل ، وهو يجمع باليد . . وقد أوجد طلبه حرفة جديدة لرجال التلال ^(٣) .

بدأت تجارة الحلفا في مدينة طرابلس عام ١٨٦٨ ثم في الخمس عام ١٨٧٣ وتركزت في هاتين المدينتين مع وجودها في بعض البلدان الأخرى كزليطن والطاية عند ساحل آل حامد . وقد سجل « كوبر » معلومات نعطينا فكرة عنها . فهو يقول إن سعر الحلفا وقت زيارته كان يتراوح بين تسعة قروش وأحد عشر قرشاً للقنطار الواحد (القنطار يساوي أربعين أوقية تعادل ٢٨٣١ رطلاً) ، « وهي تنقل إلى طرابلس والخمس على ظهور الجمال ، وبحمل الجمل حوالي أربعة قناطير » . وكان سعر القنطار في بداية التجارة خمسة وعشرين قرشاً وجاء الانخفاض الكبير في السعر بسبب تلاعب التجار اليهود بالأسعار وتخفيضهم أرباح الأهل ، وذلك من خلال شركائهم المنفقة مع الشركات الإنجليزية ^(٤) . وهكذا لم يقبض

(١) كوبر ص ٥٨ من الترجمة .

(٢) كوبر ص ٥٩ من الترجمة .

(٣) كوبر ص ٥٩ من الترجمة .

رجال القبائل الذين كانوا يحضرون الحلفاء من مسافة عشرين إلى أربعين ميلاً، لإثمانية شيلنات للقطار،» وكان عليهم أن يدفعوا منها قرشاً وربع ضريبة للحكومة وعشرين بارة للشبكة مقابل الوزن وعشر بارات لصاحب الفندق . فلا يبق لهم إلا القليل . وكانت الحلفاء على أنواع الأول منها يعرف « بالعروس » والذي يليه يعرف « بالثاني — سيكوندو » . أما الأنواع الرديئة فلا تحمل أسماء .

وكانت الحلفاء تنقل في شباك وزن الواحدة منها حوالي ٢٤٠ ك. غ، ويقام سوقها يوم الأحد من كل أسبوع ، ويضعها التجار بعد شرائها في مخارن حيث يجري فرز أليافها وتصنيفها على أيدي بعض النساء . وبعد الفرز كانت تضغط في رزم بمكبس خاص وتشحن في البواخر^(١) . وقد أقيم رصيف خاص لشحن الحلفاء في ميناء طرابلس — هو رصيف الغزالة اليوم — وكان يسمى سفالة الحلفاء وأنفق مبلغ ٢٩٥٠٠ قرشاً تركيا — كما يتضح من أحد قرارات المجلس الإداري لتعمير مرسى الحلفاء بطرابلس على حساب البلدية^(٢) . وعلى مقربة منه كانت هناك ساحات الحلفاء ، وفيها مكابسها التي يعمل عليها عمال من الزنوج . وكانت المكابس ملكاً لأجانب في غالب الأحيان . وقد أنشأ بيت أريب وشركة لندن مكبسة للحلفاء عام ١٨٨١ في طرابلس^(٣) .

وانشأت حكومة الولاية دائرة لصيانة الحلفاء سنة ١٢٩٨ مالية . كما

ألزمت ضرائها إلى ملترمين لمدة عام في بعض المناطق . وتوضح لئارسالة من مجلس الإدارة إلى وزارة المالية أن ضريبة الحلفاء لعام ١٨٨٩ — ١٨٩٠ بلغت ٩٢٥٧ جنياً ذهباً وسبعة وستون قرشاً جببت من موانئ طرابلس والخمس وزليطن والطابية^(١) . وقد جبي ثلثا هذا المبلغ من طرابلس وحدها . وتستدل من وثيقة أخرى أن دخل الضريبة عام ١٩٠٤ كان قريباً من هذا الرقم ، ولكنه في العام التالي انخفض بنسبة الثلث فطلب لمجلس الإدارة إجراء تحقيق لمعرفة أسباب نقصان الضريبة^(٢) .

ولما كانت الضريبة على الحلفاء بنسبة العشر فهذا يعني أن قيمة الصادرات كانت عشرة أضعاف هذه الأرقام . وقد أشار روسي إلى أن الحلفاء كانت المادة الرئيسية للتصدير في تلك الفترة ، وذكر أن قيمة الصادرات منها عام ١٨٨٥ بلغ ٢٠٥ آلاف جنياً استرلينياً وفي عام ١٨٨٨ بلغ ٢١٢ ألفاً وفي عام ١٨٩٤ بلغ ٩٣ ألفاً و ٤٠٠ جنياً استرلينياً^(٣) . وجاء الانخفاض الأخير بسبب تلاعب تجار اليهود بالأسعار كما سبق أن ذكرنا . وكان معدل ما يصدر من الحلفاء كل عام بين سنتي ١٩٠٢ و ١٩١١ ما يقارب ٣٠ ألف طن^(٤) .

تجارة القوافل

اشتهرت الولاية بتجارة القوافل عبر الصحراء ، التي لعبت — كما قال

(١) دار المحفوظات مجموعة أدهم انظر المالحق :

(٢) دار المحفوظات .

(٣) Rossi p349.

(٤) كاكيا س ١٥٥ من الترجمة .

(١) كاكيا س ١٦٥ من الترجمة .

(٢) دار المحفوظات مجموعة أدهم تاريخ القرار ٢٤ حزيران ١٢٩٧ مالية .

(٣) Rossi p. 339

بعيو - دوراً كبيراً في ميدان الصحراء لم ينافسها فيه أحد حتى ظهور المواصلات الحديثة. (١) ويعرف بوفيل تجارة القوافل في كتابه «التجارة الذهبية للمغاربة» فيقول إن حاجة العالم الغربي لمنتجات أفريقيا، والغزائر التجارية لسكان أفريقيا في شمال وجنوب الصحراء التفت لجعل التجارة الخارجية عاملاً مسيطراً في تاريخ الربع الشمالي الغربي من القارة الأفريقية فالتجارة كانت جسراً فوق الصحراء وصلت بلاد المغاربة «بلاد البربر» بالسودان من أجل توفير الثروة لسكانها. وكانت هذه التجارة مغناطيساً جذب إلى المغرب تجار أوروبا، وملأ موانئ وطرق الساحل البربري من طرابلس حتى أغادر بالملحة المسيحية. وقد حملت تجارة القوافل مع البضائع إلى السودانيين ثقافة المسلمين في الشمال التي حكمت دون غيرها من الثقافات تطوّرهم الاجتماعي والسياسي. كما كانت سبباً في ربط داخل أفريقيا بعقول الغرب» (٢).

وكانت طرابلس الغرب بمحكم موقعها الجغرافي قد نهأت - كما يقول بعيو - لأن تكون حلقة الوصل بين غيرهما من يحدها شمالاً وجنوباً، «فهى بشرطها الساحلي تكون الحافة الجنوبية لإقليم البحر المتوسط بمناخه ونباته المعروفين وما يترتب عليها من قيام نوع من الحياة لسكانه. وهى بأجزائها الجنوبية الصحراوية تحد إقليم السودان وما يليه من مناطق استوائية أخرى معروفة بإنتاجها النباتي والحيواني. وضرورة هذا الإنتاج لشعوب أوروبا بصفة عامة وأهالي البحر الأبيض المتوسط

(١) بعيو لوبيا وتجارة القوافل ص ١٦٧.

(٢) Bovill - The Aolden Trade of The Moors p. 233

بصفة خاصة. ولوبيا كذلك بساحلها الطويل المنحني نحو الجنوب قد أصبحت موانئها أقرب المنافذ للوصول إلى موطن هذا الإنتاج الاستوائي إذ أنها تكاد تكون خطاً مستقيماً بين موطن الإنتاج وأسواق الاستهلاك الأمر الذي سهل حركة التجارة بين الطرفين وساعد على القيام بدور الوسيط بينهما، فعادت عليهم الحركة التجارية بالأرباح الطائلة إلى جانب ما كسبتهم من روح المغامرة وتحمل المتاعب في سبيل الوصول إلى ما يحقق لهم الآمال. وهكذا اتجه موقع البلاد الجغرافي بالأهالي إلى ممارسة تجارة القوافل. ويوضح بعيو في دراسته أن هذا النشاط قديم جداً، ويصعب تحديد زمن بدايته، وإن كنا نسلم بأنه تم على مراحل متتالية حتى وصل بهم إلى إقليم السودان. ويشير إلى أن أقدم ما وصلنا بخصوص محاولات الأهالي الأولى ماجاء ذكره في القصة التي رواها هيروdot عن بعض أهالي مدينة قورينا (١)

وقد تطورت تجارة القوافل عبر العصور فازدهرت في العهد الفينيقي ثم في العهد الروماني حيث حرص الرومان على الاستيلاء على فزان عام ٢٠٤ ق. م. وفي ذلك العهد على الأرجح عرفت البلاد الجبل فدخل في تجارة القوافل وحقق تطوراً كبيراً فيها، وزاد انتشار الجبل بعد الفتح العربي لشمال أفريقيا. (٢) وحدث تحول في عصر الاكتشافات الجغرافية، وكانت البلاد قد وقعت تحت الحكم العثماني، «فأنتاب تجارة القوافل تطوّر خطير أدى إلى إضعاف شأنها. فكم أن تجارة التوابل والبضائع الشرقية

(١) بعيو ص ١٦٨ و١٧٣.

(٢) بعيو ص ١٧٦ و١٧٨.

قد نحولت عن مصر والشام إلى رأس الرجاء الصالح، فإن التجارة مع أواسط أفريقية أيضاً بدأت تسلك طريقاً بحرياً بعد اكتشاف السواحل الغربية الأفريقية وبعد أن عرف الاستعمار الغربي طريق التغلغل في النواحي الداخلية. ومع ذلك فقد ظلت بعض موارد هذا الإنتاج الأفريقي بعيدة عن أيدي الأوروبيين لوقوعها في الداخل مما سبب أمر الوصول إليها على الأوروبيين. يضاف إلى ذلك أن ساحل أفريقيا الغربي كان حافلاً بالغابات الكثيفة والمناطق الموبوءة، وكان مناخه غريباً على الأوروبيين فصعب عليهم النفاذ منهم إلى داخل القارة ولذا فقد ظل بعض تجارة القوافل يتجه شمالاً^(١). وإزدهرت التجارة مرة أخرى في بداية القرن التاسع عشر، وأقبل الأوروبيون على كشف أواسط القارة عن طريق القوافل في ثرواتها. وأصبحت طرابلس في نظر الأوروبيين على جانب كبير من الأهمية، فهي - كما قال كوبر - «واحدة من أقدم البوابات التي تندفق منها ثروات أفريقيا إلى حضن أوروبا وفيها تتمركز خطوط التجارة من بورنو وبحيرة تشاد وادي وتبستي وتمبكتو ودارفور أي من جميع البلاد الخصبة في السودان، فهي أقرب مخرج على المتوسط لهم^(٢)». وبلغت تجارة القوافل ذروتها في الفترة بين عامي ١٨٧٢ و ١٨٨١.

ولم تلبث هذه التجارة أن أضحت في طرابلس أواخر القرن التاسع عشر. «فقد تحولت عن طرابلس إلى مخرج أخرى - كما يقول كوبر -

لأسباب مختلفة، ولها المشاريع الفرنسية في تونس وقد أصبحت صادرات وواردات تونس أربعة أضعاف تجارة طرابلس. وثانها أغلاق طريق بورنو بسبب وجود رياح «الأمير» الذي اضطّر القوافل إلى المرور غرباً إلى بنغازي بدلاً من طرابلس، وبقي طريق دارفور مغلقاً بسبب قربه من السلطة المهدية في السودان. ويضاف إلى ذلك أن فتح نيجيريا والساحل الغربي الأفريقي سيؤدي إلى نقل البضائع إلى أوروبا عن هذا الطريق، ولذا فمن المتوقع أن يزداد أضمحلال التجارة في طرابلس^(٣). وقد شرح بعيد أسباب أضمحلال تجارة القوافل في تلك الفترة التي كانت فترة فضال قوى بين تجارة القوافل وعوامل أضعافها وذكر أن عوامل الأضعاف تمثلت في إزدياد التغلغل الأوروبي في الداخل والتحكم في أسواق الإنتاج هناك، وتحول معظم هذا الإنتاج إلى الأسواق الأوروبية عن طريق البحر بما أن نجح الأوروبيون في إقامة بعض المحطات التجارية لهم على ساحل نيجيريا وغيرها من بلاد ساحل غانا لتسكون حلقة الصلة بين الأسواق الداخلية والسفن الأوروبية، فضلاً عن أن تجارة العبيد قد أخذت بالإختفاء. وأضاف بعيد إلى هذه العوامل المتصلة بالتغلغل الأوروبي في القارة عوامل أخرى ساهمت في أضعاف التجارة «فهذا ريش النعام الذي كان يستخدم بكثرة كوسيلة من وسائل الزينة وكانت باريس أكبر سوق له أخذ الناس يقلعون عن استعماله. وظهرت موجة من التفكير الإنساني العام لمحاربة هذا النوع من الزينة بحجة أن فيه تعذيب لطيائر النعام. كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية أدى إلى التخفيف من أشكالها، فأثر في إقبال الناس على شراء الذهب^(٤)». وأورد كما كيا بعضاً من هذه الأسباب

(١) بيبو ص ١٨٩ و ١٩١

(٢) كما كيا ص ١٦٧ من الترجمة

(١) بيبو ص ١٨٤

(٢) Couper403.q

التي أدت إلى تدهور تجارة القوافل ، وهى احتلال فرنسا للمبكتو ، وفتح طرق المواصلات التي مدتها إنجلترا مع نيجيريا حيث صارت البضائع ترسل بواسطة هذه الطرق ضمن مواصلات أسرع وأقصر لتسحق بالبواخر إلى ليفربول في بريطانيا^(١) .

كما أوجز يوفيل أسباب التدهور فذكر أنه « حين دخل الغرب ضرب تجارة القوافل وقضى عليها واستبدلها بطرق مواصلاته الحديثة .. وعجل تحريم الرقيق في خراب طرق القوافل . وكان السبب الرئيسى لانحطاطها هو منافسة الساحل الغربى الأفريقى طريق البحر الأبيض المتوسط . »^(٢) وأشار شلوش إلى هذا التدهور فقال « منذ احتلال تونس سنة ١٨٨٢ وثورة السودان سنة ١٨٨٥ تحولت تجارة العاج وريش النعام من طرابلس إلى تونس ومصر . وكان في عام ١٩٠٦ في طرابلس ثمانية بيوت فقط تتاجر مع السودان وأصبح عددهم أقل عام ١٩٠٩ . »^(٣)

وكانت طرق القوافل في الولاية تمثل جزءاً هاماً من طرق القوافل في المغرب عامة . وقد حدثنا يوفيل عن هذه الطرق فقال « كان القسم الأكبر من تجارة القوافل بين المغرب (بلاد البربر) وغرب السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر مركزاً في طرق التجارة الثلاث التي يجب أن تسمى بين أقدم الطرق في العالم . » وهذه الطرق هى طريق تاجازا - تمبكتو في الغرب ، وطريق غدامس - إمر الحوسا في الوسط ، وطريق فزان - كوار إلى بورنو في الشرق وهو طريق القرنينين القديم . » وفي

نصف القرنينين القديم .

(١) كاكيا ص ١٦٧ من الترجمة .

(٢) Bovill p. 246

(٣) Sloush p. 4

البلاد وقد وقعت تحت الحكم العثمانى ، فانتاب تجارة القوافل تطور خطير أدى إلى إضعاف شأنها . فلكا أن تجارة التوابل والبضائع الشرقية قد تحولت عن مصر والشام إلى رأس الرجاء الصالح ، فإن التجارة مع أواسط أفريقيا أيضاً بدأت تسلك طريقاً بحرياً بعد اكتشاف السواحل الغربية الأفريقية وبعد أن عرف الاستعمار الغربى طريق التغلغل في النواحي الداخلية . ومع ذلك فقد ظلت بعض موارد هذا الإنتاج الأفريقى بعيدة عن أيدي الأوروبيين ، لوقوعها في الداخل مما صعب أمر الوصول إليها على الأوروبيين يضاف إلى ذلك أن ساحل أفريقيا الغربى كان حافلاً بالغابات الكثيفة والمناطق الموبوءة ، وكان مناخه غريباً على الأوروبيين فصعب عليهم النفاذ منهم إلى داخل القارة . ولذا فقد ظل بعض تجارة القوافل يتجه شمالاً^(١) . وازدهرت التجارة مرة أخرى في بداية القرن التاسع ، وأقبل الأوروبيون على كشف أواسط القارة عن طريق القوافل في ثرواتها .

وأصبحت طرابلس في نظر الأوروبيين على جانب كبير من الأهمية ، « فهى - كما قال كوبر - واحدة من أقدم البوابات التي تندفق منها ثروات أفريقيا إلى حضن أوروبا وفيها تتركز خطوط التجارة من بورنو وبحيرة تشاد ووادى وتبستى وتمبكتو ودارفور ، أى من جميع البلاد الخصبة في السودان ، فهى أقرب مخرج على المتوسط لهم^(٢) . » وبلغت تجارة القوافل ذروتها في الفترة بين عامى ١٨٧٢ و ١٨٨١ .

ولم تلبث هذه التجارة أن اضمحلت في طرابلس أواخر القرن التاسع عشر . فقد تحولت عن طرابلس إلى مزارع أخرى - كما يقول كوبر - لأسباب مختلفة ، وأولها المشاريع الفرنسية في تونس وقد أصبحت صادرات

وواردات تونس أربعة أضعاف تجارة طرابلس. وثانيها إغلاق طريق بونو بسبب وجود « رباح »، الأمر الذى أضطر القوافل إلى المرور غرباً إلى بنغازى بدلاً من طرابلس، وبقي طريق دارفور مغلقاً بسبب قربها من السلطة المهدية في السودان. ويضاف إلى ذلك أن فتح نيجيريا والساحل الغربى الأفريقى سيؤدى إلى نقل البضائع إلى أوروبا عن هذا الطريق، ولذا فمن المتوقع أن يزداد اضمحلال التجارة في طرابلس^(١).

وقد شرح بعيو أسباب اضمحلال تجارة القوافل في تلك الفترة التي كانت فترة فضال قوى بين تجارة القوافل وعوامل أضعافها، وذكر أن عوامل الإضعاف « تمثلت في ازدياد التغلغل الأوربى في الداخل والتحكم في أسواق الإنتاج هناك. وتحويل معظم هذا الإنتاج إلى الأسواق الأوربية عن طريق البحر بعد أن نجح الأوربيون في إقامة بعض المحطات التجارية على ساحل نيجيريا وغيرها من بلاد ساحل غابا لتكوين حلقة الصلة بين الأسواق الداخلية والسفن الأوربية، فضلاً عن أن تجارة العبيد قد أخذت بالاختفاء. وأضاف بعيو إلى هذه العوامل المتصلة بالتغلغل الأوربى في القارة عوامل أخرى ساهمت في أضعاف التجارة « فهذا ريش النعام الذى كان يستخدم بكثرة كوسيلة من وسائل الزينة وكانت باريس أكبر سوق له أخذ الناس يقلعون عن استعماله. وظهرت موجة من التفكير الانسانى العام لمحاربة هذا النوع من الزينة بحجة أن فيه تعذيب لطائر النعام. كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية أدى إلى التخفيف من أشكائها، فأثر في إقبال الناس على شراء الذهب^(٢) ». وأورد كاكيا بعضاً من هذه الأسباب

جميع هذه الطرق الثلاث كانت هناك مسافات طويلة خالية من الماء تجعل العبور بدون قوافل مجازفة كبيرة « وكانت الرحلة في أى من هذه الطرق تستغرق شهرين على الجمال، وقد أثبتت تجربة الزمن - على حد قول بوفيل أنها أقصر وأمن الطرق بالنسبة للتجار^(١).

فإذا ركزنا النظر على طرق القوافل في الولاية نجد أنها تعددت، ووصل بعضها بين المشرق والمغرب، وبعضها الآخرين الجنوب والشمال. وقد حصرها بعيو حصراً دقيقاً وقسمها إلى نوعين رئيسى وفرعى « ويشمل النوع الأول الطرق الطويلة التي تقطعها القوافل في مدد تتراوح بين الشهرين والثلاثة، بل قد تصل إلى أكثر من عام وهى بمثابة حلقة الصلة بين الأقاليم أما النوع الثانى فيشمل الطرق القصيرة التي تقطعها القوافل في أيام معدودات وهى تربط المراكز بعضها ببعض وتصل بين الواحات المتقاربة^(٢).

كان طريق الحج أهم الطرق التي تصل المشرق بالمغرب، وهو من أمثلة النوع الأول. وقد امتد بحذاء الساحل وربط بين تونس ومصر « عبوراً برقة إلى الجنوب من الجبل الأخضر دون المرور مع القوس الساحلى لشبه جزيرة برقة توفيراً للوقت وتقريباً للمسافة ». وكان هناك طريق آخر يحاذى الأول ويختلف عنه في طبيعته ويقع إلى الجنوب منه. وتسير القوافل فيه من « مدينة طرابلس نحو الجنوب الشرقى إلى واحة سوكنة فواحة زويلة ثم إلى واحة اوجلة فواحة سيوة، ومن هناك إلى دلتا مصر حيث تنتهى هذه القوافل إلى مراكزها معروفة مثل قرية كرادسة غرب القاهرة

(١) Bovill p. 246

(٢) بعيو ص ١٩٨.

(١) ك. ب. ص ٣٠٤ أو ٢٦٢ من الترجمة.

(٢) بعيو ص ١٨٩ و ١٩١

ومديرية الفيوم ومنخفض القطارة فوادي النطرون ثم إلى مديرية البحيرة. وكلها أسواق للتجارة ومحطات للقوافل بين وادي النيل ولوبياء^(١). وقد سلك الرحالة فردريك هورنمان طريق الحج في رحلته من القاهرة إلى مرزق عام ١٧٩٧ ووصفها في كتابه ويوميائه. وكان قد التحق بقافلة الحجيج أثناء عودتها من الحجاز في قرية كرداسة. كما أشار الرحالة «راي» إلى قافلة الحجيج وذكر «أنه في السنوات الأخيرة كان ثلاثة آلاف حاج يرأسهم رئيس من القريوان مع عشرة آلاف إلى خمسين ألف جمل يعسكرون شهراً تحت أسوار طرابلس... ولكن هذه القافلة الكبيرة لم تعد تعبر المغرب وبرقة^(٢)».

^{١٧} وكانت الطرق التي تصل بين الشمال والجنوب تربط البحر بأقليم السودان، وهي غالباً متوازية في معظم اجزائها وأن تلاقى أحياناً في واحات معينة. وفي مقدمة هذه الطرق طريق طرابلس - تشاد، وهو معروف من القديم. ويأتي من منطقة كاوار في السودان إلى واحة مرزق شمالاً، وتوجه القوافل من مرزق إما غرباً إلى غات ومنها إلى غدامس شمالاً ومنها إلى طرابلس في الشمال الشرقي. ولما توجه شمالاً إلى طرابلس أسامرة بوحدة سوكنة^(٣). وقد وصف بوفيل هذا الطريق بأنه أسهل الطرق لعبور الصحراء، وذكر أنه كان مطروحاً باستمرار وإن لم يرد ذكره كثيراً منذ عصر الرومان. «وفي بداية القرن التاسع عشر استعاد أهميته القديمة بفضل الصلات الجيدة بين الترك وسلطان بورنو. وطالما كانت العلاقات طيبة بين الطرفين كان

هذا الطريق يحفل بالقوافل الثقيلة. وقد فضله التجار العرب المسافرين إلى كانو بين غدامس واير^(٤)». وكان هذا الطريق هو طريق تجارة الرقيق قبل تحريمها، وقد ذكره كاكيا وحدد خط سيره من طرابلس إلى سرت فسوكنة فرزق قبلها إلى بورنو^(٥).

وهناك طريق ثان يصل بين الشمال والجنوب هو طريق طرابلس - النيجر ويمر هذا الطريق بغامس وغات وأيروينته في إقليم نهر النيجر حيث منطقة سوكونو ومنطقة كانو ببلاد نيجيريا^(٦). وقد سماه بوفيل طريق غدامس واير وقال عنه «من المرجح أنه ليس أقل قدماً من طريق تاجازا في المغرب، حيث يمر فوق أرض صخرية شقوقها عميقة تؤكد قدمه. وهو يبدو وكأنه لم يتغير. وكان يمر بين غات واير بأسوأ مناطق الصحراء... وكان يلتقي عند منتصفه في عين عزوة أو آسيو بطريق توات - واير، وبطريق الحجاج القديم من تمبوكتو إلى اير إلى عين زاو فغات فرزق فسوة بالقاهرة^(٧)». وسيطرت على أجزاء هامة من هذا الطريق قبائل الطوارق. ويقول كاكيا عنه إنه كان يبتدىء من طرابلس ويمر بفساطو وسيناوين إلى غدامس فغات ومنها إلى أغاديس ودمرجو وزندار حتى يصل إلى كانو^(٨).

كما يذكر أن روبرت سول في كتابه «الغزاة في أفريقيا» أن كاكيا كان يسمي هذا الطريق الثالث الذي وصل بين الشمال والجنوب فكان في الناحية الشرقية، وهو طريق بنغازي - تشاد. ويقول بيو «إنه طريق أولي»
«وما يسمون بالزكر للبحر»

(١) Bovill p. 253

(٢) كاكيا ص ١٦٨ من الترجمة.

(٣) بيو ص ٢٠٠.

(٤) Bovill p. 237

(٥) كاكيا ص ١٦٨ من الترجمة.

(١) بيو ص ١٩٩.

(٢) يوميات هورنمان مكتبة الفرجاني RAE P.78

(٣) بيو ص ٢٠٠

يصل بنغازى بشداد ماراً بأجدابية فاوجله فالكفرة ومنها إلى تشاد .
ويتقاطع مع طريق الغرب في اوجلة التي تتصل بمرزق بطريق رئيسي^(١).

نقلت القوافل عبر هذه الطرق البضائع بين أفريقيا وأوروبا. فحملت إلى السودان الأفريقى من أوروبا مجموعة كبيرة من البضائع الأوربية تتضمن « اقطان مانشستر وحرارم فرنسا وزجاج البندقية وترستا ، والورق والمرايا والإبر من النمسا ، فضلا عن السكر والشاى^(٢) » . وقد عدد راي البضائع الأوربية التي كانت تصدر إلى أفريقيا فذكر « الحرير والأردية والمساحيق واللفائف وبنادق البارود والزجاج والبضائع الحديدية والحرز والألعاب والنظارات والورق والمرجان الحقيقي والصناعي واللاية الصناعية والعمائم والعنبر والخزف الصيني واكواب القهوة واللاوعة النحاسية والقفاطين والموسلين والمناديل والبضائع القطنية وعطور الورد والطيب^(٣) » . كما حملت القوافل إلى السودان الأفريقى البضائع الطرابلسية والتونسية والمصرية ، وتتضمن « القماش الأبيض بأنواعه كالمحمودى والعنبر ، والقماش المصبوغ والجروود بأنواعها وغالبها تأتي من جربة والجريد من عمل تونس ، والبرانس والكساوى المحروجة والحبايب وأنواع الشاشية التونسية ، والقرمسود بأنواعه وجميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك وبعض أنواع الأسلحة والحلى^(٤) » .

وحملت هذه القوافل من السودان إلى طرابلس وأوروبا البضائع

الأفريقية . وقد عدد « راي » منها تبر الذهب ونبات السنمكى وريش النعام والشبة الحمراء وملح القلى والعاج والى سنوات قريية العبيد ، وقد ماتت هذه التجارة الدنيئة . . ويعتبر نبات السنمكى الفزانى بعد الصيدواى في جودته^(١) . وعدد الحشايش « ريش النعام بأنواعه وناب الفيل والزبد وطيسور النعام وأنواع البغاه^(٢) » . وعدد كاكيا « العاج وريش النعام وجلود الماعز المدبوعة والقرب والبخور والسنمكى وبعض المنسوجات السودانية^(٣) » . وعددت مايل تود « العاج وغبار الذهب وريش النعام واللبن والشمع والجلود المدبوعة والحصر والحناء^(٤) » .

أما قوافل الحجيج فحملت بضائع المشرق والمغرب ، وكان الحجاج يتاجرون فيها . وقد احضروا من المغرب الأقصى - كما أورد راي - « الشمع والتبر والريش والحرير والمنسوجات القطنية والجلد المراكشى والكحل والحناء . وعند وصولهم إلى طرابلس كانوا يبدلون قسماً من هذه البضائع ببضائع أوربية . وعند رجوعهم بعد عام أو أقل من حجهم كانوا يبيعون في طرابلس النسيج الهندي واللاية وبلسم مكة والمسك وعود الند والبخور والمر المسكوى والعطر والشال الكشميرى والحجارة الكريمة والقهوة والفستق والأفيون وبضائع أخرى » . وقد علق راي بأن هؤلاء الحجاج جمعوا بين واجباتهم الدينية وفوائدهم الدنيوية^(٥) . وهكذا يتضح لنا أن طرابلس كانت سوقاً لبضائع شتى من مختلف الجهات .

(١) راي ص ٧٩ السنمكى أو السنا نبات طبي لأمراض الصفراء .

(٢) الحشايش ص ١٩٣ .

(٣) كاكيا ص ١٧١ من الترجمة .

(٤) مايل تود ص ١٥١ الترجمة .

(٥) Rea p. 78

(١) بيبو ص ٢٠٠ .

(٢) Bovill p. 240

(٣) Rea 79

(٤) الحشايش ص ٩٢ .

كانت القوافل تنظم من قبل تجار يتفقون فيما بينهم على تسييرها ، وتوكل قيادتها إلى رئيس يدعى « قافلة باشي » . وكان بعض التجار يسافرون مع بضائعهم والبعض الآخر يرسل بضائعه مع أجراء ينوبون عنه . ويتقاسم رجال القافلة وأصحاب البضائع الأرباح . وكانت حمولة القافلة من البضائع تعد في حزمتين يحملهما جمل ترن الواحدة منها بين ٨٠ و ٧٥ كيلوغراماً (١) . وقد ضمت القافلة من خمسين إلى مائة جمل وكانت تغيب عاماً أو عامين ، واستغرقت رحلتها إلى وادى نصف عام وإلى تمكنت قرابة العام (٢) .

وكانت مرزق في فزان من أهم محطات القوافل ومراكز تجارتها على الرغم من موقعها غير الصحي ، وذلك لأنها كانت ملتقى عدة طرق . وقد كتب الحشاشي عنها أنها « محط رجال القوافل السودانية والصحراوية ، وهي منتصف الطريق لمن قدم من طرابلس قاصداً مدينة بنو . . وكان يأتيها الركب التواني قاصداً حج بيت الله الحرام ويتألف من آلاف من البشر فيقيم هناك مقدار خمسة أيام وعشرين يوماً يبيع ويشترى ثم يسافر (٣) » . . . ووصفها راي بأنها المركز الكبير لتجارة القوافل ، وذكر بعيو أنها لعبت دوراً كبيراً في هذه التجارة (٤) . وكانت غدامس محطة هامة للقوافل ، وقد تخصص أهلها بهذه التجارة وكان لهم مندوبون في المراكز الأخرى عدد الحشاشي اسماء عدد كبير منهم وقال عن أهالي غدامس « هم أول من أحيا التجارة السودانية مع أهل تونس ودخلوا ممالك السودان وانتشروا في اصقاعه وتسلطوا على تجارته ورجحوا الأرباح

الباهظة (١) » . وكانت غدامس ملتقى عدة طرق ، وأهمها طريقان . واحد غربي إلى صحراء الجزائر ويتجه إلى تسمانين وتيدي كلت وتوات ومنها إلى الشمال الغربي ليدخل أراضي المغرب . وآخر جنوبي يتجه إلى تمبكتو . وهناك طريق يمر جنوب الحماة وبغات ومنها الحوسا في السودان وهي أقصر من الطريق القادمة من فزان إلى بنو . وكانت القوافل التي تخرج من عين صالح في الجزائر تمر بغدامس (٢) .

وكانت غات مركزاً هاماً آخر في تجارة القوافل وهي تقع في الجنوب الغربي من الولاية على حدود الجزائر . وقد ذكر الحشاشي أنه كان يدخلها « ما ينيف على الثلاثين ألف جمل من السودان الأقصى والأدنى . فتأتي هاته القفول بسلع كثيرة . . والغالب أن تحصل بغات في شهر أكتوبر الأعجمي (٣) » . وكان فيها مخازن للتجارة وعمل أكثر سكانها الطوارق بالتجارة (٤) . ومن المراكز الأخرى الهامة سوكنة وزويلة والكفرة التي ازدادت أهميتها بعد ظهور الحركة السنوسية وبعد اضطراب الأحوال في السودان ، وذكر بعيو أن الخريطة التي نشرها الأستاذ بيل في كتيبه عن الكفرة ترى أن هناك عشرة طرق لتجارة القوافل تخرج منها (٥) . والجنوب على أطراف الولاية الشرقية وقد برزت أهميتها بعد أن اتخذها السيد محمد بن علي السنوسي مركزاً لحركته . ويلاحظ أن جميع هذه المراكز هي واحات اكتسبت أهمية وتطورت مع نمو تجارة القوافل . وكانت

(١) بعيو ص ٢٠٣ الحشاشي ص ١٢٧ .

(٢) ناجي طرابلس الغرب

(٣) الحشاشي ص ١١٢ .

(٤) ناجي طرابلس الغرب .

(٥) بعيو ص ٢٠٢ .

(١) كاكيا ص ١٦٨

Rea p. 7. (٢)

(٣) الحشاشي ص ٨٢

Rea p. 79 (٤) وبعيو ص ٢٠١

هناك مراكز أخرى على الطريق الساحلى بدءاً من زوارة غرباً التى كانت أهميتها التجارية تنزايديوماً بعد يوم (١) ، فالزوارة فالجنس التى تمت بفضل تجارة الحلفافز ليطن فصراثة التى كان لها تجارة واسعة مع بنغازى والاسكندرية ومالطة عن طريق البحر (٢) ، فضلاً عن طرابلس عاصمة الولاية وأهم مراكزها التجارية . وفى برقة كانت هناك بنغازى ودرنة وطبرق .

أما المركز الرئيسى لتجارة القوافل فكان مدينة طرابلس التى التقت فيها أهم طرق القوافل ، وانطلقت منها أو حطت الرحال فيها أهم القوافل المتجهة إلى أفريقيا أو القادمة منها . وقد شبهتها مابل تود بمكة البحر المتوسط بالنسبة لخطوط طويلة من الجمال المتدفقة من الصحراء . وسجلت الكتاتبة الاميركية مشاهدتها لانطلاق إحدى القوافل من طرابلس أثناء اقامتها فيها فقالت « . . . أسرنا إلى « النخلات الثلاث » الشهيرات حيث يبدأ الانطلاق فوجدنا مشهداً عظيم الحيوية . . . كانت جمال عديدة قد حملت اثوها ، وقيدت فى انتظار ابتداء الرحلة . وكانت الاكياس مازالت تغطى الأرض ، كما كان الكثير من الحيوانات منحنيّاً ليتسلم الاحمال . . . وبدأ السير حوالى الخامسة ، مع أن الجميع لم يكونوا جاهزين بعد فبدأت الجمال الأربعون أو الخمسون تسير مع أصحابها سيراً بطيئاً لقطع المرحلة الأولى القصيرة من رحلتهم الكبيرة . إذ يقام مخيم على مقربة لينضم فيه المتأخرون إلى الجماعة الرئيسية ، وفى اليوم التالى تغادر القافلة مخلقة الراحة وأرامها لعدة اشهر . . . وحفظت مابل تود هذا المنظر فى عدة صور التقطتها . كما سجلت أيضاً وصول قافلة إلى المدينة ، وكيف حطت الرحال فى سوق الخبز فى الميدان « بعد عشرة شهور من الاجتياز المتعب لصحراء لحدود

لها تقريباً . وكانت الجمال تمشى ببطء ثقيلة ببالات محزومة بأمان تحمل العاج وغبار الذهب والجلود والريش . وكانت على السروج سجاجيد زاهية واغطية ، وبعض الاكياس السروج الجيدة . . . ويقود البداية السمر الجمال المتعبة وهم يرتدون الثياب المتسخة ويحملون البنادق البالغة عشرة أقدام طولاً ، ويسير معهم قلة من الطوارق الحقيقيين . . . وكانت القافلة تقابل بنوع من الترحاب الفرح . وكانت تتألف من أكثر من مائتين وخمسين جملاً ، واحد أو لثنان منها يحملان هوداج مغلقة اغلاقاً محكماً ، تركب فيها نساء محظيات فى عزلة آمنة » . وقد لاحظت تود أن حركة القوافل كانت راكدة نسبياً فى المدينة بعد أن انحطت تلك التجارة وقالت « وعلى الرغم من أن طرابلس مازالت نقطة انطلاق لمثل هذه الحملات فإنها اصغر وأقل تكراراً بكثير عن ذى قبل (١) » .

كانت البضائع التى ترد إلى طرابلس من السودان تصدر إلى أوروبا . وقد اشتغل فى التصدير عدد من التجار الطرابلسيين وبعض المالطيين واليهود . ومن أهم هذه البضائع المصدرة ريش النعام وكانت القوافل تنقله من وادى إلى طرابلس حيث يخزنه تجار يهود . وتجرى عملية غسله وتنظيفه وترتيبه وتصنيفه بحسب أنواعه ، فهناك فرق بين ريش الذكر وريش الانثى وبين النعام الأليف وغير الأليف وهناك الريش الأبيض الناعم الأعلى والريش الرمادى والأسود الصغير (٢) . وبعد عملية التصنيف كان الريش يشحن فى طرود إلى فرنسا عبر مرسيليا وإلى النمسا عبر تريستا وكذلك إلى ميلانو حيث كانت النساء تضعنه على قبعاتهن أو تستعملنه فى المراوح . وكانت باريس هى المستورد الأول ، وكان من اكبر المصدرين

(١) ناجى طرابلس الغرب .

(٢) ناجى طرابلس الغرب .

(١) مابل تود ص ١٥١ - ١٥٤ من الترجمة .

(٢) كوبرس ص ٥١ من الترجمة وكاكيا ص ١٧١ .

لها تاجرين يهودين هما لابي وميمون . ولم يكن السوق ثابتاً بل تذبذب بين زيادة ونقصان ، وبلغ التصدير ذروته عام ١٨٨٥ حيث كان بمبلغ ٨٥ ألف جنيه استرلينياً ثم انخفض انخفاضاً شديداً في العامين التاليين اللذين كانا كارثة على الاقتصاد المحلي - كما قال روسي - ونقصت فيها المبادلات مع السودان ، فكان مجموع ماصدر عام ١٨٨٧ بمبلغ ١٥ ألف جنيه استرلينياً . ثم سجل الأرقام التالية ٤٠ ألف عام ١٨٨٨ و ٢٠ ألف عام ١٨٩٠ و ٤٨ ألفاً عام ١٨٩٤ (١) .

وكان العاج بين البضائع التي تصدرها طرابلس إلى أوروبا بعد أن تأتي بها من السودان . وقد ازداد استيراده في السنين الأخيرة من العهد العثماني الثاني . وكان على نوعين أحدهما البرناوى نسبة إلى برنو وهو الأغلى والأكثر بياضاً ، والآخر السوداني الذي يجلب من الحوسا وهو أكثر اختلاء من الأول وأقصى مادة (٢) . وقد سجل التصدير رقم ٢٤ ألفاً و ٥٠٠ جنيه استرلينياً لعام ١٨٨٨ و ٢٢ ألفاً لعام ١٨٩٤ من العاج (٣) .

وصدرت طرابلس إلى أوروبا الجلود . وكان قسم منها يأتي من السودان فيباع لشركات يهودية في طرابلس وينظف ويصنف ثم يصدر إلى لندن وإلى بوسطن في الولايات المتحدة (٤) .

ولم يقتصر التصدير على البضائع السودانية بل صدرت طرابلس أيضاً بضائع من إنتاجها المحلي مثل القمح والشعير والمواشي والصوف والتمر

والزيت والمحاصيل والفلفل الأحمر والحناء (١) . وكان الشعير اللبني مرغوباً في إنجلترا وقتذاك لاستخدامه في صناعة البيرة (٢) .

فإذا تتبعنا حركة الصادرات والواردات في الولاية خلال تلك الفترة ، نجد أنها انتعشت بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٨٠ فزادت الصادرات من ٦٣٩٧٠٠٠ ليرة إيطالية إلى ١١٠٩٣٣٧١ ليرة سنة ١٨٧٩ . وزادت الواردات من ٨١٥٠٠٠ ليرة إيطالية إلى ٦٤٩٨١٠٠ ليرة سنة ١٨٧٩ و ١٥٠٧٤٧٥ ليرة . ثم ضعفت هذه الحركة في عامي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ واستمر ضعفا عام ١٨٨٧ ثم تحسنت عام ١٩٠٠ وقد أورد روسي (٣) الأرقام التالية .

عام ١٨٨٥ بلغت الواردات ٤٦٤١٣٠ و الصادرات ٣٩١٥٦٠ جنيه استرلينياً
عام ١٨٨٦ » » ٣٠٩٨٥٠ » ٢٣١٦٠٠ »
عام ١٩٠٠ » » ٤٩٩٥٠٠ » ٤١٨٥٠٠ »

وأورد كاكيا عن الكاتب جيرارد في كتابه عن طرابلس الصادرات والواردات لعام ١٨٩٨ (٤) ، فكان مجموع الصادرات ٩٩٥٣٠٠٠ فرنك ومجموع الواردات ٩٠٤٠٠٠ فرنك ، أي أن الصادرات حققت زيادة على الواردات . وكانت الصادرات تتجه إلى إنجلترا و مالطا وفرنسا وأميركا وزكيا والجزائر وتونس وإيطاليا وبلدان أخرى . أما الواردات فكانت

(١) المشايخي ص ٦٩ كاكيا ص ١٧٣ .

(٢) كاكيا ص ١٨٣ من الترجمة .

(٣) Rossi p- 351

(٤) كاكيا ص ١٨٦ من الترجمة .

(١) Rossi p. 350

(٢) كاكيا ص ١٧٢ من الترجمة .

(٣) Rossi p. 350

(٤) كاكيا ص ١٧٣ من الترجمة .

من إنجلترا وفرنسا وتركيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا والمغرب وبلجيكا وبلدان أخرى . وتأثرت تجارة القوافل بعد عام ١٨٩٨ كما سبق أن ذكرنا فأثرت تأثيراً سيئاً على حركة الاقتصاد .

وكانت مدينة طرابلس هي المركز التجاري الرئيسي في الولاية، وتلها في الأهمية بنغازي . ومن ميناءيهما شحنت أكثر الصادرات . واستعمل ميناء الخس وزليطن لتصدير الحلفا ، وموانئ زوارة ومصراته وسرت وسوسة ودرنة لتصدير الحبوب والملح . وكان في كل مدينة من هذه المدن أسواق للتجارة ، وأشهرها أسواق طرابلس التي وصفها كرون وراي وجاكسي وغيرهم من الرحالة الأجانب ، كما وصفها الحشاشي في رحلته . وكانت هناك أسواق ذات أهمية في الدواخل وكان بعض هذه الأسواق يعقد في يوم معين في الأسبوع ويسمى باسم ذلك اليوم .

واستقطبت التجارة عدداً كبيراً اشتغلوا فيها . وتكشف قائمة بأسماء التجار الكبار في طرابلس سنة ١٩٠٨-١٣٢٥ عن وجود خمسين تاجراً كبيراً بينهم تسعة من اليهود والباقي من عرب طرابلس ويحملون أسماء عائلات معروفة . وفي وثيقة أخرى تتضمن أسماء التجار والمشتغلين بالاستيراد والتصدير في المدينة نقلاً عن قيودات دائرة الجمارك لسنة ١٩١٠ نجد أسماء ٦٤٦ تاجراً منهم ٥٦ إيطالي و٧٤ من التبعية الانجليزية و٤٤ من التبعية الفرنسية و٩ يونان و٥ ألمان والباقي من العرب^(١) . ويقول كاكيا : إنه كان في

سنة ١٩١١ حوالي ١٥ مصدراً ومستورداً و٩ وكالات تجارية وستة بنوك ذات عمل متراصل . وهي بنك كريدي ليونيه والبنك الانجليزي المالطي وبنك دي روما والبنك الألماني الشرقي وبنك ناسيونال دي اسكيتي والبنك التجاري الإيطالي . وجميعها تقوم بمعاملات على حساب بنوك أخرى في أوروبا^(٢) ؛

(١) كاكيا ص ١٨٣ من الترجمة

الفصل السابع

الحياة الثقافية

كانت البلاد في تلك الفترة قد عانت من ركود أحوال الثقافة فيها طيلة الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر ، شأن بقية الأجزاء العربية . وجاء التخلف الحضارى في زمن العثمانيين امتداداً للتخلف الحضارى الذى وقعت المنطقة العربية تحت وطأته قبل ذلك بثلاثة قرون . وهكذا بدت صورة الأحوال الثقافية في طرابلس الغرب في الربع الأخير من القرن الماضى ، مظلة إلى حد كبير . ثم لم تلبث أن ظهرت فيها بوارق أمل بفعل محاولات الإصلاح العثمانية من جهة وبروز تيارات اليقظة العربية من جهة أخرى .

ونلاحظ ونحن نفقش عن هذه الأحوال الثقافية أن كتب تلك الفترة لا تكاد توليها أية عناية ، وتكاد تغفل الحديث عنها . فهذا كاكيا لا يشير إليها في الوقت الذى أفرد فيه عدة فصول للأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الولاية . واكتفى أكثر الرحالة بإشارات عابرة . ومن أسباب ذلك صعوبة تعرفهم على الأحوال الثقافية التى تتطلب التعرف عليها تعاملاً مع الناس ومعرفة بلغتهم . ويصدمنا الحشايشى وهو يتحدث في رحلته عن العلوم والمعارف بمدينة طرابلس فيقول « أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم ، بل لا يشمون لها رائحة . كما لا توجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الاسلام ، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الأمة المحمدية^(١) » . ولكن الحشايشى لا يلبث أن يحدثننا عن النهضة

العلمية والثقافية التي رأها في أواسط الحركة السنوسية. فيذكر أن السكتب الموجودة بمخزائن مكتبة الجغبوب « قد نيفت على الثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك ». وقال إنه لا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به. كما عدد الحشائش أسماء عدد من أدباء وعلماء السنوسية^(١). ولا يبقى لنا للتعرف على الجو الثقافي أمام سكوت كتب الرحالة وأكثر المصادر إلا أن نعتمد على أحاديث المعمرين ونرسم صورته من خلال ماتضمنته الوثائق والصحف وما من جد من مؤسسات ثقافية آنذاك، ومن خلال مخلفاته الباقية.

وقد حاول المصري رسم هذه الصورة فقال « كان المستوى الثقافي محدوداً، والأدب له مناخه التقليدي، والدراسة ذات مناهج تستمد حيويها من كتب الشروح والحواشي والمقولات. ولولا الاشعاعات التي كان يرسلها الأزهر في مصر والزيتونة في تونس والقرويين في فاس، ولولا مدارس التعليم الديني في الزوايا والمعاهد مثل الزروق والأسمر ومعهد أحمد باشا ومدرسة عثمان باشا والجغبوب وغيرها في انحاء الوطن الليبي. . . لولا هذه الاشعاعات لقضى على الفسك ودراسات العربية وآدابها^(٢) ». وكانت أحاديث الأدب والثقافة تجري في أواسط المتعلمين والمتأدبين خلال لقاءاتهم في السهرات والحفلات والمواسم. وقد حرص هؤلاء أن تكون لهم « سهرات » ليلية كانت متنفساً في مجتمع محافظ، ومثلها كان موجوداً في الأقطار الأخرى. وقد شهدت هذه اللقاءات أحاديث الأدب وممارسة الفن على الطريقة التقليدية. وتابعت بشقف

واهتمام التيارات الثقافية في الأقطار الأخرى وخاصة في مصر. وكانت مواضع الأدب تدور في حلقة المدائح النبوية والسلطانية والزهد المصطنع والرائاء والوصف، ويذنب على أسلوبه التكلف والتصنع^(٣).

وحدث انتعاش ملموس في حياة الولاية الثقافية مع دخول القرن العشرين بفعل عوامل عدة. فقد صدرت بعض الصحف في ولاية اقام، وتضاعف عددها بعد الانقلاب الدستوري. وازداد تفاعل مثقفي الولاية بالنشاط الثقافي في مصر وتونس عن طريق الذين يتلقون العلم في الأزهر والزيتونة ومن خلال الزيارات والصحف. وتفاعل مثقفو الولاية مع المثقفين العثمانيين من ضباط وسياسيين، وكان بعضهم على مستوى رفيع من الثقافة. وأخرجت المدارس العثمانية الحديثة التي أنشئت منذ عهد أحمد راسم جيلا جديداً مزوداً بالثقافة الحديثة، وكذلك حدث الأمر نفسه في المدارس الأجنبية. وأخيراً قام مثقفو السنوسية بدور في نشر الثقافة التي تلقوها في دواخل البلاد.

التعليم

كان التعليم في بداية الفترة متخلفاً عن التعليم في بعض الأجزاء العربية الأخرى التي سبقت في النهضة الثقافية مثل الشام ومصر وتونس. وكان تقليدياً يتم في المعاهد والزوايا الدينية التي وجم منها واحد أو أكثر في كل مدينة أو بلدة. فكان في مدينة طرابلس معهد أحمد باشا جامع أحمد باشا القره مانلي ومعهد عثمان باشا جامع عثمان باشا، وفي زليطن المعهد الأسمر نسبة للشيخ الصوفي عبد السلام الأسمر، وفي مصراته معهد الزروق في زاوية أحمد الزروق، وفي الزاوية زاوية الأبنشات. وكان في الجيل الغربي بعض

(١) تراجع مقدمة المصري لديوان أحمد الفارف.

المدارس التي تدرس الفقه على المذهب الاباضي^(١). وانتشرت الروايات السنوسية في برقة على الخصوص وبرز فيها معهد الجنبوب الذي خرج دعاة الحركة، وتنوعت ثقافته نسبياً.

وبدأ في عهد أحد راسم تأسيس المدارس النظامية العثمانية وفق قانون التعليم العثماني الذي صدر عام ١٨٦٠. وقد نتبعنا في الفصل السابق النهضة التعليمية التي حدثت في عهود الولاة المصلحين، ونوجز القول هنا فذكر أنه كان في مدينة طرابلس سنة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٥ م كما جاء في السالنامة ٧ معاهد دينية و ١٥ مدرسة ابتدائية للذكور ومدرسة واحدة للبنات ومدرسة ثانوية واحدة^(٢). ثم أصبح فيها بعد عشرين سنة مدرسة عسكرية رشدية اعدادية داخلية ومدرسة ثانوية نهائية للذكور، ومدارس ابتدائية للذكور، ومدرسة ابتدائية وأخرى اعدادية للبنات، ومدرسة الفنون والصنائع ومدرسة العرفان ودار المعلمين^(٣). وتأسست إدارة معارف للولاية عام ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م. وافتتحت مكاتب رشدية في مراكز المتصرفيات. وقد عرضنا بالحدث لمناهج التعليم في هذه المدارس التي تضمنت تعليم اللغات التركية والعربية والفارسية والفرنسية وتعليم مواد الجغرافيا والتاريخ والرسم ودروس الأشياء وعلوم الدين والقرآن الكريم والهندسة والصحة والحظ.

وشهدت الولاية افتتاح عدد من المدارس الأجنبية فيها. وكانت هناك - كما سبق أن أوردنا نقلاً عن ناجي - مدرسة فرنسية للذكور وأخرى للإناث يديرهما رهبان وراهبات وقد بلغ مجموع طلابهما ٨٠.

(١) انظر المصراى. مقدمة ديوان أحد الشارف، البارونى صفحات خالدة من الجهاد

(٢) مجلة الأنسكار العدد ٤ مارس ١٩٥٦

(٣) ناجي طرابلس غرب

من الذكور و ٧٠ من الإناث. وافتتحت مدرسة إيطالية في كل من بنغازي والحسن وعدة مدارس في مدينة طرابلس واحدة بالظهرة وملجاً للصبيان ومدرسة ابتدائية للذكور وأخرى للإناث ومدرسة عليا للعلوم والتجارة. وقد اثبت ناجي الجدول التالي لعدد طلاب المدارس الإيطالية في طرابلس خلال ثلاث سنوات بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٣.

مكاتب مختلفة	١٩٠٠ - ١٩٠١	١٩٠٢ - ١٩٠٣	١٩٠٣ - ١٩٠٤
ملجاً للصبيان	١٧٨	٢٦٤	٢٥٨
مكتب الإناث	٣٢٢	٣٠٢	٣١٠
مكتب الذكور	١٦٠	١٨٨	٢٣١
مكتب كيجة	١٣٩	١٦٦	١٧٥
مكتب التجارة	٤١	٤٣	٤٦

ونلاحظ في هذا الجدول ارتفاع عدد الطالبات وذلك بسبب تأخر افتتاح مدرسة البنات الثانوية العثمانية ولأن الموظفين الأتراك وكبار الموظفين العرب حرصوا على تلقين بناتهم ثقافة أجنبية. كما افتتحت مدرستان اسراييليتان للذكور والإناث بلغ عدد طلابهما ٦٥ طالباً و ٦٠ طالبة^(١).

وحافظت المدارس الأجنبية على عدد طلابها في السنوات التي تلت، على الرغم من سياسة حكومة الولاية التعليمية التي حاولت صرف الأهالي

(١) ناجي طرابلس غرب.

عن هذه المدارس . ونجد في اجوبة الفصليات الأجنبية على سؤال الولاية عن عدد المدارس التابعة لهم وعدد طلابها في عام ١٩١١ ، أن المدارس الإيطالية في المدينة ضمت مدرسة نهارية للذكور تدرس مجاناً مائتي طالباً ، ومدرسة نهارية للبنات تضم ثلاثمائة طالبة ، ومدرسة نهارية مجانية وميتماً في المنشية لم تلبث أن اغلقت بسبب انتشار وباء الكوليرا وكان فيها ستين طفلاً ، ومدرسة نهارية للبنات بالجنس فيها مائة وأربعين طالبة . وكان في المدارس الفرنسية ٣٤٢ طالباً وطالبة سنة ١٩٠٧ و٢٨ سنة ١٩٠٨ و١١٠٩ سنة ١٩٠٩ و٣٥٩ سنة ١٩١٠^(١) . وقد ذكر عزيز سامح أنه كان في ولاية طرابلس الغرب سنة ١٣٢٧ هـ أربع وعشرون مدرسة للذكور ، ومدرسة إسلامية واحدة للبنات وتسع مدارس لليهود وثلاث مدارس للأولاد ومدرستان للبنات ومدرسة واحدة مختلطة للإيطاليين ، ومدرستان للأولاد ومدرستان للبنات للفرنسيين . أما في بنغازي فكان هناك اثنتا عشرة مدرسة حكومية ودار واحدة للمعلمين وثلاث مدارس للبنات المسلمات ومدرسة واحدة لليهود ومدرسة للأولاد وأخرى للبنات للإيطاليين ومدرسة أولاد للفرنسيين^(٢) .

الطباعة والصحافة

تأخر دخول الطباعة إلى طرابلس بالنسبة لمصر والشام ، وبقيت حركة الصحافة فيها محدودة في اضيق نطاق حتى الانقلاب الدستوري وانتهاء حكم عبد الحميد . وقد أصدرت الدولة العثمانية قانوناً للطبوعات في ٢ شعبان ١٢٨١ هـ ثم لم تلبث أن ألغته وأصدرت قانوناً جديداً للطبوعات وآخر للطابع في ١١ رجب ١٣٢٧ — ١٣ يوليو ١٩٠٩ .

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادهم .

(٢) عزيز سامح ص ٢١٣ .

وأول مطبعة دخلت طرابلس هي على الأرجح مطبعة حجرية اشارت إليها سلطنة الولاية — كما يقول المصري — وطبعت بها بعض اعدادها ، وبعض اعداد جريدة « طرابلس غرب » . ولم يذكر المصري تاريخاً لدخولها . والمتوقع أنه في ستينيات القرن الماضي^(١) . ثم احضر الوالي محمود نديم باشا مطبعة بالحروف سنة ١٢٨١ هـ — ١٨٦٥ م وجعل مقرها في قصر الولاية بالسراي الحمراء بالقلعة^(٢) . وعرفت هذه المطبعة باسم مطبعة الولاية وعلق النائب على هذا الحديث « ولا أقول إن المطابع من التحسين بل هي في درجة الحاجة ولا يخفى انها من فوائد العمران .. » وقد جدد حروفها الوالي احمد راسم سنة ١٣٠٨ — كما سبق أن ذكرنا — واحضر لها حروفاً جديدة من دار السعادة على أربعة أنواع . كما استجلب من أوروبا آلة جديدة مكتملة للطبع بالحجر^(٣) . وبقي الاعتماد على هذه المطبعة وحدها إلى أن تأسست مدرسة الفنون والصناعات سنة ١٨٩٧ م وجلبت مطبعة خاصة بها ، عرفت باسم مطبعة الفنون والصناعات . ثم وجدت مطبعة الترقى سنة ١٩٠٨ على يد شركة أهلية مساهمة وأخذت لها مقراً في سوق الترك ، وطبعت فيها جريدة الترقى . وتلتها مطبعة اريب بمحلة جامع سيدى محمود سنة ١٩٠٨ ثم سميت في العام التالي المطبعة الولائية وهي أول من ادخل الحروف اللاتينية للولاية . ثم تلتها المطبعة الشرقية أو مطبعة تشوبه ١٩١٠ سنة في الأربع عرصات ، التي انشأها مواطن يهودى اسمه

(١) المصري معانة ليبيا في نصف قرن ص ٢٥٦ وفي الملحق قانون الطبوعات

الثاني الصادر عام ١٩٠٩ .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادهم للمصري ص ٢٥٦ — مجلة الأناكار .

(٣) الثالث ٢٠ ص ٣٠ ، ص ٣٩٧

ابراهيم تشوبه . وكانت تطبع الأحرف العربية واللاتينية والعربية^(١) . وطبعت هذه المطابع الصحف والأوراق التجارية ولم تصدر عنها كتب لعدم وجود حركة تأليف ونشر في الولاية وقتذاك .

وصدرت أول صحيفة مطبوعة بالولاية عام ١٢٨١ هـ بمدينة طرابلس الغرب وحملت اسم الولاية والمدينة فكان اسمها طرابلس غرب ، وذلك في عهد محمود نديم الذي جلب مطبعة الولاية^(٢) . وكانت تصدر في ورقة واحدة صباح كل خميس باللغتين العربية والتركية وثمان العدد ؛ بارقة قيمة الاشتراك السنوى أربعين قرشاً . وكانت صحيفة أخبار ووقائع على حد تعبير النائب وأشبه ما تكون بال نشرات الرسمية . وقد استمرت في الصدور حتى نهاية العهد العثماني الثاني يوم ٢٢ سبتمبر ١٩١١ إلى ما قبل الغزو الإيطالي بأسبوع واحد . ويتحدث المصراني في كتابه « صحافة ليبيا في نصف قرن » عن جريدة سبقت في ظهورها جريدة طرابلس غرب ، واسمها جريدة المنقب . وقد ذكر أنها كانت مخطوطة وتصدر بالفرنسية منذ عام ١٨٢٧ ويتداولها القناصل الأجانب وأوضح أنه لم يعثر على أية نسخة منها ، ولم يذكر المصدر الذي أخذ عنه ، فيما أورده من أخبار عنها^(٣) .

ثم صدرت سالنامة الولاية عام ١٨٦٩ ، وهى تقويم سنوى يضم مجموعة أنباء رسمية ونزاعية وتاريخية واحصاءات تشترك في ترتيبها واعدادها مختلف دوائر حكومة الولاية . وكانت تصدر باللغتين

العربية والتركية ، وطبعت في سنواتها الأحد عشر الأولى على مطبعة حجرية ثم توقفت عن الصدور سنة ١٣٠٥ هـ لمدة سبع سنوات ، وعادت إلى الظهور عام ١٣١٢ وأصبحت تطبع على مطبعة حديثة^(١) .

وصدرت صحيفة الترقى في ٢٦ محرم ١٣١٥ هـ - ٢٦ يوليو ١٨٩٧ م . في عهد الوالى نامق . وكانت أول صحيفة شعبية تصدر في الولاية ، وكان مديرها المسئول هو الشيخ محمد البوصرى . وقد وصفها بأنها جريدة سياسية علمية اسبوعية ، وجعل ثمن النسخة عشرين بارقة وساهم في تحرير الجريدة مجموعة من الشباب المثقف من بينهم على عياد ومحمد ناجى وعثمان القيزاني وخالد الفرقى وعبد الرحمن البوصرى . ونشر الشاعران مصطفى بن زكري وإبراهيم باكير بعض إنتاجهما فيها . وكان من أركانها الثابتة باب مباحثات أدبية . وقد استمرت الجريدة عاماً في مرحلتها الأولى ثم توقفت عن الصدور حتى عام ١٩٠٨ فخرجت من جديد واستمرت إلى نهاية العهد العثماني . واكتسبت في مرحلتها الثانية أهمية كبيرة ، وأصبحت ناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقى . وكانت ادارتها أشبه ما تكون بالمنتدى الأدبي السياسى . وقد اصطلحت بالوالى احمد فوزى - كما سبق أن ذكرنا - وركزت مقالاتها على الإصلاح^(٢) . وكانت توزع حوالى ألف نسخة وتصدر يوم السبت من كل اسبوع^(٣) .

وكانت « الفنون » أول مجلة تصدر في طرابلس ، وقام على تحريرها داود أفندى . وكان صدورها في عهد نامق أيضاً في يناير ١٨٩٨ . وقد

(١) المصراني ص ٢٨ ومجلة الانسكار

(٢) انظر على مصطفى المصراني ص ٤٦ إلى ٧٠

(٣) دار المحفوظات بجموعه ادم

(١) المصراني ص ٣٥٦ والأفسكار ثبت باسماء المطابع

(٢) النائب الجزء الأول ص ٣٩٧

(٣) المصراني ص ٢٦ ، ٢٧

مثلت فقرة نوعية في مادتها حيث ظهرت كمجلة المثقفين واهتمت بالعلوم وكان من أركانها آخر المخترعات والحيوانات المصورة والفلك وعلم الهيئة وارتبطت المجلة بإدارة مدرسة الفنون والصنائع . وكفت عن الظهور في عامها الثاني .

وكان داود أفندي القائم على تحرير « الفنون » من المثقفين الأتراك ، ولد حوالي سنة ١٢٨٣ هـ ونشأ في طرابلس مع والده اسعد بك الذي كان رئيس محكمة ، ودرس في بيروت ودمشق واستأنبول ثم عين في طرابلس معاون صحيفة ومنشئاً عربياً سنة ١٣٠٩ هـ . وتدرج في الوظائف حتى أصبح (مميز قلم) رئيس الكتاب والمحريين بالسراي ، وتوفي بقتة سنة ١٩١٨ م ، وقد ألف ثلاثة كتب بالتركية في النحو العربي والفارسي والإنجليزي (١) .

وكانت المجلة كما وصفها داود أفندي « صحيفة علمية زراعية مصورة » . وقد شرح مضمونها وأسلوبها في العدد الأول بقوله : « أهم مواضعنا العلوم الرياضية وما يتعلق بها من سائر الفنون ، وسيكون من جملة مباحثها الاقتصاد وحفظ الصحة وأصول الزراعة الجديدة والهيئة والجغرافيا ، وعلم النبات والحيوانات ، والمعادن ؛ وسنشرها بأحسن المصادر المتعلقة بما ذكر تسهيلاً لزيادة الفهم ، وثلاثاً تكون مخصصة بطبقة دون أخرى من القراء . وقد رأينا أن نضمنها دروساً متتابعة في كل فن ، فينتفع بها المبتدئ ويتفكه بها المنتهى . وإتماماً للفائدة سنخصص لها فصولاً كافية للمخترعات والمكتشفات الجديدة والحرف والصنائع المفيدة التي لها علاقة بالفنون . وكل ما ذكرنا مقتبس ومعرب من أشهر الكتب الموجودة ، والرسائل والمجلات ، وليس

لنا فيه أدنى فضل سوى كلفة الجمع والتلفيق والانتقاء والتعريب . واتباعاً للقاعدة المرعية في التحرير سينشر إلى جانب كل بحث اسماء الكتب والجرائد التي تقتبس منها مواضعها وذلك في نهاية كل مجلد دفعاً للتكرار (١) . وهكذا كانت الفنون نافذة مفتوحة على الثقافة العلمية الحديثة ، وقد أدت دوراً حسناً في هذا المجال وكانت الأولى من نوعها في تاريخ الولاية .

وتأثرت صحافة طرابلس بجو الاستبداد الحميدي فاضمحلت ، ولم يتح للترقي أو الفنون الاستمرار فترة طويلة ، إلى أن انتهى حكم عبد الحميد فانتعشت الصحافة من جديد ، وعادت الترقى إلى الصدور . كما صدرت عدة صحف أخرى .

ففي أوائل مارس ١٩٠٨ صدر العدد الأول من جريدة « العصر الجديد » التي وصفت نفسها بأنها سياسية علمية وجعلت شعارها « جريدة من الشعب وإلى الشعب » وكان مديرها وصاحب امتيازها محمد علي البارودي ، ويقول المصراقي عنه : « إنه لم يكن من ذوى الثقافة الواسعة أو الكتابة الوافرة .. إنما كان صاحب روح وطنية وميول إصلاحية (٢) » . وقد شقت الجريدة طريقها وأقبل عليها الشباب ، وأسهم في النشر على صفحاتها عدد من ناظمي الشعر . وكان ضمن أسرة تحريرها عبد الرحمن الزقلمعي وأحمد عويدان وقاسم شقرون وهم من المثقفين . وكانت الجريدة متعاطفة مع « اللواء » المصري ومعارضة « للمؤيد » . وقد تنوعت مقالاتها فكان فيها الهجوم على العادات السيئة مثل الإدمان على شرب « الشاهي » ، وكان فيها بحوث عن الشورى والديموقراطية ، ومقالات إصلاحية عن التعليم والصناعة والزراعة . وقد عمرت عامين .

(١) المصراقي صحافة ليبيا ص ٤٠ ، الزاوي اعلام ليبيا ص ١٠٨

(٢) المصراقي صحافة ليبيا ص ٧٣

وصدر العدد الأول من جريدة الكشف أول ديسمبر ١٩٠٨. وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول محمد النائب الانصارى ابن احمد النائب صاحب « المنهل العذب » . وكان شاباً مثقفاً يجيد العربية والتركية والفرنسية . وقد أشار في صدر الجريدة إلى أنها تصدر بالأسنة الثلاث. وتجذ في أعدادها بعض الصفحات بالعربية و صفحات أخرى بالتركية . وقد وصفت الجريدة بأنها « مصورة فنية علمية سياسية » وكانت تصدر أسبوعياً واهتمت بأن تدافع عن حقوق الوطن طبقاً للمبادئ الدستورية. وكان صاحبها يتطلع لإخراجها بالصور ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، كما تطلع أيضاً إلى إصدارها يومية . وكانت الجريدة ملتزمة بخط « الجامعة الإسلامية » الفكرى .

وصدرت في تلك الفترة بطرابلس جريدة أبى قشة ، التي استمرت تصدر أسبوعية ثلاث سنوات . وهى على نسق الجرائد الفكاهية التي صدرت في مصر مثل المطرفة والكشكوك والبعكوك . وصاحبها هو « الهاشمى أبوقشة التونسي » وقد جاء إلى طرابلس من تونس بعد أن اضطهده السلطات الفرنسية وأغلقت جريدته التي أصدرها هناك . وكان قد درس العلم في الزيتونة ومال إلى الكتابة الساخرة . وقد قدم جريدته عند صدورهما في طرابلس بأنها « جريدة هزلية كشكوكية ، حساسة الشعور ، تجسم اللب في قالب القشور » الإدارة بكل حارة ، لاضامن ولا وكيل ، ولا قال ولا قيل . الاشتراك ٥٠ قرشاً إن قبضاهم بنجل باب العرش ، وللا عشرة فرنك نحاس ، تنحى الأنفاس ، وتحلى الأضراس والدفع سلفاً . أسست عام ١٣٢٨ - ١٩٠٨ . واهتمت الجريدة بالسياسة الداخلية والخارجية وحملت على النشاط الاقتصادى الاستعمارى ونادت بالإصلاح وانتقدت فساد رجال الإدارة والعداات السيئة وغيت بالتعليم والوعظ وبدايات النشاط المسرحى ، وبالادب الشعبى وكان أسلوبها سهلاً ساخراً

وقد شارك في تحريرها عدد من الكتاب منهم محمود نديم بن موسى وأحمد الفساطوى وقاسم الشقرون وأحمد صديق المصرى الذى كان مقبلاً بطرابلس^(١) . وكانت الجريدة تصدر كل ثلاثة وأحققت أعلى رقم في التوزيع وهو ألف ومائتى نسخة^(٢) .

وصدرت جريدة « تعميم حريت » في عام الدستور نفسه باللغة التركية مرة كل أسبوعين . وكان صاحبها « الافوكاتو محمد قدرى » من الشباب المثقف . وقد ولد في طرابلس ودرس فيها ثم التحق بمدارس استانبول وحصل على شهادة الحقوق ، وعاد ليعمل بالمحاماة . وكان يشارك معه في تحريرها « خليل كامل » . واستمرت في الصدور حتى الغزو الإيطالى . وقد شغلتها المواضيع التي شغلت الصحافة عموماً واهتمت بقضية الحرية وكان من شعارها دوام المشروطة . وكان توزيعها محدوداً حوالى ثلاثمائة وخمسين نسخة وكان موعد صدورها يوم الأربعاء .

وكانت « المرصاد » آخر صحف هذه الفترة صدوراً في طرابلس . وقد صدر العدد الأول منها في نوفمبر ١٩١٠ م . وكانت أسبوعية . وصاحبها هو « الشيخ أحمد الفساطوى » من أبناء جبل نفوسة . وقد درس في الأزهر واندج في الجو الثقافى الذى ساد مصر في بداية القرن ، ومارس الكتابة للصحف وهو لا يزال طالباً . وحين عاد إلى طرابلس شارك في تحرير الترقى والعصر الجديد وبقية الصحف حتى أصدر المرصاد . وقد حقق تقدماً ملموساً فى أسلوب الكتابة الصحفية والإخراج الصحفى ، وأهم بالقضايا السياسية وهاجم الاستعمار وفضح أساليبه .

(١) صحافة ليبيا المصراتى ص ١٠٠ وكفاح صغنى أبى قشة وجريدته على مصطفى المصراتى ١٩٦١ .
(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادعم .

ونشير أيضا في معرض حديثنا عن صحافة تلك الفترة إلى الصحف التي أصدرها طرابلسيون خارج الولاية فكانت هناك صحيفة «الأسد الاسلامي» التي أصدرها الشيخ سليمان الباروني في القاهرة في إبريل ١٩٠٨ وطبعها في مطبعته . وقد اهتمت الصحيفة بأخبار طرابلس على الخصوص فضلا عن اشتغالها بالقضايا الأساسية التي شغلت الرأي العام وقتذاك وسنعرض لها في فصل نال عند حديثنا عن جهاد الباروني والبقظة الشعبية . وكانت هناك صحيفة دار الخلافة ، التي أصدرها عبد الوهاب عبد الصمد في استانبول . وهو من مواليد بني غازي سافر إلى استانبول للدراسة سنة ١٩٠٤ ودرس في المكتب السلطاني والكلية الطبية ، ونشط في السياسة فسجن مع شباب الاتحاد والترقي في نهاية عهد عبد الحميد وكانت الجريدة سياسية علمية أدبية تصدر كل أسبوع وقد دافعت عن الخلافة وعن الشورى .. وشاركت في تحريرها أقلام معروفة فكثرت فيها على الغالب على عبد العزيز جوايش وسليمان الباروني وفرحات الزاوي وعلى عياد ومحمد المسكي بن عزوز . وكان للجريدة مراسلون في بعض البلاد العربية وهي أول جريدة عربية صدرت في استانبول بعد عودة المشروطية . وكان يلتقي في دارها باستانبول عدد من السياسيين والكتاب العرب . وكانت توزع في البلاد العربية آلاف النسخ . وقد اهتمت بالسياسة والأدب والحوادث المحلية . كما اهتمت بأنباء ليبيا وواللت نشرها . وجرى إغلاقها من قبل السلطة عام ١٣٢٩ هـ . فأصدر صاحبها جريدة الفردوس بدلا عنها في أربع صفحات ثلاثة منها بالعربية وواحدة بالتركية ، وكانت تصدر كل أسبوع مرتين ، ووصفها بأنها سياسية علمية ، كما أصدر جريدة «فاتح» باللغة التركية لمتابعة الأخبار والانتجاهات السياسية ، وكانت تصدر يوميا^(١).

(١) المصرائى صحافة ليبيا ص ١٠٩ وما بعدها . دار المحفوظات بمجموعة ادم

ونشير في ختام حديثنا عن الصحافة في الولاية إلى صحيفتين أخريين كانتا تصدران بالايطالية أو آخر الفترة ، وهما جريدة «لى كودى تريبولى» ومديرها المسؤول السنيور فيتور بوعقيب عثمانى التابعة وكانت تصدر يوم السبت والأربعاء . وجريدة «ستلادورنى» ومديرها المسؤول ماوريجو هاجيا عثمانى التابعة وكانت تصدر يوم الاثنين والخميس . وخدمت الجريدتان أهداف السياسة الاستعمارية الإيطالية . ووزعت كل منهما حوالي ألف نسخة من العدد .

الأدب

كان الأدب يعاني تخلفا واضحاً في طرابلس ، شأنه في بقية الوطن العربي خلال الربع الأخير من القرن الماضي . وقد ظهرت بوادر يقظة أدبية في مصر والشام على الخصوص في تلك الفترة بفعل عوامل اليقظة الحديثة والاتصال الحضارى بالغرب ، وتأخر ظهور هذه البوادر في طرابلس بعض الوقت .

وكان الأدب السائد في الولاية وقتذاك هو أدب المجالس والمسامرات الذى يحد زاده في كتب الأغاني والعقد القريد والمحلة والبيان والتبيين والآمال وأمثالها . وكانت هذه الكتب تتوارث في بيوت العلم ويقرأها الشباب بعد أن يتجاوزوا مرحلة الدراسة في المعاهد الدينية ويسامرون فيها أثناء سهرهم وفي رحلاتهم . وقد تعرفوا منها على المتنبي وأبي العلاء وأبي تمام وأبي نواس . كما انتشرت في أوساط الأدب قراءة دواوين الصوفية وفي مقدمتهم عمر بن الفارض وأحمد البهلولى الطرابلسى ، وقراءة كتب الأدب الشعبي . وحين ظهرت بوادر النهضة الشعرية في المشرق على أيدي البارودى وصبرى والزهاوى والبستاني واليازجى وغيرهم اهتمت مجالس الأدب في الولاية بها ، وجرت محاولات تقليدها .

وكان الأدب والشعر بوجه خاص - كما أورد المصراي - يدور في حلقة ضيقة تقتصر على المدائح السلطانية والزهد المصطنع وشكوى الزمان والرثاء والوصف^(١). وقد حدث انتعاش في حركة الأدب حين أعلن الدستور عام ١٩٠٨ فعبّر الشعراء والكتاب عن فرحتهم بالحدث الكبير.

واحتل الشعر المرتبة الأولى بين الاهتمامات الأدبية. فكان كل طالب علم يحاول أن يجرب نظم الشعر. وكانت هناك الكتابة الصحفية بعد عام ١٩٠٨ بأشكالها. ولم يعرف الأدب القصة أو المسرح أو النقد.

ومن شعراء تلك الفترة في طرابلس مصطفى بن زكري. وقد ولد بمدينة

طرابلس عام ١٨٥٣م وتوفي عام ١٩١٧م. ودرس في مدرسة عثمان باشا على يد الشيخ محمد كامل بن مصطفى الذي كان يشغل مركز الافتاء والذي يتردد اسمه بين مثقفي تلك الفترة ويصفه الزاوي بأنه علامة. وكان بن مصطفى قد ألف كتاب الفتاوى وكتب حاشية على تفسير البضاوى ونظم حلقات دراسية فكان له أثره العلى في شباب تلك الحقبة من أواخر القرن التاسع عشر^(٢).

وقد درس مصطفى بن زكري اللغة والنحو وتعلم اللغة التركية، وكان عضواً في مجلس إدارة الولاية ورئيساً لمكتب الفنون والصنائع. كما اشتغل بالتجارة وسافر متجولاً إلى مصر وباريس وإلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج. وفي مصر طبع ديوانه عام ١٣٠٩ فكان من أول الكتب الطرابلسية المطبوعة في تلك الحقبة. وقد قدم له بمقدمة يغلب عليها أسلوب السجع والتزويق الذي ساد ذلك العصر وبما جاء فيها قوله « هذا ماسمع به فكري من طرائف الأبيات الغزلية، ولطائف النكات

الأدبية. ولا يفرك ما أدعيه ولست من أسبابه وذو له، فغاية مراي ومرمي سهاي أن أرد من فم رضابه، وأرتشف من راحة حبابه، وأفرغ باب معانيه، وأسوم شباب أغانيه، وأتضلع من محكم آياته، واستجلى مخدرات نسكاته، ولا أدعى مجازاة فرسانه بغزوري، كيف وأنا أتناثر في ذيل قصوري ». ونشر الديوان مؤخرأ وحققه وقدم له الأستاذ على مصطفى المصراي.

والموضوعات التي شغلت الشاعر هي الغزل والنسب والشعر الصوفي الديني وشعر الحكمة والمواعظ وأشعار المديح والمناسبات وتسجيل بعض الأحداث، فضلاً عن ألوان التخميس والتشطير التي انتشرت وقتذاك. وقد نظم بن زكري منظومة في علم الصرف على نسق ألفية ابن مالك الأندلسي وأسمائها « نزهة الألباب في نظم القواعد الشافية ».

ومن شعراء تلك الفترة إبراهيم باكير الذي ولد في طرابلس عام ١٢٧٣هـ وكان والده مفتي البلاد. ودرس على يد كامل بن مصطفى، وشارك في بداية حياته في أول تجربة تنظيمية عرفها البلاد - وسنعرض لها في فصل لاحق - وتدرج في الوظائف حتى أصبح عضو محكمة الاستئناف ثم مفتي البلاد. وقد نظم الشعر وامتاز - كما يقول المصراي - « بخفة الروح وحب الفكاهة والدعابة مع نفس شاعرة ». وله منظومة في علاقات المجاز المرسل ومنظومة في الأدب والحكم ومنظومات أخرى في فنون مختلفة. وله ديوان شعر لم يطبع يقول عنه الزاوي « إنه حوى ألواناً من الشعر، من أرق ما تشتهي النفس سماعه .. وله غزليات .. وقد كان نسج وحده بين الفقهاء في شعره وأدبه، وبين الشعراء في فقهه وعلمه »^(١). وقد توفي عام ١٩٤٣م.

(١) المصراي مقدمة ديوان أحمد الشارف ص ٢٩.

(٢) المصراي مقدمة ديوان بن زكري ص ١٤، الزاوي اعلام طرابلس ص ١٤.

ومن شعراء الفترة أيضا الشاعر أحمد الشارف الذى امتد به العمر فشهد الحقب التالية حتى توفي عام ١٩٥٨ . وهو من مواليد عام ١٨٦٤ في بلدة زليطن ، وقد درس في زاويتي الأسمر والنطيسى وتولى الخطابة والتدريس بمسجد بنى مسلم بمسلة ثم عين قاضيا شرعيا . وأخذ عن محمد كامل بن مصطفى ، وقرأ المتنبي والأعاني والبيان والتبيين ، وباشر النظم في أواخر القرن الماضى وطرق المواضيع المعهودة لإياها . وقد سجل حدث عودة الدستور بقصيدة قال فيها :

أعيد لنا الدستور والعود أحمد فن حقه يثنى عليه ويحمد
شفا غلة فينا وكنا على شفا ونار الأسى كانت بنا تنوقد
ولاحت شمس الحق بعد خفاؤها وضاء لنا فى حندس الليل فرقد

ونشير أيضا في معرض حديثنا عن شعراء الفترة إلى الشيخ سليمان البارونى الذى نظم الشعر ، وسنتحدث سنه مفصلا في فصل لاحق . كما نشير إلى سعيد المسعودى الذى درس بالأزهر وعين أماما لفرقة الطوبجية بالجيش الطرابلسى ، وكان ينظم الأشعار الوطنية - كما أورد الزاوى -^(١) .

ومن أدباء تلك الفترة عبد الرحمن البوصيرى الأخضرى . وقد ولد بغداد سنة ١٢٥٨ ودرس فيها ثم انتقل إلى طرابلس مع والده سنة ١٢٧٨ ودرس على شيوخ عصره . وكان كثير الرحلات شغوبا باقتناء الكتب ميالا لدراسة الحديث . ويقول الزاوى إن له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم منها « فاكهة اللب المصون ، على شرح الجوهر المكنون » في علوم البلاغة و « نزهة الثقلين في رياض إمام الحرمين » في علم الأصول ،

« والجواهر الزكية ، في مصطلح حديث خير البرية ، شرح ألفية العرافى في مصطلح الحديث ، ومبتكرات اللآلئ والدرر في المحاكاة بين العيني وابن حجر » والدرر المخبئية من حديث خير البرية على الجامع الصغير للسيوطى^(١) .

وموجز القول في حركة الأدب والتأليف في تلك الفترة أنها انتعشت نسبيا بالقياس إلى الفترات السابقة من الحكم العثمانى ، وتفاعلت مع بوادر اليقظة التى ظهرت في أجزاء أخرى من المنطقة ، ولكنها بقيت تقليدية إلى حد كبير . أما حركة النشر فكانت ضئيلة جداً ولا نكاد نجد كتابا واحداً طبع في طرابلس ، وهناك عدة كتب طبعها مؤلفوها الطرابلسيون في القاهرة منها ديوان بن زكرى ومائشره سليمان البارونى من كتب الاباضية .

ونستدل بما نشر في جريدة أنى فشة أن الزجل والأدب الشعبى الملحون انتعش أواخر تلك الفترة ، وخاض في مختلف المواضيع^(٢) . فنقد عادة شرب الشاهى وتناول مواضيع سياسية واجتماعية .

الموسيقى والغناء

كانت الفنون المختلفة التى عرفها الولاية والبلاد العربية عامة في عهود سابقة ، تعاني تحللاً مرراً في طرابلس . شأنها في ذلك شأن أكثر الأجزاء العربية الأخرى . ولم تشهد طرابلس في تلك الفترة نهضة فنية كذلك التى شهدتها

(١) الزاوى اعلام طرابلس ص ١٦٢

(٢) أورد المصراقي نماذج منه في كتابه صفحى ص ١٤٠ .

مصر أواخر القرن التاسع عشر. فبقيت الموسيقى والغناء فيها على صورتها التي حفظها عصر الانحطاط الحضارى .

كانت هناك الأدوار الغنائية التي تتردد في « السهرات » وهى مزيج من الموشحات الأندلسية والغناء التركى مع بعض المؤثرات الفارسية ، ويؤدونها عادة مطرب ومجموعة . وكان بصاحب الغناء عزف على العود أو القانون ونفخ في الشبابة على نمط التقاسيم . وكانت هناك الأناشيد الدينية التي تتردد في المواسم .. المولد النبوى ، والإسراء والمعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وتوديع ركب الحجيج ، والحفلات العائلية . وكانت هناك أغاني البادية الشعبية التي يرددونها أهل البوادي في المناسبات .

وقد تركت لنا مابل تود وصفاً للموسيقى التي سمعتها في طرابلس أثناء إقامتها فيها سجلت فيه أسماء الآلات الموسيقية ، وانطباعاتها كاستعمة غربية ، فقالت « تتميز موسيقى طرابلس المحلية بصفة منومة غربية ، وتستعمل آلات مختلفة بسيطة . القرب في أيدي السودانيين ، والشبابات والصنوج والآلات الوترية ، وغناء الشوارع ، ورواية القصص والأغاني السحرية التي تقدمها زنجيات في حفلات الزواج العربية ، كل هذه لها تأثير خاص من الصعب جداً تحليله . وقد حل اللحن الجنائزى المنبعث من باحة مجاورة ، خلال ليلة كاملة ، نواح يأس بدأ ألا مهرب منه . وكانت الفرقة العسكرية التركية تعزف موسيقى مسلمية » . وقد أخذت مابل تود صورة فوتوغرافية لآلة موسيقية شعبية هى القرية المنفوخة التي شبهها بمزار القرية الاسكتلندية وقالت في وصفها « إنها جلد منتفخ بقم بداى ، وفي الطرف المقابل منه ثنوءان حادان يشبهان القرنين ، وهى مزينة بأشواط من الصوف والخرز » . كما حاولت تحويل الغناء الذي سمعته إلى الرموز

الموسيقية المعروفة فوجدته قريباً من مقام ماجور Major . وأخذت صورة أخرى لآلة تشبه الربابة أو البزق ، وصورة ثالثة لأحد المنفيين الأتراك وحوله الآلات الموسيقية التركية . وذكرت أنها سمعت غناء تركياً في حفلة عرس ليهودى كان يردده رجال مختفين عن الأنظار يرددون نغمين أو ثلاثة بصوت أذن وبتكرار مستمر دون بداية أو نهاية^(١) . كما تحدث كوبر عن الموسيقيين المتجولين فوصفهم بأنهم كثيرون يعملون المزارم والطبل الأفريقيان ويرتدى عدد منهم زيّاً قديماً يتألف من خوذة جلدية للرأس مغطاة بالاصداق وعليها رأس طير كبير وعلى الوجه قناع جلدى وفى الوسط حزام من عظام السكلاب والثعالب . وذكر كوبر أيضاً عن وجود فرقتين موسيقيتين أحدهما مالطية والأخرى إيطالية كانتا تعزفان في طرابلس^(٢) . وكانت بعض الفرق الموسيقية تزور المدينة بين الحين والحين .

ولقد تأثرت الموسيقى في تلك الفترة بمؤثرات تركية وأفريقية ، حيث لعب الأتراك المنفيون على الخصوص دوراً في نقل اهتماماتهم الموسيقية إلى مقامهم . ونقل الأفريقيون الزواج الذين استوطنوا طرابلس بسبب تجارة الرقيق موسيقاهم معهم . وكان الغناء الزنجى هو السائد في حفلات الأعراس تقوم به مغنيات يعرفن باسم « الزمزمات »^(٣) . ويصاحب الغناء رقص وثيق الصلة بالرقص الأفريقى .

(١) مابل تود ص ١٣١ ، ١٦٠ ، ١٦٦ من الترجمة

(٢) كوبر ص ٤٤ من الترجمة .

(٣) كاكيا ص ٧٤ من الترجمة .

التمثيل

عرفت طرابلس في آخر الحكم العثماني فن التمثيل الذي كان قد انتعش في مصر في فترة سابقة . وذلك من خلال زيارات الفرق المسرحية المصرية لها . وقد جاء في أحد أعداد جريدة أبي قشة حديث عن التمثيل بمناسبة زيارة إحدى الفرق يعطينا فكرة عن النظرة إليه والاهتمام به . فهو يقول « قدم للمركز زمرة من الممثلين المبدعين والممثلات الشاطرات . وقد ابتدأوا وقاموا بتمثيل عدة روايات عظيمة مثل رواية صلاح الدين وغيرها واتقنوها غاية الإتقان . وسيقوم هذا الجوق في ليلة الجمعة بتمثيل رواية حمدان وهي تمثل شهامة العرب في أبهى مناظرها » . وتعلق الجريدة بقولها « ان تمثيل الروايات على المسارح أعظم درس ترتقى به الأمة إلى أوج السكال . ويكفي شاهداً على ذلك إصلاح الشعب الإنكليزي تماماً بما كتبه شكسبير من الهوايات ؛ إذ به تتجلى السكالات وتظهر وتمتاز الفضيلة عن الرذيلة أمام مرأى العين » . ونستدل من حديث الجريدة أن هذه الفرقة كانت بداية عهد الأهالي بالتمثيل ، ولذا فإن الإقبال لم يكن جيداً وحدث تشويش من الحضور على الممثلين . فنبهت الجريدة لتلافي ذلك ونعت على البلدية أنها تضيق الخناق على مسرح التمثيل بدل أن تشجعه (١) .

(١) المصري كفاح صفح ١٧٧ .

وعرفت طرابلس قبل فن التمثيل المسرحي خيال الظل « القراقوز » الذي كان منتشرأ في المنطقة العربية عموماً . وقد ذكر كوبر أنه رأى عدداً من المقاهي الصغيرة في شارع فندق الريج قرب القلعة يتفرج فيها الناس على القراقوز في ليالي رمضان . كما رأى مقاه أخرى « يرقص فيها الزنوج رقصاً غير جميل (١) » .

(١) كوبر ص ٤٣ من الترجمة .

الفصل الثامن

الخطر الأوروبي والاطماع الاستعمارية

كان احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ إيذانا بأشتداد الخطر الأوروبي على ولاية طرابلس الغرب . وقد تفاقم هذا الخطر خلال الثلاثين عاماً التالية حتى انتهى بالغزو الإيطالي عام ١٩١١ وماتلاه من احتلال إيطاليا البلاد . وطوال هذه المدة قوى التنافس الإستعماري الأوروبي على طرابلس ، وكان جزءاً من التنافس الإستعماري الأوروبي عامة .

ولقد أوضحنا في فصل سابق كيف بلغ الإستعمار الأوروبي ذورته في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وتبعنا نشوئه ونموه وتطوره ، وبهمنّا أن نسلط الضوء في هذا الفصل على النشاط الإستعماري الأوروبي في طرابلس خلال فترة الدراسة . ومع أن حركة هذا النشاط بدت واضحة ملحوظة آنذاك إلا أن تاريخها يسبق تلك الفترة بحوالى قرن من السنين . ولذا يحسن بنا قبل أن نتبع سياسات الدول الإستعمارية في طرابلس بين عامي ١٨٨١ و ١٩١١ ، أن نتعرف على النشاط الإستعماري فيها منذ بدايته .

تجلى النشاط الإستعماري الأوروبي أول ما تجلى في طرابلس في ما يسميه الأوروبيون حركة الكشف الجغرافي لإفريقيا وفي نشاط القناصل الأوروبيين . وقد بدأت حركة الكشف هذه في أواخر القرن الثامن عشر واعتمدت على الرحلات كأساس للتعرف على إفريقيا التي كانت أواسطها تمثل برقعة

بيضاء متسعة في الاطالس الجغرافية لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً^(١). ونلاحظ أن حركة الكشف أعقبت الانقلاب الميكانيكي في أوروبا الذي دفع الأوروبيين إلى البحث عن مواد خام وأسواق جديدة في مناطق مختلفة من العالم، فزادوا من الاهتمام بالرحلات والحث عليها. وهكذا خرج عدد من الرحالة الأوروبيين إلى إفريقيا. ولقد اختلطت دوافع عدة في نفوس أولئك الرحالة دفعتهم إلى القيام بمغامراتهم. فكانت المصالح الإستعمارية تختفي كمحرك رئيسي لهم، وكان العلم دافعاً مهماً آخر. وقد عرف الأوروبيون قيمة العلم وأثره في نجاحهم في الإستعمار. فقرنوه به ورسموا مخططاتهم الإستعمارية على ضوء العلم فكان أن حققوا نجاحاً كبيراً في هذا المضمار. ثم كانت الرغبة في المغامرة والإطلاع دافعاً آخر مهماً حدا عدداً من الأفراد أن يتقدموا لخوض غمار ميدان الكشف^(٢).

ولم يكن ممكناً أن تحقق محاولات الرحالة نجاحاً كبيراً لو أنها بقيت محاولات فردية يقوم بعبء الإعداد لها أفراد محدودو الاستطاعة، وإنما حققت ذلك النجاح لأن أصحاب المصالح أقاموا مؤسسات رعت هذه المحاولات ووجهتها وأشرفت عليها. فهي التي تزود الرحالة بكل ما يحتاجه في رحلته من معلومات متوافرة وتقدم له التسهيلات الممكنة عن طريق سفارات وقصليات الدول التي تتبعها وتمول الرحالة. وفي هذه المؤسسات كان الرحالة يلقى تقريره بعد عودته، وتتولى هي نشر كتابه الذي أعده^(٣).

وتأسست أول جمعية لكشف إفريقيا في إنجلترا عام ١٧٨٨ م. وكان

هدفها الكشف الأوروبي لقلب إفريقيا وداخلها، وقد أثبتت هذا الهدف في اسمها « جمعية كشف داخل إفريقيا » Society Instituted "For Exploring The Interior of Africa" واشتهرت باسم « الجمعية الإفريقية » African Association. وظهرت إلى الوجود - كما يقول بوفيل « بتوجه مجموعة قليلة من الرجال أبرزهم السير جوزيف بانك Sir Joseph Banks، وبدأت عملها بجمع المعلومات عن داخل إفريقيا من القنصليات البريطانية والتجار فكانت النتائج التي توصلت إليها قليلة جداً. فأنجحت نيتها لإرسال مكشفين^(١).

ويمكننا أن نعرف على أهداف وأساليب هذه الجمعية التي يمكن اعتبارها فاتحة وغودجا لعدد من الجمعيات الأخرى المماثلة في مختلف أقطار أوروبا، من خلال ما كتبه سكرتيرها وليام لانج في مقدمته لرحلة هورنمان في التعريف بها. فأهداف الكشف من وجهة النظر الأوروبية الاستعمارية تتضمن المعرفة « وتوجيه التجارة أحسن توجيه ». وهدف الكسب التجاري يغطي دائماً بهدف تحضير البشر الذين يصفهم الأوروبي بالوحشية، وكما قال لانج « فإذا استطعنا أن نقوم بهذا الدور النبيل بأن نشر المعرفة والفن ونحمل لهؤلاء القوم المتوحشين الغلاظ روح التقدم فإن ذلك سيكون له عظيم الأثر على تجارتنا وخبرتنا ونسهم فضلاً عن ذلك في تطوير المعرفة الإنسانية بمختلف فروعها ». وإذا استطاعت منتجاتنا أن تحظى باهتمام الإفريقيين وتجد طريقها إليهم سيكون من الصعب حينئذ أن نتخيل غزارة الطلب على سلعنا من تلك المناطق الشاسعة الغريبة السكان وقد لفتت الجمعية نظر الحكومة إلى ذلك، وبما لاشك فيه أن هذا الموضوع يستحق اهتماماً كبيراً^(٢). وكان التعاون وثيقاً بين هذه الجمعية - وجمعيات الكشف عموماً -

وبين الحكومات الأوربية . وقد نوه لانج إلى أن نجاح الرحلة مدين إلى تعاون القناصل والقادة الذين ساهموا في حماية الرحلة .

وبدأت الجمعية نشاطها بجمع تقارير مفصلة عما سمته بجاهل إفريقيا . كما وردت على لسان الحكام الإنجليز والزنج وتجار البربر وغيرهم من سافروا مع قوافل الحج ما بين مكة ومختلف المراكز الإسلامية النائية في إفريقيا . ثم اتجهت لإرسال الرحالة المكتشفين ، وفاستطاعت الجمعية منذ عام ١٧٩٨ أن تعتمد في رسم خططها على بيانات مصدرها الزيارات الفعلية والتجارب . وليس مجرد التخمين والحدس^(١)

كان أول هؤلاء الرحالة جون ليدبارد John Ledyard ، وكلف بالتنقش عن النيجر عن طريق مصر ، ولكنه توفي في القاهرة قبل أن يبلغ هدفه . وفشلت تجربة أخرى قام بها ولیم لوكاس W. Lucas من طرابلس ، وفقد منعه المخاطر والصعاب من أن يذهب أبعد من مصراته ، واستطاع أن يجمع بعض المعلومات من الشريف محمد ومن تجار فزان ، وعاد إلى طرابلس ومنها رجع إلى إنجلترا . فحاولت الجمعية أن تدخل وسط إفريقيا من الساحل الغربي واختير ميجور هاوتون Major Houghton سنة ١٧٩٠ « ليسافر إلى نهر جامبيا وأن يحوب المنطقة شرقاً وغرباً . فوصل ساحل إفريقيا . وبدأ رحلته إلى المدينة بالطريق النهري ومر على بامبوك وكابون وانتهت رحلته بموته بالقرب من مدينة جارا . ثم ذهب مونجو بارك Mungo park لكشف النيجر عام ١٧٩٥ وسار على ضفاف النيجر إلى سيجو وسيلاه الأهل بالمدن التجارية المزدهمة ، وتحول بين الصحراء الشمالية والجنوبية لإفريقيا . ونوقشت ملاحظاته خلال

اجتماع الجمعية السنوي عام ١٧٩٨ بعد أن أعلنت الجمعية نبأ اكتشاف مجرى النيجر من شرقه إلى غربه . واهتمت يوميات بدراسة سكان تلك المناطق وتحديد طرقها ومذنها . ثم أرسلت الجمعية فردريك هورنمان Frederick Horneman الشاب الألماني في رحلة من القاهرة إلى النيجر عام ١٧٩٧ . فرافق قافلة الحجيج من كرداسة قرب القاهرة في ١٧٩٨ وانقطعت أخباره بعد أن وصل مرزق في فزان وكان آخر ما كتبه صفحة مؤرخة في إبريل ١٨٠٠ . ووصلت مذكراته إلى الجمعية بعد عامين ففشرتها وعلقت عليها^(٢) .

• • •

تلك هي بدايات الكشف الأوربي والرحلات الأوربية لإفريقيا ، قامت بها « جمعية كشف أواسط أفريقية » الإنجليزية . ولم تلبث أن تأسست جمعيات مماثلة في مختلف أقطار أوروبا ، من أشهرها « جمعية لندن الإفريقية » بلندن ، و « الجمعية الجغرافية » بباريس ، و « الجمعية الجغرافية » بروما . وقامت هذه الجمعيات بإرسال عدد من الرحالة إلى أفريقيا على مدى القرن التاسع عشر .

سلك هؤلاء الرحالة طرقاً عدة إلى أواسط إفريقيا . ويحدد شكيب أرسلان نقلاً عن بونيه موري أربعة أو خمسة مداخل إفريقية « توج منها هؤلاء الجوابون إلى باطن هذه القارة . أولها النيل لامتداد طريقه من مصر إلى أقصى منابعه . والثاني نهر غامبيا ثم نهر السنغال . والثالث رأس الرجاء الصالح المعروف بالكاب نظراً لأهمية هذا الموقع التجاري . والرابع الجزائر منذ استولت عليها فرنسا ثم طرابلس . والخامس جزيرة

(١) من مقدمة يوميات هورنمان ص ١١ - ١٤ Bovill, P. 208

(١) يوميات هورنمان ، المقدمة ص ٧ و ٨

عن الجهات الداخلية بواسطة القوافل ، أو توفير الحماية المطلوبة جهـد
المستطاع عن طريق باشا طرابلس . وبرز بين هؤلاء القناصل طيلة الثلث
الأول من القرن التاسع عشر القنصل الإنجليزي الكولونيل « فردريك
وارنجتون » الذى استطاع فى وقت قصير أن يفرض نفسه على يوسف
القره مانلى ومن ثم على طرابلس ولمدة طويلة ^(١) . وقد تخمس « وارنجتون »
هذا لجعل طرابلس قاعدة لمشروع الكشف الجغرافى فى أفريقيا الوسطى
واستطاع أن يقنع حكومته بذلك . كما استطاع أن يحصل من باشا طرابلس
على تهميد بضمان سلامة الرحالة فى اراضى نيابة طرابلس الغرب ومنحهم
كل مساعدة ممكنة ^(٢) . وكان يؤكد للجمعية الأفريقية - كما قال مورى -
أن الطريق من طرابلس إلى بورنومفتوحة كالطريق من لندن إلى أدنبرة ^(٣)
كما كان يحرص على الوقوف فى وجهه محاولات الكشف التى تقوم بها
الدول الأوروبية الأخرى لئلا تسبب مع طبيعة التنافس الاستعماري الأوربي
وقتناك . وقد احتدم الصدام فى هذا المجال بينه وبين القنصل الفرنسى فى
طرابلس على وجه الخصوص .

* * *

فإذا تتبعنا حركة الرحالة الأوربيين فى طرابلس الغرب، نجد أنه زارها
فى القرن التاسع عشر عدد ليس بالقليل منهم كانوا ينتسبون إلى جنسيات
أوروبية مختلفة . فيهم الإنجليز والألمان والفرنسيون والإيطاليون . فى

(١) - ميكاكى ص ١٧٣ من الترجمة

(٢) - ميكاكى ص ٣١١ من الترجمة .

(٣) - حاضر العالم الاسلامى ص ٢٦٣ .

نزيباً بسبب علاقاتها مع السواحل التى تخاذلها ^(١) . وكان طريق
طرابلس بين هذه الطرق على جانب كبير من الأهمية للرحالة الأوربيين
لقرب طرابلس من أوروبا ولوجود طرق القوافل فيها . وهكذا اتجهت
انظار الرحالة إلى طرابلس باعتبارها بوابة أفريقيا . ومحدثنا يعيو عن هذا
الاهتمام الأوروى بطرابلس الذى برز منذ العهد القره مانلى خصوصاً أيام
يوسف باشا فيقول : إن الدول الأوروبية وقد صعب عليها الوصول إلى
أواسط أفريقيا من السواحل الجنوبية والغربية للقارة ، أخذت توجه
اهتمامها إلى الساحل الشمالى وتنافس فيما بينها للوصول إلى داخل أفريقيا
وقد اشتد التنافس الاستعماري فى القرن التاسع عشر مما جعل مدينة
طرابلس وبقية المدن الساحلية الأخرى محطات للرحالة الأوربيين الذين
يقصدون البلاد بغية التوغل إلى داخل القارة مستعينين على ذلك بما يجدونه
من توصية خاصة من الباشا نفسه . بعد اتفاق إخفاء الغرض الأساسى
من رحلاتهم بشتى الطرق والمعاذير كالتعلل بالكشف عن بعض النباتات
الطبية أو دراسة بعض المناطق الأثرية أو الرغبة فى إرضاء روح المخاطرة
والمجازفة عندهم ^(٢) . واعتمد هؤلاء الرحالة لدخول أواسط أفريقيا من
طرابلس على القوافل ، فكانوا يرافقونها وينتظرون مواسم قيامها
ويحرصون على تعلم اللغة العربية وفى كثير من الأحيان النظار باعتناق
الإسلام ومزاولة شعائره على مرأى من رجال القوافل . وهكذا ساهمت
تجارة القوافل - كما قال يعيو - فى تشييط الحركة الاستعمارية الأوروبية فى
القرن التاسع عشر بطريقة غير مباشرة .

وتعهد قناصل الدول الأوروبية الطامعة فى طرابلس هذه الرحلات
برعايتهم ، وقدموا لها معونات كبيرة . سواء بتجميع المعلومات اللازمة

(١) - حاضر العالم الاسلامى ص ٢٦١ تلخيص كتاب الاسلام والنصرانية فى أفريقيا ليو. مورى

(٢) - يعيو ص ١٨٨ .

خريف عام ١٨١٨ أعدت بعثة للسفر إلى وادى ضمت الدكتور جوزيف ريتشى Ritchie ، والكابتن جورج ليون Lyon قبطان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط ، ودى بونت Deponi الملحق بمتحف التاريخ الطبيعى بباريس الذى يلبث أن افترق عن الآخرين لحدوث خلاف بينه وبينهم . وبدأ ريتشى وليون رحلتهم إلى السودان من طرابلس فى ٧ أبريل ١٨١٩ برفقة قافلة كبيرة مسلحة بقيادة محمد المكنى بيك ، وتكبرا بلباس عربى . وسارت القافلة فى طريق غريان بنى وليد سوكنة سبها حتى وصلت مرزق . ولم يلبث الدكتور ريتشى أن توفى فى مرزق فى ٢٠ نوفمبر ١٨١٩ ، وبقي الكابتن ليون يتجول بمفرده فى فزان متقدماً نحو القطرون حيث قام ببعض الأبحاث الفلسفية والطبيعية وجمع معلومات تاريخية واقتصادية . ثم عاد إلى طرابلس فى مارس عام ١٨٢٠ ومنها أبحر إلى إنجلترا وكان لأبحاثه وأبحاث الدكتور ريتشى قيمة عالية كبيرة فى الأوساط الأوروبية . وقد نشرها فى كتابه A Narrative of Travels in Nothern Africa . ومن الطريف على هامش أخبار هذه الرحلة أن القنصل وارينجتون فى الوقت الذى اتهم يوسف القره مانلى بتقصيره فى مساعدة البعثة ، وانتقد مسلك المكنى نحو الرحالتين ، كتب إلى حكومته بما يخالف ذلك . وهو أسلوب أتقنه القناصل للضغط على حكام الولاية^(١) فكان أن أعدت بريطانيا بعثتين آخرين كلفت أحدهما بمسح سواحل سرت وبرقة ، وكلفت الثانية كشف بلاد السودان . ضمت البعثة الأولى الآخرين « فردريك وهنرى بى » Beechy والقبطان سميث Smith ، ووصلت طرابلس فى سبتمبر ١٨٢١ وبعد شهرين سافر سميث فى السفينة ادفنتشر Adventure التى كان يقودها من طرابلس إلى برقة لرسم خريطة جغرافية لساحل طرابلس ، بينما سافر

(١) ميكاكى ٢١١ كاكيا ص ١٩٠ الدجاني ص ٩٠ و Rossi p. 331

الآخوان بيتشى بالطريق البرى للغرض ذاته . وفى عام ١٨٢٧ نشرت البعثة تقريرها فى كتاب بعنوان « إجراءات بعثة كشف شاطئ أفريقيا الشمالى من طرابلس شرقاً Tripol Eastward Nothern Coast of Africa from » للاخوان بيتشى فى العام التالى مسجلاً فيه الآثار الباقية فى الساحل الطرابلسى .

ووصلت البعثة الثانية التى أرسلتها جمعية لندن الأفريقية عام ١٨٢٢ إلى طرابلس . وكانت تضم دوكون دينهام Denham رئيساً والدكتور والتر أودنى Audny والكابتن هاف كلابرتون Klaperton عضوين . وقام يوسف باشا بتقديم مساعدات كبيرة لهذه البعثة نظير ٢٠.٠٠٠ قرشاً . واتجهت البعثة إلى مرزق فى مارس ١٨٢٢ ورافقها لمسافة كبيرة القنصل وارينجتون الذى كان ينوى إقامة نائب قنصل فى بورنو . وعاد دينهام إلى بلاده ليطلب تعليقات جديدة وإعتادات مالية أخرى ، بينما زار رفيقه واحدة غات وفزان الغربية . وحين إلتم شمل البعثة ثمانية توغلت جنوباً حتى وصلت إلى بورنو وبحيرة تشاد . وتوفى أودنى فى يونيو ١٨٢٤ وهو يحاول الوصول إلى النيجر مع كلابرتون .

واكتشف دينهام بمفرده نهر شبارى ، ثم رجع مع كلابرتون إلى طرابلس سنة ١٨٢٥ . ونشر الاثنان تقريرهما عن الرحلة فى كتاب بعنوان Narrative of Travels and Discoveries in Nothern and Central Africa in the years 1822, 1823, 1824 وما يستحق الذكر - كما يقول ميكاكى - أن الحكومة الفرنسية كانت قد أرسلت قبيل بعثة بيتشى وسميث بعثة أشهر السفينة الفرنسية La Chevette بقيادة الملازم جاي لدراسة مواقع المياه فى خليج سرت الكبير . وحصل جاي على تسميلات عظيمة من الباشا - كما تشير خطابات القنصل الفرنسى مير^(١) .

(١) ميكاكى ص ٢١٢ خطاب القنصل بتاريخ ٨ مارس ١٨٢١

وشجع نجاح بعثة دينهام ووزارة المستعمرات البريطانية على إرسال بعثة أخرى. فكلفت الوزارة الميجور جوردون لاينج Laing بالوصول إلى تمبكتو والنيجر، وكان معروفاً بقيامه بمهمات جغرافية فقدم طرابلس في مايو ١٨٢٥ وتزوج ابنة القنصل وارتجتون ثم بدأ رحلته متجهاً إلى غدامس بعد يومين من زفافه. وكان أول أوربي يدخل الواحة في العصر الحديث. وغادر غدامس إلى توات على الرغم من تحذيرات الباشا له وللقنصل بأنه لا يستطيع ضمان سلامته إذا تعدى حدود غدامس وانقطعت اخباره ثم راجت اشاعة بأنه قتل. وتبين بعد ذلك أن رئيس القافلة هو الذي قتل بينما جرح لينج جرحاً بالغاً. واستطاع أن يصل تمبكتو بعد أن شفى ولكنه لم يلبث أن اغتيل في سبتمبر ١٨٢٦ كما جاءت بذلك الاخبار إلى طرابلس. وحاول وارتجتون أن يحمل يوسف باشا مسئولية موته، وأبدت الحكومة البريطانية أسفها بعبارة شديدة للباشا لعدم اهتمامه - على حد زعمها - بمسألة لينج ومسألة كلايتون الذي كلفته بريطانيا بعد عودته من رحلته بالسفر إلى بلاد النيجر من ساحل بنين في نيجيريا الجنوبية، وعندما وصل سوكونو مات بها متأثراً بالدوسنتاريا سنة ١٨٢٧.

ولكن يوسف باشا رفض هذا الاتهام. ولم يلبث أن ثار نزاع بين وارتجتون والقنصل الفرنسي روسو حين اتهم الأول الثاني بالسعي لإفشال مهمة لينج. وكان التنافس الاستعماري بين الدولتين قد حدا بوارتجتون أن يكتب في رسالة له عام ١٨٢٤ بعد نجاح بعثة دينهام «يسوونى أن تستفيد أمة من كون الحكومة الإنجليزية قد فتحت الطريق لكشف أفريقيا الشمالية، وسأخذ كل إجراء حتى لا يقوم هؤلاء المستكشفون الفرنسيون باكتشاف ياردة واحدة في داخل البلاد»^(١).

رئاسة بريطانيا وسلاطين

١٢

وكانت الجمعية الجغرافية بباريس قد أعدت بعثة عام ١٨٢٤ برئاسة «جان ديمون باكو» قبل أن تعلم ببعثة الاخوين «بيتشي»، وكان أحد اعضائها المستشرق الألماني «ف. موللتر». فقامت تلك البعثة من الاسكندرية وزارات السلم وطبرق ودرنه وشحات واجدايا ثم تحولت إلى أوجله ومراده ورجعت عن طريق سيوه^(٢). كما قام الفرنسي رينيه كاليه René Caillie بزيارة تمبكتو في فبراير ١٨٢٨^(٣)، بعد رحلة لاينج بفترة وجيزة.

وقام جيمس ريتشاردسون Richardson الرحالة الانجليزي برحلة من مراکش إلى طرابلس عام ١٨٤٥. ثم سلك طريق يفرن وسيناوين عبر الجبل الغربي، وكان معنياً بحياة سكان الكهوف فيه، وزار غدامس وغات ومرزق وتيجول في أنحاء فزان، ثم قفل راجعاً إلى مدينة طرابلس سالكاً طريق سوكونه مصراته. وسجل تفاصيل هذه الرحلة في كتابه Travels in The Great Desert of Sahara 1845 and 1846 ثم ترأس بعثة إلى أفريقيا الوسطى للاتصال بزعماء منطقة بورنو وإبرام معاهدات تجارية معهم ومع رؤساء الدواخل بغية تدعيم النفوذ البريطاني هناك. وكان معه في هذه البعثة «بارث» «واوفروبيج» الألمانيين. وقد افترق الثلاثة في منتصف الطريق على أساس اللقاء في السودان، ولكن ريتشاردسون توفي في بورنو. أما بارث فزار واجة أغاديس وكوكا ولونجو روتوا. وأما افروبيج فمات هو الآخر عام ١٨٥٢. ولحق الرحالة الألماني «فوجيل» بالبعثة بحثاً عنها فتلاقى مع بارث عام ١٨٥٤، ولم يلبث

(١) كاكيا م ١٩٨.

(٢) حاضر العالم الاسلامي م ٢٦١.

(١) ميكاكى م ٢١٣ - ٢٢٠ وكاكيا م ١٩٢.

أن قتل بأمر من سلطان واداي . وبقي بارث على قيد الحياة وكان يتسكن نصرانيته ويتظاهر بالاسلام ويلبس ثياب الحجيج العرب ويسمى نفسه عبد الكريم . وقد كتب قصة رحلة في كتابه « رحلات وأبحاث في شمال وأواسط أفريقيا » من يناير ١٨٤٩ إلى ١٨٥٥^(١) .

وتتالي الرحالة الأجانب على طرابلس ، فقام دكسون الانجليزي برحلة إلى جنوب غرب الولاية عام ١٨٤٩ وكتب تقريراً عن غدامس . وقام جيمس هاملتون Hamilton الانجليزي برحلة إلى برقة عام ١٨٥٢ ، فاتجه إلى بنغازي قادماً من مالطة وزار مدن برقة الساحلية ودواخلها واهتم بالتعرف على الحركة السنوسية . ثم اتجه إلى سيوه حيث تعرض فيها إلى متاعب خلصه منها والى مصر سعيد باشا . وقد سجل رحلته في كتابه « جولات في شمالي أفريقيا » Wanderings in North Africa . وذكر أن السكاكين دي بونيان الفرنسي قام برحلة إلى طرابلس عام ١٨٥٦ وصل فيها إلى غدامس . وقام هنري دوفرييه Doveyrier الفرنسي عام ١٨٥٩ وهو في التاسعة عشرة من عمره برحلة طويلة ، بدأها بمدينة الجزائر إلى بسكرة وغدامس وغات ومرزق وزويلة ثم عرج على طرابلس فوصلها عام ١٨٦١ . واشتهرت رحلته بعد أن أصدر كتابين عنها أحدهما « طوارق الشمال » Les Touareg du Nord ويتضمن دراسة تاريخية واجتماعية لقبائل الطوارق الذين يعيشون في الصحراء الكبرى ويعتبرون بحق سادتها والآخر « طريقة محمد بن علي السنوسي الاسلامية » والمناطق الجغرافية الخاضعة له^(٢) La Confrérie Musulmane De Sidi Mahommed Ben Ali Essenoussi وهو من أهم الكتب التي تناولت الطريقة السنوسية . وكان غرض دوفرييه في رحلته دراسة القوى التي تقف في وجه التوسع الفرنسي في

(١) كاكيا ص ١٦٤ - ١٩٧ ، بيو مراجع تاريخ ليبيا ص ١٥٧ ، Bovill P. 217

الصحراء . وقد وجد الفرنسيون مقاومة عنيفة من الطوارق ومقاومة أعنف من السنوسية التي كانت في نمو مستمر . وكان دوفرييه يتخفى وراء اسم سعدو يعرف اللغة العربية^(٣) وقام مورتزبورمان Beuermann الألماني أوائل سنة ١٨٦٢ برحلة من بنغازي للبحث عن « فوجل » ، فر باوجله وزويلة ومرزق ، وتابع إلى واو والوادي الشرقي حتى واداي واغتيل هناك . وقامت الكسندراتين الثرية الانجليزية مع أمها الهولندية « البارونة فون كابلين » برحلة إلى الجهات النائية في السودان المصري ولقيتا حتفهما جنوبي مرزق عام ١٨٦٣ .

وقام جير هارد رولفس الألماني Rohlf's برحلة في طرابلس عام ١٨٦٤ وكان يعمل طبيباً في جيش شريف مراکش وزار طرابلس مرة أخرى عام ١٨٦٩ ومرة ثالثة عام ١٨٧٨ حيث تعرف على واحات برقة ، وكان هو الاوروبي الوحيد - كما يقول جوتييه - الذي توغل في واحات الكفرة ورآها في القرن التاسع عشر^(٤) . كما قام جوستاف ناختنجال Nachtigall الألماني والذي عمل طبيباً في تونس برحلة إلى طرابلس عام ١٩٦٨ بعد أن التقى برولفس ، وخرج من طرابلس إلى مرزق عن طريق جبال ترهونة ثم زار صحراء التيبو ، وكان هو الاوروبي الوحيد الذي أفلح في دخولها ، وأصبح كتابه لأربعين سنة تلت المصدر الوحيد لدراسة هذا الاقليم^(٥) .

ويبدو أنه كلف بمهمة دبلوماسية من قبل بسمارك إلى السيد المهدي السنوسي وإلى سلطان كوكا بيورنو فاتيحت له فرصة مقابلة المهدي

(١) راجع كتاب ريبه بوتييه عن دوفرييه ١٩٢٨ Pottier, Rene' Un Prince Shaarien
بمعو المراجع ص ١٥٠ Meconau, Huvri Duveyrier

(٢) جوتييه الصحراء الترجمة ص ١٥٢ La Sahara F.F.Govtier

(٣) جوتييه الترجمة ص ١٤٧ .

والتحدث معه ، فكان الأوروبي الوحيد الذى نجح فى ذلك وقد نشر قصة رحلته فى كتابه الصحراء والسودان Sahara und Sudan . وحدثت فى السبعينيات من القرن الماضى رحلات كثيرة إلى طرابلس ، منها رحلة البارون فون مولتران الألماني عام ١٨٧٥ وسار فيها من طرابلس إلى الدواخل ، ورحلة فون بارى الألماني عام ١٨٧٦ من طرابلس إلى غات ، وأرسلت فرنسا بعثة علمية طبيعية إلى غدامس ضمت بريتشى وبوليجنا وهوفمان وفانتون . ثم أرسلت بعثة دورنوا دديير عام ١٨٧٤ وقام أدوارد راي الانجليزى برحلة من طرابلس إلى القيروان عام ١٨٧٦ سجلها فى كتابه بلاد المغاربة Country of The Moors . ونشر أيضاً إلى رحلة كورا الإيطالى عام ١٨٧٥ ورحلة بتالى الإيطالى عام ١٨٨٠ اللذين جالا طرابلس وكتبتا تقارير غير ذات أهمية . ونلاحظ أنه خلال قرن الكشف الأوروبي لأفريقيا لم يكن للإيطاليين باع فيه ولم يسجل لهم لإقيام الدكتور سرفيلي الذى كان يعمل طبيباً مع يوسف القره مانلى برحلة خلال عامى ١٨١١ و ١٨١٢ على ساحل سرت وبرقة ضمن بعثة إلى برقة ، كتب مذكراته عنها بالفرنسية ونشرتها الجمعية الجغرافية بباريس . وقيام الدكتور ديلاشلا الذى عمل أيضاً طبيباً مع يوسف القره مانلى برحلة ضمن حملة إلى برقة ، كتب بعدها تقارير عن مدن برقة (١) .

تلك هى أهم الرحلات التى حدثت فى طرابلس الغرب على مدى قرن وحتى بداية فترة هذه الدراسة ، وأولئك هم الرحالة الذين قاموا بها . وأوضح أن تعبير الكشف الذى يستخدمه الأوروبيون فى هذا المجال هو تعبير خاص بهم لأن طرابلس الغرب منطقة معروفة منذ القديم ، وجزء

لا يتجزأ من منطقة الوطن العربى . بل وحتى السودان الإفريق كان العرب قد أقاموا معه صلات قوية منذ مئات السنين . وهذا ما حدا بارسلان أن يعلق على هذه الرحلات الأوروبية بقوله « الحقيقة أن هذه الرحلات التى قام بها السياح الأوروبيون فى باطن إفريقيا ، وعدّها أهل أوروبا مآثر عبقرية ، ووضع أصحابها فى صف أعظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودراويش قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ، ولكن بدون غر أو ضوضاء عظيمة بل بكل بساطة . ولما وصل الأوروبيون إلى تلك الأقطار التى ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ، لم يجدوا من مجاهلها مكاناً إلا فيه عرب أو آثار للعرب واللغة (١) . ولكن الأمر كان بالنسبة للأوروبيين كشفاً بما عناه من تغافل أوروبى تحقّقه الحضارة الأوربية الحديثة .

واستمرت هذه الرحلات فى فترة دراستنا ، وبقي لها روعة ورونق الكشف بالنسبة للأوروبيين حتى بداية القرن العشرين فيما يتعلق بطرابلس وإلى ما بعد ذلك فيما يتعلق بأفريقيا . كمابقى التنافس الاستعمارى الأوروبى قائماً ومنعكسا عليها ، وإن هدأت حدته بعد أن توصلت الدول الأوربية إلى اتفاقات حددت مناطق نفوذ كل منها فى إفريقيا . وشهدت الفترة تسابقاً جنوبياً مسعوراً على القارة الإفريقية عموماً ، وكانت إشارة البدء فيه « مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى أجمعت فيه القوى الأوربية على أن الادعاءات الإستعمارية فى إفريقيا لا تكون إلا بالاحتلال الفعلى الواقع . فحدث التكالب المشهور على إفريقيا « وانخفضت نسبة المساحة المستقلة

(١) ديلاشلا « أخبار الحملة العسكرية من طرابلس إلى برقة عام ١٨١٧ » ترجمة أبولفة

مشورات دار الفكر بليبيا

فيها من ٩٥ ٪ سنة ١٨٨٥ إلى ٨٠ ٪ سنة ١٩١٠^(١) . ودخلت فرنسا من شمال غرب إفريقيا حيث كانت قد احتلت الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ ، ودخلت بريطانيا من شمالها الشرقي في مصر منذ ١٨٨٢ حيث اتخذتها قاعدة للتوسع في السودان النيل . « وبدأت بريطانيا تتطلع إلى حلم ضخيم هو طريق السكك - القاهرة في محاولة عظمى لربط مستعمراتها في أقصى شمال وجنوب القارة . واصطدم هذا المشروع مع مشروع مائلا - ولكنه عرضي - لفرنسا للتوسع عبر السودان الأوسط حتى يصل عبر السودان النيل إلى الصومال الفرنسي على البحر الأحمر » . وكان اللقاء بين الأسد والنمر - كما يقول حمدان - في فاشودة^(٢) .

كما شهدت الفترة نفسها تسابقاً أوروبياً مماثلاً لاستكمال لإحتلال الوطن العربي . وتهيأت الدول الأوروبية لتحقيق الموجة الثالثة من الزحف الاستعماري ، وكانت الموجة الأولى في ثلاثينات القرن التاسع عشر وانتهت باحتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ وبريطانيا لعدن ١٨٣٩ . وجاءت الموجة الثانية في الثلاثينات حين احتلت فرنسا تونس ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢ واتخذت منها قاعدة لتوسع للسودان .

واشتدت الاطماع على طرابلس الغرب في تلك الفترة باعتبارها جزءاً من منطقة الوطن العربي وجزءاً من أفريقيا . ولكي نفهم طبيعة الأحداث التي شهدتها طرابلس الغرب وقتذاك والتي انتهت بالغزو الإيطالي لابلد لنا من التعرف على السياسة الإستعمارية للدول الأوروبية الطامعة بطرابلس

ونعرض من ثم لأهم الأحداث المتصلة بالخطر الأوروبي خلال تلك الفترة وخاصة تهديد إيطاليا للغزو .

* * *

كانت السياسة الإستعمارية جزءاً هاماً في السياسات الخارجية للدول الأوروبية الكبرى . فقد كان لكل من هذه الدول سياسة أوروبية تعالج شواغلها في القارة الأوروبية ، وسياسة استعمارية تنصدي أشواغلها العالمية ، وكانت لهذه الدول الكبرى مصالح مستديرة تسيرو توجه سياستها الخارجية بغض النظر عن نوع النظام السياسي السائد فيها أو الحكومة التي تقيض . على زمام السلطة ، وترتبط هذه المصالح بشروط جغرافية ونفسية وسكانية واقتصادية^(٣) . وكثيراً ما تضاربت مصالح تلك الدول مع بعضها البعض ، وخاصة في ميدان الإستعمار ، تخلقت تنافساً قوياً فيما بينها .

اشتد التنافس الإستعماري بين الدول الأوروبية الكبرى على مختلف الاقطار العثمانية ومن بينها طرابلس خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وحمل هذه الدول على التفاوض والتفاهم فيما بينها فانتهى الامر في كثير من الاحيان إلى الاتفاق ، وبلا حظ - كما يقبل الحصري - أن التفاهم على اقتسام الولايات العثمانية الافريقية واحتلالها سبق التفاهم على اقتسام الولايات العثمانية الاسيوية ، وجرى تحت ظروف خاصة أقل تعقيداً من الظروف التي لابتست قضايا آسيا العثمانية^(٤) .

وحدث التنافس على طرابلس بين إيطاليا وفرنسا وانجلترا على وجه الخصوص . ذلك أن المانيا لم يكن لها مزعم كبرى في الحقل الإستعماري

(١) رونو في « تاريخ القرن العشرين » ترجمة نور الدين حامو ص ٧٨ ومطبعة الجامعة السورية
(٢) الحصري ص ١٥٢ .

(١) جمال حمدان ص ١٥٣ وهو يشير إلى Stamp Africa

(٢) حمدان ص ١٥٧ .

حتى بعد أن أعلن غليوم الثاني سياسته العالمية عام ١٨٩٥ . وقد اتجهت في شمال أفريقيا إلى مراکش ونافت فرنسا عليها . أما روسيا فكان مجال توسعها في آسيا وركزت اهتمامها بالنسبة لأراضي الدولة العثمانية على البلقان . ولم يكن للنمسا شواغل خارج أوروبا^(١) .

وتابعت إنجلترا باهتمام أوضاع طرابلس في تلك الفترة . ومع أن التنافس الإستعماري احتدم بين فرنسا وإيطاليا هناك إلا أن إنجلترا لم تكن بعيدة عن الأحداث . وكان اهتمامها بطرابلس قديماً ، وقد لاحظنا الدور الذي لعبه قناصلها - وخاصة وارنجتون - في تاريخ الولاية منذ منتصف القرن الثامن عشر . وكانت إنجلترا قد حرصت على إقامة قنصليات لها في أكثر مدن الولاية ، فكان لها قنصليات في الخمس ومصراته وغدامس ومرزق وبنغازي ودرنه . وبفضل هذه القنصليات أصبح النفوذ البريطاني واضحاً بين قبائل ليبيا .^(٢) وكان الصراع محتدماً بين إنجلترا وفرنسا أول الأمر على طرابلس والصحراء الكبرى . ولم يلبث أن انتهى في الصحراء بغلبة النفوذ الفرنسي بعد أن احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ ، وبقيت إنجلترا تتابع اهتمام أحوال طرابلس وتخطط لمستقبلها^(٣) .

وقد أفرد كوبر الحالة الإنجليزية فصلاً خاصاً للحديث عن مستقبل طرابلس من وجهة النظر الإنجليزية في كتابه الذي سجل فيه رحلته عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ في مناطق الولاية الداخلية . وكان يتستر وراء دراسة الآثار ويتابع في حقيقة الأمر أوضاع طرابلس . وقد قام برجلته على الرغم من قرار المنع العثماني ، وجاءت دراسته عن مستقبل طرابلس معبرة عن الاطماع الإنجليزية ومبرزة النفسية الاستعمارية وصورة التنافس الإستعماري الأوروبي المحتدم .

(١) رونوفس ١٠ - ٢٠ .

(٢) بيرو من ١٦٥ Rodd People of the veil

انطلق كوبر في حديثه عن مستقبل طرابلس من ضرورة البحث في مستقبل « الباشوات الإفريقية » - كما اسمها - على ضوء الأزمات التي مرت بالدولة العثمانية . وأشار إلى أن المسألة الطرابلسية لم تبرز بعد ، وأن إنجلترا « لم تعتبر أن طرابلس تمثل أية مسألة معينة في القرن التاسع عشر ، على العكس من إيطاليا وفرنسا اللتين تعتبران وجود هذه المسألة بالنسبة لهما . وأهاب كوبر بإنجلترا أن تتحرك » حين تبرز المسألة للعيان سيكون على إنجلترا أن ترقب مجرى الحوادث بعذر . . ومن الصعب على المرء أن يؤمن بأن إنجلترا تستطيع أن تقف جانباً إذا لاح أن فرنسا تفكر في ابتلاع إقليم جديد في الجهة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط » .

ووصف كوبر حالة طرابلس بأنها « تلوح هادئة ظاهرياً » ولكن الأمر في هذا الوقت يشبه منزلاً محشواً « بالمفجرات التي قد تفجرها شرارة واحدة في أية لحظة » . ويبدو أن إنجلترا كانت قلقة من احتمال عبور الفرنسيين حدود طرابلس الغربية من تونس ، وهو الخطر الذي برز في تلك الفترة ، وأقلق إيطاليا كثيراً . وقد نصح كوبر حكام بلاده لاتباع سياسة تستهدف جعل طرابلس « في حالة زوال الصفة التركية عنها تحت احتلال دولة لا تصطدم مصالحها مادياً مع مصالح إنجلترا كما تفعل فرنسا » . وأشار إلى أن طرابلس تقف الآن موقف الحاجز بين تونس ومصر . وكان اهتمام إنجلترا بطرابلس - كما يتضح من حديث كوبر - لأهمية موقعها الاستراتيجي وباعتبارها بوابة لإفريقيا ، وليس لثرواتها حيث تعتبر « ارثاً قاحلاً عقيمًا » . وناقش كوبر احتمال بقاء طرابلس قطراً إسلامياً مستقلاً بعد أن تسقط الدولة العثمانية فوجده أمر مشكوكاً فيه على الرغم من أن البلاد خالية من الأقليات الفعالة التي يمكن استغلالها . وقد اعترف بأنه ليس هناك طائفة مسيحية كبيرة تتطلب مصالحها الحماية

بريطانيا عصبه كما يعنى ٧ زوال حوزة ١٦٥ . وكذا راجع ص ٢١٤ من كتابها هذا فرب
طرابلس
من صورة
١٦٤

« ولا يستطيع الماطيون واليهود في العاصمة نفسها أن يذكروا أشياء كافية يمكن أن تكون مصدراً للشكوى . فطرابلس تحت حكم معتدل طيب » . ولانتهى كوبر في دراسته عن مستقبل طرابلس إلى توقع أن التنافس سيشتد عليها بين فرنسا وإيطاليا وإلى القول بأن إنجلترا تستطيع إيجاد حل وسط تنظر إليه دون أن تضع كرامتها^(١) .

وبرز نشاط إنجلترا في الفترة التالية في النشاط الدبلوماسي الأوروبي المتصل بمستقبل طرابلس ، وسنعرض له في حديثنا عن التمديد للغزو الإيطالي . كما برز في متابعة لإرسال بعثات كشف إلى طرابلس كانت تخفي وراء صفحتها العلمية حقيقتها السياسية الإستعمارية . ففي عام ١٩٠١ أرسلت بعثة لفزان برئاسة « دودسون » وتحت رعاية متحف التاريخ الطبيعي ، فوصلت هذه البعثة مرزق بطريق لم يسبق لأحد من الرحالة أن سلكها . وفي عام ١٩٠٦ قام « هانس فيشر » برحلة في أنحاء الولاية مبتدئاً من طرابلس حتى « تومر » بعد أن جمع معلومات هامة عن فزان ، وسجل رحلته في كتابه « عبر الصحراء »^(٢) .

« واتخذت الإطماع البريطانية ثوباً جديداً في صورة بعثة يهودية زارت طرابلس عام ١٩٠٨ . وكانت الحركة الصهيونية قد ظهرت إلى الوجود كحركة منظمة في نهاية القرن التاسع عشر على يد « هرتزل » وسعت إلى تأسيس الدولة اليهودية بعد أن اصططعت لليهود قومية خاصة وسرعان ما تحالفت الحركة الصهيونية مع بريطانيا زعيمة الإستعمار وقتذاك وبرز التحالف الإستعماري الصهيوني . ومع أن الحركة الصهيونية اتجهت بأنظارها إلى فلسطين على الخصوص إلا أنها فكرت بأجزاء أخرى

(١) كوبر من ٢٠٩ - ٢٦٦ من الترجمة .

(٢) Vischer, Hans. Across The Sahara from Tripoli to Bortau London 1910

لتكون « وطناً قومياً » لليهود مثل أوغندا في شرق أفريقيا وبرة في ولاية طرابلس الغرب . وظهر هذا التفكير بناء على عرض بريطاني على هرتزل الذي مال مع الصهاينة الغربيين إلى قبول الفكرة . في حين لم يقبلها الصهاينة من شرق أوروبا . وحدث انشقاق في المؤتمر الصهيوني السابع الذي انعقد عام ١٩٠٥ ورفض الفكرة نهائياً ، وشكل المنشقون « المنظمة اليهودية للاراضي Jewish Territorial Organization »^(١) . وقد نظمت هذه المنظمة البعثة التي أشرنا إليها للدراسة إمكان إنشاء مستعمرات زراعية في بركة . وكان من بين أعضاء البعثة جريجوري العالم الجيولوجي « وترور » الخبير الزراعي ومدلتون الميكانيكي والمستشرق ناحوم شلوش^(٢) . وكان شلوش استاذاً للدراسات السامية بجامعة السوربون في باريس ، وقد كتب عن أعمال هذه البعثة في كتابه رحلات في شمالي افريقية . ويتضح من الكتاب أن كاتبه زار في رحلته لطرابلس معظم أنحاء الولاية . وكان مهتماً بدراسة أوضاع اليهود فيها . كما كان داعية من دعاة الإستعمار الأوروبي للبلاد .

تطلعت « المنظمة اليهودية للاراضي » ITO إلى التغلغل في بركة بعد زيارة تلك البعثة لها . ووضعت الخطط اللازمة لذلك . وتكشف لنا إحدى وثائق دار المحفوظات بطرابلس مرأى تلك الخطط وتسليط ضوءاً عليها . والوثيقة تتضمن رسالة مكتوبة باللغة التركية ويظن أن أصلها مكتوب باللغة الفرنسية . وهي لاتحمل اسم المرسل ولا المرسل إليه ، ولكن يتضح من مضمونها أنها من أحد أقطاب الحركة الصهيونية إلى أحد الصهاينة من أعيان الطائفة اليهودية بطرابلس . كما يتضح أيضاً أن

(١) Safan, Nadav The United States and Israel p. zo Hatvatd 1963

(٢) Fetaud p. 444 من الترجمة ١٩٣

اتصالات الصهاينة كانت جارية على قدم وساق في الولاية . وقد حاولت استقطاب الكاتب العام فيها واسمه بكير بك الذي تصفه الرسالة « بأنه ذو ثقافة عالية ويقدر قيمة الفوائد التي تعود على الطرفين ، ولذلك فإنه لا يتردد في مساعدتنا لدى الدولة العلية للوصول إلى اتفاق في المشروع » . وتضمن الرسالة القرارات التي اتخذها مؤتمر المنظمة في لندن عام ١٩٠٩ بشأن المشروع المنوه عنه وهي :

أولاً : تأسيس بنك يهودي لشراء أراض شاسعة .

ثانياً : حسب رغبتكم يكون قبول اليهود المضطهدين بوصفهم لاجئين عثمانيين . ويحصلون على الجنسية العثمانية ، ويسمح لهم بتشكيل هيئة دينية والرسوم والضرائب التي تستوفيها الدولة منهم لا تكون فردية بل جماعية بمبلغ مقطوع يحدد فيما بعد .

ثالثاً : تؤسس الجمعية في موقع من تلك السواحل ميناء وسكة حديد وشركة للملاحة ، ويرفع العلم العثماني على جميع الدوائر والمؤسسات . وتستعمل هذه الدوائر للرفع من شأن الدولة العثمانية وزيادة ثروتها .

رابعاً : إن التدابير التي اتخذها الجمعية في اقرار أو فسخ هذه القرارات ستكون سرية . وإن أربعة من أعضاء المجلس والرئيس المسيو « زنفويل » سيبلشرون أعمال الاطلاع بقيامهم في الظاهر بجولة سياحية في البحر الأبيض المتوسط لبحث بعض الشؤون في الدول الأوروبية .

خامساً : عندما نحل بصقلية - كاتانيا أو سيرا كوزا - نعلمك بتاريخ وصولنا إلى مالطة لتحضر هناك في الحال وتزودنا بالمعلومات وكل التفاصيل اللازمة ، لأننا قبل البحث معك لا يمكننا القيام بأى عمل في هذا الصدد .

سادساً : بعد التفاهم معكم سيتوجه أربعة من أفراد الهيئة من بينهم متخصص في فن الزراعة إلى بنغازي متكرين ويقوهون بجولة إلى درنة بحجة تأسيس مدارس يهودية هناك . وإذا أوجستم خيفة علينا بسبب بنا الأجنبى فاننا على استعداد لارتداء الملابس الوطنية والنزول خلسة في موضع خال . ولكي لا تعترضنا بعض المصاعب يجب أن تكون الحكومة والقائمون على علم من ذلك . ويأذن الله سوف نهي مهمتنا في ظرف عشرة أيام . وإذا قرأنا على الاستقرار هناك فإن أول ما سنطلبه اعطاءنا رخصة في الزراعة واعمار الاراضى ، لانه إذا لم يسمح لنا بالرخصة الزراعية فإن الهيئة ستدخل في مقاضات مع كندا أو استراليا في هذا الشأن .

لذلك أرجو أن تشرح هذه المسألة لحضرة صاحب الدولة المشير باشا وصاحب السعادة بكير بك وتبين لهم الجهود التي صرفتها منذ ستة أشهر سعياً لتحقيق المشروع ، وعن رغبتى الاكيدة في جلب السعادة والبركة لتلك البقاع . وأن قصدى ادخال واستثمار رؤوس الاموال اليهودية في الممالك العثمانية ، وأنا واثقون من نجاحنا . فرجو ألا يديا أية مصاعب فإذا كانت الحكومة المحلية لا ترفض مشروعنا الزراعى عرفونا برقباً . إذ أننا متاهبون لمباشرة العمل حال وصول برقيتكم .

سابعاً : حين رجوع السادة المذكورين من زيارتهم لبنغازي إلى صقلية سوف يتوجه المسيو زنفويل بعد الاطلاع على مالدكم إلى دار السعادة استانبول للمفاوضة هناك حول الامتيازات وتأسيس البنك ويتفرغ فيها بعد لقضاء الشؤون الأخرى بكل راحة .

ثامناً : اعرضوا على سيادة الباشا أن الهيئة في هذه المسألة قررت باتفاق الآراء ورغبتها في خير وسعادة البلاد العثمانية . وإنى استرحه أن

يدرس هذا المشروع المقدس الذي سوف يخلص اليهود المساكين من العذاب والمشايق التي يلاقونها .

تاسعا : أرجو تذل مساعدكم لنجاح آمالنا التي شرحها لكم في رسالتي هذه وأن تبعثوا لنا عاجلا بالبرقية المنتظرة^(١).

ليس لدينا ما يوضح لنا ماذا تم بأمر زيارة زنفويل ، ولكن يبدو أن الجهود اليهودية الأوربية لاستعمار برقة لصالح بريطانيا استمرت فترة ثم توقفت بسبب تغلب وجهة النظر الصهيونية الأخرى القائلة بالتركيز على فلسطين وبسبب الغزو الإيطالي لطرابلس وحالة الحرب التي تلتها وشملت أرجاء الولاية .

وبلاحظ أن بريطانيا ركزت اهتماما خاصا على برقة المحاذية لحدود مصر ، وعملت على تنمية العلاقات الاقتصادية معها . وتكشف مراسلات القنصلية الإيطالية بنغازي عن اهتمام المبعوثين الإيطاليين بالنشاط البريطاني في برقة ورصد له .

• • •

وبدا واضحا في تلك الفترة اهتمام فرنسا بولاية طرابلس ، بعد أن تواجد الفرنسيون في تونس منذ عام ١٨٨١ وفي الجزائر منذ ١٨٣٠ وأصبحوا على طول الحدود الغربية للولاية . وكان لفرنسا آنذاك سياسة توسعية استعمارية وضع مذهبها جول فيرى وتجلبت بوصح بعد عام ١٨٩٠ عند لجنة إفريقيا الفرنسية ولجنة آسيا الفرنسية^(٢) . وتركز هم فرنسا

بالنسبة لطرابلس في تخطيط حدودها الغربية بما يناسب المصالح الفرنسية في تونس والجزائر وبوفر الأمان للوجود الفرنسي فيها . كما اهتمت فرنسا في مد نفوذها عبر الصحراء حتى السودان الأوسط فطلعت للسيطرة على قران وواحاتها الشهيرة . ولم تغفل السياسة الفرنسية عن إيجاد مواقع لها في ولاية طرابلس عموماً ، كما أنها لم تستبعد فكرة السيطرة الكاملة عليها . ^{سجل}

شغلت فرنسا بعد احتلالها تونس بتأمين وجودها من ناحية طرابلس ، فبرزت مشا كل الحدود خلال تلك الفترة مراراً واتخذت شكلاً حاداً في بعض الأحيان . وقد رأينا كيف اهتمت فرنسا بإعادة التوسيع الذين هاجروا إلى طرابلس وتجاوز عددهم ربع مليون نسمة لكي تضبط حركتهم ، ولعب القنصل الفرنسي في طرابلس دوراً كبيراً في إعادة أكثرهم ، كما ساعد على ذلك موقف الحكومة العلية من هذا الموضوع وكانت فرنسا حريصة على هدوء تلك الحدود خوفاً وتحسباً من هياج إسلامي تنطلق شرارته فتندلع نار الثورة في تونس والجزائر ضدها . وقد أشار إلى هذا التخوف سفير إيطاليا بباريس تورنيللي في رسالته التي سجل فيها حديثه مع الميسيو بورجوا يوم ١٨٩٦/٤/٤ ، ونقل تأكيد رئيس الوزارة الفرنسي بأن الحكومة التي يرأسها لم تفكر في إجراء أي شيء في طرابلس^(١) . ولكن فرنسا لم تتقاعس لحظة عن محاولة كسب أراض جديدة من ولاية طرابلس وضمها إلى تونس . واستغلت في هذا

المجال عدم وجود حدود مخططة بين طرابلس وتونس . فصارهما تخطيط هذه الحدود وفق مصلحتها .

واشتدت اطماع فرنسا في واحة غدامس على الخصوص لما لها من أهمية استراتيجية وتجارية فسعت إلى ضمها لتونس واتبعت اساليب مختلفة لتحقيق ذلك . وتوضح لنا رسالة بعث بها قائم مقام غدامس في ٢٠ صفر ١٣٠٨ إلى والي طرابلس أحد هذه الأساليب . فقد أرسل الفرنسيون أحد عملائهم التونسيين إلى غدامس بحجة التجارة « وأوصاه بالتحري القوي والسؤال خفياً بingham هل يوجد بعض الأسناد والحجة القديمة الذي تدلوا على أن غدامس كانت ملحقة وتابعة إلى تونس » وتشير الرسالة إلى أنه فهم منه أن في تصورهم إرسال ذوات إلى غدامس بوسيلة التجارة ومقصدهم الأهم المخابرة مع التوارق والإتحاد معهم . وتوضح أن هذا العمل لم يفر بشئ^(١) . ويظهر التركيز الفرنسي على غدامس وغات من خلال رحلة الحشائشي التونسي « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » الذي كان يتعاون مع الفرنسيين وفي المجال الثقافي على الخصوص والذي كان من أهداف رحلته إلى طرابلس استكمال استكشافها للفرنسيين . فهو يحاول في رحلته أن يثبت أن غدامس وغات كانتا تابعتين لتونس فيقول « وما يشهد أن غات وغدامس تحت حكم ملوك تونس سابقاً ما هو مسطر في بعض اسواخ خلفات جدود سيدي أيوب الأنصاري من ذرية حكام غات . ويتحدث عن العلاقات الودية بين حاكم غات ومحمد باي أمير تونس المرادى وعن حركة الغدامية بتونس ؛ وعن الغدامية التجارية بتونس بل إنه فكر بتحرير كتابة في هذا الموضوع لما رأيت من نفوذهم في الأصقاع الصحراوية وبلداتها ونفوذ كلمتهم في الممالك السودانية . . وجددوهم منذ أحقاب متطاولة بتونس يرون أنفسهم كما بنائها .

وقد تردد احتمال احتلال فرنسا لقدامس في تلك الفترة أكثر من مرة ، ونلس ذلك في مراسلات القناصل ، كما تكررت الدعوة بين الأوساط الإستعمارية الفرنسية لاحتلال غدامس . وما يجله توينبلي سفير إيطاليا بباريس إلى وزير الخارجية الإيطالي في ١١/٩٦ قول أحد النواب خلال مناقشة عن الصحراء « إن غدامس هي النقطة التي تتحرك منها غزوات البدو » وطلب هذا النائب من حكومة بلاده أن تنشئ فيها وكالة أو قنصلية نظامية « لتراقب كيف يقسوم أهالي تلك الجهات بواجبات حسن الجوار (١) » .^(١)

وحاول الفرنسيون النفاذ إلى الطوارق في جنوب ولاية طرابلس بجزء من مخططهم للسيطرة على الصحراء . وكان الطوارق يمثلون عقبة كاداء في هذا المجال لغنهم في مقاومة التغلغل الفرنسي . فعمد الفرنسيون إلى الإستعانة ببعض أعوانهم في تونس والجزائر لإقناع الطوارق بالتعاون مع فرنسا والإنضواء تحت لواء حكمها . وقد تضمنت رسالة بعث بها أحد زعماء الطريقة التيجانية في ادى القعدة ١٢١٣ إلى السيد « أوخ بالشهاوي » وإخوانه من الطوارق هذه الدعوة . وحديثاً عن ترحيب الفرنسيين الذين يسميهم « حكام وطننا »^(٢) بالطوارق . وشرحت رسالة بعث بها وكيل قائم مقام غدامس إلى الولاية في ٢٥ محرم ١٣١٤ هذه الجهود ومعها نص رسالة التيجاني ، وحذرت من أن انتقال الطوارق إلى المناطق التي تحتلها فرنسا أمر بالغ الخطورة . وطالبت بإزالة أسباب شكوى الطوارق التي ينفذ منها الأجنبي^(٣) . « اما إيطاليا

(١) ملف القناصل .

(٢) دار المحفوظات بجموعة ادهم انظر الملحق .

(٣) دار المحفوظات بجموعة ادهم انظر الملحق .

وكانت فرنسا قد بدأت منذ عام ١٨٨٠ مرحلة جديدة في الكشف عن الصحراء، بعد أن تأكدت « فكرة إنشاء خط حديدي فرنسي عبر الصحراء، وذلك منذ أن ظهر كتاب المهندس ديونشيل Duponchel الذي كان له دوى كبير (سكة الحديد عبر الصحراء، ارتباط بين الجزائر والسودان ١٨٧٨) ودفع الرأي العام بالحكومة الفرنسية إلى أن تبعث على طول هذا الطريق المزمع إنشاؤه بعثة عسكرية مسلحة للكشف والإستطلاع»^(١)، وتالت البعثات الفرنسية ومن أهمها بعثة فلانرز Flatters ولقيت جميعها مقاومة عنيفة من الطوارق . ثم عقدت فرنسا عام ١٨٩٠ اتفاقاً مع إنجلترا كان من شأنه أن قوى مركز فرنسا في الصحراء ، فبدأت تسيطر بقوة واطمئنان على مناطق نفوذها المعترف بها أوربيا في الصحراء وفي السودان . وبرزت شخصية الفرنسي المستعمر فرنان فورو F.Foureaux الذي أعلن أنه لن يمكن مطلقاً اجتياز الصحراء بنظام وأمان في بلاد الطوارق إلا باستعمال القوة، وإنشاء حاميات قوية محصنة على طول طريق البريد والسفر للحفاظ على الأمن . وبدأ صراعه مع الطوارق منذ عام ١٨٨٣ وحاول سبع مرات أن يجتاز النطاق الذي ضربه في الفترة بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ . وتبنت فرنسا سياسة فورو بعد مقتل المركيز دي موريس de Mores عام ١٨٩٦ في صحراء تونس . فقام فورو عام ١٨٩٨ بقيادة بعثة لغزو الصحراء . وتعززت جهوده باتفاق آخر عقده فرنسا مع إنجلترا عام ١٨٩٩ يكمل اتفاق عام ١٨٩٠ ، اعترفت فيه لإنجلترا لفرنسا بالسيادة على الصحراء مقابل اعتراف فرنسا لإنجلترا بمعظم السودان ، وذلك بعد حادث صدام فاشودا . وعبر السابورى عن

نظراته لهذا الإتفاق بقوله « إن ذلك الغالب يجب أن ينقر في الرمال »^(٢) . وانطلقت فرنسا في سياسة القوة المسيطرة على الصحراء .

وقد جاء ذكر نشاط فورو على حدود الولاية في كتاب بعث به قائمقام غدامس إلى متصرف الجبل بتاريخ ١٠ تشرين الأول ١٣١٤ مالية . ويوضح الكتاب اتصال فيرو ببعض رجال القبائل وطلبه أدلاء لطريق « لير » ، وأن فيرو ليس وحده بل معه قائد عسكري تحت قيادته ثلاثمائة جندي من المشاة وحاكم أول قلعة التابعة لحكومة الجزائر . وفي معيته أيضاً مائة وستين مسلحاً من الشعاينة وألفاً من الإبل المحملة . ويقول رئيس توارق أوراغين الذي نقل هذه المعلومات لقائمقام غدامس « أنهم نزّلوا في مكان يسمى الأبيض وقصدهم إنشاء أبنية هناك ، ومنه يرجلون إلى وادي تما سانين وسينشئون به أبنية أيضاً »^(٣) . وهكذا تنكشف هذه الإفادة عن انطلاق فرنسا في سياسة القوة للسيطرة على الصحراء .

واهتمت فرنسا بتحصين مواقعها على طول الحدود الغربية لولاية طرابلس لصد مناوشات رجال القبائل من جهة ولإتخاذ تلك المواقع مراكز انطلاق لتوسع تحتل . وقد شغلت أخبار هذه التحصينات سلطة الولاية وإيطاليا وخاصة عام ١٨٩٦ الذي كثرت فيه مناوشات الحدود . واستغلت فرنسا عدم تخطيط الحدود لتحاول كسب مواقع جديدة لها . وبقيت مشاكل الحدود قائمة حتى أبرمت اتفاقية خاصة بهذا الشأن في ١٩ مايس ١٩١٠ أواخر الحكم العثماني - كما سبق أن ذكرنا .

وقد تابعت رحلات الكشف الفرنسي في طرابلس خلال تلك الفترة ، ومن أشهرها بعثة دي ماثويسيل De Mathuisieul عام ١٩٠١ الذي كان معيناً

(١) الصحراء مقدمة دسوقي ص ١٦ .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادعم انظر ملحق الوثائق .

(١) جوتييه الصحراء ص ١٣ من الترجمة .

من قبل حكومته - كما يقول كاكيا - وكان حائزاً على ترخيص من سلطان تركيا لجال خلال ليبيا ونشر تقريراً هاماً عن تلك الرحلة^(١). وسجل هذه الرحلة في كتابه « طرابلس أمس وغداً » La Tripolitaine d'hier el De Demain الذي صدر عام ١٩١٢^(٢). وهناك رحلات أخرى قام بها « ميلون » « ويبسي » والجيولوجي « برفنكوير » الذي كان تابعاً للبعثة التركية الفرنسية التابعة لمنطقة الحدود التونسية الطرابلسية^(٣).

وسعت فرنسا إلى تثبيت نفوذها في مركز الولاية ، فكان لها مؤسساتها التبشيرية وأهمها مدرسة للذكور وأخرى للإناث ومستشفى في طرابلس ، ومؤسسات مماثلة في بنغازي والخمس . كما سيطرت على بعض الشركات التي تؤدي خدمات حديثة في طرابلس فكانت إدارة الفنار فرنسية وكانت هناك دائرة بريد فرنسية .

* * *

ووضحت أطماع إيطاليا في طرابلس خلال تلك الفترة . وركزت السياسة الإيطالية الاستعمارية جهودها للتمهيد لاحتلال إيطاليا طرابلس في المجال الدولي وفي داخل الولاية . وبرزت حساسية إيطاليا من فرنسا على الخصوص في كل ما يتعلق بطرابلس . وقد انتهت تلك الفترة بالغزو الإيطالي للبلاد عام ١٩١١ .

(١) كاكيا م ١٩٩ . (٢) كاكيا م ١٦٩ .

(٣) فيوم ٤٤٤ .

كانت إيطاليا دولة أوروبية صغيرة محدودة الطاقات ، حققت توحيد معظم اجزائها بالوحدة الإيطالية عام ١٨٦٠ . وقد وصفها بارير Barrère سفير فرنسا في روما عام ١٩٠٢ بأنها دولة فتية . وكانت لاتزال هناك اجزاء إيطالية تتبع دولاً أخرى حتى عام ١٩١٤ . وكانعكاس لهذا الواقع تأخر التوجه الاستعماري فيها ، فلم تدخل التنافس الاستعماري الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر « لأنها هي نفسها مستعمرة - كما عبر لامرتين - وليست قادرة على الاحتلال والتوسع الاستعماري »^(١).

وبدأ التوجه الاستعماري في إيطاليا بعد تحقيق الوحدة ببروز فكرة مستعمرات النفي لإبعاد أعداد كبيرة من السجناء الإيطاليين إليها . وكانت الدولة الجديدة قد ورثت من العهد السابق عدداً كبيراً من السجناء لم يلبث أن تضاعف حين اتخذت الحكومة الإيطالية جانب الشدة ضد خصومها وضد عصابات السلب فلات السجنون بالآلاف من الحصوصم والأشقياء ، حتى بلغ عدد المساجين بعد احتلال روما واتخاذها عاصمة الدولة عام ١٨٧٠ حوالي ٧١ ألف سجين^(٢). وقوى التوجه الاستعماري في إيطاليا خلال الربع الأخير من القرن الماضي بفعل عدة ظروف أحاطت بها . فقد تزايد سكانها بسرعة فلم تعد الأراضي الصالحة للزراعة قادرة على استيعابهم في مجال الزراعة ، ورأى كثيرون من هؤلاء السكان ألا يشغلوا أنفسهم بصناعة لم تتم بعد بصورة كافية . وكانت الصناعة في إيطاليا حديثة وتفقر إلى الفحم والبتروول وفلزات الحديد ، فاضطرت إيطاليا إلى تصدير الحاصلات الزراعية لتستطيع شراء المواد الأولية اللازمة للصناعة . وتأثرت حركة التجارة في إيطاليا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ . حيث أصبحت تنافس دولاً قوية ذات أساطيل كبيرة . وفرض هذا

(١) روتونون م ١٥ وبازامة « بداية المساء » م ٧ .

(٢) بازامة م ٨ .

الوضع بمجموعه هجرة الإيطاليين من بلادهم ، وتزايد عسدد المهاجرين بسرعة خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر . فكان عددهم عام ١٨٧٦ - كما تدل الإحصاءات - ٢٢٢٠١ نسمة . وأصبح ٨١٤٠٠٠ نسمة في عام ١٨٧٩ ثم ٦٥٧٤٨ نسمة في عام ١٨٨٢ ثم ٨٥٣٥٥ نسمة في عام ١٨٨٦ و ١٢٧٤٨ مهاجراً في عام ١٨٨٨ إلى أن بلغ ١٩٥٩٣٣ مهاجراً في نهاية القرن التاسع عشر وهو رقم لم تبلغه الهجرة من أية دولة أوروبية أخرى ^(١) . واتجه هؤلاء المهاجرون نحو القارة الأميركية وتونس وفرنسا بسعة كبيرة ^(٢) .

وهكذا قوى التوجه الإستعماري في إيطاليا بحثاً عن أراضٍ جديدة ومواد أولية ، وتأثير النفسية الإستعمارية التي سيطرت على أوروبا عموماً في تلك الفترة . وارتفعت في السياسة الإيطالية شعارات تعبر عن هذا التوجه مثل « التوسع ضرورة لتشغيل اليد العاملة » و « وجوب توفير مكان تحت الشمس للشعب الإيطالي » و « اقفاء آثار روما الخالدة واسترجاع مجد الأجداد » . وظهرت في إيطاليا بين السياسيين جماعة الإستعماريين الذين اعتقدوا أن التوسع الإستعماري سيكون عاملاً أساسياً في حل المشاكل المستعصية التي كانت تجثم على صدر إيطاليا ، وفي مقدمتها أزمة البطالة والإقتصاد . وكانت هذه المشاكل تعصف بالحكومة تلو الحكومة في إيطاليا حتى أنه تعاقب بين عامي ١٨٨٧ و ١٩١١ ست عشرة وزارة ، كان معظمها لا يعمر أكثر من عام واحد . ورغم اختلاف بعض هؤلاء الإستعماريين في أحزابهم فإنهم كانوا يتلاقون على صعيد واحد ويتفقون في الرأي حول وجوب توجه إيطاليا للاستعمار والتوسع . وبرز بين

هؤلاء ثلاثة كانوا من غلاة الإستعماريين وهم كريسي Crispi الذي تولى الوزارة مرتين بين ١٨٨٧-١٨٩١ و ١٨٩٣-١٨٩٦ وجولييتي Giolitti الذي تولّاها أربع مرات حتى عام ١٩١١ (١٨٩٢-١٨٩٣ و ١٩٠٣ - ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩٠٩ و ١٩١١) ، والجنرال بيلو Pelloux الذي تولّاها مرة واحدة (١٨٩٨ - ١٨٩٩) وقد اشتهر هؤلاء بأنهم دعاة حرب حتى أن جريدة كوريري دي لاسيرا كانت تطلق عليهم لقب فرسان الإستعمار الثلاثة ^(٣) .

وانجبت انظار الإستعماريين الإيطاليين إلى أفريقيا كمجال للإستعمار والتوسع ، وبصورة خاصة إلى شمال أفريقيا في الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط . وتركز اهتمامهم أول الأمر في تونس التي هاجر إليها آلاف من الإيطاليين ، لتسكن « قاعدة للتوسع في شمال أفريقيا » - على حد قول كريسي في مقال له ^(٤) . وكان كريسي يعتقد على الرغم من توسع فرنسا المتزايد في أفريقيا أن تونس وليبيا والحبشة وقسماً من السودان ستكون من نصيب إيطاليا . ولذا فقد كانت صدمته وصدمة الإستعماريين الإيطاليين عنيفة حين أقدمت فرنسا على احتلال تونس عام ١٨٨١ وفرضت عليها معاهدة باردو ، بعد أن مهدت لخطوتها هذه بأخذ موافقة بعض الدول الكبرى . وأوضح كريسي مشاعره وعبر عن أطماعه الاستعمارية في خطاب ألقاه في بالمير موعام ١٨٨٢ بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس منظمة الدبابير Vesperi حيث قال « كان من واجب فرنسا أن لا تعتدى على حقوق « اختها اللاتينية » في تونس أما الآن وقد فعلت فإننا نطالبها بأن تصحح غلطتها وتترك تونس لإيطاليا صاحبة الحق

(١) المنتصر لبييا قبل الحنة وبمدها س ١٣

(٢) المنتصر س ١٨ نشر المقال في جريدة المنبر . Tribune

(١) بازامة س ١٢ .

(٢) رونوفس س ١٦ .

الأوربية الأخرى . لأن أى ضرر يصيب طرابلس « سيضيع فائدتها على الدولة الأوربية التى ستتملكها عن قريب أو بعيد » على حد تعبير القنصل الإيطالى موتا فى رسالة له بتاريخ ١/٢٨/٩٦ .

وأخذت إيطاليا تعد العدة لإحتلال طرابلس واستعمارها ، ورسمت سياستها الأوربية وسياستها الإستعمارية على هذا الأساس . فمهدت فى أوروبا مع الدول المعنية ، وعملت فى طرابلس على التغلغل تمهيداً للغزو .

فى مجال السياسة الأوربية شعرت إيطاليا بضرورة التفاوض مع الدول الأوربية المعنية فى هذا الشأن لتحصل على موافقة بعضها ، ومساعدة بعضها الآخر للوصول إلى غايتها . وذلك بعد أن تلقت صدمة احتلال فرنسا لتونس ولم تستطع أن تحرك ساكناً . وقد كانت هذه الصدمة وهزيمة إيطاليا فى مؤتمر برلين عاملاً أساسياً فى دفع السياسة الخارجية للاعتماد على التحالف وإبرام الاتفاقات بعد أن رأت عقم سياسة الإنفراد .

اتجهت إيطاليا فى ميدان الإتفاقات الأوربية أول ما اتجهت إلى النمسا وألمانيا مدفوعة بنقمتها على فرنسا لإحتلال تونس وبخشيتهما من منافسة فرنسا لها فى طرابلس . فسعت إلى ضمان مساعدة النمسا وألمانيا لها ضد فرنسا ، وانضمت إلى الاتفاق الثنائى الذى كان قائماً بينهما فأصبح اتفاقاً ثلاثياً أو حلفاً ثلاثياً Triplice Alleanza . وتم التوقيع على وثيقته الأولى فى الثانى من مايو ١٨٨٢ . ولم يتضمن هذا الاتفاق نصوصاً صريحة تتصل بأطماع إيطاليا الاستعمارية فى طرابلس أو غيرها ، لأن سياسة إيطاليا كانوا متلهفين لإيجاد حلفاء لإيطاليا فى مواجهة فرنسا . واقتصر النص فى الاتفاق على التعاون « فى حدود المصالح الخاصة » . وكان مفهوم المصالح الخاصة لا يشمل المستعمرات . وقد أوضح وزير خارجية النمسا لوزير خارجية إيطاليا فى يوليو ١٨٨٢ أن امتداد

لأن البحر الأبيض المتوسط الممتد بين إيطاليا وشمال أفريقيا يشكل بحيرة يجب أن تكون بحيرة إيطالية خاصة » . وقد أشارت مجلة دويتش ريفيو Deutch Revue فى عددها الصادر فى فبراير ١٨٨٢ إلى اطماع إيطاليا الاستعمارية وإلى سياسة كريسبي فسكتيت « إن إيطاليا كانت تفكر فى احتلال تونس وليبيا منذ زمن بعيد تنفيذاً للسياسة الإستعمارية التى يتبناها كريسبي . ولكنها تريد أن يتم لها ذلك على الطريقة النابوليونية أى أن تحارب العدو وتحتل أراضيه بالأموال التى تسلبها منه . وتمهداً لتطبيق هذه السياسة ضاعفت هجرة عمالها ومزارعيها إلى شمال أفريقيا وشجعت استثمار بعض رؤوس الأموال الإيطالية هناك لتبتم لها السيطرة الإقتصادية إلى أن يحين وقت الإحتلال العسكرى ، ولكن اتفاقية باردو المعروفة التى تمكن جول فيرى من إبرامها ضيعت عليها الفرصة وأطاحت بجميع مشاريعها فى تونس » (١) .

حولت إيطاليا أنظار مطامعها إلى طرابلس عندما فقدت الأمل فى تونس . وتشبثت بفكرة الحصول على نقاط استناد على شواطئ المتوسط فى طرابلس وشرق المتوسط ، مادام لم يعد ممكناً تحويله إلى بحيرة إيطالية . كما تشبثت بفكرة التوسع الإستعمارى فى الحبشة وشرق أفريقيا . وبدأ هذا التشبث واضحاً فى سياسة إيطاليا طوال الثلاثين عاماً التى امتدت بين احتلال فرنسا لتونس والغزو الإيطالى لطرابلس . فكانت إيطاليا تنصرف فى كل ما يتعلق بطرابلس فى العلاقات الدولية وكان تبعية طرابلس لها أمر مفروغ منه ، والمسألة مجرد وقت حتى يصبح حقيقة واقعة . وكانت من هذه الزاوية تبدى الغيرة على طرابلس إذا اقتربت منها مصالح الدول

النفوذ الفرنسي إلى طرابلس لا يمكن أن يؤدي بطبعه إلى إخراج النمسا عن وقارها مؤكداً هذا المفهوم^(١).

ولكن إيطاليا لم تلبث أن تجاوزت هذه البداية مع حليفها ونبيحت في إضافة بعض الفقرات أو المواد الجديدة إلى نصوص الاتفاق توسيعاً أو تفسيراً لأحكامه حينما كان يجدد وتمدد مدته في الأعوام ١٨٨٧ و ١٨٩١ و ١٩٠٢^(٢). وقد نص البند التاسع في الاتفاق كما أصبح عام ١٨٩١ بأن « تتعاون الدول الحليفة على الاحتفاظ بالوضع القائم Statu quo في الشمال الأفريقي، وإذا حدث لسوء الحظ أن اعترفت الدولتان إيطاليا والمانيا عقب فحص دقيق للحالة الدولية في تلك المنطقة بأن استمرار الاحتفاظ بالوضع القائم مستحيل فإن المانيا تتعهد بأن تساند إيطاليا في أى عمل إجباري أو احتلال تقوم به الأخيرة للحصول على امتيازات، ويكون هذا العمل من جانب إيطاليا لحفظ التوازن الدولي ». كما نص الاتفاق على أنه « في ظروف كهذه، يتحتم على الدولتين معاً أن تحاولا الاتفاق مع بريطانيا ». وحين جدد الاتفاق عام ١٩٠٢ بقى نص البند التاسع كما هو في عام ١٨٩١، وحصلت إيطاليا من النمسا على التصريح « بأن النمسا مع أنها تريد المحافظة على الوضع القائم في بلدان الشرق الأوسط، إلا أن الدولة النمساوية بما أنه ليس لديها أية مصالح معينة تريد الحصول عليها في طرابلس وبرقة قد قررت عدم اتخاذ أية حركة يمكن أن تعرقل المصالح الإيطالية في حال ما إذا اضطرت المملكة الإيطالية إلى اتخاذ تدابير حازمة عند تغيير حالة البلدان الشرقية. واعتبرت إيطاليا هذا التصريح بمثابة

الوعد^(٣). واستطاع جوليفي رئيس الوزراء الإيطالي خلال رئاسته الثانية (١٩٠٣ - ١٩٠٥) أن يحصل من الأمير الألماني « بولو » بدون عناء على تعهد من المانيا بعدم التدخل في حالة قيام إيطاليا بحملة الغزو طرابلس، وكان جوليفي في زيارة لهامبورج. كما استطاع خلال رئاسته الثالثة (١٩٠٦ - ١٩٠٩) الحصول على اعتراف من النمسا بموافقتها احتلال إيطاليا لطرابلس. ولكن النمسا اشترطت أن تنحصر الحرب الإيطالية المتوقعة في طرابلس ولا تمتد لها بأية حال إلى تركيا ومنطقة البلقان^(٤).

وسعت إيطاليا إلى التفاهم مع بريطانيا، وتولى كريسي في أثناء رئاسته الوزارة الإيطالية سنة ١٨٨٧ الاتصال ببريطانيا فكتب إلى لورد سالزبوري رئيس وزراء إنجلترا يقول « لقد اتضح لي أن الجمهورية الفرنسية تعمل لاحتلال طرابلس الغرب كما ثبت لي من اعتدائها المتكررة على الحدود الطرابلسية. ولكن إذا حصلنا على طرابلس فإن بنزرت لا تهدد بعد ذلك إيطاليا أو بريطانيا العظمى ». وقد وافقه سالزبوري وطالبه بالتريث الحكيم. ثم توصل البلدان إلى عقد اتفاقية سرية في ١٢/٢/١٨٨٧ جاء فيها « سيعمل الطرفان المتفقان على المحافظة على الوضع القائم قدر الإمكان في الأوضاع القائمة في البحر المتوسط، والإديريتيك والايجه والبحر الأسود، وسيجولان دون حدوث تغير فيها يضر بمصالحهما عن طريق الإلحاق أو الحماية أو أية طريقة أخرى. غير أنه إذا استحال ذلك فسيتمفق الطرفان على ما يجب عمله في هذا الشأن. وستؤيد إيطاليا أعمال بريطانيا في مصر،

(١) بإزامة ص ٢٧.

(٢) المنتصر ص ٣٧ و ٦١.

(١) بإزامة ص ٢١

(٢) المصري ص ١٧٦.

ومقابل ذلك ستدعم بريطانيا الأعمال التي تقوم بها إيطاليا في أية ناحية من سواحل شمال أفريقيا ولاسيما في طرابلس الغرب وبرقة، وذلك في حالة استيلاء دولة ثالثة على أى جزء من أجزاء تلك السواحل. وفي كل الأحوال سيساعد الطرفان بعضهما البعض، في جميع الأمور التي تتعلق بالبحر المتوسط (١).

وأصرت إيطاليا حين أذن موعد تجديد الاتفاقية سنة ١٩٠٢ على عدم تجديدها إلا إذا بادرت بريطانيا بالاعتراف بأفضلية إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب وبرقة. فاعترت بريطانيا بحق إيطاليا في احتلال طرابلس الغرب وبرقة، في مقابل تعهد إيطاليا بمساندة بريطانيا في المسألة المصرية، ووعدها بعدم اتخاذ أية خطوات عدائية ضد الإمبراطورية البريطانية سواء أكانت متخذة من جانب الثنائي فرنسا - رودسيا أو من إمبراطوريات الوسط الأوروبي.

وانتهجت سياسة إيطاليا بالنسبة لفرنسا أول الأمر إلى محاولة التضييق عليها كرد على احتلالها تونس وبغية منعها من مد نفوذها إلى طرابلس. وتبنى كريسي سياسة عرقلة نشاط فرنسا في المغرب فمقد اتفاقية مع أسبانيا في ٤ مايو ١٨٨٧ حول المنطقة الحرة، واتفق مع سلطان مراكش مولاي الحسن على إعادة تنظيم الجيش المراكشي بمعاونة إيطاليا وإيفاد بعثات من المراكشيين إلى المدارس العسكرية الإيطالية وبناء طراد لحساب مراكش.

وعمل كريسي على التضييق على الوجود الفرنسي في تونس من خلال الجالية الإيطالية هناك بحجة الدفاع عن مصالحها، ضمن سياسته القائمة

« بالحيولة دون بسط سيادة فرنسا التامة على تونس حتى تؤول طرابلس لنا » (١).

وضمن سياسة تكثير الجو على فرنسا كانت إيطاليا ترصد وتتابع بدقة التحركات الفرنسية على طول الحدود التونسية الطرابلسية وفي الصحراء لتحول دون أى توسع فرنسي جديد. كما كانت تثير حول هذه التحركات ضجة كبيرة في أوروبا، يمكن أن نلاحظها في مراسلات الخارجية الإيطالية خلال تلك الفترة. وقد اشتدت حملات إيطاليا الإعلامية ضد الأطماع الفرنسية في طرابلس والصحراء عام ١٨٨٧ وبلغت ذروتها عامي ١٨٩٦ و ١٨٩٧. وكان القنصل الإيطالي في طرابلس « موتا » بالغ الحساسية في مراسلاته فهو يصف تحرك فرنسا بالأغتصاب البطيء وهو يتهم فرنسا بعزمها على قطع كل تجارة بين طرابلس والدواخل حتى تضيق فائدة المدينة لمسدى الدولة الأوروبية التي ستمتلكها عن قريب أو بعيد.

وقد خشيت فرنسا من أن يتطور التوتر على الحدود التونسية الطرابلسية إلى ثورة تهدد وجودها في تونس والجزائر فلجأت إلى تطمين إيطاليا بغية تهدئة التوتر والتأكد لها بعدم وجود مطامع فرنسية في طرابلس. ونقل سفير إيطاليا بباريس « تورنيللي » إلى وزير الخارجية الإيطالية في رسالته بتاريخ ٨ / ٤ / ١٨٩٦ تأكيد المسيو بورجواريس الوزراء الفرنسي « أن الحكومة التي يرأسها لم تفكر أبداً في إجراء أى شيء في طرابلس... وإن من المناسب أن نكون كلانا على حذر من المصدر

(١) من خطاب له إلى السفير الإيطالي في برلين انظر بإزامة ص ٢٢.

الذى قد ترد منه هذه الأخبار التى غرضها خلق الشكوك وسوء التفاهم بين بلدينا والعمل على زيادتها ، ورجع السفير لإخلاص المسيو بورجوا فى حديثه وأشار إلى تخوف فرنسا من الهياج الإسلامى المحتمل فى تونس والجزائر كما تولى سفير فرنسا فى إيطاليا تقديم تأكيدات لوزير الخارجية الإيطالية فى الفترة نفسها بخصوص طرابلس ، وأضاف - كما عزم وزير الخارجية على سفراء إيطاليا - بأن القوات الفرنسية الأمامية على بعد مائة كيلو متراً من الحدود^(١) .

ولم تلبث إيطاليا أن تحولت من سياسية مجافاة فرنسا إلى محاولة التفاهم معها . فبادرت إلى تحسين علاقاتها بها بعد هزيمة كريسي فى الحبشة عام ١٨٩٦ . واعترفت إيطاليا باحتلال فرنسا لتونس فى ٢٨ / ٩ / ١٨٩٦ بناء على اقتراح وزير الخارجية الإيطالى الماركيز فينوسيتا الذى كان معروفاً بمقاومته لاتجاه بسمارك إبعاد إيطاليا عن فرنسا . وكانت وثيقة الاعتراف تشمل امتيازات قضائية واجتماعية للجالية الإيطالية فى تونس . وسرعان ما تابع هذه الخطوة إبرام اتفاق تجارى بين إيطاليا وفرنسا فى ٢١ / ١١ / ١٨٩٨ تضمن تخفيض الرسوم الجمركية بينهما .

ولم يسمح وزير الخارجية الإيطالى فينوسيتا للاتفاق البريطانى-الفرنسى عام ١٨٩٩ عقب حادثة فاشودة بما تضمن من اعتراف بأطماع فرنسا فى الصحراء وجنوب طرابلس ، أن يكون سبباً فى انتكاسة العلاقات من جديد بين إيطاليا وفرنسا . بل تابع جهوده فى تحقيق التقارب حتى استطاع أن يعقد اتفاقية سرية مع فرنسا فى ١٤ / ١٢ / ١٩٠٠ ضمنها عدم منافسة فرنسا لإيطاليا فى طرابلس وقد نصت الاتفاقية على أن « إيطاليا تعترف

لفرنسا بالألوية فى مراكش ، كما أن فرنسا تعترف لإيطاليا بالألوية فى طرابلس وبني غازى . فإذا أقيمت فرنسا على استحصال منافع جديدة فى مراكش فسيحق لإيطاليا أن تقوم بما تراه من إجراءات فى طرابلس وبني غازى » .

وتقدمت العلاقات خطوة أخرى بين الدولتين حين عقدنا إتفاقية سرية أخرى بعد حوالى عامين أكثر صراحة وشمولاً من الأولى . فقد نصت هذه الإتفاقية التى أبرمت فى ٢ / ١١ / ١٩٠٢ « أنه إذا تعرض أحد الطرفين المتعاقدين إلى تعد من طرف آخر ، أو إذا اضطر إلى الحرب دفاعاً عن شرفه وكرامته ... يبقى الطرف الثانى على الحياد » . ونصت الإتفاقية أيضاً « أن الحقوق التى اعترفت بها فرنسا لإيطاليا فى طرابلس الغرب وبني غازى تشمل فزان أيضاً » ، على أن تكون الحدود بين البلدين المنتظر استعمارهما كما هى فى الخريطة الملحقة بإتفاقية ٢١ مارس ١٨٩٩ البريطانى الفرنسى . واتفق على ضرورة السرية فى هذا الاتفاق ، حتى لا يثير دسائس وحسد بعض الدول ولا سيما ألمانيا . وهكذا تلاشت أسباب التوتر بين الدولتين وأطمأنت إيطاليا على أطباعها فى طرابلس من ناحية فرنسا . وزار ملك إيطاليا فرنسا عام ١٩٠٣ كتعبير عن الصداقة ، كما زار رئيس جمهورية فرنسا ووزير خارجيتها ديلكاسية إيطاليا عام ١٩٠٤^(١) .

وبعد أن تفاهمت إيطاليا مع كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وفرنسا على أطباعها فى طرابلس اتجهت إلى روسيا ، وهى دولة أوروبية كبرى

لتسكسها إلى جانبها. فانهز جولييتي أثناء رئاسته الثالثة زيارة قيصر روسيا نيقولا الثاني لإيطاليا عام ١٩٠٧ ردأ على زيارة ملك إيطاليا لروسيا عام ١٩٠٢ ، وجعل موضوع أطماع إيطاليا في طرابلس أحد نقاط البحث في المقابلة التي تمت بين القيصر والملك في قصر « راكوبينجي » . وأعقب ذلك مفاوضات رسمية بين وزير خارجية روسيا « اسفولسكى » وبعض مساعديه مع جولييتي ووزير خارجيته « تيتونى » . وتم التوصل إلى اتفاق نص على أن « تتمتع روسيا أن تنظر بعين العطف إلى مصالح إيطاليا في طرابلس ، كما تتمتع إيطاليا أن تنظر بعين العطف إلى مصالح روسيا في المضائق » . « وأن يعمل الطرفان على حل مسائل البلقان وفق مبدأ القوميات »^(١) . وهكذا استكملت إيطاليا خطتها للحصول على اعترافات مبدئية من الدول الكبرى الأوروبية بأطماعها في طرابلس .

ونلاحظ في سياسة إيطاليا الأوروبية أنها كانت تعتمد إلى عقد صفقات تبادل فيها المنافع الاستعمارية مع الدول الأوروبية الأخرى . فالإتفاقيات التي أبرمت تظهر أن إيطاليا حصلت على الاعتراف بأطماعها في طرابلس من بريطانيا مقابل اعترافها باستعمار بريطانيا لمصر ، ومن فرنسا مقابل اعترافها بأطماع فرنسا في مراکش ، ومن روسيا مقابل اعترافها بمطالب روسيا في المضائق . ومن النمسا والمانيا مقابل اتفاق عام يشمل جميع العلاقات الخارجية الأساسية . وقد ضمنت إيطاليا من هذه الإتفاقيات فضلاً عن الاعتراف التأييد والمساعدة عند الاقتضاء^(٢) .

كما نلاحظ في سياسة إيطاليا الأوروبية أنها حاولت الجمع بين المتناقضات في إتفاقياتها لتصل إلى موافقة جميع الدول الأوروبية الكبرى على أطماعها في طرابلس ، علماً بوجود خلافات كبيرة بين مصالح هذه الدول . وكان سبيلها إلى ذلك تطمين الأطراف المختلفة كلها أبرمت إتفاقاً فهي حين تجدد الحلف الثلاثي تطمين فرنسا أن « وثيقته لا تتضمن أية فصوص ضد فرنسا سواء أ كانت مباشرة أو غير مباشرة » . « وتطمئن بريطانيا باطلاعها على الوثيقة . وهي حين تبرم إتفاقاً سرياً مع فرنسا نحرص على ألا تثير نفقة ألمانيا ، وهكذا . .

لم يبق أمام إيطاليا بعد أن توصلت إلى اعتراف الدول الأوروبية الكبيرة باطماعها في طرابلس إلا استكمال تغلغلها في الولاية واختيار الوقت المناسب للغزو . وكانت إيطاليا قد شرعت في التغلغل وإيجاد مواقع قدم لها وتثبيت نفوذها في طرابلس منذ أن برز فيها التوجه الاستعماري .

* * *

وبدأ التحرك الإيطالي الاستعماري في الولاية عن طريق القنصلية الإيطالية التي نشطت في استكشاف أرض الحركة ، والبحث عن عملاء يتعاونون معها . وقد رأينا في فصل سابق كيف حاولت ربط هؤلاء العملاء عن طريق منح الجنسية الإيطالية وبسط الحماية عليهم ليستفيدوا من الامتيازات الأجنبية ، وكيف وقف أحمد راسم منذ بداية توليه في وجه هذا النشاط المشبوه . كما عرضنا أيضاً لنشاط القنصل الإيطالي والأزمات التي أثارها في عهد أحمد راسم والتي حسمها حزم الوالي العثماني وقتذاك .

وقد حاولت إيطاليا منذ تلك الفترة شراء بعض الأراضي ذات

الموقع الاستراتيجي الهام في الولاية . وكنا أشرنا لما ورد عن هذا الموضوع في محاكمة سراج الدين في مستهل ولاية أحمد راسم الطويلة فقد جاء في أوراق التحقيق أن أحد الطرابلسيين « من تبة الدولة العلية وكان سابقا يدعى الحماية الفرنسية . تدخل في ترويج بيع أراض جسيمة في نقطة مهمة حاوية لثلاثة قرى ذات نخل كبير معروفة بمراة والجينة والمخيرية كائنة بقضاء سرت التابع إلى سنجق الخمس إلى الا جانب » . وكان وراءه مواطن آخر يعمل « اجينة ايطالية بطرابلس » في « وكالة وابورات قونانية ايطالية - أى سماراً ووكليل في شركة وابورات ايطالية - وكان وراء الاثنين القنصلية الايطالية والشركة المذكورة (١) وذكرنا أن حكومة الولاية لاحقت هذا النشاط المشبوه .

وانشطت السياسة الاستعمارية الايطالية للتغلغل في طرابلس خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد تولى كرسي رئاسة الوزارة الإيطالية عام ١٨٨٧ . « فقد وضع كرسي فكرة تصميم النشاط الإيطالي لبث اللغة والثقافة الإيطالية في أقطار الشمال الأفريقي والشرق العربي منذ سنة ١٨٨٩ ولا سيما ليبيا (٢) » . ولجأت السياسة الاستعمارية الإيطالية للأسلوب التقليدي للتغلغل الاستعماري الذي اعتمدته الدول الأوروبية الاستعمارية جميعها ، والذي يعتمد على النفاذ من خلال التعاليم والتبشير والقيام ببعض الأعمال الخيرية . ويقوم على الربط بين التبشير والاستعمار . وهكذا أنشأت ايطاليا عدداً من المدارس الإيطالية وبعض المستشفيات وملاجيء الإيتام في أهم مدن الولاية وخاصة طرابلس وبنغازي ، وقد ذكرناها في فصل سابق . وتعاون

رجال السياسة الإيطالية مع بعثات التبشير المسيحية في طرابلس . وركزت المدارس الإيطالية على نشر اللغة والثقافة الإيطالية بين المواطنين وقد جاء في بيان وزير الخارجية الإيطالي عام ١٩١٠ في البرلمان عن نشاط ايطاليا الثقافية في طرابلس « أن لإيطاليا هناك عشر مدارس يدرس فيها ١٧٧٠ طالباً (١) » .

وحين تولى جوليتي رئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٨٩٢ أعطى اهتماماً خاصاً للتغلغل الإيطالي في طرابلس ووضع خطة لذلك تتلخص في إرسال بعض الخبراء العسكريين والسياسيين تحت أسماء مستعارة ، وتشجيع رؤوس الأموال الإيطالية للاستثمار في طرابلس ، والعمل على شراء الذمم وربط بعض العملاء . وقد قدم جوليتي مشروعاً إلى مجلس النواب الإيطالي يرمي إلى استثمار رؤوس الأموال الإيطالية في طرابلس ، وحصل على الموافقة .

وفي مدة وزارته الثانية (١٩٠٣ - ١٩٠٥) نشط جوليتي في بث الجواسيس والعيون في الولاية . فجهز قلم المخابرات الإيطالي مجموعة منهم تسلمت إلى طرابلس وانتشرت في مختلف مدن الولاية . وأرسل بعضا السياسيين من وزارة الخارجية برئاسة القنصل جالو Gallo ليوافوا الحكومة بتقارير مفصلة عن الأوضاع في البلاد ، وليحاولوا ربط بعض وجهاء البلاد بإيطاليا ، ويعملوا كل ما من شأنه أن يساعد على اتساع شقة الخلاف بين المواطنين وحكومة الولاية . وقد تحدث جوليتي في مذكراته عن نشاطه هذا ، وأشار إلى تعليماته القاضية بضرورة « الاستفادة من الخصومات والخلافات السياسية ومن تذر الزعماء المحليين من السلطات التركية » .

(١) المصري ص ١٧٨ .

(١) ملف محاكمة سراج الدين .

(٢) بلزمة ص ٣٦ .

كما كتب « أن تقارير قناصلنا لفتت انتباهنا إلى أنه لا يخلو بين الزعماء ذوى النفوذ من أظهر أنه موافق على التفاهم معنا ^(١) » .

وكانت الخطوة الهامة التالية التي اتخذتها السياسة الاستعمارية الإيطالية للتغلغل في طرابلس افتتاح فروع لبنك روما في مدن الولاية . وقد نفذها جوليتي بعد دراسة التقارير التي تقدمت بها بعثة القنصل « جالو » ، وكلف « جالو » بإدارة هذه الفروع . وتم تأسيس أول فرع في طرابلس عام ١٩٠٥ ، وقد أورد الزاوي « أن البابا اكتتب بالثلثين من مجموع رأس ماله . . . واخذ الطالبان منه مركزاً للدعاية وأسندوا إدارته إلى براشيانى » أحد ثعالب السياسة ومن أشد الناس تعصبا لجنسيته وعلى العرب ^(٢) . وتشعب نشاط البنك فكان سيلا لكسب العملاء وربطهم ومدهم بما يلزم من مال لتنفيذ خطط السياسة الإيطالية وكان يعمل لوضع البلاد تحت سيطرة إيطاليا اقتصاديا ، وباسمه كان يتحرك مبعوثو إيطاليا في طول البلاد وعرضها . وكان « براشيانى » - كما أورد الزاوي - « كثير التجول في البلاد الطرابلسية لبث الدعاية فيها والاطلاع على ميول السكان وكان يبذل المال من سعة في كل مناسبة ^(٣) » .

ترأيد نشاط إيطاليا الاقتصادى في الولاية بعد افتتاح فروع لبنك روما فيها . ومع أن الوالى رجب باشا بذل جهوداً كبيرة للوقوف في وجه هذا النشاط وعارض السماح بافتتاح فروع للبنك ، إلا أنه غلب على أمره بسبب تخاذل الباب العالى في استانبول وتأمر بعض ذوى النفوذ هناك مع الإيطاليين ومن هؤلاء حقى بك الذى تمكن الطالبان من التأثير عليه -

وهو يشغل منصب السفير في روما - ليتوسط لدى الباب العالى للتساهل مع بنك روما في شراء الأراضى في طرابلس . وقد فعل ودفع الحكومة في استانبول أن تطالب من حكومة الولاية أن تقبل بيع الأراضى الفراغ باسم المدير العام لبنك دى روما وعارض رجب بقوة ولكنه كان معرضاً لخذلان الحكومة المركزية له دوما .

وحاولت السياسة الإيطالية الحصول على امتيازات لشركات إيطالية لإنشاء بعض المرافق الهامة في الولاية وقد جابه الأهالى هذه المحاولة بمقاومة شديدة . وأعرب بعضهم في عريضة قدموها للوالى في ٢٧ كانون الثانى ١٣٢٤ عن تخوفهم من الأنباء الداعمة بأن الدولة منحت الإيطاليين امتيازات لتمديد سكك حديدية وإنشاء ميناء طرابلس وجاء في العريضة « يستفاد من الأخبار البرقية الصادرة عن روما وعمما تكتسبه الصحافة الأجنبية بأن امتيازاً لإنشاء ميناء طرابلس الغرب وتمديد السكك الحديدية في الدواخل منحت لشركة إيطالية ، وإن هذا الخبر أبدى صحته سفير الدولة العثمانية في روما . وبما أن الإيطاليين الذين يظنون أنه لا نصير لنا نواياهم تجاه هذه الولاية معلومة فإن منح مثل هذه المشاريع الهامة للشركات الإيطالية يسبب لنا في المستقبل كثيراً من المشاكل » . وطالبت العريضة بتأسيس شركات أهلية بالرأسمال المحلى لتنفيذ المشاريع الهامة . وتحذر من الاستعانة بالرأسمال الإيطالى على الخصوص والبنوك الإيطالية التى تقرض فقراء الناس بشروط مغرية لكى تستولى بالتدريج على أراضيهم الزراعية مستهدفة التوسع في التملك بولايتنا ^(١) .

وقد توسع النشاط الإيطالى الاقتصادى في الولاية على الرغم من مقاومة الأهالى وبعض الولاة المستنيرين . وكان مما إذاعه وزير الخارجية

(١) المتصر ص ٤٠

(٢) الزاوى ص ٧ والمتصر ص ٤١

(٣) الزاوى ص ٧

الاطالى الكونت « سان جوليانو » في بيانه في البرلمان سنة ١٩١٠ عن نشاط بنك دى روما في طرابلس « إن معاملاته التقديرة هناك بلغت ٣٤٤ مليون فرنسكا . كما أن موجود خزائنه . بلغ ٣٨ مليوناً ، وحساباته الجارية بلغت ٨١ مليوناً » (١) الليرة الذهبية كانت تعادل نحو ٢٣ فرنكا ورابع (٢) . وكانت السياسة الايطالية الاستعمارية تستهدف من هذا التوسع فضلا عن التغلغل الاستعماري اتخاذ مبرراً للبطالة باحتلال طرابلس أمام الدول الأوروبية الاستعمارية وفق منطق المصالح الذى ساد بينها . وقد أعلن وزير الخارجية الإطالى عام ١٩١٠ بعد ان عدد هذه المصالح أن حكومته مصممة على حيازتها بكل ما لديها من قوة .

واهتمت السياسة الإيطالية الإستعمارية بالجالية الإيطالية في طرابلس كنقطة ارتكاز لها . وكانت الجالية الإيطالية قليلة العدد إذا ما قورنت بمثيلتها في تونس ومصر . ولم يزد عدد افرادها قبل الغزو عن ١١٠٠ ايطالى كان في مدينة طرابلس منهم ٩٣٠ وفي بنغازى ١٢٠ و ٢٠ في الخمس ومثلهم في درنه و ١٠ في مصراته (٣) .

وكان عدد افرادها عام ١٨٠٠ حوالى ٦٠٠ نسمة ، ولم يزد العدد طيلة قرن بطوله إلا بضع مئات ، منهم من اكتسب الجنسية الإيطالية اكتساباً ، وجل هؤلاء من يهود طرابلس . وقد كان أفراد الجالية ينشطون في المجال التجارى ضمن اطار نشاط بنك دى روما الذى تعدى الاعمال المصرفية العادية إلى تعهد الشركات والتجارة بأنواعها . كما عمل بعضهم ضمن « جمعية المستعمرات الإيطالية التى كانت تتعاطى الإستيراد والتصدير » . وكان أشهر هؤلاء جونيوبيسى الذى يعمل بالاستيراد وميشيلى اخوان وكلاء للشركات . أما اليهود الذين تجسسوا ونشطوا في

التجارة فمن أشهرهم مؤسسات حسان ديفيس وناحوم ولانى وحنونه (١) . وقد لاحظ الحشاشى أن أكثر الأوربيين في مدينة طرابلس من الطليان ، وأن أوباش البلد . على حد تعبيره « لهم مخالطة مع الجنس الطليانى وغالبهم يتكلمون معه باللغة الايطالية » (٢) .

وعملت السياسة الإيطالية الاستعمارية على استكمال التمهيد لغزو طرابلس بتدبير حملات اعلامية واسعة استهدفت تهئية الرأى العام الايطالى خاصة والأوروبى عامة . وقد بذل جوليتى لتعبئة الصحافة من أجل هذا الغرض . فصارت الجرائد الايطالية تهتم بشؤون الولاية أكثر من اهتمام الجرائد التركية نفسها ، وحفلت بالمقالات والأبحاث عنها ، وبأخبار الجالية الإيطالية ونشاطاتها . ونظمت هذه الجرائد حملة تشهير بالشعب العربى في طرابلس وبالحكم العثمانى فيها ، وامتألت صفحاتها بدعايات كاذبة تردد الأسطوانة الأوربية نفسها الى ترددت قبل كل غزو أوروبى . فالولاية - على حد زعمهم - بلا قانون وليس فيها سلطة حاكمية ، والأهالى يقتلون الأجانب والإيطاليين طبعاً ، وهم متأخرون . واستغل جوليتى وجود بقايا لتجارة الرقيق فركز حملة على بركة حيث لا تزال تمارس تجارة الرقيق في بنغازى . ومن المستحيل السكوت على بقاء وصمة مثل هذه على أبواب أوروبا . وبالغت الصحف في وصف تجارة الرقيق ووسعت نطاقها وشطط بها الخيال فألفت القصص عن الرقيق والحريم . وشوهت صورة التسامح الرائعة التى اعترف بها الرحالة الأجانب انفسهم وعكسها فانهمم العرب بأنهم ممنوعون المسيحيين من ممارسة شعائرهم الدينية . وهكذا حتى وصلت الحملات إلى الحديث عن الخطر الذى يهدد مصالح

(١) كاكيا ص ١١٣ .

(٢) الحشاشى ص ٦٨ .

(١) المصرى ص ١٧٨ . (٢) كاكيا ص ١١٣ .

إيطاليا الاقتصادية والجالية الإيطالية . وأكد جوليتي هذا الحديث في مذكراته وأشار إلى تلك الحملات الصحفية مغفلاً بالطبع الإشارة إلى دوره في تدبيرها، فكتب باللغة الإستعمارية «إن الاعتبار العام لمصالحنا في إفريقيا البحر الأبيض المتوسط ، بالإضافة إلى الأنباء التي تفيد أن تلك المصالح أصبحت في خطر ، والخطر هنا ليس على المصالح الاقتصادية فحسب بل إنه يتناول حتى هيبتنا وكرامتنا الوطنية ، وكانت من العوامل التي أدت إلى قيام حملة حقيقية في قسم كبير من صحافتنا طالبت فيها بتصفية القضية الليبية بدون تردد . وكانت تلك الحملة برضاء وتأييد الرأي العام^(١) . وقد أثرت هذه الحملات الإعلامية في الرأي العام الإيطالي وأوجدت مشاعر مسعورة مفعمة بالروح الاستعمارية الصليبية عبر عنها ماجاه في نشيد إيطالي تردد مع الغزو على لسان الجنود الإيطاليين الغزاة مخاطبون فيه أمهاتهم « أماه صلي ولا تبكي - بل إضحكي وتأملي . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني . وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الآمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التي تميز النبات الابكار للسلطان . سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا حقاً ، تحمسي أيتها الوالدة . وإن سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبه أنه مات في محاربة الإسلام^(٢) » .

وحين عاد جوليتي إلى الوزارة في مارس ١٩١١ وجه جهوده لما أسماه « تصفية القضية الليبية » . وأشار إلى موضوع احتلال طرابلس في النقطة الثالثة من بيانه الوزاري ، ولكنه أصر على أن تبقى تلك النقطة في سرية تامة «لأن السرية عامل ضروري لتصفية المسألة على الوجه المطلوب» . وقد سجل في مذكراته أنه عمل على تهئية الظروف محلياً خلال وزاراته

السابقة للاحتلال ، وأنه عندما شكل وزارته الرابعة لمس اتفاقاً في الرأي بينه وبين «سان جوليانو» وزير الخارجية «على أن توضع مسألة ليبيا بالنظر» .

وبدأ جوليتي إعداد التجهيزات والمخططات العسكرية اللازمة للغزو . فسكف الجنرال بوليو Pollio رئيس أركان الجيش الإيطالي بوضع الدراسة اللازمة للقيام بالحملة بغية احتلال طرابلس والتوغل في جميع أنحاءها ، وأوصاه « بأن لا يبخل في تقديراته وأن يتوسع فيها » . وكان تطلع جوليتي كما كتب في مذكراته «أن تتم عملياتنا بقوات متفوقة بشكل ساحق لا يترك منذ البداية أي شك في النتيجة ، لأن ذلك سيكون عاملاً حاسماً وأساسياً في استسلام السكان المحليين والأترك للأمر الواقع الذي لا مفر منه » . ومن أجل ذلك طلب جوليتي من بوليو أن يضاعف عدد الجند اللازم حسب تقديره للاحتلال زيادة في الاحتياط . وكان بوليو قد قدر الحاجة إلى ٢٢ ألفاً فأصبح العدد ٤١ ألفاً ، منهم ٣٥ ألف جندي ، ٦ آلاف خيالة مزودين بـ ١٠٣ مدفعاً و ٨٠٠ سيارة نقل و ٤ طيارات وزيد عدد الجنود تدريجياً أثناء المعارك بعد ذلك إلى أن بلغ ٨٠ ألف جندي^(١) .

وكان آخر جهود جوليتي في استكمال التمهيد للغزو إجراء الاتصالات الدبلوماسية اللازمة في أوروبا لوضع الاتفاقات التي أبرمتها إيطاليا معها موضع التنفيذ . وكان الجو الأوروبي عام ١٩١١ ملائماً لذلك . ففرنسا اقترنت من مساوماتها مع ألمانيا حول مراكش ، وقد باشرت احتلال المدن المراكشية . كما أن أسبانيا شرعت في احتلال منطقة الريف .

وهكذا بادر « جوليتى » بإرسال تعليقات دقيقة إلى جميع سفرائه في الدول الأوروبية الكبرى يأمرهم بأعلام الدول المعتمدين لديها بقرار إيطاليا النهائي باحتلال طرابلس . ووضح لهم حججها في ذلك ، وهى الحجج المعهودة التى كان يتذرع بها الاستعمار الغربى لاحتلال بلاد آسيا وأفريقيا ، وكان أهم هذه الحجج أن الى طرابلس يمتن فى إهانة والحق الأذى بالرعايا الإيطاليين ، وأن الحكومة العثمانية تعرقل أعمال بنك دى روما ، وأن العرب يضطهدون الأوروبيين عامة والإيطاليين خاصة ، وأنهم يضطهدون رجال الدين المسيحيين . وأن الحكومة العثمانية تتجاهل شكوى وإحتجاجات إيطاليا .

وتلقى جوليتى تقارير السفراء طوال الشهرين اللذين سبقا توجيه الإنذار الإيطالى للدولة العثمانية ، وكانت جلها وفق ما يتمناه . فقد أعلم وزير الخارجية البريطانية السير إدوارد جراى Grey السفير الإيطالى فى لندن « امبرالى » أن انجلترا سوف لن تقوم بأى عمل مضاد ، وليس هذا غسب بل ستمنح إيطاليا تأييدها العاطفى ، ولكن معنوياً غسب . وكان جواب وزير الخارجية الفرنسى دى سيلفى Deselves للسفير الإيطالى فى باريس تبتون « فيما يتعلق بالخطوة التى ستتخذها حكومتكم فى طرابلس يمكنكم اعتبار الحكومة الفرنسية إلى جانبكم بدون قيد أو شرط . » كما وافقت روسيا على الخطوة . وكان وراء موافقة هذه الدول الثلاث فضلا عن الإلتزام بالاتفاقيات المبرمة مع إيطاليا « رغبة خفية فى التشنى من حكومة الشباب التركى التى ارتقت فى إحضان الألمان » كما لاحظ جوليتى فى مذكراته ثم وافقت النمسا وبعث اهرينثال وزير خارجيتها رد حكومته الرسمى الذى يتضمن « الأسف لترك إيطاليا الصعيد الدبلوماسى للوصول إلى تسوية مشاكلها مع تركيا ، ولكنها تعتبر إيطاليا صديقة

وحليفة ولذلك تعترف بحقوقها ومصالحها فى ليبيا وتطلق لها حرية التصرف بالطريقة التى تراها للدفاع عن تلك الحقوق ولحماية تلك المصالح . وكانت ألمانيا أكثر الدول الأوروبية تحفظاً وحفاظاً على مصالحها مع الدولة العثمانية ، ولكنها لم تلبث أن خذلت حليفها تركيا بموقفها السلبي (١) .

ولم يبت جوليتى أن أقدم على توجيه إنذاره إلى الباب العالى يوم ٢٦ / ٩ / ١٩١١ يعلمه فيه بأن إيطاليا قررت احتلال طرابلس الغرب ، وباشرت إيطاليا الغزو يوم ٤ / ١٠ / ١٩١١ .

وهكذا تبلور الخطر الأوروبى الذى خيم على طرابلس طيلة ثلاثين عاما فى غزوة استعمارية قامت بها إيطاليا ووقع على سكان الولاية العب الأكبر فى مواجهتها بسبب نخال الدولة العثمانية وعجزها .

وبدأ فصل آخر فى تاريخ طرابلس الغرب حافل ببطولات الشعب وبخاوى الاستعمار الأوروبى .

وكان احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ حافزاً كبيراً للتحرك الشعبي في طرابلس . فقد شعر الأهالي بالخطر الأوربي على مقربة منهم، ورأوا ماعاناه اشقاؤهم عرب تونس فتجاوبوا معهم في محنتهم وصدرت عنهم ردود فعل غاضبة للتحدى الغربى - كما سبق أن ذكرنا - وطالبوا الباب العالى بتحسين الولاية وبد يد العون لعرب تونس^(١).

ولم يلبث أن جاء احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ حافزاً جديداً للتحرك الشعبى في طرابلس . فقد أصبح الخطر الأوروبى محدقاً بها من الشرق والغرب . وسرعان ماظهرت في طرابلس استجابة واضحة للتحدى الغربى المتزايد .

ففي تلك الفترة قامت أول تجربة تنظيمية واعية في البلاد . ومع أنها لم تعمر طويلا في ظل الإستبداد الحميدى إلا أنها تركت آثارها الواضحة في الولاية وبين الأهالى ويمكن اعتبار هذا التحرك بداية اليقظة العربية الحديثة في طرابلس ، وهو وثيق الصلة - كما سنرى - باليقظة العربية الحديثة في الأجزاء العربية الأخرى .

ولا بد أن نشير في مستهل حديثنا عن هذه التجربة التنظيمية أننا نخوض غمار موضوع لايزال مجهولا في كثير من جوانبه . فمؤرخو تلك الفترة لم يتعرضوا له ولم يثيروا له مجرد الإشارة . ولعل الإشارة الوحيدة إليه هي إشارة حديثة أوردها السيد على مصطفى المصراتى في مقدمته لكتاب « نفحات النسرين » لأحمد النائب ، حيث أشار لإشارات قليلة إلى قصة نقي أحمد النائب بعد إتهامه في قضية إبراهيم سراج الدين^(٢) . ولقد

الفصل التاسع

اليقظة والنضال الشعبى

بين ١٨٨٢ - ١٩١١

شهدت طرابلس الغرب خلال فترة هذه الدراسة تحركاً شعبياً قوياً في مواجهة الخطر الأوروبى المتزايد ، وفي مواجهة الواقع الفاسد الذى كانت الدولة العثمانية تعاني منه . وبرزت في هذا التحرك حركة واعية تحددت ملامحها وأهدافها .

وقد عرفت طرابلس التحرك الشعبى في الفترة التى سبقت . فبرز هذا التحرك في العهد العثمانى الأول وفي العهد القره مانلى وفي النصف الأول من العهد العثمانى الثانى ، واتخذ دوماً صورة انتفاضات شعبية على السلطة وظلم الحكام . وكان من اكبر هذه الانتفاضات في العهد العثمانى الثانى حركة سيف النصر في فزان وحركة غومة في الجبل الغربى . كما ظهرت في برقة في ذلك العهد الحركة السنوسية كحركة اصلاح اسلامى .

وإذا كان التحرك الجديد امتداداً لتلك التحركات فإنه في الوقت نفسه حقق قفزة نوعية في صورتها ومضمونها . فاتخذ شكلاً أكثر تنظيماً وعرفت البلاد لأول مرة قيام تجربة تنظيمية - لم يقدر لها أن تعمر طويلا . وتبنت هذه التجربة أهدافاً واضحة محددة تصف بالوعى والطموح . وتلاققت في اهدافها وتطلعاتها مع التحركات الشعبية التى ظهرت في أجزاء أخرى من الوطن العربى - وفي مقدمتها مصر - والتي كونت في مجموعها تيار اليقظة العربية الحديثة .

(١) تراجع الفصل الثانى من الكتاب

(٢) على مصطفى المصراتى نفحات النسرين والريخان لأحمد النائب المقدمة ص ٨

أغفل أحد النائب الحديث عن هذا الموضوع في كتابه « المهل العذب » مع أنه أفرد جزءاً طويلاً لولاية أحمد راسم . ونستطيع أن نفهم سبب هذا الإغفال إذا تذكرنا أن النائب نفي من طرابلس بسبب هذه التجربة وهو رئيس بلدية المدينة ، وألف كتابه وطبعه في استانبول إبان الحكم الحميدى^(١) . كذلك لم يتعرض الرحالة الأجانب الذين زاروا طرابلس وكتبوا عنها في تلك الفترة لهذا الموضوع الذى لم يكن من السهل على الزائر الأجنبي أن يحثك به لاتصاله بالنضال الشعبي ضده . ويمكننا أن نلاحظ على جميع ما كتبه الرحالة أنه كان مقتصرأ على الملاحظة الخارجية السريعة فى غالب الأحيان . ومع أن ذكرى هذا الموضوع بقيت حية بين الأهالى ولا يزال بعض المعمرين يذكرون روايات عنه إلى يومنا هذا ، إلا أنه لم يحدث أن جرت محاولة تاريخية وتسليط الأضواء عليه .

لقد عدنا لجمع حقائق هذا الموضوع إلى وثائق دار المحفوظات التاريخية بطرابلس كمصدر رئيس . وهى تضم مجموعة وثائق - لم ترتب بعد - تتضمن التحقيقات التى جرت بشأن هذه التجربة التنظيمية وأهم هذه الوثائق تقرير المستنطق الذى أجرى التحقيقات ، وهو بعنوان « مستنطق عربى العبارة قرار نامه سنك أصلى وعينى » وتتألف الوثيقة من ٣٤ صفحة قطع كبير باللغة العربية مؤرخة فى ١٥ شوال ١٣٠٠ هـ . ٦ أغسطس ١٢٩٩ مالية الموافق لعام ١٨٨٣ م . وهى بتوقيع معاون مستنطق « محمد الطيب المرابط » والمستنطق « عبده خليل دربيكه » . كما استعنا بروايات بعض المعمرين فى هذا الشأن الذين لا يزالون يذكرون بعض حوادث هذه القضية .

يتضح من الوثائق والروايات أن بداية هذه الحركة كانت فى مستهل ولاية أحمد راسم بعد احتلال بريطانيا لمصر ، حين التقى مجموعة شباب فى طرابلس يقدر عددهم بحوالى العشرة ، وأسسوا جمعية سرية واستأجروا

(١) ذكر على مصطفى المصراتى أن الرقابة حذفت فصولاً كثيرة من الكتاب تتعلق بأحداث العرب وذلك نقلاً عن أحد أصدقاء المؤلف

مكناً يلتقون فيه هو « قهوة مصطفى آغا الأضرولى السكائنة خارج سور البلدة - قرب شارع ميزران - وأخذوها قرائنة » ونظموا لجمعيتهم قانوناً ونظماً داخلياً للجيش العسكرى فيها . ويوضح قانون الجمعية الذى أطلقوا عليه تستراً اسم « فرائد ونصائح خيرية » أفكار الجمعية وأساليبها فى العمل . وهو يضم عشرين فائدة تشرح أيضاً أهدافها وتقاليدها ومثلها .

فن أهداف الجمعية مراقبة الخطر الأوروبى ، فالفائدة العاشرة تنص « يجب على كل عضو من أعضاء الجمعية أن يعلم كل من له طمع فى بلادنا ولا سيما تصرفات الجمهورية الفرنسية فى تونس والجزائر » . ومن أهدافها إصلاح أوضاع الولاية بتعميم التعليم والإرتفاع بمستوى قبائل البادية وسكان الدواخل عموماً . وقد أوضحت الفائدة الرابعة عشرة أنه « لا يتم حسن حال الوطن إلا بعد إصلاح المسكاتب الأهلية وإدخال كافة أطفال الأهالى فيها بالطريقة الجبرية كما هو جارى فى فرانسة وغيرها وكذلك لا يتم حسن حالة إلا بإنشاء مدارس عالية كالمدارس الطبية والعسكرية والهندسية والإدارية ، فلذلك يجب على الجمعية ان تسعى فى ذلك وفى إنشاء مدرسة عمومية للصنائع على اختلاف أنواعها » . ونصت الفائدة السابعة أنه « ينبغى لأعضاء الجمعية أن يعتبروا قبائل البادية بمنزلة جمعيات ضلت عن الطريق المقصود فلذلك يجب إرشادها وإدخال بعض إصلاحات وتعديلات فى قانون ارتباطها بالحكم » . وأكدت الفائدة الثامنة ضرورة التركيز على النشاط فى داخل البلاد . كما استهدفت الجمعية مراقبة نشاط الأقليات وتوجيهه لصالح البلاد ، ونصت الفائدة الثانية عشر أنه « يجب على الجمعية أن تسعى فى السياسة والسكياسة إلى أن ترى أموال اليهود والنصارى برأى محبى الوطن فى الأعمال النافعة .

ومن تقاليد الجمعية الاحتفال بدخول العضو الجديد — كما نصت الفائدة الأولى — « لينبه أعضاء الجمعية في ليلة الاحتفال أنفسهم به ويتناحون بينهم ». والسؤال عن العضو إذا غاب أكثر من يومين ، وعيادته إذا مرض ، ومساعدته إذا أصابته ملة — كما جاء في الفائدة الثانية — وتوضح الفائدة الخامسة عشرة سرية القانون الداخلي وضرورة حلف العضو على السكتمان والسير بمقتضاه .

ومن مثل الجمعية ما تضمنته الفائدة السادسة عشرة من أنه « يجب على كل عضو من أعضاء الجمعية أن يظهر لإخوانه تمام الغيرة على وطنه ودينه وجنسه ولغته ، وعلى نساء المسلمين وأطفالهم وأموالهم وعوائلهم وشرفهم الذي عبث به الزمان ، وإظهاره تمام الغيرة على كل ما ذكر يكون في أقواله وأفعاله لأجل تنشيط لإخوانه إلى المسارعة في فعل الخيرات ». وتتجلى القيم الروحية في هذه المثل. وقد نصت المادة السابعة عشرة أنه « يجب على كل عضو من أعضاء الجمعية أن يعتقد أن قيامه بهذه الفوائد والنصائح انتصار لله الذي تعطلت أحكامه واستقل كلامه . وكذلك يجب عليه أن يعتقد أن من لم يقم بها يبوء بخزي الدنيا وعذاب الآخرة السرمدي »

وشرح قانون الجمعية أساليب التحرك وحدد أبعاده . فهناك نشاط يومي يقوم به العضو - فعلى العضو - كما نصت الفائدة الثالثة - « أن يأتي كل ليلة بخبر داخلي أو خارجي يلقبه على إخوانه عند اجتماعه » بغية العيش في جو الأحداث وتحليلها وتنمية الوعي السياسي . واتجهت الجمعية بنشاطها إلى مختلف طوائف المجتمع لنشر الوعي بين صفوفها وربطها ، وألزمت نفسها — كما جاء في الفائدة الرابعة - « أن تعزم بعض رؤساء طائفة من الطوائف ولو في كل أسبوع مرة ، وفي ليلة العزومة يلقى كل واحد خطاباً في فضل تلك الطائفة ولوازم انتباهها وتقديمها ومساعدة

الجمعيات الوطنية لها حتى يحصل بذلك التشبه لأرباب الحرف والصناعات . وتطلعت الجمعية إلى ربط قيادات الدواخل بها ، وجاء في الفائدة الثانية عشرة أنه « يجب على الجمعية أن تحتفل بكل عزيز قوم من أهل الدواخل كالنوارق والسودان وما أشبههما لأجل أن تحصل المودة والارتباط المطلوب ». كما تطلعت إلى إقامة علاقات طيبة مع بعض الأجانب الذين توافق مصالحهم مصلحة الجمعية . وقد نصت الفائدة الحادية عشرة أنه « يجب على الجمعية إكرام بعض الأجانب التي توافق مصالحهم مصالحنا بحيث ينبغي لها أن تتخذ أصدقاء في أوروبا وغيرها تراسلهم ويراسلونها ». وجعل القانون من أساليب ربط الناس بالجمعية أن تنسب الجمعية كافة مساعيها الخيرية لمن تختاره من رؤساء البلاد — كما جاء في الفائدة الخامسة — « لتحصل على مساعدته لها وسعيه في نجاحها » ، ولتبرز القيادات التي تراها مناسبة .

وتطلعت الجمعية إلى الانتشار وأكد القانون ضرورة بذل الجهد لتحقيقه . فنصت الفائدة السادسة أنه « يجب على الجمعية أن تستسهل كل صعب حتى تسكر الجمعيات في البلاد بحيث تجعل غرضها المقصود تكثير جمعيات الوطن . فإذا كثرت الجمعيات وحصلت المناظرة والمسابقة بينها إلى فعل الخير تكون قد وصلت إلى الدرجة المقصودة التي لا صعوبة بعدها ». كما أهتم القانون بالنص على ضرورة تنقيف الأعضاء ومتابعة الجرائد « فهي التي تحرك الدول وتسكنها فيجب عليها مطالعتها ومراجعتها في الأمور التي تجب المراجعة فيها ». وتتابع الفائدة الثامنة عشرة القول « وحيث كانت ولاية طرابلس خالية من الجرائد فيجب عليهم (الأعضاء) أن يعتبروا جرائد الآسنة بمنزلة جرائد الوطنية فينشرون فيها ما أرادوا بما في نشره النفع العمومي » .

ولم يتضمن قانون الجمعية أى عداء ظاهر مباشر للسلطة ، بل حرص على عدم التصادم معها . ونصت الفائدة العشرون - آخر فوائده - أنه « يجب على كل عضو من أعضاء الجمعية أن يدعو دائماً للحضرة الشاهانية بالتوفيق ودوام العز والإقبال » .

وضعت الجمعية جناحاً عسكرياً يختص بضباط الجيش العثماني الموجودين في الولاية . ووضعت له نظاماً من سبع مواد باسم « نظامنامه عسكرية » . وقد حددت المادة الأولى الغرض الملحق من تنظيم هذا الجناح العسكري ونفسها « لما كان وجود الضباط الكرام في مدينة طرابلس بكثرة ، وكان انتشارهم في اطرافها من غير شغل مما يستدعى دقة النظر خوفاً من وقوع نظير ما وقع غير مرة من المحدث ، ناسب أن تخصص مجامع يجتمعون فيها في سائر الأوقات لمطالعة بعض الجرائد الحربية والمذاكرة في فنونهم التي يجب المذاكرة فيها » . ويتضح من النص أن الضباط كانوا يعانون فراغاً ، وهو يشير إلى محذور وقع غير مرة بسبب هذا الفراغ دون أن يحدد ماهيته . ويحدد النص طريقة التنظيم وفق مجامع هي بمثابة خلايا . ويعين لكل مجمع - كما نصت المادة الثالثة - « رئيس ونائب رئيس وكاتب وأمين صندوق » . وهذا التعيين إما أن يكون بالقرعة أو بالانتخاب والحكم للأغلبية » .

واستهدف التنظيم رفع السوية العملية للضباط والعناية بثقافتهم العسكرية ، وقد جاء في المادة السادسة « تقسم الفنون الحربية التي يجب المذاكرة فيها إلى مسائل مثمرة . وفي كل خمسة عشر يوماً يقترح الضباط على تلك المسائل فكل مسألة تطلع لضابط يجب عليه مراجعتها وإلقائها قبل مضي خمسة عشر يوماً على أخوانه في وقت اجتماع أكثرهم اجتماعاً

معيناً » . وحددت المادة الرابعة كيفية الاشتراك وأوقات الاجتماع كما حددت المادة الثانية قيمة الاشتراك الذي يخصص جانب من حصيلته لشراء الجرائد الحربية . وحظرت المادة السابعة الخوض في المباحثات الخصوصية والمسائل الشخصية خلال اللقاء في المجمع « فإنها السبب الداعي إلى الملل وفساد الجمعيات » ومن الواجب أن تكون المذاكرة في المجمع على مسائل عليية وأمور عمومية .

أما نظام الجمعية الداخلي فقد أعد في صورة تعليمات محررة ضمن سبع مواد . حددت المادة الأولى رسم الدخول في القرائنخانه - وهو مائة قرش - وقيمة الاشتراك الشهري الذي تخصص حصيلته « لشراء الجرائد الحربية والعالية وبعض كتب مفيدة ، ولشراء أوراق وظروف وجبر وأقلام تكون مباحة لكل من يريد الكتابة ، ولشراء القاموس السنوى المسمى خمسمائة ألف عنوان » . ونظمت المادة الثانية قبول الأعضاء وكيفية الصرف . ونصت المادة الثالثة أن « الاجتماع في القرائنخانه يكون في الليل والنهار . أما في الليل فلقرأة بعض الكتب المفيدة لاسيما كتب الجغرافيا والتواريخ والنظامات العدلية ، وأما في النهار فلطالعة الجرائد » . وحظرت المادة الرابعة التكلم في أشياء خصوصية « لا يلائمها في الغالب غير صاحبها » وهي السبب الداعي إلى الملل وفساد الجمعيات . ونصت المادة الخامسة أنه « يعين للقرائنخانه بالقرعة أو بانتخاب الأكثر رئيساً وكاتباً وأمين صندوق ومدة كل منهم ثلاثة أشهر ثم يجدد الانتخاب . ومن وظائف الرئيس المحافظة على القانون وضبط المحاسبة » . أما المادة السادسة فنظمت دخول الضيوف الذين يرافقون الأعضاء . وحددت المادة السابعة طريقة تعديل مواد النظام^(١) .

(١) دار المحفوظات بمجموعة أوراق التحقيقات: النص السكادل للقانون والنظامين في المبحث

تلك هي صورة الجمعية السرية كما تبدو من خلال قانونها ونظامها . وقد قام بتأسيسها مجموعة شباب استجابة لتحدي الخطر الأوربي ولفساد الأوضاع . وكان أبرز عناصر هذه المجموعة ثلاثة هم أحمد النائب وحمزة المدني وإبراهيم سراج الدين .

فأما أحمد حسين النائب فكان آنذاك رئيس بلدية مدينة طرابلس ، ومن أبرز مثقفيها . وقد ولد عام ١٢٥٦ هـ - ١٧٤٠ م في بيت كريم بطرابلس ودرس فيها . ويقول المصراي في ترجمته له أنه « درس على مناهج حلقات الدراسة المعروفة ، وطوف في بلاد الشرق . وبجانب لغة بلاده العربية أجاد التركية والفارسية . وأخذ ينهل من آداب اللغة العربية وتواريخها الزاخرة ، وكانت تصله جرائد ومجلات الشرق العربي واسطامبول... »^(١) وتدرج أحمد النائب في الوظائف حتى أصبح رئيساً للبلدية . وكان معنياً بطبيعته وبحكم مركزه بالقضايا العامة . وقد تابع عن كثب إحتلال فرنسا لتونس ، وسافر بمهمة رسمية إلى تونس بعد الإحتلال - كما سبق أن ذكرنا - وهناك حدث أول لقاء بينه وبين إبراهيم سراج الدين الذي كان بتونس وقتذاك فكان ذلك اللقاء بداية تعارفهما . وكان مهتماً بنشر العلم والمعرفة في الولاية . وقامت بينه وبين الوالي أحمد راسم عند قدومه إلى طرابلس صلات طيبة . وقد اشتهر بكتابة « المنهل العذب » الذي ألفه في فترة لاحقة عن تاريخ طرابلس .

وأما الشيخ حمزة ظافر المدني فكان من رجال العلم المعروفين في طرابلس ، ومن أسرة المدني المشهورة بالعلم . وكان قائماً على زاوية الأسرة

في البلدة القديمة وعلى المدرسة التابعة لها . وقد ربطته بأحمد النائب صلة قرابة عن طريق المصاهرة بين أسرتهما ، كانت بينهما وشائج صداقة . وكان والده الشيخ ظافر المدني من المقررين للسلطان عبد الحميد في استامبول . وقد جاءت الأسرة إلى طرابلس من المدينة المنورة وبقيت لها في المدينة زاوية^(٢) . وكان الشيخ حمزة من المهمتين بالقضايا العامة في الولاية .

وأما إبراهيم سراج الدين فكان حديث العهد بطرابلس . فهو - كما يتضح من أوراق التحقيق - من أهالي المدينة المنورة ، ولدها سنة ١٢٧٢ هـ وحرفته طلب العلم . وقد خرج من المدينة لاستحصال العلم من مدة عشر سنين سابقة إلى مكة المكرمة ، ومنها توجه إلى مصر والهند وتونس والجزائر لبيع الكتب فتأهل بها (يعني الجزائر) ثم طلق الزوجة حين اضطر للخروج من الجزائر . وقد جاء على لسانه في التحقيق « أن الحكومة الجزائرية شككت في أمره فطلبت منه الخروج ثم أعطته رخصة السفر إلى مصر وشرطت عليه أن لا يدخل تونس والمغرب الأقصى . وأنه أتى تونس في مدة حادثة جبل خمير ، ثم سافر منها إلى مصر فأنخذ فيها مطبعة وأنشأ جريدة سماها الحجاز ثم ألغيت فاستخدم في ديوان المعارف . ثم في أيام الواقعة بها (يعني إحتلال الإنجليز لمصر) خرج منها برآ إلى بنى غازى فأقام فيها نحو شهرين في دار رئيس بلديتها الحاج أحمد أفندى المهدي . ثم قدم منها بجرأ إلى هذا الطرف نفس طرابلس الغرب فنزل عند قريبه الشيخ حمزة أفندى ظافر . وفي بنى غازى اجتمع بقنصل الأتاليا وقنصل الإنكليز المقيمين بها فأعطاه قنصل إيطاليا مكتوب توصية وثناء عليه إلى قنصل إيطاليا بطرابلس الغرب . ولما وصلها أرى المكتوب إلى الشيخ حمزة المسمى إليه . فاستجلب من قرأه ثم أرسله إلى القنصل المسمى إليه^(٣) .

(١) أרך أحد النائب في المنهل لعدد من أسرة المدني . وأغفل الطاهر الزواي في « اعلام ليبيا » ترجمة الشيخ حمزة المدني وأحمد النائب ، مع أنه رجع إلى المنهل في كثير من ترجمات الأعلام الذين أوردتهم .

(٢) ص ٣ و ٤ من تقرير المنتطق .

(١) على مصطفى المصراي نجات السنين المقدمة ص ٦ .

كان ابراهيم سراج الدين هو مفكر هذه التجربة التنظيمية «ومنظما» ولذا فإنه يهمننا أن نتعرف عليه. وقد وصل طرابلس - كما يتضح من هذا الموجز لتاريخه - بعد أن ساح في بلاد عدة واكتسب خبرات كثيرة على الرغم من صغر سنة . . وليس لدينا إلا إشارات قليلة عن تاريخه قبل قدومه إلى طرابلس وردت في ثنايا التحقيق ، وخاصة في رسالة منسوبة إليه موجهة إلى قنصل إيطاليا بطرابلس . ويمكننا من موجز تاريخه ومن هذه الإشارات أن نستنتج أنه من المدينة المنورة ، وقد نشأ فيها على طلب العلم واسم والده عبد القادر سراج الدين . ولم يلبث أن غادر موطنه وهو في أول طفولته لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، في سياحة طويلة يبدو أنه بدأها بمكة ومنها توجه إلى مصر والهند . وقد ورد في الرسالة المنسوبة إليه على لسانه «وصلت الهند وتجولت في جميع أطرافه وتعارفت بفضلته وعلمائه وامرائه وبنى وبين كثيرين منهم مراسلات إلى هذا الوقت » . ثم اتجه إلى تونس والجزائر ، ولا تحدد المعلومات التي بين أيدينا الطريق التي سلكها إليهما كما لا تحدد المدة التي أمضاها في الهند . وقد ورد في الرسالة على لسانه بشأن إقامته في الجزائر «وأما مدة لإقامتي في الجزائر فهي خمس سنوات كنت اتردد فيها على تونس . وكانت لي فيهما دكاكين وكلاء لبيع الكتب . وكنت أرغب الناس في مطالعة الجرائد وأسعى في تربيها لهم ولو من دراهمي الخاصة . ولما عزمت على السفر من الجزائر كان عندي أكثر من خمسة آلاف مكتوب وارادة إلى من اطراف الجزائر ومن تونس . ثم إنني ارسلت كل ما عندي وطلبت من الحكومة التسريح . وبعد أيام هجمت الحكومة على محلي فلم تجد فيه سوى بقاج السفر . واستكتبت نحو مائة شخص ممن يعرفني في أحوالي فاتفقوا جميعاً على مدحى ففجبت . واتفق بعض رجال الحكومة على أني بالتحقيق رسول من طرف البرنس دو بسمارك أقيم لاستمالة رؤوس

العرب لبعض أمور . فلولاً وقوف بعض الأفاضل للدفاع عنى لهلكت . ولما خرج تسريحى رأيت مكتوباً فيه يجب ألا أعود إلى الجزائر مرة أخرى . ثم أمرتنى الحكومة أن لا أدخل الغرب الأقصى مملكة مراکش ولا تونس وكان ذلك قبل أخذها . »

يتضح من هذا الحديث أن إقامة ابراهيم سراج الدين في الجزائر امتدت خمس سنوات كان يعمل خلالها في تجارة الكتب . وكان في بداية العقد الثالث من عمره مهتماً بالفكر ونشر الثقافة ، فهو يرغب الناس في مطالعة الجرائد ويسعى في تربيتها ولو من دراهمه الخاصة . ويبدو أنه تعرف أثناء إقامته على أوضاع البلاد وتفاعل مع الكثيرين من أبناء الجزائر وتونس فاتخذ موقفاً معادياً للإستعمار الفرنسى فيها . كما أنه تزوج خلال تلك الفترة من أهل البلاد ورزق بولد خلفه وراه طفلاً عند خروجه . ولم تلبث السلطات الإستعمارية أن لاحظت نشاطاته المعادية لها فداهمت محله وحققت معه ومع معارفه . وقد شككت بأنه على صلة بالمانيا وأنه رسول من طرف بسمارك لاستمالة العرب . وحين أخرجه السلطات الفرنسية اشترطت عليه عدم الذهاب إلى المغرب أو الإقامة في تونس ، وكلا القطرين كانا ضمن مطامع فرنسا الاستعمارية في شمال أفريقيا .

ويبدو أن إقامة ابراهيم سراج الدين لم تطل في تونس ، وأنها كانت قبل الإحتلال الفرنسى بفترة قصيرة . ونستدل من المعلومات القليلة التي وردت في التحقيقات أن بداية الإحتلال حدثت وهو هناك . وفي تلك الأثناء التقى بأحمد النائب رئيس بلدية طرابلس الذى قدم إلى تونس بمهمة - كما سبق أن ذكرنا - لحدث التعارف بينهما .

وغادر سراج الدين تونس إلى مصر في النصف الثانى من عام ١٨٨١ . فاتخذ فيها مطبعة وعمل في إحدى الجرائد . وقد جاء في الرسالة المنسوبة

إليه على لسانه « ولما ذهبت إلى مصر وأنشئت الجريدة المسماة الحجاز تكلت فيها على فرنسا . ولما تعطلت الجريدة هنت جرائد فرنسا نفسها بتعطيلها . وقالت جريدة الديار قد جعل صاحب هذه الجريدة القرض المقصود من جريدته تكريره قلوب الشرقيين في فرنسا وقد تم له مراده على وجه الكمال » . ولم نعتز على جريدة باسم الحجاز صدرت في مصر وقتذاك ، عند مراجعتنا مجموعات الصحف في دار الكتب الوطنية بمصر . وقد ورد في التحقيقات أنه عمل محرراً في جريدة القسطنطينية التي كانت تصدر في تلك الفترة بالفعل . وربما حدث خلط بين الاسمين . ثم عمل سراج الدين بعد إغلاق الجريدة مستخدماً في ديوان المعارف لفترة قصيرة .

وغادر إبراهيم سراج الدين محروسة مصر عقب الاحتلال الإنجليزي « وخرج منها براً إلى بني غازي فأقام فيها شهرين في دار رئيس بلديتها الحاج أحمد أفندي المهدوي » . وكان المهدوي من شخصيات البلاد البارزة ، ولا بد أن يكون سراج الدين قد أقام معه علاقة خلال مدة إقامته ، وليس لدينا أية معلومات عن طبيعة نشاطه في بنغازي إلا ما أورده أحد أعضاء الجمعية في التحقيق على لسان سراج الدين من أنه قال لهم إنه « ذهب بني غازي واجتمع بأناسها ، وأنهم في دائم الأوقات متفقين الكلمة وأنه ممنون منهم غاية » . وما ورد في التحقيق عن اتصاله بقتلى إيطاليا وبريطانيا في بنغازي وأخذه رسالة توصية من قنصل إيطاليا إلى زميله قنصل إيطاليا بطرابلس .

ووصل إبراهيم سراج الدين مدينة طرابلس الغرب في مستهل ولاية أحمد راسم أوائل عام ١٨٨٣ أو في نهاية عام ١٨٨٢ . ونزل في زاوية المدنى بالمدينة القديمة ضيفاً على الشيخ حمزة ظافر المدنى . ويبدو أن صلة

من المعرفة كانت قائمة بينهما حددها الشيخ حمزة في التحقيق بأنه رأى والد إبراهيم سراج الدين في المدينة ويعرفه ، بينما تردد على لسان إبراهيم قرابته للشيخ حمزة .

وكانت طرابلس تعيش تلك الفترة الدقيقة من تاريخها والخطر الأوروبي يتحداها ويهددها وكان التمهيد الشعبي للنضال عظيماً والترتبة خصبة للعمل المنظم خاصة في أوساط الشباب . وسرعان ما اندمج الشاب إبراهيم سراج الدين في هذا الجو ووعى أبعاد الواقع المحيط به . وقد بدأ تفاعله مع الشيخ حمزة المدنى مضيفه ومع السيد أحمد النائب رئيس البلدية الذى وثق معرفته به ، وكانا من أبرز العناصر الواعية في الولاية . وجاء على لسان سراج الدين في التحقيق قوله « اقتضرت على صحبة من أنا ضيفه ونزله وهو الشيخ حمزة أفندي ظافر ، ولما كان المذكور في أغلب الأوقات يجتمع مع رئيس البلدية الذى سبقته بيني وبينه معرفة في تونس كانت صحتي ومعرفتي مختصة بهذين الرجلين » وانجه إبراهيم سراج الدين أول الأمر للبحث عن عمل يكسبه به قوت يومه ، ففكر بعد التشاور مع الشيخ حمزة أن يكون مستخدماً بمطبعة جريدة الولاية التي كان أحمد راسم مهتماً بإصلاحها ، وذلك لخبرته في هذا المجال . ولكنه لم يلبث أن باشر نشاطه الفكرى حين ظهر له « أن أحوال الولاية تحتاج إلى ترقى المعارف أكثر من احتياجها إلى تحسين الجريدة » . ولم ينتظر حتى ينال تلك الوظيفة . كما أنه نزل عند رغبة الشيخ حمزة المدنى وصرف النظر عن فكرة السفر إلى الأستانة . وكان عازماً أول الأمر على ركوب أول باخرة تقصدها « ولكن الشيخ حمزة كان يبطئ عني من وابلور إلى وابلور آخر حجة في طول إقامتي عنده » .

ويبدو أن سراج الدين كان قد اكتسب خبرة في شئون تنظيم الجمعيات العلنية والسرية أثناء وجوده في مصر في فترة ازدهار فيها تأسيس

الجمعيات . ولا بد أنه احتك بنشاطاتها من خلال عمله كصحفي ونتيجة لاهتمامه بالعمل العام .

ولذا فإنه سرعان ما أثار قضية ترقى المعارف في الولاية بين شباب طرابلس في المجالس التي كان يقشهاها ، وربط هذه القضية بفكرة تأسيس جمعية خيرية تخدم هذا الهدف ، فلاقت الفكرة قبولا سريعاً وحاراً .

وقد جاء في التحقيق قول سراج الدين في هذا الصدد . « وتكلمت في مجلس من مجالس أهل البلاد في شأن المعارف فأقروا باحتياج البلاد إليها . ثم أشرت بلي عرضت عليهم أن يعقدوا جمعية خيرية يكون المنحصر منها من الدراهم مكافأة لطلب العلم في الولاية ... فاستحسن الجماعة عقد تلك الجمعية الخيرية . وقال رئيس البلدية وكان حاضراً أنا أدفع ألف وخمسمائة قرش وتكلم كل بما يقدر على دفعه » . وهكذا برزت فكرة تأسيس جمعية أهلية في طرابلس لأول مرة .

وتابع سراج الدين إثارته لفكرة تأسيس جمعية أهلية ، فكان يقارن بين نشاطات الأقليات الدينية والأجنبية في المدينة وبين نشاطات الأهالي لهم . وشجعه تجاوب البعض وخاصة رئيس البلدية الذي تبنى الفكرة وحملها إلى الوالي أحمد راسم . وقد جاء في التحقيق قول سراج الدين « كنت مرة سائراً مع رئيس البلدية وغيره فجاء في حديثنا ذكر قرائنخانات اليهود والنصارى وأن المسلمين لا قراءتخانة لهم ، وما انتهى كلامنا في هذا المعرض حتى وعد رئيس البلدية بأنه سيمسعى في قرائنخانة للمسلمين . ثم اجتمعنا في مجلس آخر وجرى المذاكرة في أمر القراءتخانة حتى أن رئيس البلدية كتب في ذلك المجلس أسماء الراغبين في الدخول في تلك القراءتخانة . ثم قابلت رئيس البلدية يوماً آخر فأخبرني أنه استشار حضرة الوالي فلم تبدو منه معارضة » .

والتف عدد من الشباب حول فكرة ترقى المعارف في الولاية ، وأقبلوا على إبراهيم سراج الدين يتابعون أحاديثه الفكرية والثقافية ويناقشون معاً الخطر الأوروبي وسبل مجابهته ووسائل النهوض بالبلاد . وكان فيهم محمد عارف أفندي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً وحرفته كاتب ضبط بمحكمة البداية ، ومصطفى القلالى البالغ من العمر أحد وعشرين سنة وحرفته كاتب ، وإبراهيم مصطفى باكير البالغ من العمر ست وعشرون سنة وأحد دارسى العلم^(١) ، وعبد الكريم أفندي باشكاتب محكمة البداية ، ومحمد البوصيرى الساعاني ، وعلى الزمرلى الناجر وأخوه إبراهيم الزمرلى ~~كل~~ محمد الباغي ، وجميعهم من الشباب . وصار هؤلاء يلتقون بسراج الدين وبالشيوخ المحدثين في « العلية » الغرفة التي يقيم بها سراج في أعلى الزاوية . وانفقوا معه على أن يلقي عليهم دروساً في الجغرافيا ، وكان من المهتمين بدراستها ، كما كان يكثر الحديث عنها لتوسيع مدارك سامعيه ولشرح أبعاد الخطر الأوروبي . فصار يلقي عليهم هذه الدروس مساء كل يوم . وقد جاء على لسانه في التحقيق قوله « صاروا يأتونني نحو ساعة في كل ليلة لكنابة بعض المسائل المذكورة وجميع الذي كتبوه من المسائل لا أعلم عدد مسائله ولكني أعلم أنه نقلوا بعضه مني في المدرسة المذكورة وبعضه في محل نومي وبعضه في القراءتخانة » . وجاء في إفادة أحد الشهود واسمه عبد القادر المسكي قوله « إن سراج نزل عند المحدث بالمدرسة فصار يتردد عليه فأحد المزارعين محققاً بذوات متعددة من أهل هذه البلاد . حتى أنه في أحد الأيام جمع منهم تسعة نفر عرف منهم أسماء سبعة في العلى السكان بداخل البلدة بين المدرسة المذكورة والحمام وقال لهم سراج يزيد نعمل جمعية جغرافية .

(١) ترجم له الزواى في أعلام ليبيا من ١٤ والمصري في لمحات أدبية عن ليبيا

وبعد أن وافقوه على ذلك اجتمعوا وتحالفوا بالطلاق أن الذي يحدث منه لا يوحون به .

وبرزت في هذه اللقاءات فكرة تأسيس الجمعية السرية . فقد كان الحديث يتشعب فيها ليصب في النهاية على الخطر الأوروبي وضرورة مجابهته ، ورفع شأن الإسلام . وكان إبراهيم سراج الدين يحذروا من أن يحدث لطرابلس ما حدث لتونس ومصر ، ويفصل في طرح أفكاره وشرحها فيجد تجاوبا عظيما من الشباب .

وقد جاء في إفادة سليمان أفندي أحد كتبة محكمة الولاية وأحد الذين وشوا بسراج قوله في الإفادة أن أصدقائه الشباب « رفعوه إلى أوضة إبراهيم سراج ، فذاكر سراج معهم على أن يجعلوا كومبانية لأجل أن يتحدوا ويتفقوا على أن يشهروا الإسلام حيث ضاع بعدم الإتفاق . وأن يتحالفوا بأن لا يظهرون السر . وأن يفتحوا أبصارهم على أن لا يكونوا مثل تونس ومصر الذين أخذوهم النصراري . كما جاء في إفادة عبد الكريم أفندي باش كاتب المحكمة قوله « أنه حين التقى بسراج أخذ يحكي عن سياحته ويفسر لهم معاني جريدة البرهان التي بيده ، ويفهمهم عن كيفية مصر وما جرى فيها وفي الإسلام بسبب عدم الاتفاق مستدلا بآيات كريمة وأحاديث شريفة حتى جلب قلوبهم غاية ثم كلفهم بتدبير عمل مخصوص . . ووزع عليهم المهام . . وصار أناس كثيرون من الأهالي يترددون عليه . . وجاء في إفادة محمد عارف أفندي كاتب الضبط بمحكمة البداية قوله « إنه في أحد الجلسات قال إبراهيم سراج المذكور أن يأتي الفرنسيين والإنجليز إلى هذه البلدة يأخذوها في ساعة واحدة ، لأن الأهالي ليست لهم آلة حربية . ولو كان يجد يتسبب في شراء السلاح للأهالي . وقال إنه تكلم مع حضرة الفريق باشا بأنه إذا أوتي بسلاح إلى هذه البلدة فهو ينزله . »

ولاقت فكرة تأسيس الجمعية السرية قبولا في نفوس الشباب ، وتمسك لها النائب والمدني . وصاغ إبراهيم سراج الدين قانونها ونظامها الداخلي والعسكري في قالب من التورية وعلى أساس أنها نال (قراءتخانه) ، وكان خبيراً كما يبدو في تجارب الجمعيات السرية والعلنية من خلال إقامته بمصر كما سبق أن ذكرنا . ويتضح من أوراق التحقيق أنه جعل لضم العضو الجديد إلى الجمعية تقليداً خاصاً . فكان الضم يتم « بعد مساهرة العضو ثلاثة شهور ثم بمشورة مرشحيه يصير دخوله » « وحين يأتي للقرية يدق الباب فيسأل عن اسمه ودينه . وبعد أن يقول إن دينه الإسلام ، يعلق سراج الدين قائلا له « لو كنت كما قلت لعملت بمقتضاه » ولا يلبث المرشح أن يحلف الدين ، فيعلق سراج الدين بأن انضمامه أحياء من جديد . ويصلي العضو الجديد ركعتين ثم يقوم لمصافحة الحاضرين .

وانطلقت هذه الجمعية في نشاط واسع ومن نوع جديد لم تعده طرابلس الغرب من قبل . فكان الأعضاء يتصلون بالناس ويتحدثون معهم في مواضيع الساعة . . الخطر الأوروبي وأزمة الإسلام والإصلاح واتسع نطاق المتصلين بالجمعية من رجال المدن والدواخل . ويتضح من إفادة الشيخ حمزة المدني أن الجمعية كتبت رسائل إلى عدد من رجال البلاد ، فقد قال « استحضت تأسيس الجمعية وأرسلت خمس رسائل واحدة منها للشيخ التوارق » .

وتوزع الأعضاء المهام فيما بينهم ، فكان على البعض أن يكونوا على اتصال بما يحدث في مركز الحكومة . وعلى آخرين أن يكونوا على اتصال بالدواخل وما يجري فيها من حوادث . وعلى آخرين أن يحثوا الناس على شراء السلاح وجلب بعضه إلى الجمعية ، وهكذا . .

وعدت الجمعية بغية نشر افكارها بين الناس إلى الاستفادة من خطبة الجمعة . فأعد إبراهيم سراج الدين خطبة مكتوبة ، وتولى أحد النائب وحزرة المدنى إعطاؤها للشيخ بشير إمام جامع النافذة ليخطب بها الجمعة . ولاقت الخطبة إعجاباً من الناس الذين سمعوا لأول مرة منذ سنين كلاماً ذا مضمون ونعمة جديدة تختلف عن النعمة السائدة التي تسكادت قلوب القلوب . وقد تضمن التحقيق وصف سرور النائب والمدنى وبقية أعضاء الجمعية للصدى الذى كان للخطبة التي اشتهرت بين الناس . ولا يزال بعض المعمرين إلى اليوم يقصون خبرها ويسمونها خطبة « تعالوا بنا نبيكى » حيث ترددت هذه اللازمة في ملحقاتها . وكان مما جاء فيها بعد المقدمة المعتادة « عباد الله كم نعصون الله وهو يعاملكم بالجميل ويحفظكم جيلاً بعد جيل . وبيدكم أما تخشون في الدنيا والآخرة عاقبة العصيان . أما تخافون عقاب الملك الديان . تمر بكم الأيام والليالي وأنتم غافلون وتوقفكم حوادث الغرب والشرق وأنتم نائمون . أما علمتم بمن جزر الجزاير وهو إلى حبيكم سائر . أما علمتم بمن سود وجه الحضرا وتفرغ إلى افتراس الأخرى . أما علمتم بمن شرب النيل وكيف تقلص في واديه ظلمكم الظليل فائقوا الله عباد الله » . ثم تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الإيمان ومحاسبة النفوس قبل معاينة اليوم العبوس والتعاون على البر . وتستحثهم بشدة مذكرة بالماضى الزاهر « أيها الخشب المسندة ولا أقول الناس أين دينكم العزيز ؟ أين لغاتكم الشريفة وأوطانكم المنيفة ؟ أين علومكم الغزيرة ومصانعكم الشهيرة ؟ أين ما قال الله لكم وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. » وتقرن الدعوة للسلطان بمساعدته على مافيه صالح البلاد وأطيعوا سلطانكم فإن كل الخير في طاعته وساعده على مافيه الصلاح العام » . ويأتى ملحق الخطبة ليثير النفوس ويرز الخطر ويذكر بحضارة الماضى ويعنى على الاسكانة والخنوع وما هذا الاطمئنان وقد ذهب الأقارب والأباعد ،

وما هذا الأمان والعدو يأخذكم واحداً بعد واحد .. تعالوا بنا نبيكى على أراضينا الفاخرة وبحورنا الزاهرة .. تعالوا بنا نبيكى إلخ .. .
ويكتفى أن نلاحظ في الخطبة الحرص على تنبيه الغافلين ولفت النظر إلى حوادث الشرق والغرب . ثم التركيز على الخطر الأوروبي الذى « جزر الجزاير وسود وجه تونس الحضرا وشرب النيل » . وهى في مجموعها تنطلق من معنى الآية الكريمة « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » مستهدفة تحقيق التقدم . وقد كررنا هذه الخطبة بما فعله عبد الله النديم إبان ثورة عرابى حين كان يقوم بتحرير خطبة الجمعة كل أسبوع ويطبع منها آلاف النسخ لتوزع على مساجد القطر فيصلى صوت الثورة إلى كل مكان وكل إنسان^(١) . ويبدو أن إبراهيم سراج الدين الذى عاش تلك التجربة في القاهرة أراد أن يكررها في طرابلس وبدأ بجامع النافذة .

واتخذت الجمعية مقراً لها قهوة مصطفى أغا الأضرولى السكاتية خارج سور البلدية ، ومارست نشاطها فيه باعتباره ناد « قراءتخانه » واشتركت في بعض الجرائد العثمانية والأجنبية . وأعلنت قانونها في صورة تعليمات وباسم « فوائد ونصائح خيرية » - كما سبق أن مر معنا - وكان سراج الدين قد أعد قانوناً للنادى الذى تقدم رئيس البلدية إلى الولى بطلب الترخيص بفتحته .

ولم يلبث نشاط الجمعية أن حرك السلطة لملاحقتها والكشف عنها . فاطلقت وراءها العيون والجواسيس وكانوا كثرة في ذلك العهد وسرعان ما تقدم هؤلاء بنقاريرهم ينقلون فيها صورة النشاط على هواهم . وقد كان اتخاذ الجمعية مقراً لها في ٣١ مارس ١٢٩٩ عاملاً حاسماً في تحريك السلطة للقبض على أعضائها . وجاء القبض بعد أن تقدم « جرنال » - مخبر -

(١) أنظر حياة عبد الله النديم العودة إلى المنفى الجزء الثاني أبو المعالي أبو النجاس ٤٢

من طرف مأمور الحفية باسم الأول إلى على مقام الولاية يتحدث فيه عن استئجار الشباب للقهى واشترائهم في الجرائد واجتماعهم بإبراهيم سراج الدين « الذى كان محرر لجريدة القسطاط بولاية مصر ، ولما يتقن أن حكومة الولاية المشار إليها ستؤد به ، وتجازيه على ماتبين منه من تحريره أنواع التهيجات بجريدته المذكورة فر إلى هذه الولاية . وإنه سيحدث هيجاناً مثلما اجراه بمصر ، لأنه ليلاً ونهاراً يجتمع مع الأشخاص المذكورين ويجمع دارهم ويعطيهم دروساً ويذكر لهم الواقعة في ولايتى مصر وتونس قائلاً لهم إنه سيقع بهذه الولاية مثلما وقع في الولايتين . المذكورتين ويشوش الأذهان بأقوال كهذه بدون لزوم حتى أنه أنشأ خطبة ويريد إرسالها إلى أحد أئمة الجوامع على أن تقرأ يوم الجمعة بالخطبة . وقد سمعت وشوهدت هذه الخطبة » وتلفت النظر ضخامة تفكير هذا المخبر الذى ينمى على سراج الدين نشاطه في مصر المعادى للاحتلال ، والذى يعتبر الهيجان ضد الاحتلال أثماً ، وينظر إلى التحذير من الخطر الأوروبى القادم باعتباره تشويشاً للأذهان .

ومن المتوقع أن يكون هذا النشاط قد لفت انظار القناصل الأجانب الطامعين وأقلقهم ، فاتخذوا موقفاً معادياً له وسعوا إلى تصفيته ، وقد أوضح سراج الدين موقفهم في التحقيق بقوله « أن بعض الأجانب الذين يكرهون تقدم الوطن تحت الراية العثمانية المنصورة ، اجتمعوا في ليلة مسراً ، وحضر اجتماعهم رجل كبير استمالوه وتذكروا فى أمر القراء تخانة واجتماع طلبة العلم فيها ، وأنهم يتبوا حيلة للتوصل إلى أبطالها . وهى أنهم ينشرون بعض أعوانهم في البلاد ويشيعون إن ذلك المحل الذى يزعم أصحابه أنهم قراء تخانة ليس بذلك . وإنما هو مركز لجماعة المرسومون ، وإن الطلبة تفرسوا بواسطة إبراهيم سراج الدين الذى

يجتمع بهم . فلما سمع بعض الجهال صوت هذا الطبل المصنوع ليلاً رقصوا على توقيعه . وبسبب هذه الإشاعة العدوانية بلغ الأمر إلى مسامع الحكومة ولا أعلم بأى كيفية كان بلوغه » .

وتفطن المعادون لنشاط الجمعية من المخبرين والأجانب في إطلاق الشائعات ضدها . وشوهوا على الخصوص تقاليد العضوية . فذكروا أن سراج الدين بعد أن يسأل العضو عن اسمه ودينه يشتمه ويطلب منه أن يتأوت ويتسطح على الأرض ليدعوله ويحييه . كما اعتبروا تدريس الجغرافيا نوعاً من الكفر . وبلغ بهم الأمر أن أشاعوا - كما يروى بعض المعمرين - أن أعضاء الجمعية يعبدون رأس كلب . وأصل الموضوع أن سراجاً استعان على تدريس الجغرافيا بنموذج للكرة الأرضية كان الشباب يحيطون به عند سماع الدرس ، فرأه أحد المخبرين من ثقب الباب - كما تقول الرواية - رأس كلب . وكان سراج الدين يستشيرهم سامعية فيشبهه حالهم وهم ساكتين بأنهم كالدمى لا حياة فيها ، فأشاع المعادون عنه أنه يشبه المسلمين في عدم الإدراك بالتقائيل ومحط من قدرهم . واعتبر هؤلاء نشاط أعضاء الجمعية تجسساً على الحكومة وتحريضاً للناس على شراء السلاح . وأشاعوا أن لسراج الدين « وقائع مشهورة بسوء الأحوال » في الجزائر وتونس . وأنه يهدد من لا يطيعه بالقتل .

وقبضت السلطات على أعضاء الجمعية وفي مقدمتهم إبراهيم سراج الدين وأحمد النائب وحزمة المدنى . وأجرت معهم تحقيقاً طويلاً امتد أربعة شهور لخصه تقرير المستنطق الذى استوعب أربعاً وثلاثين صفحة من القطع الكبير . وكان أسلوب المحققين مثيراً للضيق ، وقد هاجم الشيخ حمزة في إفادته « اقتراعات المحققين وكذبهم واختراع القصص ، وعدم المحققون إلى محاولة الإيقاع بين أعضاء الجمعية . وكانت لإجابات سراج (٢٤ م - ليبيا)

الدين على أسئلتهم تتصف بالذكاء والوعى وتنم عن ثقافته . حين سئل عن سبب تشكيله الجمعية واتخذها محلا مخصوصا سماه بالقراءتخانة ، وعن القانون الداخلى الذى رتبها ، إذ لفظة القانون مخصوصة بالدولة » أجاب بأن هذه المسألة لا أهمية لها عنده ، وأما لفظة القانون فهى ليست مخصوصة بقوانين الدولة بل يوجد كتاب طب يسمى القانون ، وأنه ما أعجلهم عن فتح هذه القراءتخانة قبل إنشاء القراءتخانة التى فى عمدة رئيس البلدية لإنشاؤها والتى قال له عنها إنه استأذن عنها حضرة والى الولاية ، إلا عليهم بأن حضرة والى المشار إليه يرغب فى مثل هذه المشروعات المدعومة بين مسلمى هذا الوطن (١) .

وتضمنت بعض إجابات سراج الدين شرحاً للأفكار التى جاءت فى قانون الجمعية ، وكشفت أبعاد فكره . فقد سئل عن قصاصتين من جريدتين تصدران فى مصر فهما منشور باسم الجمعية الوطنية المصرية يكشف قآمر توفيق ويرد على بعض الإشاعات - واحتفاظه بالمنشور يشى بصلته بنشاط العراقيين بمصر - ووصف المحقق المنشور بأنه يحتوى « على كلام يتضمن تهيج الأهالى وتخريضهم على القيام على الحكومة وخلع الطاعة » فأجاب سراج إجابة طويلة استطرد فيها فذكر موقع طرابلس الغرب وأهميته وأخذ يقبح إدارة الدولة العلية فيها باحثاً عن أمور منها فقدان المعارف ، وعدم انتظام أمور التجارة السودانية ، وتجارة الخلفاء ، وعدم المحافظة على نقط المياه السكّانة بوطن التوارق بالصحراء الكبيرة ، وعدم الاستيلاء عليها ، وعدم ضبط الحلة السكّانة بمجة فزان . وأخذ على الحكومة العثمانية بشدة موقفها من التونسيين المهاجرين إلى طرابلس بعد الاحتلال الفرنسى وقال « الأمر السادس هو أمر إرجاع التونسيين المهاجرين إلى

(١) تقرير المستعطق س ٤

مواطنهم . وإنى لا أعلم ماذا أراد حكام طرابلس أن يكتب أهل الديانة فى كتبهم والمؤرخون وماذا يقول أهل السياسة . فهل أرادوا أن يقول أهل الديانة إن الله فرض الهجرة على التونسيين وأن حكام طرابلس منعوها وأرجعهم ؟ أم هل أرادوا أن يقول المؤرخون أن التونسيين استغاثوا بالدولة العلية فى سنة كذا ، وأنها أرجعتهم بعد أن أساءت حالهم وأنها لم تسع أدنى سعى فى أراحتهم ، أم أرادوا أن يقول السياسيون إن بعض رجال الدولة العليا الذين كانوا سبباً فى رجوع التونسيين قد خفى عليهم أن بقاء التونسيين فى طرابلس بمنزلة بقاء تونس تحت يدها وأن رجوعهم بمنزلة ذهاب طرابلس والعباد بالله . ومن المعلوم أن التونسيين لما كانوا مقيمين فى طرابلس كانوا يعدون أنفسهم من أول عساكر الدولة العلية الصادقين ، وكانوا يتمنون أن تدربهم على السلاح الجديد بالكيفية التى تريدها وتريحهم » . كما أخذ على الحكومة إهمالها تدريب الأهالى فقال « ومن العجب أن حكام طرابلس لم يسعوا فى إنشاء جيش وطنى بطرابلس بعدما حصل لجيرانهم ما حصل . فهذا الأمر عند أرباب السياسة لا بد أن يكون لأحد أمرين إما لعدم حسن سياسة الحكام الطرابلسيين مع الإهلين حتى كرهوا أن يستعدوا للدفاع عن وطنهم ، وإما لسعاج البعض بعض دسائس الأجانب الذين يكرهون ذلك ، ولا يخفى أن أعظم دليل على حب الوطنيين لأوطانهم وحكامهم رغبتهم فى الدخول فى العسكرية » .

هذه المقتطفات من إجاباته تدل على فهم الجمعية لواقع الولاية واحتياجاتها وعلى شمول النظرة إلى مشاكلها . فهو يتحدث عن فقدان المعارف وكساد التجارة والتفريط بنقط المياه فى الصحراء ذات الأهمية الاستراتيجية الخاصة . وهو يناقش بوعى أبعاد موقف الحكومة من المهاجرين التونسيين . وتدل الإجابات أيضاً على فهم الجمعية لدور النضال

الشعبى في مجابهة الخطر الأوروبى، وعلى فهم ما تتطلبه الولاية من اصلاحات ملحة . وفى مقدمتها التدريب العسكرى للأهالى وترقى المعارف . وقد ورد فى إفادة أحد من وشوا بالجمعية ما يفيد أن الجمعية تريد أن لاتقع طرابلس فى أيدى النصارى مثل تونس ومصر وأن تنشط لإيجاد عصبية وهمية فلا يدخل تركى بهذه الولاية . والإشارة الأخيرة تنم عن الوعى القومى فى حدود تلك المرحلة . ويبدو من أوراق التحقيق أن سراج الدين كان يتطلع إلى أن يقوى التنظيم ليصبح صاحب السكلة فى الولاية . وقد ذكر أحد الأعضاء وهو محمد عارف فى إفادته قول سراج الدين لهم « لئنا إذا عرفنا كل هذه العلوم وعرفنا كل هذه الأحوال وصارت جميع الناس معنا ، فيصير جميع المأمورين منا ونكون بحق أصحاب السكلة وأصحاب العصبية » .

وقد برزت أثناء التحقيق شكوك حول ابراهيم سراج الدين وصلته بالأجانب وخاصة الطليان . وكذا ذكرنا ما قيل من اجتماعه فى بنغازى بقنصل ايطاليا وقنصل بريطانيا، وحمله مكتوب توصية من الأول إلى زميله قنصل ايطاليا بطرابلس . وجاء فى التحقيق أن سراج الدين أطلع المدنى على المكتوب قبل تسليمه واستجلبا من قرأه لها وترجمه ثم أرسلوه إلى القنصل . وحدث وسراج الدين رهن التحقيق أن اتهمته السلطة بكتابة رسالتين إلى قنصل ايطاليا حاول ارساله من السجن فضبطتها السلطات . وهما أن تعرض لاهتين الرسالتين وماورد فى التحقيق عنهما لتكون رأياً فى هذه التهمة أو الشبهة ، لما تحمله فى طياتها من خطورة على صفة سراج الدين كمناضل . فأما الرسالة الأولى ففيها إخبار عن اعتقاله وطلب بنوع من الحماية عن طريق قول القنصلية إنه يعمل كاتباً بها . ونص الرسالة « لئى قد صرت اليوم اسيراً فى السجن بغير ذنب ولا سبب فإن اردتم أن أكون لكم عبد أطول عمري ، فقولوا إن فلاناً كاتباً بالقونسولات ولا تتركوا

أخاكم تأكله لحم الحيوانات ، فلعل محاكمتى تكون بوجه العدل بعد محاماتكم عني . واعلموا أنى إذا اطلقت أكون احسن لكم من مليون نفس . » وفى الحاشية إن أخاكم مظلوم مظلوم ولا فاصل له سوى الله وأنتم والحاصل أنى سأقول أنا كاتب فى قونسولاتو ايطاليا فاقبلوا دعوتى هذه ولكم الفضل الدائم » وتضمنت الرسالة وصفاً لصورته ليوضع فى جواز سفر ليطالى فهو « سليم العينين غير مقرون الحاجبين عربى اللون مربع القامة أسود الشعر وعمره ٢٨ سنة » .

وأما الرسالة الأخرى فأطول من الأولى ، ويتضمن النصف الأول منها موجز عن حياة سراج الدين يبرز فيه عداوه للفرنسيين . وقد أوردناه فيما سبق ثم يرد على اسائه قوله « وقد ساءنى جداً ارجاع الوالى اليونانى للتونسيين ، فإن بقاءهم فى طرابلس بمنزلة بقاء تونس على ما كانت عليه . ورجوعهم بمنزلة ذهاب طرابلس من يد السلطان لما ينشئ من رجوعهم فى قلوب التونسيين والجزائريين من التأثير القبيح ونزول اسم السلطان . فلو أن دولتكم ودولة المانيا يساعدانى على الإقامة فى طرابلس بأى صفة كانت ولو بصفة سواح لكنت اتمكن فى أقرب وقت من جلب افاضل نهباء الجزائر وتونس أيضاً من أهل الغيرة والعلم والعمل حتى من ضباط العساكر . وكذلك اتمكن فى أقرب وقت عقد شركات تجارية مربوطة بأصحاب البنوك فى ايطاليا والمانيا . وأرباب البنوك يدفعون للعرب بضائع أوروبية يذهبون بها إلى السودان ويستلمون منهم بضائع سودانية باعياها إذا رجعوا منه وذلك باتفاق بخصوص يكون بين الجميع . وهذه الطريقة يكون السودان ميداناً واسعاً تجول فيه التجارة الطليانية والألمانية فقط . ولا يخفى أن الصحراء توجد فيها نقط قليلة من المياه والفرنساويون يحاولون امتلاك بعض تلك النقط . وإذا امتلكوا بعضها تنقطع طرابلس عن السودان وهذا هو قصد الفرنسيين فيجب ابتداء الاهتمام بهذا الأمر

العظيم . ولا يخفى أن اسم السلطان وعقيدة السنوسى كافيان للأمن على البضائع في السودان . واعلمكم أن أكابر أتباع السنوسى يحبونى كأنفسهم وأفضلهم خال من أخوالى . وأخبركم أنى أعرف كل حركات الفرنسيين ونواياهم في أفريقيا ، فلو مشى الفرنسيون في هواء أفريقيا عرفت أثره فيه . ولى في الجزائر مولود حجبنى عنه الفرنسيون الذين لا أجد على من أشكهم إلا على منسلكهم . وفي الحاشية يرد تطمين بأنه لا توجد حركة استقلالية في طرابلس ، وتساؤل نصه « . ولا أعلم هل ادعيتم أنتم أنى من تبعة إيطاليا أم لا واطال الله بقاءكم عوناً للصديق » .

وقد أنكر إبراهيم سراج الدين في التحقيق تهمة توجيه الرسائلين لقنصل إيطاليا واتهم حكام طرابلس بكتابتها وتلفيقها . وقال « ولا تصح نسبة هذا الكتاب لى وأشباهه إلا إذا كنت بحالة غير معتبرة شرعاً كأن أكون مختل الشعور ، يعنى غير مكلف شرعاً وعرفاً » . ولكن لا يلبث أن يرد في تقرير المستنطق أنه بعد التشديد عليه اعترف بكتابة كتابين إلى قنصل الإنجليز . وأن مقاله في المكتوبين والمسودة افترا . منه لفقه وافتعله تصنعاً محضاً وأنكر أنه مرسل من قبل أحد .

وحين أثيرت هذه القضية بعد ثمانى سنوات ونصف في تحقيق جديد مع سراج الدين بتهمة جديدة وهو في السجن كان جوابه « أخبرت جنابكم أن المصادقة على جميع الأوراق المخالفة لا تفيد شيئاً . وهذه الورقة تفيد أنها كتبت في السجن وهو محل ضيق ليس فيه غالباً أدوات الكتابة الحسنة ، وخطى في الأصل ردى . لا قاعدة له فأنا لا اتحقق بأن هذا الخط خطى . ولا أبرئ نفسى عن مثل هذا الكلام قبل أمرى بالهداية . ولما ألحوا عليه بالسؤال وشدوا قال عن الرسالة الأولى « هذا المكتوب أقبح ما فيه أن يطلب كاتبه أن يكون كاتباً في قسيلية ،

وهذا أمر ليس بممنوع ولا قبيح في ممالك الدولة العلية ولا غيرها . وإذا كان الكلام المباح مع القناصل جرم عظيم فأهل هذا الجرم أولاً هم المتوظفون . والحاصل أن الكلام على أكابر الأجانب هو الكلام المباح مع أهل العقل من غير الأجانب . وهذا الجواب لا يريد صاحبه سوى المحاكمة على وجه العدالة . وذكر الحيوانات ليس المراد به تشبيه قوم مخصوصين بالحيوانات ، دائماً المراد به أن من كان له أخ ورأى أخاه بين حيوانات يؤكل لا ينبغي له أن يترك أخاه ، ويمكن أن المراد بالحيوان عند المحاييس هم البق والبرغوث . وعلى كل حال فالإنسان يفتخر بكونه حوأناً ويحمد الله على أنه ليس من الجهاد » .

وهكذا نجد أن إبراهيم سراج الدين كان في التحقيقين المتباعين يبدأ بانكار التهمة واستكبار أن يفعلها ويدل على ذلك ثم يقر بها وي طرح تفسيراً لها . فهو في المرة الأولى يقر أن مقاله في المكتوبين والمسودة افتراء منه لفقه وافتعله تصنعاً محضاً ، وأنكر أنه مرسل من قبل أحد . وفي المرة الثانية وبعد ثمانى سنوات طويلة قضاها في السجن يعتمد على روح النكتة ويفند الرسالة الأولى مقترضاً أنه كتبها ، وكأنه ضاق بالتحقيق فقال ولو فرضنا . فماذا في الأمر ؟ والذي نخلص منه بعد عرض هذا الجانب من القضية أنه سواء كان سراج الدين هو الذى كتب الرسالة أم لا فإن من الواضح أنه لم يكن مرسلًا من قبل أحد من الأجانب . فمضمون الرسائل يؤكد هذه الحقيقة وخط تفكير سراج الدين يؤكد أنها وبين اتجاهه المعادى بعنف للإستعمار الغربى . فإن كان هو الذى كتب الرسائل فيبد وأن كتابته لها جاء بعد صدمة الاعتقال ومعاناة صعوبات التحقيق بالأساليب المختلفة غير الإنسانية . لحاول ركوب أى قارب لينجو من السجن . وقد جاء في إفادة المدنى قوله عن سراج الدين « لقد قطع أمه في الحياة واستولى عليه اليأس فلا يمكن أن يؤخذ كلامه » .

وأنكر عليه بالرسائل. ولذا فإننا نجد في الرسالة الأولى استغاثة هدفها أن ينجو وهو بمنى القنصلية بالتعاون مقابل هذه الخدمة. كما نجد في الأخرى شرحاً لمجالات هذا التعاون فيه جنوح إلى المبالغة، ونلبس الرغبة الملحة في النجاة. ونستدل من عدم تحريك أى من القنصليات الأجنبية بعد الاعتقال ما يعزز قولنا بأنه لم يكن مراسلا من أحد من الأجانب.

وقد أثبتت في التحقيق قصة الغمراوى المتهم بالاتصال بالطليان والسمرة لهم، والذي تردد أنه سعى في بيع أراضى ثلاث قرى في منطقة سرت لهم. وذلك بمناسبة زيارته للشيخ المدنى وطلبه منه أن يتوسط له عند الوالى مؤكداً أنه تاب عن أفعاله السابقة وهو «الآن غير عتسمى بالأجانب ولا مداخل لهم ولا مراسلا، وهو متبرء من كل ما ينسب إليه». فاستجاب المدنى بكتابة رسالة إلى متصرف الخس تنصف بالدقة في الصياغة وعدم التورط وتنتهى بالقول «وحيث أن الأمر كذلك فنجن كتبنا لسعادتك كتابنا هذا لإخباراً بالواقع وأعدنا نزولنا إليكم لتتظروا في أمره بما تقتضيه مرامهم وتستحسنون حسن سيرته بما اقتبكم له في المستقبل والأمر في كل الأصول لكم». وقد وضع من التحقيق أنه لا توجد صلة البتة بين الغمراوى والجمعية، وأن صلته بالمدنى كانت في حدود التردد على الزاوية المفتوحة لسلك الناس.

وانتهى التحقيق في هذه القضية بتوجيه التهمة لإبراهيم سراج الدين وأحمد النائب وحمزة المدنى الذين «تبين خيانتهم للدولة العلية بإلقاء الفساد والاختلال الموجبان لسلب راحة العموم وتسهيل أسباب دخول الأجانب في هذه الولاية التى هى من الممالك الشاهانية المحروسة».

واتهم سراج الدين «بتشكيله جمعية إفسادية وبتنظيمه الثلاثة

قوانين... وبتحرير مکتوبين وتهجمه على الدولة في الخطبة، وتهيج الناس وذكره التحاق تونس ومصر والهند بدول الأجانب.

واتهم المدنى بالخيانة «لاتفاقه مع سراج الدين المذكور وإطلاعه على باطنه وظاهره وتحريره رسالة للغمراوى».

واتهم النائب رئيس البلدية باشتراكه ومدخله مع سراج في أفعاله وترتيباته بمداومة اجتماعه به.

ووصف الاتهام الشيخ بشير إمام جامع الناقاة بأنه «لكونه من معلمى الأطفال الذين لا يميزون الكلام المهيج من غيره» وأنه ما قيل فيه شيء. فتم الإفراج عنه.

أما بقية أفراد الجمعية «فلحدائهم وعدم قوة تمييزية لهم يعرفون بها ما يضر وما ينفع... فلا لزوم لإدخالهم مع المظنون عليهم بوجه من الوجوه».

واعتبرت وثيقة الاتهام حركة سراج والنائب والمدنى «هى نوع من الجناية».

وهكذا قلب الاتهام الأمور رأساً على عقب فاعتبر الوقوف الواعى في وجه الخطر الأوروبى هو تسهيل أسباب دخول الأجانب الولاية. واعتبر العمل لترقى المعارف وإصلاح الولاية هو إلقاء الفساد والاحتلال فيها. واعتبر مجرد ذكر احتلال الأجانب لأقطار العرب والمسلمين تهمة تقع تحت طائلة العقاب.

وقد صدرت الأوامر بنفى كل من السيد أحمد النائب والشيخ حمزة المدنى إلى استانبول. أما إبراهيم سراج الدين فبقى بالسجن تحت

التوقيف ثمانى سنوات قبل أن تجرى محاكمته على هذه التهمة وتهمة أخرى . وكان ذلك في مارس عام ١٣٠٨ هـ أثناء وجوده في السجن لممارسته نشاطا جديدا سنأتى للحديث عنه .

كان لهذه الحركة التي قام بها أولئك الشباب آثاراً كبيرة في الولاية على الرغم من أنها لم تعمر طويلا . وقد بقيت ذكراها عميقة في نفوس الناس الذين تناقلوا أخبارها . ويمكننا أن نلاحظ هذه الآثار فيما تم من إصلاحات في الولاية خلال الفترة التالية وحتى نهاية العهد العثماني الثاني . فقد ساد شعار رقى المعارف الذي طرحته الحركة وتبناه الأهالي والسلطة ، وتأسست مدرسة الفنون والصنائع والمدارس العسكرية والرشدية التي تطلعت الجمعية إلى تأسيسها . وجرى تسليح الأهالي والقيام ببعض التجهيزات العسكرية وكان ذلك من أهداف الجمعية . وتنهت الحكومة إلى الخطر الأوروبي فاتخذت بعض الإجراءات لمواجهة الجواسيس ومراقبة نشاط الأقليات الأجنبية ، وكان هذا أيضا من أهداف الجمعية . كما مهدت هذه الحركة لقيام حركة معارضة شعبية ضد انحراف السلطة وتمسكها ، ظهرت في أواخر عهد أحمد راسم وفي عهود بعض الولاة الآخرين ممن جاءوا بعده .

ويمكننا أن نلاحظ تشابها كبيرا بين هذه الحركة وبين مثيلاتها في مصر والشام . بل يمكننا من خلال دراستنا لأفكارها وأساليبها أن نجد فيها جميع مواصفات حركة اليقظة العربية الحديثة ومن هنا فبى تثبت أن حركة اليقظة العربية لم تقتصر في ظهورها على جزء واحد من الوطن العربي ، وإنما ظهرت في عدة أجزاء في وقت واحد ، وكان لها دوماً التوجه نفسه . وقد كانت الجمعية أول تنظيم بالمعنى الحديث للتنظيم تعرفه ولاية طرابلس الغرب .

لم تسكد السلطات العثمانية تنتهى من التصدى لحركة الشباب في مركز الولاية ، حتى برزت لها حركة أخرى كان مسرحها جنوب الولاية شغلها لعدة سنوات . وكانت هذه الحركة الجديد من النوع التقليدى المألوف في تاريخ الولاية الذى يتخذ صورة انتفاضات شعبية على السلطة . وقد ذكرنا مثلا له في النصف الأول من العهد العثماني الثاني حركتى سيف النصر في فزان وغومة في الجبل الغربى .

بدأت هذه الحركة أوائل عام ١٣٠٢ هـ وشغلت السلطات العثمانية حتى عام ١٣٠٦ هـ وقد سماها أحد راسم حركة « الشريف الكاذب المتمهدين » التمردية . ولابد أن نشير في مستهل حديثنا عنها إلى أننا نخوض في هذه المرة أيضاً غمار موضوع لايزال مجهولا . فنحن لا نجد إلا إشارة موجزة أوردها كاكيا عن ثورة بدأت ضد الدولة بعد احتلال فرنسا لتونس بفترة قصيرة ، وقصة غلب عليها خياله الأوروبي عن رجل يدعى « الصغير » أو الأصغر فنك بحامية غات التي كان فيها موظفان تركيان قتل أحدهما أسرته قبل أن يقتل (١) . ولم نعثر في الوثائق العثمانية على ما يعزز هذه القصة . وهناك إشارة أوردها الحشايشى عن أحداث مرت بغات في نفس الفترة التي قامت فيها الحركة (٢) . ومصدرنا الرئيسى في تاريخ هذه الحركة هو وثائق دار المحفوظات (٣) .

يتضح من الوثائق أنه في بداية عام ١٣٠٢ هـ حل بقرى الدويسة وتاروت في قضاء الشاطىء بأقليم فزان رجلا يدعيان الشريف حميد

(١) أنظر القصة كاملة كاكيا ص ٥٣ - ٥٦ .

(٢) الحشايشى ص ١١٠

(٣) وعمل المحفوظ الوثائق التي جمعها آدم في مجموعته ، وقمنا بتريبتها وتضم

حوالى عشرين وثيقة .

والشريف محمد ، لا يذكر من أين قادا بالثورة والجهاد لمكافحة الظلم والفساد واحلال تعاليم الدين الصحيحة وطرد حكم الترك الذين كانوا - حسب ارداد الشريف حميد - يعيشون في البلاد فساداً فتجمع حولها بعض الناس . ولم يمض طويل وقت حتى اصطدموا بالسلطة .

لأنكشف الوثائق التي بين أيدينا عن أصل هذين الرجلين وإنما تقدمهما باسميهما وبكنية الجيلاني أو السيلاني التي عرفت بشرف النسب . ويبدو أنهما كانا في شرح لشباب حين قاما بحركتهما . فقد أفاد الشهود الذين رأوهما من ضباط وجنود الحامية العثمانية التي تصدت لهما في الشاطيء أنهما كانا في حوالى الثلاثين من العمر . وتضمنت الإفادات وصفاً لهما . فقد وصف الضابط مصطفى عاصم الشريف حميد بأنه « رجل متوسط القدر قيق أحمر اللون ولحية كيف ظاهرة (أى في أول ظهورها) وشعره طويل ومظفور (مضفور) وعيون سود . » ووصف الشريف محمد بأنه « رجل قصير أبيض اللون ولحيته خفيفة وشعره أسود ومكوى بالنار فوق حنكه . » وقدر الجندي أحمد بن محمد الخير من مرزق عمر حميد باثنين وثلاثين عاماً ، وعمر محمد ثلاثين عاماً وقال إن بصدغ الأخير الآمين وبصدغه الأيسر وفي مفصلة وشمات سوداء . وقدرت شهادات أخرى عمر حميد بثلاثين سنة ومحمد اثنتين وثلاثين ، وأفادات أن لمحمد لحية سوداء صغيرة وعيون سوداء كبار .

وليس لدينا أية تفاصيل عن مضمون دعوة الشريف حميد وصاحبه محمد ، ولا عن الدافع الذى حدا بهما للحلول بالشاطيء . ولكن يمكننا أن نستنتج أن أهالى الشاطيء كانوا ضائقين بتضييق موظفي الحكومة عليهم في جباية الضرائب والأعشار ، فتهبوا للثورة على السلطة . وجاء حميد وصاحبه محمد للمنطقة قبلوا هذه النعمة وقادا الثورة . ويستدل من أقوال

بعض أهالى المنطقة أن الشريف حميد كان يتنقل متخفياً بين قرى المنطقة وأنه تزوج من قبيلة الحساونة المقيمين في تاروت .

وجاء في رسالة لثائب الشاطيء حسن تحسين مؤرخة في ٢٤ كانون الثانى ١٣٠٠ حول هذا الموضوع ، أن الحاج عبد الوهاب وأحمد الطير من أهالى براك مركز الشاطيء وعدد من قبائل العربان متفقون مع الشريف . وأوضح الرسالة أسباب الثورة « بأن من عادة أهالى الشاطيء . إذا وقع عليهم التضييق في جباية الضرائب والأعشار يلتجئون إلى العربان ولذا أحسوا باعتداء العربان وظلمهم لجأوا إلى الحكومة » .

وحدث الصدام بين الحركة والسلطة حين هجم الشريف حميد والشريف محمد وجماعتهما على قصر الحكومة بنية احتلاله فتصدى لهم قائد الحامية الملازم أول على بن عبد السلام وأمر عساكره بإطلاق النار عليهم فتفرقوا . وقد تضمنت إفادات أفراد الحامية التى أدلوا بها للتحقيق بعد أربع سنوات حين تم القبض على الشريف محمد تفاصيل هذا الصدام . فذكر على عبد السلام الذى أصبح برتبة يوزباشى أنه حين رأى الهجوم « ضرب البورزان لتجمع العساكر الذين عددهم عشرون جندياً وفرق عليهم الجيخانة . وذلك في عهد متصرف فزان يحيى نزهت بك وقاقام الشاطيء عبد الكبير والثائب حسن تحسين أفندى . ولما رأى تقدم حميد ومحمد الجيلاني وسبابهم وتهديدهم وتخريضهم للناس بالهجوم أمر جنوده بإطلاق النار الذى تفرق وأدبر على أثره المهاجمون وفروا » .

وذكر الجندي عبده شاول أنه « كان مع الشريف خمسة وعشرون نفراً من أهالى الشاطيء كلهم مشاة ، وليس معهم أحد من العربان . والشريف راجب حصان ، وأما الشريف محمد فكان راجلاً مسلحاً » . وذكر الجندي الشاول البرناوى « أن حميد كان يحمل سيفاً ومسدس

ذو ست طلفات ومحمد يحمل غدريه وبندقية ام طلعتين وليس معهما فرسان». وقد ر ابو بكر البشير اخو القائم عدد اعوان الشريفين بستين شخصا وذكر انه بعد هجومهم على بيت عبد الكبير (القائمقام) « خرج لهم اليوزباشى على آغا ومعينه ١٥ جندي ، وخرج ايضا عبد الكبير مع ابناء عمه في نحو ثلاثين مسلحا وتقدموا للقبض على الشريفين فقرا مع مجموعهم » وعلى العموم تراوح عدد افراد مجموعة الشريفين حسب الإفادات بين خمسة وعشرين وستين رجلا .

وحين أخطرت متصرفية فران بما حدث في الشاطيء ، وبلغها أن خطبة الجمعة هناك أغفلت ذكر السلطان ورددت اسم الشريف حميد ، سارع المتصرف للشاطيء وفي معيته مائة من العساكر النظاميين وثلاثين من الضابطية وعشرين من الأهالي المسلحين للقضاء على الحركة . وقد ذكر على عبد السلام في إفادته أنه حين وصول المتصرف بعد مرور أربعة عشر يوماً على الحادث الأول « أمر القائمقام عبد الكبير وأمره بالتوجه إلى الدويسة للقبض على حميد وأرفقهما بثلاثين جندياً وثلاثين فارساً من الضابطية . ولما وصل القائمقام برفاقه إلى قرية الدويسة قابلهم أهل البلاد المحرضين وأجابوا على تكليفهم لهم بالإستسلام بالرفض والشم . ولما أطلقت النار من الطرفين أسفرت المعركة عن مقتل ١٣ من أهل الدويسة وأما أهل تاروت فلم يشتركوا في القتال . وجرح جندي وآخر من الضابطية . وبعد أن تأكد القائمقام من هروب حميد ومحمد رجوع إلى الشاطيء . . . وهكذا تصدت السلطة للحركة في بدايتها بالعنف الذي تعود عليه الحكم العثماني في مجابهة الثورات والفتن . ويتضح من الإفادات أن الأهالي كانوا متصلبين في موقفهم إزاء السلطة ، ويبدو أنهم قاتلوا بقوة حتى سقط منهم هذا العدد من القتلى . وكانت السلطة مزودة بعدد لا قبل

للأهالي بمواجهتها . ومن بين هذه العدد مدفع أحضره المتصرف معه . ولم يجد حميد ومحمد أمامهما إلا الفرار ليتابعا تحركهما ضد السلطة .

وقبل أن ننقل إلى الفصل الثاني من قصتها نقف أمام ثورة الشاطيء . فتجدها تنسب للثورات التي كانت تنشب بين الحين والآخر في مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، والتي عرفت طرابلس منها عدداً ليس بالقليل وهي تحدث دوماً بسبب شعور الناس بالظلم وبوطأة الحكم عليهم ، وتنشأ غالباً بالقمع الشديد من جانب السلطة . ولابد أن نلاحظ صغر الحركة التي تناسب مع قلة عدد السكان في منطقة الشاطيء الثانية وسط الصحراء . كما نلاحظ فيها التعبير عن السخط على الحكم الترك والدعوة إلى طردهم شأن غالبية هذه الحركات التي تضمنت داخلها نزوعاً قومياً .

وحرصت السلطات العثمانية على متابعة الشريفين بعد هربهما لتضمن إنتهاء الحركة . فكتبت حكومة الولاية تعميماً إلى حكام الأفضية المجاورة للشاطيء . مؤرخاً في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ لى يقوموا بالتحريات السرية عن الجهة التي آوى إليها « الشريف الذى كان فى زى أهل مكة » وتلفت رداً من وكيل قائمقامية غريان اشار فيه إلى أنه سبق له أن كتب بعدم قدومه إلى غريان ولا إلى حدودها وقال « ولقد استخبرنا اليوم الساعة ثلاثة يوم الاثنين يقينا أن هذا السنة نازل مع المشاشية التابعين لمديرية مزدة مسافة خمسة أيام على قضائنا هو وحرمة الحسناتوية ومعه فارس واحد لا غير وباقي هناك إلى حد الآن ، وها نحن منتظرين إن هو قدم بعون غناية الله يصير مسكه (١) » .

(١) نص الرسالة الكامل بالمعق .

وكان متصرف فزان قد سارع حال سماعه نبأ هرب الشريفين بالشاطيء إلى إرسال رسالة مع الجندي بلال شاوش إلى قائمقام غات محمد بك الصافي الأنصاري بوصيه فيها بتتبع أخبارهما ونشاطهما وبذل الجهد للقبض عليهما فبعث القائمقام عيونته في المنطقة وجاءه الخبر بأن حميداً موجود في قرية البركت القريبة من غات . « وأنه حين أتى إلى البركت من جملة أخباره طلب من أهالي البركت عدد أربعين نفر قال إليهم إنه يريد الجهاد في محل قريب . وقال لهم غير أعطوني الرجال وأنا ما تجزع من مقابلة الأعداء والذين يقابلني من الرجال يتقاتلون بعضهم بعض ولا يصيبني منهم سوء » كما جاء في رسالة القائمقام الجوابية إلى المتصرف . وقد ذكر الجندي شاوش في تقريره للمتصرف أنه بلغه أثناء الطريق إلى غات في مكان اسمه عوينات دون غات بمسيرة يومين ، وأن المفسد الملعون المذكور موجود هناك منذ ستة أيام في انتظار التوارق الذين اتبعوا أفكاره الفاسدة .

وتحرك القائمقام للقبض على حميد ، ومهد لذلك بإرسال رسول إلى شيخ البركت يكشف له حقيقة ويعلمه بأن الحكومة ستقبض عليه . وطلب من الرسول أن يقول للشيخ على لسانه « هذا الزنديق الذي أناكم في البارحة وادعى لكم أنه شريف تراهو الدولة العلية طالبت إليه في السماء أو في الأرض وقادمين إليه لتسكوه ولا يقع في قلوبكم أنتم يا أهالي البركت شيء ولا تشتغلوا عن ذلك ^(١) » ولم يلبث أن خرج القائمقام مع قوة عسكرية طلبها من قومندان العساكر الشاهانية قوامها « أربعة وعشرين نفر وملازم وشيئاً معهم في ثلاثة أنفار دورية » . وقد روى في رسالته ما جرى حين بلغوا القرية حيث قال « دخلنا إلى مسكن الشقي المذكور في بيته وجدناه هناك وحايلاً عن مسكه وقابلنا بسلاح يده غدري فرغ ، وسل السيف وقابلنا بالسلاح ضارب على نفسه . فلما

(١) من رسالة القائمقام إلى المتصرف

رأيناه حاله ضارب صار الضرب فيه تفريغ وخليناه ملوح ، ماندروا هل هو حي أم ميت . ومتيسين من حياته . رجعنا إلى القصبة وهجموا علينا بعض التوارق وأهالي البركت مسلحين وفارعين فيه بسلاحهم طالبين يقاتلو عليه وساعدناهم . ولم تضر أحد سوى الخائن المذكور لا غير . وجبنا مركوبه يعني حصانه تراهو سلبناه إلى البوزباشي أين يأتي منكم العلم والتوارق وأهالي البركت ما طاب عليهم ذلك والله أعلم ينشأ منهم بعض الفساد وربنا يحسن العواقب بالخير والأمر لمن له الأمر . ويلاحظ أن رواية القائمقام لا تخلو من غموض حيث اكتفى بالقول لنهم تركوا حميداً « ملوحاً » كما لم تفصل في شرح ما جرى بين السلطة والتوارق .

وهناك رواية أخرى أثبتتها الجندي شاوش في تقريره ذكر فيها « أن القائمقام استصحب قرابة ثلاثين رجلاً من ذويه وأقاربه بانضمام ملازم العساكر مصطفى أغا ومعه أربعة وعشرون من العساكر وإثنان من الضبطية .. » وقال « ولما وصلنا لهذه القرية ترك العساكر من قبيل الاحتياط عند مدخل القرية ودخل بأقربائه وبنا للقرية فوّلجنا لداخل البيت الذي يقيم فيه المفسد المذكور . . وفي تلك البرهة صحى الملعون المذكور من النوم وتقلد سلاحه ثم أطلق علينا غدارته إلا أنه لم يصب أحداً منا . فسل سيفه وباحرني بضربة أصابت بندقيتي فكسرتها . وعملنا بقاعدة المقاتلة بالمثل سارعنا جندي الضبطية وأنا فأطلقنا عليه النار وبعون الباري فان رصاص أمير المؤمنين حضرة مولانا السلطان أصاب ركبتيه في موضعين . ولما كشفنا عن بدنه وجدناه أغلف غير محتون فتركناه ملق على الأرض ليراه الناس على عريته . وفي الساعة العاشرة من نفس اليوم عدنا بالأنفاس المرفقة للحضرة السلطانية مع القائمقام من حملتنا بالسرور والسلامة إلى بلدة غات ودعونا وكررنا آيات الثناء على الحضرة السلطانية . » فالجندي (٣٥ م - ليبيا)

لم يتعرض لموقف أهل البركت واكتفى بأن يذكر إصابة حميد في ركبته وتركه ملقى على الأرض .

ولد ينارواية ثالثة أفاد بها الملازم مصطفى التاتار حين جرى التحقيق بعد أربعة أعوام، ذكر فيها أنه توجه إلى غات سنة ١٣٠٠ شمسية وأقام بها حتى نهاية ١٣٠١ . وأشار إلى أمر المتصرف بالقبض على حميد وقال « وفي مآل أمر المتصرف الموحى إليه بأن يكون مسك حياً من غير قتل فعلى ذلك أعطى الجواب رسماً من طرف القائمقام المذكور إلى اليوزباشى جمعة أغا دور تبجى بلوك . . . ثم بعد ذلك توجهت نحن والقائمقام وبمعيننا وخمسة وعشرون نفر عسكرية وجاؤنا بالضبطية محمد بالاله ونفر ضبطية يقال له بديوى ، ووصلنا إلى القرية المذكورة فبكت القائمقام الموحى إليه في قم باب القرية . وأنا العسكر الذى بمعيتى والخير الذى يبغي يورينا الشريف المذكور في أى محل ما كثر دخلنا وسط البلد وأتينا إلى الحوش الساكن فيه ما وجدناه به نفرج منه وفر ودخل في زنقة غير نافذة فما وجد بها طريقاً للفرار فحين إذ جند سيفه وعاد إلينا فحين رأيته أعطيت الكوماندو العسكرية سبكي فلما عاين ذلك دخل إلى حوش آخر فاقفينا أثره جملة إلى الحوش . . وما وجد طريقاً للخروج فجدد سيفه ثانياً ففى أثره أونباشى فرغ فيه فضربه على فخذه برصاصة فطاح منها إلى الأرض فسكناه وخرجنا إلى المحل الذى به القائمقام الموحى إليه وأتينا بمحصانه أيضاً فطلقه القائمقام المذكور خبراً عنا وأجاب أنه هو المسؤول به والشريف محمد ليس موجود معه سوى توارق القرية المذكورة . . » .

تتفق الروايات الثلاثة في القول بإصابة حميد في ساقه ، ولكنها تختلف كما نلاحظ في التفاصيل . ويبدو أن أهل البركت تحركوا للدود عن ضيفهم فآثر القائمقام الانسحاب بالحامية . وبقي حميد حياً كما أكدت الأحداث التالية .

وكان هذا الحادث في قرية البركت الشراة التى أشعلت ثورة توارق المنطقة على السلطات العثمانية فيها . فقد تجمع عدد من الهقاريين بقيادة شيخهم آق بكرو ومعهم تابعه منافطه ومحمد وتكروف بن كلاله وأعلنوا خروجهم على الدولة، وأنذروا القائمقام في غات أن يخرج الحامية العثمانية منها ويعيدها إلى مرزق أو يقتلوا . كما هددوا بقتل كل من يعترضهم من الأهالى أو التجار . وكان متصرف فزان قد سارع بعد عودة رسوله شاوش إلى إرسال قوة إضافية إلى غات . وجاء في رسالة بعث بها القائمقام محمد الصافى والشيخ محمد اخنوخا إلى المتصرف اعلام بوصولها وتوضح الرسالة مخاوف القائمقام ونصها « تلقينا يوم السبت ٢٦ رجب رسالتكم المفيدة بارسال مائة جندي من العساكر الشاهانية بقيادة اليوزباشى أحمد أغا وذلك عقب الاخبار التى وردت بأن الهقاريين يرمعون القنابل لمهاجمة غات ولأنهم مهمون باستنفار العربان . لقد وصل الجنود المرسلون وسررنا لقدومهم . إن تأكيد إزماع الهقاريين على القدوم بلغنا من قبيلة منغسان التى تلقتنا عن الاخبار الشفوية والتحريرية الواردة من غدامس . لأننا حسب أمركم احتفظنا لمدة ثلاثين يوماً بعساكر الرديف ، وإلى أن نتحقق من صحة الخبر ومن أجل ما يحتمل ظهوره من الشؤون فقد أوقفنا سفر البريد وسنبعثه إليكم يوم الثلاثاء إن شاء الله » .

وحاصر الثائرون غات ، واعترضوا أى مدد جديد ترسله مرزق . وكب قائمقام غات إلى قائمقام غدامس في ٧ شوال ١٣٠٢ يصف الحالة التى تمر بها غات ويحيطه علماً بأهم الأحداث التى جرت فذكر أن عدد الخارجين قرابة المائتين وأنهم قالوا « ليخرج عسكر السلطان الموجودين داخل غات وليذهبوا إلى فزان ، والا فسنأتى ونقتلهم في غات كما نقتل الأهالى وأيضاً نقتل التجار إذا عارضونا » . وأوضح منطقهم في الخروج

على السلطة « وقالوا إن البلاد لنا نحن في السابق كنا اعطيناها للدولة حتى ينتفعوا من الدولة ويساعدوهم على مرادهم . والآن أصابهم الضرر من الدولة حتى أن الشريف الذي لجأ إليهم لاحقته الدولة وقتلته لهذا السبب سوف نقاتل عساكر الدولة » . وشرح حال غات بعد الحصار منذ أربعة أيام من تاريخه وبلدة غات محصورة الخفراء يحرسونها ليلاً والعساكر والأهالي متضايقون نهاراً وهم منتظرون القتال ليلاً ونهاراً . . . ولم يغبض جفن أحد منذ أربعة أيام كل فرد متأبط سلاحه وينتظر بدأ الهجوم . يوم أمس جاء من فزان بعض الأشخاص من المرابطين ومن أولاد يوسف . إن ثوينات العساكر أرسلت من فزان ووصلت إلى العوينات مرفقة بعدد من الجنود وعربان المارقة للمحافظة عليهم . ولما بلغ خبر ورودهم لمغاظة تابع الشيخ بكر وهجانه الثمانية والعشرين بعثوا هجاناً للشيخ آق بكر يخبرونه فبعث للعوينات أربعاً من الهجانة وقالوا لجماعتهم اقتلوا العساكر الذين هناك وخذوا تلك الأقوات التي معهم ، وإذا كانوا كثيرين ولا طاقة لكم بهم ابعثوا لنا هجاناً حتى نأتي لنعترضهم في المسكان المدعو تنزوف فنقتلهم ونقتل العسكر الذي في غات . . . إن بلدة غات الآن محصورة وهي في ضيق ولا يوجد لدى العساكر الذين فيها شيء من القمح مع الأسف إن نية التوارق لا بد من قتل العساكر . ربنا تعالى يقهرهم هذا هو الخبر المهم والصحيح الذي عندنا (١) .

وهدد الحصار أهالي غات ، كما أثرت الأحداث على تجارة القوافل التي كانت غات مركزاً رئيسياً من مراكزها . واهتم تجار القوافل وخاصة أهل غدامس بتابعة الأخبار ، وكان لهم مندوبون مقيمون في غات .

(١) مجموعة أدهم الرسالة مكتوبة أصلاً بالعربية ومترجمة إلى تركية ولم نعلم على الأصل العربي فترجمت من التركية .

وتوفي في تلك الأثناء الشيخ محمد أخنوخن زعيم توارق الواحة فبرزت مسألة خلافة في الزعامة . وحدث الصدام بين التوارق والشعبانية ، وتعرض بعض تجار القوافل للخطف في هذا الجو الذي انعدم فيه الأمن . وهناك رسالة مؤرخة في ٤ ذي القعدة بعث بها أحد الغدامسية واسمه مصطفى هيبه إلى خاله سيدي الحاج محمد السكيلاني بن محمد بن عثمان الغدامسي نقل له فيها أخباراً وصلته من غات خلال تلك الفترة ضمن رسالة بعث بها قريبهما الحاج محمد صالح المقيم فيها . وتقول الرسالة « كتب ابن عمنا الحاج محمد صالح يسأل اللطف من الله سبحانه وتعالى من الفتن والوقائع ، ويدكر أن غات وضواحيها كلها في ضيق وشدة من التوارق الذين قطعوا الطرق على الداخل وال خارج من شأن الشريف الذي يريد مسكة الصافي . والعسكر قطعوا الطرق أخذوا مونة العسكر وفلوس الشهيرة ، حتى الحمول الذي أتوا من طرابلس حبسهم في الشاطئ . . لا يدخل غات حتى المونة بايش يعيشوا الناس . وكذلك الغاتي ما قعد لهم شيء في السواني ولا قعد أحد في تدرمت ولا نواحي غات الذي كان في نواحيها كله هرب ودخل البلد والعسس ليل نهار . وباب غات ما ينجل إلا ساعتين من النهار ويفلق من العصر . والغدامسية الذي كانوا فيها قالقن من هذا الأمر . . وهذا العام على ما ظنوا ينقطع الطريق على الماشي والجاي . . والتوارق كانوا ينتظروهم يحيي قدومه . . والحاج محمد أخنوخا توفي في التترار رحمة الله علينا وعليه وعلى جميع المسلمين . وكذلك الشعبانية أغاروا على أمباطن أزر أخذوهم ، وكذلك الحاج العربي خرج من توات لغات لحقوه الشعبانية أخذوه الله بلطف . . »

أخبار

وسعى الشريف حميد من ناحيته لجذب يحيى ابن أخت الحاج محمد أخنوخن إلى صفهم ، وكان موجوداً في برنو ، فأرسل له رسولاً « رفاصاً »

مخصوصاً في الوقت الذي بعث به توارق غات له ليخلف خاله في زعامتهم . وكان يحيى هو الخليفة الشرعي لأن « ولد أخت الملك عندهم هو وارث الملك » (١) . وهم يعتبرون - كما قال جوتيه - « أن آل الأم هم أصحاب الزعامة والإحترام في كل شيء » . فالذين لهم حق الوراثة هم فرع الأم » (٢) . وقد بعث قائمقام غدامس إلى متصرف الجبل الغربي يحيطه علماً بسعى الشريف حميد وبما وصله من أخبار نقلها نفر من التوارق قدموا غدامس مع إحدى القوافل وحملوا رسالة الصافي قائمقام غات له . وبما جاء في رسالة قائمقام غدامس المؤرخة في ٣ ذي القعدة قوله « ومن الأخبار التي ذكروها المذكورين أن أحمد الشيخ بن حسين أتى إليه الشريف وهو يحضر في نفسه وقد أرسل رقاص مخصوصاً ليحيى ابن أخت أخنوخن بك التي في برنو الذي سياتمل أنه سيكون عوض خاله . ولما فعلوا من بغضه في العساكر الشاهانية وقلة عقله نرجو الله أن لا يأتي به أبداً . وقد أخبروا أنهم قد صارو مسموعهم بأن الشعابنة التي عرضنا على مسامعكم الشريفة أنهم توجهوا لأجل الغارة على هقار قد غاروا على بعض هقار الذي هم في الطرف وأخذوا منهم نحو المائة وستون رجلاً من سوف لأجل التجارة . ولما استخبرنا عنهم أنهم يشترون الرواحل وطاسات الماء وآلات الحرب قد سألهم بعض التجار عن ذلك أخبروا أن حاكمهم قد نبه على كافة الأهالي سوف أن يركبوا الهجن والحيل ويكونوا حاضرين إلى وقت الحريف . وقد أذن لهم في الغارة على تراب هقار خاصة لأجل وقوع المضايقة لعساكر غات فيها .. » .

انظر ما في المجلد

وتثبت القائمقام محمد الصافي بمحاولة القبض على الشريف حميد الذي تضخم عنقه فهو « الشقي الزنديق المفسد الملعون الفاجر الفاسق عدو الله ورسوله والدين والدولة الكذاب الخبيث الكافر » . وأعاد الطلب إلى رؤساء التوارق أن يتخلوا عنه « ويكفوا عن معاملاتهم الفاحشة ويتركوا مصاحبتهم إلى الزنديق الخائن ويسلموه إلى مقام الحكومة السنية ولا يجلبون غضب الذي يوجب تربيتهم وتأديبهم حكم النظامات السنية وقوانين المرمية » . ولكن التوارق لم يستجيبوا « ولم تنفع فيهم النصايح ولا يقبلوها والان فلمهم هذا إنتشرفي كل بر في كل ناحية وسمع به الخاص والعام » . وزرب القائمقام وصول يحيى بقلب واجف « وأما يحيى إلى حين التاريخ ماروح من برنو ومشى له رقاص مخصوص ، ولا نعرفوا إن أتى يكون رأيهم أم لا » (٣) . كما بات متربقاً هجوم التوارق على غات وخاصة بعد أن كتب إليه المتصرف يحذره من هذا الهجوم ، وبعد أن فشلت جهوده في تحويل شيخ هقار ورفيقه ونكروفي عن نصرة الشريف « فلم تنفع فيهم النصايح ولا يقبلوها وهم إلى حين التاريخ في حالتهم السابقة ما تحولوا عنها » (٤) . ووصلته أنباء ضمنها رسالته الجوابية للمتصرف تقول « وكثر جمعهم وتوزعوا كل أحد مشا إلى نزلته وترا بطوا كلهم بأنهم بعد العبد يجتمعوا في العونيات وهذا ما اتفق به رأيهم الفاسد . وكان قدمضى على حصار غات عند كتابة تلك الرسالة خمسين يوماً .

ووصف القائمقام في رسالته هذه بتاريخه : ذي الحجة حالتهم في غات قائلاً « أما إخوانا مجتهدين على محافظة ومن بها آناء الليل وأطراف اليوم ، لنا أزيد من خمسين يوم في حالة واحدة لم بقنا في حياشنا ، مانباتو إلا فوق الأبراج ونلوذو في وسط الفصبة من قلة الأمانة على ما رأينا وسمعنا

(١) من رسالة كتبها القائمقام بتاريخه ٤ ذي الحجة ١٣٠٢ .
(٢) من رسالة كتبها القائمقام بتاريخه ٤ ذي الحجة إلى المتصرف
(٣)

(١) المصباحي ص ١٢٣ .
(٢) جوتيه ص ١٨٢ .

وما كنا فيه . . . » ويبدو من رسالة أخرى كتبها في اليوم نفسه أن أعصاب الجند كانت متوترة حتى أنهم كانوا يطلقون البارود على الخيال ، « فأمرناهم بالكف عن سرخ البارود من غير معاينة صحيحة » . وأنهم هربوا في أحد المرات حين توهموا حدوث هجوم « لينجو بنفوسهم » . وقد وبخهم القائم مقام قافلا « كيف يكون الهروب لضابط من غير أن يعاين الغلبة الشديدة » ودعا في رسالته أن تأنيهم ساعة اليسر .

و تعرضت الجماعات الثائرة لتجارة القوافل فاغتصبوا بعض قوافل طرابلس وغدامس ورأى الصافي قائم مقام غات أن يستعين بمحمد بن اخوخن زعيم غات المتوفى في استرجاع بعضها فنجح في ذلك . واهتم والى طرابلس أحمد راسم بما يجري هناك وخاصة فيما يتعلق بأمر تجارة القوافل . وقد عثرنا على صورة رسالة موجهة منه إلى الصافي يقول فيها « وصلتنا الرسالة التي كتبتموها بتاريخ ١٨ ربيع الأول عام ١٣٠٣ إلى قائم مقام غدامس وأطلعنا على ما فيها عن الطريقة التي استرجعتم بها العشرين حملا من الاثنين والخمسين حملا من البضائع التي اغتصبها التوارق من قوافل الطرابلسيين والغدامسيين على مسافة سبعة أيام من وراء غات . » ويضى الوالى يستحث القائم مقام على القبض على الشريف حميد « لقد فهمنا أنه قد لحق شخصكم الكريم بعض المضايقات إلا أننا كتبنا لمنصرف فزان بشأن إعطائكم المقدار الكافي من الصلاحيات . ولا يوجد هناك ما تواخذون عليه غير عدم العثور والقبض على مدعى الشرف حتى الآن . وعليه فإنكم مثل ما بعثتم ابن نخوخا لاسترجاع البضائع المغتصبة السالفة الذكر فانتا نهيب بكم أن تبعثوا في الحال من روه كفؤا لإلقاء القبض على الخبيث المذكور . فعملا بالأشعارات المكررة بخصوص هذه المادة المهمة ابدلوا في الحال أقصى اهتمامكم بلوغها وبشرونا بأنكم قبضتم على المذكور حيا أو ميتا . وإنى في انتظار بلوغ مساعيكم وأقداماتكم في هذا الشأن

إلى النتيجة المرجوة واخلطكم وادعيتكم خاصة بأن تمدوا نظر اهتمامكم للحفاظ على أمن الطرق وسكينتهم . »

وبرز محمد بن نخوخا على مسرح الأحداث وتطلع إلى أن يخلف أبوه في زعامة غات مخالفا تقاليد التوارق وعادهم ، ومتعديا على حق يحيى ابن عمته . ويبدو أن متصرف فزان شجع عنده هذا الطلع الأمر الذى استوجب أن تنبه الولاية المتصرف إلى ضرورة التزام سياسة دقيقة لا تؤدى إلى اغترار يحيى وغضبه وتحول دون حدوث ما يخل بالأمن والسكينة . كما يبدو أن قائم مقام غات اتخذ موقف التأييد لمحمد مدفوع بحجبه إلى اللقاء مع الشريف وإعلان العداء للسلطات العثمانية . خاصة وأنه سبق له الاحتكاك بالسلطات وكان ذلك أحد أسباب مغادرته إلى برنو .

وعاد يحيى بناء على إشارات الاستدعاء التي وصلته . وتنازلت الأحداث بعد عودته بسرعة وكان من أبرزها قتل محمد الصافي قائم مقام غات . وقد تضمن التحقيق الذى أجرته السلطات حول هذا الحادث بعض تفاصيل ماجرى فى تلك الفترة .

يتضح من التحقيق أن يحيى حين عاد اتخذ جانب الشريف حميد ولجأ إلى البركت ، وسأه في شن النزوات على القوافل . وقد ذكر التاجر الحاج السنوسى الكيماوى في تقريره للتحقيق أنه تعرض لهجوم الثائرين عليه خلال رحلته من بلدته مرزق إلى غات ومعه « أربعة قفزة قمح وثلاثين راض سكر لأجل التجارة » وقال « فلما وصلت وادى تنزوف قرب الطولة أتوني التوارق خمسة وستين مبرى أخذوني وساقوني معهم إلى عين تماله أنا والمكاروية وجدت قافلة بضاعة بن على والغزالي وطعام ومتاع الأهالى أخذوها كذلك وسلبوني وأخذوا جميع ما عندى ، وجمعوا كامل ما نهبوه على وجه الغارة فى العين المذكورة - طعام الميرى وبضائع التجار -

وقسموه بينهم .. ورفعونا إلى عين قرب البركت تسمى تنكويه، والعرب ساقهم يحيى إلى البركت عنده .. « كما أن يحيى أجرى اتفاقاً مع أولاد سليمان والشعابنة لينضموا إليهم في ثورتهم على السلطات . وقد ذكر الكياري أن المسكاروية أخبروه « أن رقاصاً أتى من جهة الشعابنة بجوابات ليحيى ورقاص من أولاد سليمان بلغوه أنهم قادمين .. وقصدهم الفساد والتشويشات على فزان وغات .

ثم عمد يحيى إلى الحيلة للايقاع بمحمد الصافي . وتم ذلك - وفقاً لرواية التاجر محمد بن علي القطروني الذي تصادف وجوده في غات - حين أتى يحيى ومن التوارق طالباً الصالح « فصار الصلح بينهم وبين الصافي باشا وعملوا عرس وفرح . وفي اليوم الثاني أتوه التوارق المرقومين قالوا له أخرج معنا اكتب لنا جوابات الصلح فظهر معهم الصافي باشا والملازم إبراهيم أفندي إلى زريبة خارج البلد مسافتها ثلاثين خطوة على باب البلاد وباشا في كتب الجوابات كتبوا اثنين وفي أثناء الجواب الثالث هجمو قدر عشرين تارقي الذي رفقة يحيى المذكور مسكوا الصافي باشا والملازم الموحى إليه . وعندما امتنع الصافي باشا عن المشي معهم ضربه بسيف على غذه وعلى رأسه وعلى يده انقطع صبع واحد ، وكذلك ربطوه من رقبته ورجليه بحبل . ولإبراهيم أفندي بئله ربطوه ورفعوهم على مهاره . فلما صارت هذه الواقعة خرجوا مقدار اثنا عشرة نفر عسكر فرغوا في التوارق . الحاصل التوارق رفعوا صافي باشا والملازم إلى جبل يسمى تاسيلي مسافته عن البركت نصف نهار ورجع العسكر إلى البلد وبعده فر إبراهيم أفندي من الجبل قصده الحية إلى غات وعطش في الطريق فشى إلى البركت فلقوه التوارق ومسكوه وهو باقى عندهم في البركت . والصافي محبوس عندهم في الجبل المذكور « . وأكد القطروني في إفادته ما ذكره الكياري عن اتفاق يحيى مع أولاد سليمان والشعابنة . وقد بلغت أخبار

ماحدث للصافي إلى مدير ناحية وادى الغربى حسين بو عيشه فكتب إلى متصرف فزان رسالة بتاريخ ٢٧ ذى القعدة ١٣٠٣ يخبره بما جرى على لسان رجل اسمه أحمد بن عمر قدم من غات ذكر أن التوارق خانوا الصافي « وضربوه بحربة حيث ما بغى يساعدهم في المشي معهم وكيفوه وجعلوه في جرد ورفعوه . . ويتضح من رواية أحمد بن عمر هذا أن محمد ابن اخنوخن وقف موقفاً مخالفاً ليحيى وأوصى الراوى بأن لا يأتى أحد إلى غات لا عرب ولا توارق .

قتل التوارق الثائرون محمد الصافي وهاجموا غات واحتلوها وفرت الحامية العثمانية منها . وقد عزا متصرف فزان يحيى نزعت أسباب تغلب التوارق إلى تقصير قائد الحامية في اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمجابهة مثل هذه المفاجأة . وذكر في تقريره أن الجراح محمود أفندي لم ينصح لأمر اليوزباشى وانهمز ومعه فرسان العرب وثلاثون جندياً عائدين إلى مرزق . وقد نقل هؤلاء أن يحيى قتل برصاصة أصابت رأسه وحل مكانه في قيادة الثائرين المدعو دانكروف وذلك في أوائل عام ١٣٠٤ هـ .

ومنحت الحكومة العثمانية وسامين للمرحوم الصافي باشا أحدهما وسام الامتياز والآخر وساماً عسكرياً .

وليس لدينا تفاصيل عن كيفية القضاء على الحركة ولا عما جرى مع الشريف حميد ، اللهم إلا إشارة وردت في برقية أرسلها أحمد راسم إلى رئاسة الوزراء في استانبول بتاريخ ١٦ كانون أول ١٣٠٨ مالية تتحدث عن « ظهور الشريف الكاذب المتمسدى بالشاطيء في فزان والقضاء عليه وعلى حركة التمردية » . أما الشريف محمد الكيلاني فقد تم إلقاء القبض عليه بمرزق أو آخر جمادى الثاني من سنة ١٣٠٦ على يد اليوزباشى على عبد السلام الذى كان فى الشاطيء عند قيام الحركة . ويبدو أن محمداً

كان محتفياً عن الأنظار فترة ثم جاء إلى مرزق وتقدم بعرض حال إلى أحد رجال الحكومة وتصادف وجود علي عبد السلام فتعرف عليه . وقد أفاد علي في التحقيق قائلًا « وعرفت أنه هو الشريف محمد فقلت له أنا عرفتك أنت الشريف محمد الذي هجمت على العساكر الشاهانية بالشايطي » فقال لي أنا دخيلك لا تخبر عني فقلت له لا يمكن أن أسكت عنك واخبرت به محمود بك فأمر بتوقيفه » . وأغلب الظن أنه قتل بعد ذلك .

لقد كانت ثورة التوارق في منطقة غات بقيادة حميد ويحيى من الثورات التي كثيرًا ما فُشيت أبان الحكم العثماني لطرابلس الغرب . وكان التوارق قد تعودوا حكم أنفسهم بأنفسهم ، وتعودوا أن يكونوا سادة الصحراء يتحكمون في تجارة القوافل إلى حد كبير ويستفيدون منها من الطبيعي أن يضيقوا بالسلطة العثمانية وخاصة حين يمثلها في مناطقهم من يسوء التصرف . ولم يكن قد مضى عليهم وقت طويل على الانفصاء تحت اللواء العثماني حين قاموا بهذه الحركة . فقد تم رفع العلم العثماني في غات يوم الخميس الموافق ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٢ هـ كما تبين من رسالة علي بن محمد متصرف فزان للولاية . وكان ذلك بحضور الشيخ نخوننه والصابي وأهالي البلدة .

ونود في ختام حديثنا عن هذه الحركة أن نشير إلى أن الحشائشي تحدث في رحلته عن « ثورة التوارق على عسكر الترك بغات وقتلهم » . وكان الحشائشي قد زار غات سنة ١٣١٢ هـ - ١٨٩٤ م وذكر أن حاكمها في تلك السنة هو « سيدي الحسان .. الأنصاري .. تولى حكم البلد بعد موت ابن عمه السيد الضاوي .. الأنصاري » . وقال « وكان السيد الضاوي حاكمًا عدلاً ثقة منصفاً عالماً بأحوال السياسة تها به التوارق وتخشي بأسه وتوقره . ومن طباعه الحسنة أنه لا يرضى النهب والقتل والظلم وفي مدته

أطعمأت البلاد والعباد ، وشاع خبره حتى أن بعض الأتراك من حكام مرزق يقول أن هذا الرجل يصلح للصدارة العظمى . وسمى في جميع أعمال طرابلس بالرجل المنصف . ولما منع التوارق من الإغارة على الأركاب والنهب دسوا له الغدر ، والحديعة فتفطن بأعمالهم . وسلم البلد للدولة العثمانية فجعلت به خمسين عسكرياً وبنت به قسلة للعسكر وجعلت بها مدفعاً واقرت الحاكم المذكور على البلاد في حراسة العسكر المذكور . وبعث الكثير من مشايخ التوارق إلى مرزق من الذين فعلوا ما لا يليق بالأمن والراحة . وكان استيلاء الترك هذا على البلد المذكور سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ١٨٧٦ م . « ونباع الحشائشي روايته » ثم لما رأت التوارق ما حل بمشايخهم دهموا على العسكر ليلاً والعسكر نائمون فقتلوا جانباً منه وفر الباقون إلى مرزق . وأما الضاوي حاكم البلد فدهموا عليه وهو بمجله وهو على حين غفلة وما عنده شيء من السلاح إذ ذاك فضر به بسببهم بعد أن قتل منهم اثنين بخنجر صغير كان بيده ثم اثخنوه جراحاً ومثلوا به في القتل فحزن عليه جميع من يحب العدل والانصاف (١) .

يمكننا أن نلاحظ بعض الاختلاف في رواية الحشائشي عما تضمنته الوثائق . وربما كان الضاوي الذي يتحدث عنه هو الصافي ، خاصة وأن ذلك يتفق مع سياق الأحداث الرئيسية في الرواية . فالصافي شهد رفع العلم العثماني على غات وكان حاكمها أشهر بخرصه على الأمن . أما تفاصيل مقتلته فترجح ما ورد في الوثائق لأن زيارة الحشائشي جاءت بعد الحادث بعدة سنوات .

وذكر الحشائشي أن ابن عم الضاوي تولى الحكم بعده في انتظار قدوم أخيه من توات . وحين قدم أخو الضاوي ثبت ابن عمه على الحكم

ولم يرض بالولاية . كما أورد كيف أخذت السلطات الثورة فأرسلت بن قداره متصرف فزان « لحسم الثورة وأمن بلاد غات من سطوة التوارق ففعل ذلك بحسن تدبير ورأى مصيب وانحسرت النازلة وعم الأمن . بلاد غات (١) » .

يؤكد حديث الحشاشي لنا أن من أهم أسباب ثورة التوارق منعهم من الإغارة على الأركاب ، وبعث الحاكم عدداً من مشايخ التوارق من الذين فعلوا ما يليق بالأمن والراحة ، وبتعبير آخر نفهم ونستدل من إحدى الوثائق أن الخلاف اشتد قبل الثورة بين الصافي ونخنوخ ، فنسب الأخير للأول عدة أفعال وشكاه إلى متصرف فزان . وكان رأى مجلس إدارة الولاية حين عرض عليه الأمر « أن الصافي بك أحد الخدام المخلصين الذين اظهروا واثبتوا بالفعل صدقهم ونواياهم الطيبة » وأن تلك الأفعال « لم تكن إلا من اختراع نخنوخ وبدافع من المنافسة الأمر الذى من الطبيعى أن لا يمكن أن نجد مثل هذه المزاعم مكاناً فى السمع والاعتبار » ومع ذلك أوصى المجلس بأن يقوم متصرف فزان بالتحقيقات اللازمة شريطة التزام سبيل الحكمة .

لم تسكد سلطات الولاية تنتهى من ثورة الشاطىء وغات حتى شغلت بتحريك جديد فى طرابلس أواخر عام ١٣٠٦ المالى - ١٨٩٠ الميلادى فقد اكفهر الجو وتوترت العلاقة فى مركز الولاية بين عدد من رجال المدينة وبين والى أحمد راسم . وقد أشرنا خلال حديثنا عن أحمد راسم إلى هذه العلاقة كما ظهرت فى صورة حرب برقيات وعرائض أخذت

طريقها من طرابلس إلى الآستانة وخاضها الطرفان . وذكرنا أن الشرارة الأولى التى اشعلتها كانت حين سمع أولئك الرجال أن والى كتب إلى استانبول يصف أهل الولاية بالميل إلى الأجانب ففضبوا لذلك أشد الغضب واصلوا سخطهم على والى أحمد راسم .

وكانت أسباب السخط غير المباشرة متصلة بسياسة والى الداخلية ، وخاصة أسلوبه فى التعيينات ولجؤه إلى الجاسوسية والمخبرين بشكل واسع فى تتبع حركات الناس فى الولاية .

وقد جاء فى إحدى برقيات الأعيان « أهل الولاية أحرقهم (يقصدون والى) بظلمه عشرة سنين . . مأمور العدلية والمليكية يظلمهم والى كيف يشاء . . أعضاء الإدارة للبلدية والعدلية ينتخبهم بنفسه ويعزهم استبداده يورث عواقب وخيمة » . فطول مدة ولاية أحمد راسم مكنته - كما يبدو - من تنفيذ سياسته وتوسيع هلاحياته ، الأمر الذى سبب سخط الكثيرين . فكان إن التقوا على المناهضة ، وكانوا مجتمعون فى البيوت والمقاهى يتذكرون فى أحوال الولاية ، فاتفقوا على رفع الشكاوى فى حق والى إلى استانبول . وكان والى يتلقى تقارير يومية من مدير البوليس الذى كلفه برقابتهم عن تحركات البارزين فيهم ، يتضمن ذكر كل ما يفعلوه منذ خروجهم من البيت إلى ساعة عودتهم . وقد اتفق هؤلاء الأعيان على إرساله برقيات شكاية إلى الآستانة لإثارة شكواهم السابقة .

ونستعرض هذه البرقيات بحثاً عن مضمون الخلاف ، فنجد تاريخ البرقية الأولى ١٩ كانون الأول ١٣٠٦ أى أوائل عام ١٨٩٠ م . وعام ١٣٠٨ هـ . وقد جاء فيها « بناء على ما شاع عن والى الولاية أحمد راسم

باشا بأخباريته عن ميل أهالى الولاية إلى الأجانب قدمنا عدد اخباريات إلى اعتابكم ، وأرسلنا ذوات لتبليغ الأحوال الشفاهية فسافروا خفية . وتستدل من هذا النص أن شكوى الأعيان سبقت لإرسال البرقيات وكانت عن طريق إرسال اخباريات ورسل من النوات سافروا خفية ليعرضوا الشكاوى شفويًا . ويبدو أن الوالى بعد أن علم بذلك اتخذ إجراء مضادًا . فالبرقية تقول « فجمع الوالى المأمورين جبراً وسود لهم مضابط وأمهم بهمهم فن خوفهم منه امتثلوا أمره ، وانقسمت الأهالى قسمين . ونخشى وقوع تشويش عموى بالولاية . والوالى مراده ضد الراحة ليفتح باب المداخلة للأجانب . غيثنوا ، والبوليس محافظ على المشتكين وينسبهم إلى الفساد والأهالى بريئون فالظلم أحرقتنا . بجاه الله تعالى رسوله أن تعرضوا حالنا على الاعتبار السنوية ليغيثنا برحمته أفندم » . وتحمل البرقية تواقع اثنين وعشرين من الأعيان ومصادقة ثلاثة آخرين أغلب الظن أنهم كانوا فى موقع مسؤولية . ونص مصادقتهم « نصادق على معرفتنا لأصحاب هذه الاختتام وإذا توجهت مسؤولية عن زيفها نتعهد باحضارهم » . ونلاحظ أن مرسل البرقية ردوا على الوالى تهمة عن ميل أهالى الولاية إلى الأجانب ، فاتهمه « بأن مراده ضد الراحة ليفتح باب المداخلة للأجانب » . وكان الخطر الأجنبى مستولياً على تفكير الأهالى والدولة . وتستدل من البرقية ومن وثائق أخرى أن الوالى كسب تأييد أعيان آخرين فانقسم الأهالى ، كما استفاد الوالى من موقعه فى السلطة للتضييق على معارضيه .

وكانت هذه البرقيات ترسل إلى عدة جهات رسمية فى استانبول . وذكر هذه الجهات يفيدنا فى معرفة مراكز القوى فى الدولة . كما شعر بها الأهالى . فقد وجهت البرقية إلى مقام الصدارة العظمى ومقام نظارة

الداخلية ومقام نظارة الخارجية ومقام نظارة العدلية ، وجميعها ضمن الحكومة ، ومقام سرعسكر ومقام مشيخة اسلامية وباشكاتب المابين (رئيس الديوان الملكى) ودولموش عثمان باشا الغازى ولى رضا باشا وسر خفية أحمد باشا ووكيل سجادة شهر مارى (وكيل السجادة الملكية) أحمد أسعد أفندى والشيخ أبو الهدى افندى ، ويحمل جميع هؤلاء مراكز قوة فى الدولة . وفى برقية أخرى أرسلت فى اليوم التالى وجهت بالإضافة إلى ما سبق إلى الركاب الهمايونى ورئيس شورى الدولة ، وهى تتضمن الشكاوى نفسها وتطالب صراحة بنقل الوالى وأحد الأعيان من أنصاره « المشهور بأصل الفساد » وتؤكد ولاء الأهالى للدولة « فلا يوجد بالولاية من يميل عن دولتنا »^(١) .

واشتدت لهجة الأعيان الشاكين فى برقياتهم التالية ، فواحدة منها تبدأ « إن أحوالنا التى تبوء بالحسران واليأس والحمران الذى نتعرض له من والينا الذى شئت الرعية ورفق مابين الأهالى بما ألقى من قن وعداوة وأحرق وشوى قلوب العباد بنار ظلمه واستبداده ، وتنازع بحرارة قوية واصفة شكواهم » وإن أعماله شغلنا عن التفكير فى أعراضنا وأموالنا بل جعلنا لا نفكر إلا فى المحافظة على أرواحنا »^(٢) . ومع أن أسلوب تلك الفترة كان مطبوعاً بالمبالغة إلا أننا نستدل من تحرك الأعيان أنهم عانوا فعلاً من الوالى ، وبلغ الأمر بينهم وبينه درجة كبيرة من توتر العلاقات .

(١) دار المحفوظات ملف أحد راسم ومجموعة أدم انظر الملحق

(٢) انظر الملحق .

وبلغ الأمر بهم أنهم قرروا إرسال بعضهم إلى استانبول للملاحقة شكواهم. وبالفعل حاول أحدهم واسمه « محمد أبو ربيعة » أن يستقل باخرة وصلت الميناء في ١٣ كانون أول ١٣٠٦ ولكن الحراس منعه من دخول الترسانة ، فذهب إلى باب البحر قاصداً الباخرة فنعه أحد رجال البوليس من ذلك .

وقد رد الوالي ومؤيدوه بإرسال برقيات تحمل توقعات عدد كبير من الناس تهاجم الأولين وتعارضهم وتصفهم بالمفسدين وتكذب شكواهم. ونستعرض إحدى هذه البرقيات فنجدها موجهة إلى المشيخة العليا ورئاسة كتاب ديوان الحضرة الملكية وإلى جناب الصدارة العظمى ونظارة الداخلية . وهي تتضمن شرح مافعله الأعيان الآخرون من وجهة نظر الوالي ، فقد جاء فيها « أن بعض أنفار مفسدين دأبهم جعل عرض المحاضر بالشكايات الواهية بما يحركهم بها أصحاب التحريكات ويمهرونها بأهمار بعضها بتغفيل أربابها جعلوا عرض محضر شكايات كاذبة مهروها بالوجه المذكور » . فهم يتهمون الآخرين بتزوير التوقعات ، وفي أفكار الأنفار المفسدين نذهم أن يوجهوا أنفاراً بالأجرة إلى دار السعادة بقصد الشكايات ، فإن كافة الولاية لم عندهم كلام ولا راضين بحركات الأنفار المذكورين وهم يتهمون الآخرين بأنهم لا يمثلون رأياً عاماً ، ويتبرؤون من أفعالهم ويشيرون إلى أراجيف ، قائلين فيها أنه تهم أجوبة من بعض المالكين بدار السعادة يحثونهم على ذلك . . وحملت هذه البرقية توابع عدد كبير من الأعيان والعلماء والمشايخ والقورغلية ، وتوابع ثمانية تصدق على الاختتام ، ثم توابع رئيس البلدية وأعضاء المجلس البلدى يصادقون

على الكل^(١) . ورد الأولون بدورهم بإرسال برقية يتهمون الوالي فيها بأنه « جمع الأهالي بواسطة الموظفين في منزل رئيس البلدية الذى عينه بدون انتخاب للضغط عليهم وهم يهتمون مضابط تزوج أفكاره ومراميه حتى أن أجور البرقيات التى بثوها دعت من صندوق البلدية » . ويؤكدون أنهم ليسوا من المفسدين - كما اتهموا - وإنما هم من أصدق عبيد الدولة ، ويستنجدون باستانبول على حكومة الولاية « التى تضغط على الأهالي وتجبرهم وتبذر أموال الدولة في برقيات وغيرها من المصاريف من أجل تبرئة أشخاصهم »^(٢) . وحملت البرقية حوالى خمسين توقيعاً .

وبلغت حرب البرقيات ذروتها خلال شهر منذ نشوبها . وفي آخر برقية من الأعيان الشاكن يشيرون إلى أن الوالي « يحاول بأشياء ملفقة ضد بعضنا لتهديدهم والانتقام منهم ، وبما أننا مهدين فإننا منتظرون عدل ورحمة حضرة السلطان »^(٣) . وجاء حكم السلطان لينهى هذه الحرب ، فصدرت الإدارة السامية في ٢٥ كانون الثانى ١٣٠٧ ضمن برقية شيفرة من الصدارة العظمى « بإرسال محمد باشا ومحمد أبى ربيعة إلى دار السعادة مع أول باخرة للإدارة المخصوصة » وإيفاد « على بك بن قدارة أحد أعضاء مجلس الولاية ويوسف باشا قائمقام الزاوية إلى دار السعادة عن طريق مالطة » . وهكذا صدر حكم وسط قضى بإبعاد ونفى اثنين من زعماء الأعيان الشاكن ، وإبعاد اثنين من أنصار الوالي ، وتثبيت أحمد راسم

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادم انظر الملحق .

(٢) دار المحفوظات بمجموعة ادم انظر الملحق

(٣) دار المحفوظات بمجموعة ادم انظر الملحق .

في الولاية ليستمر عهده خمس سنوات تالية . وقد سجلت برقية بعث بها أحمد راسم إلى مقام الصدارة وإلى أحد مرافقي الحضرة السلطانية في ١٩ شباط ١٨٩١ و ٧ شباط ١٣٠٧ تنفيذ الإرادة « السامية » بإرسال وإيفاد من طلب إرسالهم وإيفادهم إلى استانبول « وإن ناصوف وأحمد الجراب (من الأعيان الشاكين) يعاملان وفق المقرر بحقهم » ، وهو يختم البرقية بتطمين أولى الأمر « أن السكينة في ظل جناب والي النعم مستتبة في البلاد وعلى خبر مايرام » (١).

قصدنا من هذا العرض التفصيلي لتوتر العلاقات بين بعض أهالي طرابلس والوالي من خلال استعراض البرقيات المتبادلة أن نتعرف على وجه المعارضة الشعبية للحكم في الولاية ، وندلل على وجود رأي عام في طرابلس له تأثيره . ويشير هذا التحرك الشعبي إلى الحيوية السائدة في أوساط الأهالي والتي كان الحكم يعمل على كبتها كما يعطى فكرة عن العلاقة التي كانت قائمة بين الشعب وحاكميه .

لم يكد يمضي وقت قصير على تسوية الخلاف بين بعض الأهالي والوالي حتى شهدت مدينة طرابلس تحركاً جديداً وانشغل أحمد راسم بقضية جديدة .

وبرز هذا التحرك الجديد من قلب أعماق سجن الولاية في السراى الحمراء وقام به ثلاثة من المسجونين .

(١) دار المحفوظات بمجموعة ادم انظر الملحق .

فأما الأول فكان ابراهيم سراج الدين الذي تزعم من قبل تنظيم الجمعية السرية بطرابلس فوضع في السجن تحت التوقيف بسبب تلك والمادة الفسادية الخيانية التي كانت وقعت منه . وكان قد أمضى في السجن ثماني سنوات طوال . وقد تعرفنا عليه من قبل .

وأما الثاني فكان الحاج محمد بور بعية وهو كما نرجح الرجل الذي برز قبل ذلك كواحد من زعماء حركة معارضة الوالي . وصدر الأمر باستدعائه إلى استانبول . ويبدو أنه عاد من هناك بسرعة وأدخله أحمد راسم السجن باعتباره «مظنوناً عليه باخلال الأساس (الأمن) وإلقاء فساد بالولاية وتحريكات » . وكان الحاج محمد بور بعية صاحب مكتبة بطرابلس تأتية الجرائد العربية والأجنبية بين حين وآخر .

وأما الثالث فكان محامياً شاباً اسمه يوسف عبد الجليل الصيد . وقد وضع في السجن لنفس السبب الذي وضع من أجله بور بعية «لأنه تجاسر بتحقيق ذات الحضرة السلطانية» ويكشف لنا التحقيق الذي جرى معه قصة تجاسره هذا ، حيث ذكر أحد الشهود أنه سمع الصيد يقول «البلد فسدت وكثر الظلم فيها» بحسبون الظالم والمظلوم ، الله ينصر الفرنسيين . فرد عليه الشاهد واسمه علي بقبق من العزيرية «لا تقل الله ينصر الفرنسيين . الله ينصر السلطان » فأجاب الصيد «ينصره على خيمتك» ثم غير الصيد الآخر رغبة في اغاظته بأن خليفة المسلمين وسلطانهم «أمهرومية» فعد ذلك تجاسراً أمنه بتحقيق ذات الحضرة السلطانية . وتقصنا التفاصيل لنزداد تعرفاً يوسف الصيد وهذه الرواية لا توضح إلا القليل عنه . ولكننا نستدل منها أنه كان ينتقد الأوضاع ويتحدث عن فساد البلد وكثرة الظلم فيها . وربما توقع

انتصار الفرنسيين بسبب ذلك. وهذا أرجح من أن يكون قد دعا بانتصارهم. ونستدل من كونه محامياً أنه كان من شباب المدينة المنقف.

ونتعرف على هذا التحرك الجديد من خلال القرار الذى صدر بلزوم محكمة الرجال الثلاثة بتاريخ ٨ شوال ١٣٠٨ هـ - ٤ مارس ١٣٠٧ وبقول القرار إنه «نتيجة التحقيقات المرقومة لأن إبراهيم سراج الدين الموقوف فى مادة فسادية خيانية كانت وقعت من قبل، تجامر وادعى كونه المهدي المنتظر، وصدر فى ذلك مكاتيب وأرسل منها كتاباً لفتى قضاء الزاوية الشيخ الحاج محمد افندى بن عبد الرزاق، وكتاباً ثانياً لأحد العلماء المتوطنين بالقضاء المذكور محمد أفندى الأخضر المغربى. وقد لف كل من الشيخين المكتوب الوارد إليه من إبراهيم سراج المرقوم بعريضة وقدمه لعالى مقام الولاية الجليلة. فعندها صار الشروع فى إجراء التحقيقات. واستنطق إبراهيم المذكور فى شأن ما ذكر واعترف بتلك المسكاتيب وأنها بخط يده ولازال مدعياً هذه الدعوى».

ويتابع القرار «كما ظهر أن الحاج محمد بوربيعة معين ومشارك له فى هذا الفساد الوخيم عقباه الذى هو دسيسة وتحريكات فطبعة وتشبث لإخراج هذه الولاية من عهدة الدولة العلية. وأن يوسف الصيد المرقوم تجامر بتحقيق الذات السلطانية فى الحبسخانه حال كونه محبوساً فى مادة هى من نوع الجنحة». وينتهى القرار بثبوت جرم إبراهيم لإقراره بإرسال المسكاتيب، ومعاونة بوربيعة له لأنه على الرغم من إنكاره تردد عليه مرات، وثبوت جرم يوسف الصيد.

يتضح من القرار أن إبراهيم سراج الدين إدعى المهدوية فى سجته

و «أغرى الموقوفين» وسأل عن أكبر معتبرى القضاة والنواحي المختلفة بالولاية ليراسلهم، وأنه بالفعل كتب لبعضهم. ولو أننا تعمقنا الموضوع لوجدناه يتخذ من المهدوية وسيلة لبلوغ هدف آخر. وقد لاحظت السلطة ذلك فجاء فى قرار المحاكمة وصف هذا التحرك بأنه «دسيسة وتحريكات فطبعة وتشبث لإخراج هذه الولاية من عهدة الدولة العلية». ونستدل من قراءة التحقيقات التى تمت مع الثلاثة أن سراجاً كان يتابع الأحداث من داخل السجن، وبقي حريصاً على متابعة الصحف. وكان الحاج بوربيعة صاحب المكتبة يوافيه بما يصله منها مثل الأهرام القاهرية ويبروت اللبنانية وبعض الجرائد الفرنسية. وتتوقع أن يكون سراج قد تابع تحرك الأعيان ضد أحد راسم الذى كان قد ناصبه العداء الشديد من قبل. كما أنه تعرف خلال سجنه الطويل على الكثير من أمور الولاية من خلال اتصاله بالمسجونين. وسبق له قبل أن يبدأ تحركه الجديد هذا أن رفض الهرب من السجن. وقد تيسر له ذلك حين سجن مع مجموعة من الأكراد المنفيين فقاموا بفتح ثغرة فى جدار السجن هربوا منها وبقي هو. ونرجح أنه اختار ادعاء المهدوية ليلفت أنباه أكبر البلاد له مرة أخرى، ويحركهم. ولا يستبعد أن يكون قد أمل بالاستفادة من العاطفة الدينية فى ربطهم فى فترة تكرر فيها الحديث عن ظهور المهدي، فى طرابلس والسودان.

وواضح من ارتباط كل من بوربيعة والصيد بسراج فى التحرك الجديد، وكلاهما مناهض للسلطة أن انجابه كان معادياً للسلطة. وربما ساهم ضيق سراج الدين من سجنه الطويل فى دفعه لهذا الإعلان الذى كان يهدده بعواقب وخيمة. وحين نتابع إجاباته فى التحقيقات لانجد فيها ما يدل دل خبل

الامر الذي بحمدنا نرجح أن الإدعاء كان للفت الانتباه وللإستفادة من تأثير العاطفة الدينية .

وقد عمد التحقيق مع إبراهيم سراج الدين إلى إثارة قضيته السابقة وفتح كل اوراقه من جديد . وكان هو يميل في إجاباته إلى تجاوز القضية السابقة ليركز على دعواه الجديدة . ولم يتصل من فعلته السابقة ولكنه كان يقول « لا أرى فائدة في الكلام على هذه المسألة القديمة فإن المسألة الجديدة لا يحتاج إلى غيرها معها ، وهي مسألة الهداية التي أنا ملعن بها . وهذه المسألة كما تهم العامة تهم الخاصة أيضا . وكأتمهم المحمدين تهم غيرهم ايضا . وقد أعلم أنه لا فائدة لمحجوس مثل في غاية الفقر والضعف أن يكذب على الله وملائكته وسائر خلقه » . فلما ألحوا عليه أن يفصل في القضية الأولى أجاب أنه يريد الاختصار وقال « وتقريبا لبعض العقول أقول لكم إنى رجل لست في اختيارى فكأنى رجل مملوك مله بعض الروحانيين . وهذا الروحاني ما رأيت منه شيئا من مرغوبات الدنيا فإذا أمرنى بأمر تجب على طاعته ولو كان على فيها ضرر . وقد أمرنى هذا الروحاني طوعا وكرها أن اعلن الهداية وان ادعوا لله تعالى وقد طال بي الزمن وانا على هذه الحالة ، فأنا الآن أتمنى الموت في سبيل الله وافضله على الحبس .. وأنا الآن قطعاً للكلام للمسألة الأولى أقول فعلتها فاقضوا ما أتم قاضون » .

لم يتح لهذا التحرك الجديد ان يأخذ مداه حيث حاصرته السلطة في بدايته . وجرت محاكمة سراج الدين وصدر عليه حكم بالإعدام وحوالت اوراقه إلى وزارة العدل في استانبول للتصديق عليه — كما جاء فى برقية احمد راسم لرئاسة الوزارة فى ١٦ كانون الأول ١٣٠٨ — ولم يلبث ان

مات فى سجنه بعد بضعة شهور فى نيسان ١٣٠٨ . وبهنا من هذا التحرك الذى لم يأخذ مداه انه عبر فى احد معانيه على رفض الحكم العثماني وكان امتداداً للمحاولة التنظيمية الأولى .

* * *

وفى تتبعنا للتحرك الشعبى فى طرابلس الغرب خلال الفترة التى سبقت الغزو الإيطالى يستوقفنا الشيخ سليمان البارونى وتحركه فى النصف الثانى من فترة هذه الدراسة . وإذا كان البارونى قام بدور كبير فى مجابهة الغزو الإيطالى فى الفترة التى تلت وأصبح رمزاً من رموز جهاد البلاد وواحداً من أبرز مجاهديها ، فإنه تهيأ للقيام بذلك الدور الكبير من خلال جهاده فى أواخر العهد العثمانى الثانى .

ولد سليمان البارونى ببلدة جادو حاضرة متصرفية فساطو خلال عام ١٨٧٠ م ١٢٨٨ م^(١) . وهو ابن الشيخ عبد الله البارونى من أسرة البارونى المشهورة بين الاسر البربرية فى جبل نفوسة . واسمها معروف فى الجبل منذ ثمانمائة سنة . وقد تلقى علومه فى بلده ، ثم رحل إلى الأزهر — كما يقول الزاوى — حوالى سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م لتحصيل العلم وأخذ عن أساتذته المشهورين وبقي فيه نحو ثلاث سنوات . ورحل إلى الجزائر سنة ١٣١٣ هـ و ١٨٩٥ م . واجتمع بعلماء تهرت الأباضيين ، وبقي فى تهرت نحو ثلاث سنوات يأخذ العلم عن أستاذ الأباضية إذ ذاك محمد بن يوسف الميزابى . ثم

(١) ابو القاسم البارونى حياة سليمان البارونى الطبعة الثانية عام ١٩٤٨ ص ٣٦ .

رجع إلى طرابلس حوالى سنة ١٣١٦ هـ و ١٨٩٦ م وقد تأثرت نفسه بما رأى من آثار تهرت فألف كتابه « الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الأباضية » طبع منه القسم الثانى « (١) » .

ويوجز مؤلف كتاب حياة سليمان البارونى المرحلة التالية من حياته بقوله « وكانت له آراء خاصة فيما يتعلق بسياسة الدولة العثمانية استوجبت نقمة الحكام العثمانيين عليه ، حتى اضطهدوه في عهد السلطان عبد الحميد بكافة وسائل الاضطهاد من سجن ونفى وتشريد .. فسافر إلى مصر سنة ١٩٠٧ . وهناك شرع في مواصلة دعوته الوطنية وأصدر جريدة « الأسد الإسلامى » ، حتى امتدت أصابع النفوذ العثمانى إلى هذه الجريدة فأمرت بمصادرة أعدادها وإيقاف صدورها « (٢) » . ونبحث عن هذه الآراء الخاصة وعن قصة صدامه بالسلطة في الولاية واضطهادها له فنجد ما يعرّفنا بها في شكوى حررها البارونى بعد خروجه إلى مصر ووجهها إلى السلطان عبد الحميد . وقد نشرتها ابنته مع الكثير من أوراقه في كتاب « صفحات خالدة من الجهاد » . وهو يقول فيها :

« تحت رايتك الخافقة بالعدل يا أمير المؤمنين قبضت على الهيئة الحاكمة بطرابلس الغرب ١٣١٦ وأنا قادم من مصر على طريق أوروبا والجزائر وتونس ، وعاملتى بكل قساوة لانصحاء لدولتك ولا محافظة على ملكك . لا والله لمقاصد شخصية وانتصاراً لأنفسهم ولمن ينتسبون إليه وتمتعاً للنفس بطلاوة قهر الرجال ولذة الاستبداد ولأنهم وجدوا عندى رسالة

كنت حررت منها نسخة إلى أهل الجبل تحريراً لهم على قبول التعليم العسكرى وبينت لهم فيها عيوب الأجانب بالجزائر وتونس ومصر ، كما هى محفوظة بأوراق المحاكمة « .. ويبدو أن سليمان عاد من سياحته متحمساً للعمل من أجل خير بلاده ومستشعراً الخطر الأوروبى ، وكان وقتذاك في شرح للشباب ، وكان قد كتب لقومه يحرضهم على الإقبال على التعليم العسكرى الذى عمل نامق باشا على تميمه . وذلك بعد إنهاء ولاية نامق في أول عهد هاشم فخره بالسياسة الاستبدادية التى تمارسها الهيئة الحاكمة . وهو يذكر في أحاديثه لابنته أن السلطة قبضت على متاعه الذى أرسله قبل وصوله « ووجدت فيه بعض أوراق ومكاتبات فشرت عباراتها بماشات وأولت المهم منها كما أرادت » فأوقف بمجرد وصوله في دائرة البوليس ممنوع الاختلاط ، وحقق معه « (١) » .

ويتضح من الشكوى أن البارونى تصادم مع المفتى وبعض كبار موظفى الولاية فقد سجل فيها « وأبرىء من هذه القضية هاشم باشا الوالى في ذلك الوقت لعدم معرفته بأحوال الولاية حيث كان جديداً وما الفضل فيها إلا للشيخ المفتى وشيعته رجاء أن ينالوا بذلك رتباً ونياشين » . وكان البارونى قد انتقد بعض أعمالهم فنقموا عليه واتهموه بمعاداته للسلطة ، وعلى حد تعبيره « لفقوا من الخرافات المضحكة حتى أثبتوا ما يوجب إتهامى بالحكم على بالإعدام أو السجن مؤبداً . وأودعت في السجن نحو شهرين ونصف لاقيت فيها من الإهانة والمضايقة وقهر النفس العزيزة سرّاً وعلناً ما لوصب على الجبال لدكت وعلى البحار لغارت . ولو أصابهم منها جزء من الألف لأبرزوا شهادات تدل على أنهم حاية لكذا وكذا » .

ونعثر بين أوراق دار المحفوظات على تقرير المحقق بشأن التهمة

(١) الزاوى أعلام ليبيا ص ١٢٧ .

(٢) أبو القاسم البارونى ص ٣٧ .

الموجه للبارونى ، فتعرف من خلاله على « وجهة نظر » السلطة فى نشاطه وعلى جو الحذر والشك الذى كان يخيا امتداداً لجو الاستبداد الحيدى . ونلاحظ أخذ السلطة بالشبهة فى تعاملها مع الأفراد . وتاريخ التقرير هو ١٤ محرم ١٣١٧ هـ و ٢٥ مايو ١٨٩٦ م ويتضح منه أن البارونى « مدعى عليه بظهور بعض الأوراق فى حوزته توجب تهيج الخواطر والإخلال بالنظام والسكينة وقبوله رئاسة الجمعية الفسادية التى ألفها بقصده الباطل لإخراج جزء من الممالك المحروسة السطانية من تحت الدولة » . وكان دليل الاتهام ضده مجموعة أوراق وجدت فى حوزته .

ويقول « إن المتهم تلقى إمامة المكان المسمى تاهرت السكان فى صحراء الجزائر والذى كان قديماً مقر النبى رستم .. وأنه تسلطن .. كما أن ما جاء فى الكتاب الذى يقوم بتأليفه بخط يده يبحث عن حاضرة بنى رستم الذين استولوا على ما بين الإسكندرية والجزائر يدل بأنه من أرباب الأفكار السكسدة والأفعال الفاسدة » . كما أخذ عليه أنه تحدث عن اضطراب الأحوال فى لواء الجبل وكتب لأحد أصدقائه يفتقد « ضعف ثغور الدولة العلية التى دلت القرائن أن مبتسمه فى وجوه فرنسا ولاندرى متى تنبه من غفلتها » .

ويخلص التقرير إلى إثبات وجهة نظر السلطة فى نشاط البارونى بالقول « والحال إن اشتغال فكر الرجل الذى يسعى لتحصيل العلم بالأمر الحكومى والأحوال المحلية ليس من سداد الرأى » . وينتهى التقرير

إلى اتهام البارونى بأنه « تولى وقيل رئاسة جمعية فسادية تسعى لبث الأضاليل لإخراج جزء من الممالك المحروسة الشاهانية من تحت الطاعة . وإن هذه الأعمال تعد من نوع الجنائية التى ينطبق عليها حكم الفقرة الثانية من المادة ٥٨ » . ويطلب المحقق « اتخاذ قرار بوجوب محاكمته جنائياً وأن يصدر له مذكرة توقيف غير مؤقت^(١) » ، والتقرير - كما هو واضح - يكشف عن الاقتران فى تفسير العبارات وتأويلها والتعسف فى البحث عن القرائن وفى اتخاذ الإجراءات .

وهكذا سجن البارونى أول مدة شهرين ونصف . وأثار سجنه نفوس أهل الجبل لما له من احترام بينهم . ثم أطلق سراحه بكفالة وأرسل إلى الجبل تحت الحفظ . وقوبل هناك باستقبال كبير من أهالى المنطقة حيث رافقه خمسون فارساً من أعيان مالكية الرحيات ونفوسة فساطو^(٢) . ويراه مجلس الاستئناف بالأكثرية ولكن لم يلبث أن جاء نقض البراءة من دائرة التمييز مع عزل الأعضاء الذين حكموا بالبراءة . وتم القبض عليه بتظاهرة كبيرة دبرها قائمقام فساطو محمد بك الأسير الذى طلب زيادة العسكر « ليوهم الوالى حافظ باشا بأنه عمل عملاً جليلاً وأن لولاه لما أمكن الحصول على ولكن كذا وكذا ، وأظهر له أن الجبل فى استعداد لمنعه من القدوم بى إلى الولاية .. واصطحب معه ما يقارب ١٨٠ نفرأ من العساكر الشاهانية تجسباً للمسافة وتعظيماً لها فى نظر الوالى والأهالى للمقصد المذكور وكانت تلك المعاملة سبباً فى استياء الأهالى وصفه البارونى بقوله « قام وقعد أهل البصائر لهذه المعاملة الشنيعة

(١) نص التقرير كاملاً فى مجموعة الوثائق .

(٢) صفحات خالدة من الجهاد ص ١٠٠ .

ولإجرائها على مسمع ونظر من الأجانب الذين يتوقعون الفرصة للتدخل في بلادنا ، ولم يجدوا أذناً صاغية وفؤاداً يفقه القول .

وصدر الحكم على سليمان الباروني بالسجن خمس سنين في قلعة بند ، وخلف الحكم في نفسه مرارة عظيمة عبر عنها بقوله « حكم على بدون مراجعة بخمس سنين ، قلعة بند ، ومع ذلك أودعت في سجن المحرمن مع سفلة اليهود والنصارى وقطاع الطرق . . . وكأني لست بمن ينسب إلى العلم الشريف ، ولا من بيت عريق في المجد محترم في نظر الناس له ما يقارب الثلاثمائة سنة لم يخل من حاكم على الجبل أو عالم جليل هو المرجع في المشكلات كما هو مشهور ، والتاريخ شاهد عدل في ذلك لمن تصفحه » وأمضى في السجن عاملاً كاملاً قاسى فيه ضروب الانتقام وأنواع الإهانة ثم أفرج عنه « تحت كفالة مع مراقبة الضابطة » فأمضى على ذلك سنة أخرى ، « إلى أن قدم العشرة المنتخبون من الولاية إلى دار السعادة وطلبوا العفو » فصدر العفو بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٣١٨ مالية . وكان هؤلاء العشرة قد انتدبوا من أعيان مركز الولاية والمتصرفيات بطلب بطلب من الباب العالي للدولة في أمور الولاية لتظهر الأستانة رضا الأهالي على إجراءات الحكومة القاضية بتسجيل الأملاك وتحرير النفوس وكنا قد تحدثنا عن هذا الوفد في فصل سابق . ولاقى العفو السلطاني صدى طيباً عند الكثيرين .

واتجه سليمان الباروني بعد خروجه من السجن إلى نشر العلم والمعرفة في منطقته ، فقام بتجديد مدرسة مهجورة عتيقة في مركز متصرفية الجبل . ودعا المتصرف ورجال الحكومة والعلماء والأعيان لافتتاحها . وسرعان ما ضمت ما يقارب المائة تلميذ « من تلامذة القرآن لأنه يكاد ينقطع من ذلك القطر لعموم الجهل » . ولكن السياسة الاستبدادية ورجالها كانوا له بالمرصاد فشككوا في نشاطه ونسبوا تحركه « لمقاصد سيئة لأنه

برعهم عدو للدولة » . كما وقفوا في وجه تعيين والده مفتياً لفساطو وكذلك في وجه تعيين أخيه باعتبارهما على صلة وثيقة به . وضيق عليه هؤلاء الخناق فسكانوا يراقبون تحركاته ويفتحون بريدته حتى ضاق بهم وبجو الاستبداد الخائق فقرر الارتحال . وكان دافعه لذلك كما قال « أيقنت بأن غرض القوم لإيقاعى في شبكة لا ينالها عفو كالأول إذ ليس كل مدة أجد من يطلب لى العفو أو يبلغ شكائى ، على رأى المثل القديم ما كل مرة تسلم الجرة ، فطلبت الإذن في السفر طلباً للتجاة » . وحاول رجال السياسة الاستبدادية منعه من السفر ولكن رجب باشا الذى تولى الولاية وكان عارفاً بأمورها لم يستجب لهم ومنحه تذكرة المرور .

وسافر سليمان الباروني إلى مصر للإقامة فيها عن طريق البحر . فنزل الاسكندرية ومنها انتقل إلى القاهرة . وكان له بها سابق معرفة وإقامة . وسرعان ما انخرط في الجور العلمى فيها فحضر المجالس العلمية والمجتمعات الشهيرة والأندية العمومية ، وكانت القاهرة وقتذاك توج بحركة اليقظة الحديثة ، وياشر نشاطه العلمى . وكان من أول أعماله في هذا المجال أنه طبع ونشر ديوان شعر الحضرمى « الذى مضى عليه نحو ثمانمائة سنة » والذى تغلب عليه الدعوة إلى الجهاد . وقد وصل الديوان المطبوع طرابلس فأثار نقمة رجال الهيئة الحاكمة — كما يبدو — فتوعدوا بتأديبه حين عودته « تأديباً يفوق التأديب الأول » وكان أحدهم قد حذره حين غادر بالآل ينشط في مجال الكتب وهدده بالآل يستصحب معه كتاباً كمثلك التى أحضرها معه من الجزائر وفيها الكثير من كتب مذهبه الأباضى ، وكأنها على حد قوله في شكايته « كتب الوثنيين أو رسائل المبشرين » .

وقرر سليمان الباروني البقاء بمصر حتى يتبدد ظلام الاستبداد الحميدى المحبط بطرابلس . وكان أول ما فعله بأنه سجل شكواه بما لقبه للسلطان عبد الحميد نفسه ليسمعه كلمة الحق . وأرفق الشكوى بديوان الحضرمى

قالا عنه « وهو جدير بأن ينشر في مثل عسكري الباسل المظفر ليزدادوا شدة وحاسة ». وقد تضمنت الشكوى نقداً عنيفاً للسياسة الاستبدادية وإنذاراً للسلطان بتوقع عواقبها الوخيمة ، وهي تكشف عن مدى قوة وصلابة نفسية الباروني ، وتشير إلى فكره الحر ومدى حبه لوطنه واضطراره للبعد عنه . وذلك - كما شرح - « لأنني أفضل السياحة في بلاد الله تاركا وطني وأهلي وولدي متحملا مشقة التغرب وإتلاف المال على الرجوع إلى بلد لا تراعي فيها هزيمة في جانب مصلحة دولتك ، مخاطبا عبد الحميد ، ولا يسعى فيها إلا وراء الثوائد الشخصية حتى اتهم بما لا يأذن به الله ولا رسله^(١) » .

وكان سليمان الباروني قد بلور قراره عند مغادرته طرابلس عازماً على متابعة جهاده من مصر إلى أن تنحسر القمة في طرابلس ، وأشار إلى ذلك في أوراقه ونظم قصيدة وداع لوطنه العزيز ، وقال « قلت هذه القصيدة وداعاً للوطن العزيز ، طرابلس الغرب ، لما سافرت منها إلى مصر سنة ١٣٢٤ هـ للسياحة وقضاء بعض مآرب ، وفي العزم أن لا أعود إلا إذا تبدلت حالتها إلى أحسن مما هي عليه بحيث تمكن لي الإقامة فيها مع حرية النفس » .

وفي مصر أسس سليمان الباروني مطبعة سنة ١٣٢٥ أسماها مطبعة الأزهار البارونية . وكان افتتاح العمل فيها بكتاب « الأزهار الأباضية » الذي سميت بإسمه . وكان هدفه من تأسيسها « أن تكون خادمة للدين ناشرة للأدب ولشكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهبة الاجتماعية مترقية

في درج التقدم^(١) » . وكان تأسيسها الخطوة الأولى لإصدار جريدة أسماها « الأسد الإسلامي » ، صدر العدد الأول منها أواخر سنة ١٣٢٥ هـ وأوائل ١٩٠٨ م واتخذ منها منبراً ينشر منه أفكاره . وقد توقف صدورها بعد أعداد قليلة حين عاد الباروني إلى طرابلس بعد الانقلاب الدستوري على عبد الحميد عام ١٩٠٨ .

فإذا نظرنا في أفكار الباروني خلال تلك المرحلة من حياته نجد أن الفكرة التي سيطرت عليه هي فكرة « اليقظة » . وهي الفكرة التي سيطرت على الطلائع العربية آنذاك كاستجابة للتحدى الغربي وفساد الحكم العثماني . وقد تبلورت الفكرة عند الباروني في فترة شبابه المبكر من خلال احتكاكه بتيارات الفكر السائدة وتعرفه على الحضارة الأوروبية . فأصبحت « اليقظة » عنده تعني الرقي والتقدم العلمي وبناء مجتمع يحترم الفرد ويوفر له الأمن .

استهدف الباروني تحقيق هذه اليقظة حين عاد إلى طرابلس من سفره الأول ، وبقي هذا الهدف قائماً أمامه حين اضطر لمغادرتها . وقد سيطرت فكرتها على قصيدته التي ودع فيها طرابلس عام ١٣٢٤ ، والتي تضمنت تصويره لمظاهر اليقظة . فهو يودع دياره ويرجو أن يعود إليها في أيام أفضل تكون الحضارة فيها قد عمت . ويعدد مظاهر الحضارة ثم يطالب مواطنيه أن يحققوا هذه اليقظة . وفيما يلي نص القصيدة بقديم لنا بتعبيره تطلعاته وأفكاره .

(١) من إعلان أصدره عن المطبعة : صفحات خالدة من الجهاد ص ٤٠ .

وداعاً ديار العز حتى أعود إليك في أهنا نهار

إذ مانحو قطرك مدخط (حديدي) إلى تلك القفار

ونور (الكهرباء) أذاك يسعى وقيل الماء في البيداء جارى

وطهرت العيون وقام حزب (بمعدنك) النفيس وبالأثار

وشيدت (المدارس) واستقامت رجالك واكتست ثوب الفخار

وخطب فيك (بالتلفون) خل يريد البحث عن حال التجار

وحررت (الجراريد) واستعدت (مطابعا) إلى نشر القرار

ورقيت (الصنائع) واستقامت شبيبتك الحليفة للديار

وجاب الشهم منها الأرض علماً وخاض بحزمه لجج البحار

وجارى في السياسة من أوروبا رجالا زاحوا قطب المدار

وأبدى الكد مخترعاً مجداً يجر النفع من تحت الستار

هناك تكون يا وطن المعالى غزير العلم مجتمع النضار

يسود المرء فيك ينال عزاً يحوز الأمن يطمع بانتصار

* * *

رزقت بدولة تسعى دواماً لتهديب الكبار مع الصغار

وما نجع الدواء وما استفاقوا لحبهم الدمار على العمار

ألا يا قوم قد نتمت طويلاً وهمتم بالجهالة في البرارى

فهل من يقظة تشفى غليلاً وتحوما استوى من سحب عارا

فهموا وأصدقوا فالصدق فيكم عريق واحفظوا حق الديار

ولاً فالوداع وكل قطر به الإسلام يصلح للقرار

إن خطاب البارونى لقومه في الآيات الأخيرة من القصيدة يذكرنا
بنداء اليازجى قبل ذلك « تنهوا واستفيقوا أيها العرب . . . فقد طمى
الخطب حتى غاصت الركب » ، وإن لم يد في قصيدة البارونى روح
العداء للترك كما في قصيدة اليازجى المشهورة . كما ركزت قصيدة البارونى
على معانى الحضارة بشكل واضح . ونلاحظ أن البارونى انطلق في
حديثه من مضمون الشعار الذى رفعه الإمام محمد عبده حين كان يردد
الآية الكرعية « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ولم
يهجم بشكل مباشر الحكم العثمانى .

وتركزت كتابات سليمان البارونى في جريدته على قضية اليقظة ،
فبحث في أسباب تأخر المسلمين وحاول أن يحدد سبيل التقدم . وتبنى
فكرة الجامعة الإسلامية التى اقترنت وقتذاك بفكرة اليقظة . وكان
اختيار اسم الجريدة من وجها . وقد أوضحت افتتاحية العدد الأول
اهتماماته الرئيسية ، ومما قاله في مستهلها « بحمدك اللهم بزر الأسد
ويستوهب المدد ليتوحد العدد ، فيعمر البلد ويقدسك بزفات تدهش
الكنود وتبكت اللود ، وترتعد منها فرائص الشقى وتنقش بها روح
الولى . ويرفع لواء الاستقامة مؤيدا لدعائم السلامة مرشداً إلى منبر
المعارف السكافية منيراً بنبراسه الحاضرة والبادية » . ويلاحظ أن ألفاظ
اللواء والمؤيد والمرشد الخ . . أسماء جرائد كانت تظهر في القاهرة
وقتذاك ، الأمر الذى يشير إلى تأثيره بها .

وتعرضت الافتتاحية لدور الدين في التقدم ولأسباب تأخر المسلمين
فقد كان الإرشاد — كما جاء فيها — « في زمن انقياد أفراد الأمة بطبيعتها
وبسيطرة الحق لقوانين الشرع الشريف ووقوفهم عند حد مناهبه . .
ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر وتغيرت الطبائع باختلاط أصناف

البشر وقع التساهل في أثر الدين وانحلت عرى الاتحاد وساد الشقاق وفشى الاستبداد » . ورأى البارونى في الصحافة عالماً جديداً سخره الله لهذه العالم الجديد برشده بهديه « فـسكان في أول فـشاته غير منظور إليه بعين الإجلال والاحترام استخفافاً بمهنته وجلالاً بنتيجته شأن كل حديث لم يعلم ما وراء وجوده من الحوادث . ثم مع استقرار الحال وظهور النفع شيئاً فشيئاً تنبه المأل إلى أنه هو المرشد للأمم المنبه للمهم الرافع من هوة الجود إلى ذروة التيقظ والظهور » .

كما أوضحت الافتتاحية خطـة « الأسد » وهى « خطة سكون واعتدال كغيره من الجرائد المسالمة وإن خالف ذلك ما يتبادر مما يرمى إليه ظاهر عبارة العنوان ، يبذل النصـح لأمة الإسلام ويدها على ما يعود عليها بالنفع العاجل والأجل والتقدم فى مباراة الأمم الحية ومزاحمتها فى معترك الحياة الهنيئة .

ينـه أوروبا إلى ما يراه صالحاً ضامناً للسلم والاطمئنان لائقاً بها مما يختص بمعاملة أهل الإسلام إن قبلت المرشد . لا يالوا جهداً فى الدفاع عن الإسلام وحقوقه أينما وجد وحيث كان لا يتقيد بقطر دون آخر على حسب ما يقتضيه عنانه لا يتعرض للشخصيات إلا فيما يكون عائد إلى المصلحة العامة .

يوجه العناية التامة إلى البحث عن كل ما يراه صالحاً لشؤون الدولة الإسلامية العظمى فى الولايات وعلى الخصوص الولاية الطرابلسية أداء لحق الوطن ، إذ كانت أمة منحلة عن جاراتها مصر وتونس فى المعارف والعمران خالية من أغلب دواعى التقدم من مخترعات هذا العصر الجديد عصر الحركة والعجائب .

وواضح من الخطـة تبنى البارونى لفكرة الجامعة الإسلامية بما عنته من توحيد كلمة المسلمين فى مواجهة الخطر الأوروبى . كما يتضح منها اهتمام البارونى الخاص بموطنه طرابلس الغرب .

وقد كتب البارونى مقالا طويلا عن الجامعة الإسلامية فى جريدته ، وقام قبل ذلك بتوجيه سبعة أسئلة فى هذا الموضوع إلى « معتبرى هداة الأمة علماء وأدباء الفرق الإسلامية » . وطالبهم بالجواب « خدمة للجامعة والدين » . وتدور الأسئلة عن فرقة المسلمين وما إذا كان تعدد المذاهب من أقوى أسبابها ، وما إذا كان ممكناً توحيد المذاهب « فى هذا الزمن الذى نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شئ » . وما الأمر القوى المانع للتوحيد وهل لإزالته من وجه . وأى طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة . وما الحكم فى الساعى فى هذا الأمر شرعاً وسياسة . وما الدليل على منع الصور التى لا ظـل لها^(١) . وقد طرح البارونى فى مقالته التى جعلها بعنوان « الجامعة الإسلامية . . وأوروبا . . والمذاهب فى الإسلام »^(٢) . الأجوبة التى توصل إليها . فهو يشعر بأهمية فكرة الجامعة الإسلامية ويعطى دليلاً عليه اهتمام أوروبا بها التى « اهتزت لحادثها المهلول وأعارته أذنأ صاغية . . . » وقد رأى كتاب أوروبا المسلمين ساعين فى ضم كلمتهم واتحاد رأيهم وجمع شتاتهم أينما كانوا فى أطراف المعمورة حتى إذا كانوا بدأ واحدة على قلب واحد ناقشوا أوروبا الحساب وناصبوها الحرب ، وردوها إلى حافرتها الضيقة الأرجاء فيما وراء البحر الأبيض المتوسط شمالاً وتخلصوا من حل سيادتها الثقيلة ووطأة حكمها القاسى . . » ويرى أن فكرة الجامعة تولدت نتيجة الضغط الأوروبى ، ومع صوابها وأهميتها فإن وراء إمكان تحقيقها واستمرارها صعوبات وعقبات كأداء .

(١) صفحات خالدة من الجهاد ص ٢١

(٢) صفحات خالدة من الجهاد ص ٢٣

وحدد البارونى أمرين عظيمين سادا فى المسلمين هما « أساس كل اقتراق ومبعث كل شقاق بينهم » أولهما تعدد الكيانات فقد « تأسست منهم إمارات وظهر فيهم ملوك ذا قوا منذ عهد بعيد حلاوة الاستقلال ولذة بذخ الملك وألقوا التفرد بالحكم والتباهى باللقب ». وفى ظل هذا التعدد السياسى نشأت طبقة مستفيدة تستغل إلى آخر مدى . وثانيهما تعدد المذاهب وتفرقها فقد « نشأت فيهم مذاهب وفشت فيهم فرق وطرق لطوائف بنى أساسها المتن على مبادئ التفرق وأساطين الاختلاف والتباين وصار كل حزب بما لديهم فرحون يدعى أنه على حق لا يخطئ به نهج الجئة وأن غيره لا يربح رائحتها ». وفى ظل هذا التعدد المذهبى نشأت طبقة مستفيدة . وهكذا دخلت الامتيازات الدين تماماً كما عرفت الدول الامتيازات ، « فالمذاهب والفرق فى الدين نسبتها كنسبة الامتيازات للدول فما قيل هناك يقال هنا فهى جدية بأن تسمى بالامتيازات الدينية » ومادامت هذه موجودة فلا إمكان لقيام الجامعة أو دواها .

وعاد البارونى فى مقالته إلى التاريخ بحثاً عن أصول التعدد والتفرق وجذورهما ، فوجد « أن معنى الجامعة ماتحقق فى الوجود واستمر أمدأ يعتمد به منذ غاب الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه عن الأشباح . وقد مضى نحو ١٢ قرناً وكاهل الدين مثقل بأعباء حمل هذا الشقاق الناشئ عن الاختلاف الاعتقادى بتعضيد أفرادهم غالبهم بظهور اسمائهم واشتهارهم . واتصف حديثه بالمرارة وهو يشرح صور هذا التعدد ونتائجه . ومن هنا فإن النهضة تتحقق إذا قضينا على هذا التعدد وتجاوزناه . وقد رحب البارونى ببدائيات النهضة فى الهند « التى يحق لها أن تعرف بدار النهضة الاسلامية بدون قيد لتكون لها الدرجة الاولى ، ولمصر الدرجة الثانية بقيد افرقيا ولونس الدرجة الثالثة بقيد المغرب » . ورأى الفضل فى هذه البدايات لعقلاء الهند وتيقظ همهم بين شعوبهم ونهوضهم لجمع الكلمة

وإحياء موات شبيبتهم وتعلقهم بوسائل الرقى ومجاراة رجال اوروبا الحاكمة » . وتحسر على جزيرة العرب التى بقيت فى سباتها العميق ونومها الطويل ، وعلى طرابلس التى تخلفت عن الركب .

وتجلى اهتمام البارونى الخاص بموطنه طرابلس الغرب فى مقالته « طرابلس مفتاح أفريقيا ^(١) » ، وفيما أوردته من أخبار الولاية وفى كتاباته عامة التى لم تخل من إشارة لبلده . وقد استهل مقالته بتقرير واقع « الولاية المسلمة الشاسعة الأطراف التى مضى عليها أمد وهى تحت حكم اللواء الهلالى الآخر خامدة النفوس ميتة الهمم لاحتراك لها يحول فى عامرها فارس الجبل ويربح فى خلائها جواد النهب والقلاقل ، لا يرى أهلها العلم فضلاً ولا للمعارف شأنًا ولا للوطن عزاً ولا للأبناء حقاً . يرى المتنبه منها معاكسة الحكومة فى كل مشروع سيادة والغنى يعدها عبادة ، فأصبحت مع تساهل بعض الحكام وحلم بعضهم وجبن آخرين خاوية من كل ما يؤذن بالرقى وسعادة الأمة . . » وشرحه للواقع يفيض — كما نلمس — بالمرارة ، فهو يعنى على الأهالى ويدين الحكومة « فلس الحق على الرعية النائمة فى بيداء الجبل وحدها فى ذلك بل هو أيضاً على بعض ولاة الأمور الذين لا يهتمهم إلا صالح أنفسهم الذى يضحون فيه ولو كان حقيراً أعظم صالح نافع للأهالى وللدولة التى اختارتهم واثمنتهم وانفتت عليهم من خزينتها . . ولكنهم أبوا إلا أن يغتموا الطرفين ويستمتروا من السحابين » .

وأشار البارونى فى مقالته إلى الولاة المصلحين الذين حاولوا تغيير الواقع الفاسد ، فمدح نامق وحافظ ورجب . وذكر ما فعله الأخير فى

مضمار الإصلاح من تنظيمات وفتح مكاتب وتحرير النفوس وتحرير
الأملاك .

وقد حفلت أعداد الجريدة بأخبار طرابلس فهناك خبر عن غزو
الجراد لها وآخر عن زيارة الوالى رجب للجبل الغربى وثالث عن نزول
الغيث وهكذا . الأمر الذى يوضح أن البارونى كان على صلة وثيقة
بأخبار موطنه وأنه جعل من الجريدة منبراً يخاطب منه أهل طرابلس
على الخصوص وينشر أفكاره الإصلاحية بينهم .

واهتم البارونى فى نطاق طرحه فكرة اليقظة وقضية الجامعة الإسلامية
بدور الإنسان فى تحقيق التقدم ، منطلقاً من شعار « إن الله لا يغير بقوم
حتى لا يغيروا ما بأنفسهم » . فكتب فى العدد الثالث من « الأسد الإسلامى »
الصادر بتاريخ ٢٣ / ٤ / ١٩٠٨ مقالا بعنوان « الإنسان والزمن
والتوكل ^(١) » استهله ببيت شعر « يقولون الزمان به فسادهم فسدوا
ومافسد الزمان » رآه مصداقا « لحال هذا الزمان وحال أهله » . ونعى فى
المقال تآكل الناس وخداعهم بأنفسهم بفساد الزمان وأوضح قبيحة الوقت
وأوضح أن الفساد ماحدث « إلا بإهمالنا العلوم النافعة والمعارف
المنورة .. » وفرق بين التواكل والتوكل الشرعى الذى لايدعو إلى التواني
والكسل عند عارفيه .

ويمكننا أن نلاحظ فى أسئلة الاستفتاء التى طرحها البارونى تشابهاً
كبيراً مع الأسئلة التى أثارها الكواكبي فى كتابه « أم القرى » وأجاب
عنها . ونلمس عند البارونى تركيزاً قوياً على علة التعدد المذهبى وذلك
لأنه خبرها وعانى منها الكثير ، باعتباره نشأ على المذهب الأباضى ولاحظ

ما يثور بين المذاهب من خلافات . وقد تهيأ بحكم دراسته فى الأزهر
والجزائر وبحكم وعيه لتجاوز الإنفلاق المذهبى إلى أفق الإسلام الواسع .
ونلمس هذا بوضوح فى مسلكيته فى منطقته حيث كان على علاقة طيبة
بالمسكية والأباضية منهم على حد سواء . ونلاحظ أيضاً أن مختلف القضايا
التي أثارها تنتمي فى مجملها مع دعاة الجامعة الإسلامية على النهج الذى
رسمه مفكروها الأفغانى ومحمد عبده والكواكبي .

وعلى الرغم من نقد البارونى الشديد لانحرافات الهيئة الحاكمة
العثمانية فى طرابلس وللإستبداد الذى خيم جوه الكتب على الدولة
العثمانية فى ذلك الوقت ، فإنه حرص على عدم المساس بشخص السلطان
عبد الحميد . بل إنه عمد إلى مدحه ضمن بعض قصائده الشعرية وألقى
قصيدة فى المدرسة التحضيرية عصر ليلة الجلوس الشاهاننى عام ١٣٢٤
وصف عبد الحميد فيها بأنه « خليفة الإسلام وملجأ للدين والدنيا ^(٢) »

ويمكننا أن نفهم هذا الموقف من سليمان البارونى تجاه عبد الحميد
وهو الذى اكتوى بنار سياسته الاستبدادية ، بحكم تبنى البارونى لفكرة
الجامعة الإسلامية التى لم يجد دعائها مفرأ من ربطها بعبد الحميد بمقتضى
الواقع . كما أن الشعور السائد فى مصر آنذاك تجاه السلطان كان يتسم
بالاحترام والإجلال حيث اختارت الحركة الوطنية أهون الشرين
فقطعت إلى الدولة العثمانية لمعاونتها فى طرد الاستعمار الأوروبى .

وقد تعاطف سليمان البارونى مع الحزب الوطنى فى مصر وأيده ،

وكن لمصطفى كامل زعيم الحزب مشاعر الإعجاب والاحترام ، وقال فيه قصيدة رثاء عند وفاته سنة ١٣٢٦ (١) .

وبينما كان سليمان الباروني في مصر حدث الإنقلاب الدستوري على عبد الحميد وفرض عليه أن يعيد الدستور . وكان للحدث رنة فرح كبرى كبرى في البلاد العثمانية جميعها . وقد استقبلها الباروني بحماس بالغ ورأى فيه ايذاناً بالفرج والعودة إلى الوطن . وعبر عن فرحته بالحدث في قصيدة قالها على لسان الدستور يخاطب فيها فناة الشرق فيطالبها بالاحتفال ويقول « أنا دستور المعالي أنا ترس للقتال أنا محو الاحتلال » . وتحفل القصيدة بالمشاعر والمعاني التي احاطت عودة الدستور . فالدستور يعني الحرية ، فغدا العثماني حراً . . راقياً لا تآني . . ينشر الأفكار جهرأ . . يورث الأعداء قهراً . . يبذل الأنفس مهراً . . والغرب قلق من الخطوة الكبيرة هيب من آثارها « علموا الدستور ناراً . . وهو سيف لا يجارى » وبالدستور لإصلاح الشعوب وتسأل عن ذلك باريس واليابان التي هزمت الروس . وكان انتصار اليابان الدولة الشرقية على الروس أوائل القرن قد هز مشاعر العرب جميعاً وظهر ذلك في شعر تلك الفترة . وبهيب الباروني في قصيدته بالفرس أن يتحركوا ويحيى تحرك عباس في مصر ثم يخاطب نفسه بالأبيات التالية يختم بها قصيدته .

هي يا باروني هيا	ذكر إلى الأوطان بيا
شعبنا قد عاد حيا	يطعن الأعداء بسن
أسد الإسلام أظهر	كل مافي الببال وأبشر
بلمنى همل وكبر	زال ذاك الداء منى

إذ زمان الضيق ولى
وهلال السعد هلا
وصباح النصر جلا
يا فناة الشرق غنى

عاد سليمان الباروني إلى طرابلس الغرب حال سقوط عبد الحميد ليبدأ صفحة جديدة من جهاده . وتقدم لانتخابات مجلس المبعوثان العثماني التي صدرت الدعوة إليها في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ ، مرشحاً عن مركز يفرن وقضاء فساطو نالوت غدامس . وكان ينافسه فيها خمسة مرشحين آخرين ففاز فوزاً ساحقاً (٢) .

وكان العامل الحاسم في فوزه مانع به ثقة وشعبية في نفوس أهل المنطقة ، وليس « لأن أولى الأمر في الآستانة مالوا إلى اكتسابه في صفوفهم فأختاروه عضواً بمجلس المبعوثان نائباً عن الجبل الغربي - كما أورد مؤلف كتاب حياة سليمان الباروني - (٣) فالذين انتخبوه هم أهالي المنطقة تعبيراً عن تلك الثقة وتقدير الجهاد ضد الاستبداد .

وهكذا لم يكد سليمان الباروني يعود إلى طرابلس حتى كان عليه أن يفارقها إلى استانبول ليقوم بدوره كعضو في مجلس المبعوثان . وقد حفلت الأعوام الثلاثة التي أمضاها في المجلس قبل الغزو الإيطالي بنشاطه الذي تعددت مجالاته .

وكان نشاطه منصباً في المقام الأول على شؤون ولايته طرابلس الغرب فقد حاول مع بعض زملائه أن يوجهوا عناية الدولة لها لتقوم بالإصلاحات اللازمة . وكان مهم أن يعوضوا طرابلس عن الكثير مما فاتها بسبب

(١) حصل على ثلاثة اصعاف عدد الأصوات التي حصل عليها الذي يليه ولم يحصل البقية على أصوات تذكر . الوثيقة صفحات خالدة من الجهاد ص ١٢٠ .
(٢) أبو القاسم الباروني ص ٣٦ .

الإهمال . ويتضح من أوراق الباروني الخاصة التي نشرتها إلبنته أنه كان على اتصال وثيق وهو في استانبول بما يجري في طرابلس . كما أنه كان المحرك لما قامت به الدولة من مشاريع فيها . ويتضح أيضاً من تلك الأوراق ثقة الناس وحسن ظنهم به . فنجد مثلاً في رسالة جوابية كتبها إلى متصرف الجبل شفيق بك مؤرخة في كانون أول ١٣٢٦ أنه يعبر عن سروره لاهتمام المتصرف بأسباب ترقى الجبل مشجعاً إياه ومنهياً في الوقت نفسه « وإن كان ذلك من الحقوق الواجبة عليكم عملاً بقوله عليه السلام (وكل راع مسؤول عن رعيته يوم القيامة) ثم يقول له بوضوح والمفهوم من بعض المكاتبات من مركز الولاية أنه حصل فتور بينكم وبين أعيان اللواء ، وذلك أمر لا يناسب حصوله بين الحاكم والمحكوم . فزجو الآن أنه قد زال بحسن تدبيركم واستمالتكم للخواطر » يطالبه أن يكتب له عن مطالبه من الدوائر المركزية لاتمام الإصلاحات ليقوم هو باللازم^(١) .

وقد اهتم وهو باستانبول في الرد على حملة صحفية شنتها جريدة تصوير أفكار ضمن مقالات عن العراق ومصر وطرابلس الغرب . وكان لهذه الحملة أثرها السيء في نفوس بعض المسؤولين المصلحين في طرابلس وعلى رأسهم المشير إبراهيم أدهم الذي بذل جهده لإصلاح ما يمكن إصلاحه في طرابلس حين تسلم ولايتها . وقد كتب المشير رسالة جوابية للباروني قال فيها « إن ماجاء في تصوير أفكار سواء كان في حق أو في حق سكان ولايتنا من المقترحات التي يجب التجري عن حقيقة صاحبها معرفته ، لأن اعتراضاته ومدعياته في هذا الباب تجاوزت الحدود . . وإن عدم معرفة هذا المخبر الكاذب لإزالة سوء تأثيره يجعلني غير مستريح في القيام بأعمال

وإدارة شئون وظيفتي . . وإني رهين أوامركم الكريمة يا حضرة السيد . »^(٢) ويطمئن الوالي الباروني أن العمل في الولاية يستهدف تأمين احتياجاتها . وقد كتب الباروني رسالة أخرى جوابية لقائم مقام جنزور شكره على جهوده في تنفيذ الإصلاحات ، وهون عليه حملة جريدة « تصوير أفكار » ، وما جاء فيها « سرتني جداً شروعكم في خدمة طريق جنزور الذي سيخلد لكم ذكراً جليلاً إلى الأبد ، كما خلد لكم الذكر الحسن توفيقكم في نحو أثر داء الكوليرا من هناك بما قمتم به من الاحتياطات الجدية . . ولأنا نرجو من الله أن يوفقكم إلى انمام ما عزتمت عليه من المشروعات العمرانية ، كإنشاء المسالك والطرق العمومية ، وسنصرف غيرتنا أن شاء الله في تسكين نظارة النافعة والمعارف بإجابة ما طلبتموه ، وقد أطلعت على جوابكم رفقاؤنا وستعاون معاً والله الموفق . لا يهملكم ما كتبته في حقكم تصوير أفكار لأن الداخلية واثقة بكم تمام الثقة ، وسند علمهم رداً مقنعاً إن شاء الله تطلعون عليه في البوسطة الآتية في الجرائد »^(٣) . وقد قدم الباروني تقريراً إلى الصدارة العظمى بمخبر الجريدة الذي كتب المقالات المملوءة بالتشنيعات مطالباً بالتحقيق معه .

وأصبح الباروني يحكم منصبه ولثقة الناس به موثلاً لهم بطرحون عليه قضاياهم بها . فهذه رسالة من أحمد ضياء الدين المنتصر نائب مصراته مؤرخة في ٣٠ محرم ١٣٢٧ يروي فيها كيف رتب البعض ضده لإخبارية فقدم للتحقيق « خلافاً للقانون » ويرجوه التدخل . وهذه رسالة أخرى بتاريخ ٢٨ ربيع الأول من ثلاثة من سوظفني نفوسة يخبرونه بما وصلهم من وكالة مديرية ناحية الصيعان « بأن دولة فرانسة دخلت في حدودنا من

(١) صفحات خالدة من ١٤٢ تاريخ الرسالة ١٧ مارس ١٣٢٧ .

(٢) صفحات خالدة من ١٤١ .

(١) صفحات خالدة من ١٤١ .

جهة الناحية المذكورة حتى لم يبق بينها وبين قصر الجوش إلا مسافة ست ساعات فقط، وصاروا ينحتون في الأرض ويضعون فيها الأحجار المنقوشة زاعمين أنها حد فاصل بيننا وبينهم . وبعد ذهابهم عنها وثب أهالي الصيعان عليها وكسرتها جميعاً . وعندما اتصل خبرها بقنصل فرنسا الذي بقرب الحدود نادى في قبائل العربان الذين هم في معينة ومنهم الزاندرمة والعسكر بالهجوم والقتل على كل من يجدونه بقرب تلك الأحجار . ويشكو كاتبو الرسالة من أن الولاية لم ترد على ماعرض وكيل المتصرفية بهذا الشأن . وهذه رسالة ثالثة من أخويه الشيخ يحيى والشيخ أحمد يعاتبانه وهى مؤرخة في ٢٣ شوال ١٣٢٧ وما جاء فيها لا انتظرنا من طرفكم أن تهتموا بمسألة الفتوى أكثر من كل الأحوال . . وأن لم تعتنوا بها نصير في حقنا ونكون ميداناً لشماته الأعداء فينا . . وأنت على طبعك الغالب عليك ، لا تهتم ولا تشغل إلا بأشغال وأحوال الناس قبل أشغالنا^(١) . وكان العهد السابق قد حرم أسرة البارونى من منصب الافتاء . وتبنى البارونى في تلك الفترة مطلب أهالى منطقته بعدم نقل مركز المتصرفية من يفرن إلى زواغة وفق اقتراح الوالى وحاكم الجبل . وتقدم أهل المنطقة بمذكرة ضافية مؤرخة في ١٨ ربيع أول ١٣٢٨ احتجاجوا فيها على نقل مركز المتصرفية وشرحوا اسباب تمسكهم بيفرن وطالبوا بالأصلاحت اللازمة للمنطقة وقد نجح البارونى في تحقيق طلبهم^(٢) .

واهتم سليمان البارونى خلال تلك الفترة بتوثيق الصلة بأباضية مسقط وعمان . وكان قد أقام علاقات بهم وبأباضية الجزائر في مرحلة

سابقة . ونجد بين أوراقه رسالتين لإحدهما للسلطان فيصل بن تركى سلطان مسقط مؤرخة في ١٤ شعبان ١٣٢٨ والأخرى للأمير عيسى بن صالح والأتاذا عبد الله بن عبد الحميد من شيوخ مسقط ، يتضح منهما اهتمام البارونى باستقلال مسقط وعمان وسعيه لربطهما بالدولة العثمانية . وهو يشير في الرسالة الأولى إلى رسالة سبقتها وإلى دافعه في كتابتها فيقول « حررت إليكم قبل هذا جواباً طويلاً الذيل ، حملنى عليه حب ترقى دولتكم وظهورها ، حتى تسلم بإذن الله من مكائد الأعداء وفي جملة ما قلته فيه أن لا تظهروا الميل إلينا لأحد من الأجانب لئلا يغتنموا فرصة اشتغالنا وعدم استعدادكم لدفع قوتهم فيجملونكم مالا تطبيقه ، أو يحدثون مشكلات تسهل لهم المداخلة في شئونكم ، وقد اجتمعت اليوم ببعض الوزراء الذين يهمهم أمر دولتكم ، وتذاكرنا في رسائل حفظ استقلالكم والاحتياط لذلك قبل أن يفعلوا معكم لا قدر الله مثل ما فعلوا مع حكومة فاس في المغرب وحكومة فارس بالمشرق . فتقرر أن نكتب إليكم عين ما كتبته أولاً ، وأن استقلال دولتكم أشغل شاغل لرجال هذه الدولة ، لأن في حفظ استقلالكم منعاً للأعداء من الوصول إلى دواخل بلاد العرب وإلى القرب من الحرمين الشريفين . وما منعنا الآن طلب الاتحاد معكم والمعاهدة إلا الخوف عليكم ، وما اجتهدنا في صرف قوانا لتقوية الأسطول إلا لنتقي به شر الأعداء إذا أعلننا التحالف مع جميع الإمارات والممالك الإسلامية في القريب من الزمن بعد بلوغ أسطولنا الدرجة المطلوبة واستعدادنا إن شاء الله . وكلهم أثنوا على تمسككم بالدين وعلى شهامتكم وغيرتكم ، وما اعتادهم في محافظة الشطوط الشرقية إلا على دولتكم بإذن الله . » ويبدو واضحاً من حديث البارونى وعيه بأهمية منطقة مسقط وعمان الاستراتيجية في حماية الجزيرة العربية ، وتحسسه للخطر الأجنبي . كما يبدو أنه أجرى مباحثات

(١) صفحات خالدة ص ١٥٢ .

(٢) صفحات خالدة ص ١١١ نفس المذكرة .

تفصيلية مع رجال الحكم العثماني الجديد حول مسقط وعمان اللتين كانتا آنذاك تحت وطأة النفوذ البريطاني^(١)، واتفق معهم على السعي لإستقلال المنطقة، وكانت النية متجهة كما ذكر الباروني في رسالته « لإرسال سفير إليكم وطلب سفير منكم اعترافاً باستقلالكم وتأييداً له ، وهذا كله مما تذكرونا فيه سراً ، ولا يمكن الإباحة به لأحد قط إلى أن يأتي وقته » . وهو يحذر السلطان من رقابة الأجانب على الرسائل « حيث أن البوسطة أجنبية لا تؤمن ولهم رغبة كثيرة في الإطلاع على أسرار الرسائل ولهم آلات مخصوصة لذلك » . ويحذره من نشاط الأجانب « فالحذر كل الحذر في التساهل في إعطاء أى إمتياز في معدن أو غيره ، أو الترخيص لأحد من الأجانب في السياحة داخل المملكة حيث لا يؤمن عليهم من تعدى رعييتكم بالقتل أو النهب اللذين هما وسيلة كل اختلال بلاد إسلامية » . ويشير في هذا المجال إلى ما فعلته إيطاليا في طرابلس « وقد أرسلت إيطاليا كثيرين منهم مراراً إلى طرابلس فلم تفلح إذ قتلوا أنفسهم وقتلوا بعضهم بعضاً . وذهبت دماؤهم هدراً بحرم الحكومة ويقظتها » . ويرجوه في ختام الرسالة أن يبعث ببعض الكتب التي تشرح المذهب الأباضي هدية لمكتبة مجلس المبعوثان التي أسستها الدولة^(٢)

ويؤكد الباروني في الرسالة الثانية على المعاني التي وردت في الرسالة الأولى بشأن الأطماع الأجنبية والسعي لإستقلال مسقط وعمان ويطمن بأن التجهيزات العسكرية قائمة على قدم وساق وكذلك بناء الأسطول . ويشير إلى إخماد الدولة للثورات التي حدثت في ألبانيا وهوران^(٣) .

وكان الباروني في تلك الفترة على علاقة طيبة برجال الحكم العثمانيين من أعضاء جمعية الإتحاد والترقي . بل يبدو أنه أصبح واحداً من أعضائها إذ نجده 'يوقع بعض رسائله عام ١٣٢٩ هـ باعتباره رئيس جمعية الإتحاد في فساو ومعلوم أن عدداً من زعماء العرب انتظموا بعد اعلان الدستور العثماني في سلك الجمعية قبل أن يبرز التناقض الشديد بين العرب والترك ، ومن بين هؤلاء رفيق العظم وحق العظم ومحسن السعدون وياسين الهاشمي وطالب النقيب وعزيز على المصري وعبد الرحمن شهنندروسليم الجزائري^(١)

وفي طرابلس انتمى للجمعية عدد من الشباب وكانت جريدة « الترقى » كما سبق أن ذكرنا تنطق بلسانها . وقد مكنته هذه العلاقة بالجمعية من التحرك بنشاط في خدمة الولاية . ولم نجد ما يمكننا تحديد تاريخ عضويته ولكن يبدو أن الغزو الإيطالي لطرابلس فرض عليه التعاون الكامل مع الحكم العثماني لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وأن يغمض النظر عن سياسة الإتحاديين المعادية للعرب ، وهى السياسة التي أثارت عليهم عدداً من زعماء العرب في المشرق العربي .

وهكذا نجد أن سليمان الباروني أمضى فترة حافلة بالجهاد قبل الغزو الإيطالي تهيأ فيها للقيام بالدور الكبير الذى اضطلع به ضد الغزو الإيطالي الذى جعله رمزاً عظيماً من رموز الجهاد في طرابلس الغرب .

* * *

وفي تتبعنا للتحرك الشعبى في طرابلس خلال فترة هذه الدراسة نقف عند السنوات الثلاث التي سبقت بداية الغزو الإيطالي . فقد شهدت فيها البلاد تحركاً شعبياً نشطاً .

(١) برو العرب والترك ص ٧٩

(١) اراجع Arnold Wilson The Persion Gulf وغرابية مقدمة تاريخ العرب الحديث ص ٢٧٢ london 1954

تميزت هذه السنوات الثلاث باشتداد الخطر الأوروبي على طرابلس من جهة ، وخاصة الخطر الإيطالي حيث لم تتردد السياسة الإستعمارية الإيطالية في إعلان نواياها علناً وتبجح تجاه طرابلس . ونشطت في التغلغل في الولاية تغلغلاً اقتصادياً وثقافياً ودعائياً . كما تميزت هذه السنوات الثلاث من جهة أخرى بالجو الجديد الذي تلا إنقلاب عام ١٩٠٨ على عبد الحميد . . جو المشروطية الثانية بما حفل به من آمال وما أحس به الشعب من حق له كفله الدستور . فتأثر التحرك الشعبي بهذين العاملين وحقق إنطلاقة ملحوظة .

وكان من أبرز ما جاءت به المشروطية الثانية حرية الصحافة ، فصدرت في طرابلس عدة صحف لعبت دوراً كبيراً في التعبير عن التحرك الشعبي وفي تغذيته . ومع أن حرية الصحافة سرعان ما تعرضت في العهد الجديد إلى ما يقيددها فإن الصحف بقيت عاملاً فعالاً في التحرك الشعبي . والجرائد التي صدرت وقتذاك هي « الترقى » التي احتجبت فترة في العهد الحميدي ، و « العصر الجديد » و « الكشف » و « الرقيب » و « المرصاد » وأبو قشة وتعميم حريت ، وجميعها صحف جديدة .

فاذا تتبعنا مانشرته هذه الصحف قبيل الغزو الإيطالي بحثاً عن اتجاهاتها الفكرية ، نجد أنها كانت تلتنق في الخطوط الفكرية العريضة وعلى معالجة القضايا الرئيسية التي شغلت الناس وقتذاك ، وإن اختلفت في أساليبها وفي التفاصيل . فكانت هناك قضية الخطر الأوروبي الذي أهدق بالمنطقة عموماً . وقد كثر انشغال الناس والصحف بهذه القضية . ونضرب أمثلة على ذلك بما نشرته « الترقى » في أحد افتتاحياتها تحت عنوان « ما أشبه الليلة بالبارحة » من مهاجمة للاستعمار الغربي وكشف لآلعيه ونواياه

واحتلال بريطانيا لمصر وتلاعبها بحقوقها^(١) . ومانشرته أبو قشة عن الشركات الإستعمارية ، والمرصاد عن « الإبتجار وسيلة الإستعمار » ضمن سلسلة مقالات توضح أهداف الإستعمار وأساليبه^(٢) .

واهتم الناس على الخصوص في نطاق قضية الخطر الأوروبي بالخطر الإيطالي الذي تهدد الولاية . فكتبت الصحف مقالات كثيرة عنه ولا حقت النشاط الاستعماري الإيطالي وفضحت المتعاونين والمتخاذلين من رجال السلطة أو غيرهم ، وقد شنت تعميم حريت حملة شديدة على الوالي حسن حسنى لأنه رضى لضغط القنصل الإيطالي وعاقب ضابطاً عثمانياً اتهم بالاعتداء على اجنبى ، ودعت للاضراب . وكانت جريدة أبى قشة عنيفة في فضح السياسة الاستعمارية الإيطالية . وكشف نشاط الجالية الإيطالية ، والهجوم على شركة الفسفات الإيطالية ، وعلى الوالى المتخاذل حسن حسنى ، وأمثلة أخرى كثيرة .

وانشغل الناس والصحف بقضية الجامعة الإسلامية كاستجابة للتحدى الأوروبى . وتبنت كل الصحف افكار الجامعة الإسلامية ، ورددت آراء مفكرها . فهذه الترقى تشرح بعض آراء الإمام محمد عبده ، وتعرض لكتاب جوستاف لوبون عن حضارة العرب ، وتنتشر دراسة عن مستقبل الاسلام واهتمت الكشف بالكتابة عن الجامعة الإسلامية ودافعت المرصاد عن حقوق الشعوب العربية والاسلامية في مواجهة المستعمرين وهكذا .

(١) المصراني صحافة ليبيا ص ٦٥

(٢) المصراني صحافة ليبيا ص ١١٧ و كفاح ص ١٠٥ .

كما انشغل الناس والصحف على المستوى الداخلى بقضية الاصلاح كاستجابة للخطر الايطالى على الخصوص . فكثبت الترقى « حاجتنا إلى العمل » تعرض على تنمية الزراعة والصناعة ، وانتقدت تخلف الوعاظ والخطباء ، وشرحت المطالب السياسيه للاتحاد والترقى ، ودعت إلى اليقظة ودعت العصر الجديد إلى أن يكون التعليم اجبارياً وإلى قرن العلم بالعمل ، وعالجت مشاكل الفلاح والصانع في الولاية وتحملت للتعليم الصناعى . وناقشت أبو قشه مشكلة المياه ووادى المجنين ، وانتقدت شرب اللابقى والاكتار من شرب الشاهى ، وشجعت على التعليم الصناعى وهكذا . واهتمت جميع الصحف بترسيخ معانى الشورى والحرية والمساواة وبال دعوة لاحترام الدستور .

ومن القضايا التى برزت في تلك الفترة قضية الحفاظ على اللغة العربية وتشجيعها . وهى القضية التى ألحت على العرب بعد أن تبنت السلطات العثمانية سياسة التتريك . وقد أحس الشعب في طرابلس بهذه السياسة حين نظم الضباط الترك فيها بعد إعلان الدستور كثيراً من الفصول الشعبية لتعميم التركية بين السكان . وألزمت المدارس الحكومية في جميع الولايات بتطبيق ما تفرضه الحكومة من برامج تهدف إلى التتريك . وصدرت الأوامر إلى رؤساء المحاكم كي تكون المرافعات باللغة التركية وأبلغت لجان الاتحاد والترقى في الولايات العربية بأن تكون اللغة التركية لغة المخابرة بينها وبين اللجنة المركزية في سالونيك ، وفرض على التجار العرب تقديم البيانات إلى دوائر الجمرک بالتركية الفرنسية ومنع قبول عرائض الشكوى بالعربية حتى في مجلس المبعوثان^(١) . فتأثر الشعب لهذه السياسة

التي تمس وجوده القومى ، ولما لها من صلة وثيقة بمعيشته اليومية ، وظهرت حركة معارضة قوية لسياسة التتريك هذه فكثبت « الترقى » افتتاحية بعنوان « لن يتم المراد يحمل لغة البلاد » دافعت فيها عن اللغة العربية ولإستخدامها « لأن اللغة سلم النجاش وطريق النهوض » . وبلغت النظر دفاع « الترقى » هذا عن العربية وهى الوثيقة الصلة بجمعية الاتحاد والترقى حاملة لواء التتريك . ولكن الحق أن شباب الولاية من اعضائها لم يتخلوا عن شعورهم القومى ، وما كان انتابؤهم إلى الجمعية إلا بدافع اعلاء الدستور والوقوف في وجه الخطر الأوروبى ،

وقدم الشيخ أحمد قراطم عضو المجلس العمومى في الولاية اقتراحاً إلى الوالى رئيس المجلس يطالب فيه أن تكون المعاملات باللغة العربية وقد سبق أن أشرنا له . ويتضمن اقتراحه شكوى مرة عما عاناه الأهالى نتيجة سياسة التتريك . وقد استهل تقريره بالقول « من المعلوم أن ولا يتناولت طرابلس غرب ولاية عرب ، وتارة يصير توظيف من لا يعرف اللسان العربى والقلم أيضاً مستنطقاً أو قاضياً أو مدعى عموم . وغير خاف أن من لا يعرف اللسان والقلم العربى لا يؤدى حق وظيفته وتصير الأهالى مغدورة ... نطلب عدم توظيف من لا يعرف اللسان العربى علاوة على التركية لعجزه عن الإيفاء بحق وظيفته ولرفع المعذورية . » كما قال فيه « ومن المعلوم أن قضايا ولايتنا الخارجة عن مراكز الولاية لا معرفة لهم باللسان التركى والقلم التركى إلا النادر . ولا يخفى أن الحكومة محتاجة إلى توظيف أعضاء إدارة بها . وفي السابق المعاملة الجارية بها قرارات ومضابط بالقلم العربى واللسان العربى ، والآن صارت بالقلم التركى واللسان التركى وغير خاف أن من لا يعرف اللسان التركى والقلم التركى لا يكون عليه حجة . نسترحم طريقة جامعة القرار يكون بالقلم العربى

والمضطربة المأخوذة منه بالقلم التركي أيضاً بحيث تكون حجة على الجميع ورفع مندورية الدولة وأهاليها . « وقد صدر قرار الوالى حاسماً معبراً عن سياسة التريك القبيحة ، وجاء فيه « لدى مذاكرة ما يوجب الأمر تقرر أن لغة الدولة الرسمية هي العثمانية ، وأن استعمال لغة أخرى في المخابرات والمعاملات الرسمية يتنافى مع القانون الأساسى الذى أقسمنا على مراعاته ، وبما أن تأسيس دوائر للترجمة يستوجب الكثير من المصاريف وإضاعة الوقت بسبب الترجمة فقد رفضت الفقرات الأولى والخامسة اللتين في مسألة اللغة » .

* * *

وقوى التحرك الشعبى في مواجهة تزايد الخطر الإيطالى خلال السنوات الثلاث التى سبقت الغزو . ومن الحوادث التى أشرنا إليها في موضع سابق وتحمل دلالة كبيرة ما أورده الزاوى عن امتناع بحارة ميناء طرابلس عن حل أحد دعاة السياسة الإيطالية من المواطنين في مراسلهم حين عاينوا إيطاليا على ظهر إحدى البواخر . وعن قيام الناس بمظاهرات احتجاج ضد السياسة الإيطالية وصحافتها . كما أورد الزاوى أيضاً نص العريضة التى أرسلها برقياً عدد كبير من أعيان طرابلس يعلنون فيها عن عزمهم على الدفاع عن بلدهم إلى آخر قطرة من دماهم ، ويطالبون بتحسين البلاد والوقوف في وجه السياسة الاستعمارية . وقد جاء فيها

« إن أهالى طرابلس الغرب الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية منذ عصور قد عقدوا عزمهم على مقاومة كل قوة تحول بينهم وبين هذا الارتباط المتين الذى هو أعظم قيمة من حياتهم ، وأنهم لا يثنون عن الدفاع في هذا السبيل ولو انتفت عنه الحكومة

العثمانية نفسها . ونحن ننبه الوزراء الحاضرة إلى وجوب تحصين البلاد من الوجهتين البحرية والحرية اللتين أحملت العناية بهما إلى الآن . ونلفت نظرهما إلى موافاة البلاد بالذخائر والمؤن التى تكفيها مدة عام على الأقل . ولقد كان في عزم شعبنا الطرابلسى المعروف بتدينه ونزخته القومية أن يعلن على الإيطاليين حرباً اقتصادية فيقاطع تجارتهم وتجارهم ولكنهم رجحوا جانب الصبر والتريث في الوقت الحاضر لئلا يشوشوا على الحكومة أمراً ، وعلى رجال السياسة مداولاتهم ومذكراتهم . وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا - بكل سرور - آخر نقطة من دماهم قبل أن يدنس تراب وطنهم أقدام السلطة الأجنبية . ولأننا ننقل إليكم الكلمات على أسلاك البرق ونحن فوق ما كينة التلغراف ننظر بفارغ الصبر جواب سؤالاتنا » .

وتكشف البرقية - كما هو واضح - عن شعور الأهالى القوى بالخطر الإيطالى وتصميمهم على محاربتهم ، وعن إحساسهم بقصور الحكومة العثمانية . وتأکید البرقية على ارتباط الأهالى بالدولة كان تعبيراً عن الاتجاه الذى ساد في المنطقة باختيار أهون الشدين للوقوف في وجه الخطر الغربى .

ويقول الزاوى إن الرد على هذه العريضة جاء من الصدر الأعظم ونصه « أن الحكومة ستدافع عن طرابلس ما استطاعت الدفاع ، وإن واليها بكر سامى بك سيسافر إليها عما قريب » .^(١)

(١) الزاوى جهاد الإبائال ١٤ ، عزيز سلام ص ٢٧١ من الترجمة

وكان الأهالي يرصدون النشاط الاستعماري الإيطالي ويلاحقونه ويحتنون الدولة على منعه . وقد نشط كثير من الأعيان في هذا المجال دفاعا عن وطنهم من جهة وعن مصالحهم بالتجارة التي تهددت بسبب المنافسة الاستعمارية الإيطالية . وهناك عريضة موقعة من مائتين وعشرين من الأهالي موجهة للوالي تعرب له عن تخوف الأهالي من الأخبار البرقية الصادرة عن روما وما تكتبه الصحافة الأجنبية بأن امتياز إنشاء ميناء طرابلس الغرب وعميد السكك الحديدية في الدواخل منحت لشركة إيطالية وإن هذا الخبر أيد بحته سفير الدولة العثمانية في روما . وبما أن الإيطاليين الذين يظنون أنه لا نصير لنا - نوابهم تجاه هذه الولاية معلومة فإن منح مثل هذه المشاريع الهامة للشركات الإيطالية يسبب لنا في المستقبل كثيرا من المشاكل كما أنه موجب للإضرار بالتجارة والرأسماليين المحليين . فاننا باسم الصالح المحلي نرجو تأسيس شركات أهلية بالرأسمال المحلي لتنفيذ المشاريع الهامة المفيدة . وإذا رأت الدولة أن من الضرورة توجب الاستعانة بالرأسمال الأجنبي فلا تعطى هذه الامتيازات للبنوك الإيطالية التي تفرض فقراء الناس بشروط مغرية لكي تستولى بالتدريج على أراضيهم الزراعية مستهدفة التوسع في التملك بولاياتنا ، كما أنها لا تعطى لأية دولة عظمى بل يجب البحث في هذا الشأن مع رأسماليي الدول الصغرى . ونعرض على دولتنا بأننا في سبيل التقدم والدفاع عن منافعنا المالية على أهبة لنقدم لدولتنا كل أنواع الخدمات المالية والبدينية .

ولاشك في أن التشكيكات الطبيعية لأراضي ولايتنا تنبئ باحتوائها على معادن كثيرة . وعليه فاننا نلتزم بعد أن يجرى الاستكشاف الفني والتأكد من كميات المعادن يعقد باسم ولايتنا بضمناً ثروتها الطبيعية قرضا لتحقيق وتنفيذ مثل هذه المشاريع النافعة بالأيدي العثمانية^(١) .

وتاريخ العريضة هو ٢٧ كانون الثاني سنة ١٣٢٤ المالية . وهي تكشف عن نظرة المؤسسين من أهالي الولاية الذين مثلوا الرأسمالية الوطنية للخطر الاستعماري الإيطالي .

وسام نواب الولاية في مجلس المبعوثان باستانبول في هذا التحرك الشعبي ، وتابعوا من مواقعهم ما كان يدور في المركز بشأن الولاية ، ولاحقوا المطالب الشعبية في الدوائر الحكومية المركزية ببقية تلميحتها . وقد أشرنا في معرض حديثنا عن سليمان الباروني إلى نشاطه في هذا المجال . ويقول الزاوي إنه لما عزل إبراهيم باشا عن الولاية ولم تعين الحكومة بدله ، احتج نواب طرابلس في الاستانة عن بقاء البلاد على بقاء البلاد على هذا الوضع الشاذ في الوقت الذي يعد فيه العدو نفسه لهجوم عليها فعيّنت بكر سامي واليا عليها في رمضان ١٣٢٩ - سبتمبر ١٩١١ . وصدر له أمر بالسفر في أيلول ، وحدث الاحتلال قبل أن يصل بكر سامي إلى طرابلس^(٢) .

كما جابه النواب سياسة حقي باشا المتواطنة مع الإيطاليين وانتقدوها انتقاداً مرّاً ، وبينوا ما جرته على طرابلس من الويلات . وحين حدث الغزو الإيطالي اتهموه بالخيانة العظمى ووقف معهم النواب العرب في المجلس وطالبوا بحكمة حقي أمام الباب العالي . وتقدم اثنان من نواب الولاية هما محمود ناجي وصادق بتقرير إلى المجلس شرحا فيه واقع الولاية حين دامها الغزو الإيطالي ، وقصور حكومة حقي في تهيتها للوقوف في وجه الخطر قصورا يوحى بالتأمر . ويكشف التقرير في مجمله عن المطالب الشعبية التي برزت في التحرك الشعبي وعجز السياسة العثمانية في البلاد

(١) الزاوي جهاد الأبطال من ٢٣ ، غزير سامح من ٢٢١ من الترجمة .

(١) دار المحفوظات بجمهورية أدم الملحق

طوال تلك الحقبة التي سبقت الغزو . ونورد فسه الكامل كما اثبتته الزاوى باعتباره وثيقة تاريخية توجز سياسة وأعمال الدولة العثمانية في طرابلس ومسؤولياتها في التفريط بتلك الولاية .

يقول التقرير « أيها السادة : إن طرابلس الغرب قد أمست بصولة أعداء العدل والإنسانية عرضة للانفصال عن وطننا الطاهر ، وإذا فقدنا طرابلس الغرب يفقد بها وطننا العزيز المقدس ربع أراضيه ، وتفقد السلطنة العثمانية ما بقى لها من السلطان في أفريقيا . وأخيراً تفقد الخلافة الإسلامية ارتباطها المحسوس بتسعين مليوناً من المسلمين في القارة الإفريقية .

نرى الدنيا تباهى بالمدينة والإنسانية ، ولكن بالرغم من هذه المزاعم الكاذبة لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحق لا يزال للقوة إلا إذا كان مكابراً . ولا أثر للإذعان في قلبه . من أجل ذلك نبكى دماً ، لعلنا أن القوى الثمانية لا تقدر على الدفاع عن طرابلس الغرب وبنى غازى ، وأن تلك الأباله المقترة إلى قوة بحرية عظمت . لا تزال منقطعة عن السلطنة العثمانية ولا صلة بينها وبين عاصمة العثمانيين .

إن المحافظة على طرابلس الغرب من أعدائها الذين في جوارها تنوقف على وجود قوة عثمانية تكافئ قوتهم ، وعلى بحرية عثمانية رهيبة تقابل بحريتهم .

نحن لا ننكر إهمال الحكومات السابقة الخائنة لأمر الترية القومية والقوة البحرية الممكن إعداد القوى للدفاع عن هذا الوطن البائس وتأخير الاستيلاء عليه ، أو على الأقل اتخاذ بعض الوسائل السياسية الخارجية عن هذه القوى لصون الشرف العثماني وكرامة الأمة .

ليست القوة البحرية الدولية هي وسائل الاحتفاظ بحقوقنا ومصالحنا في مثل ولاية طرابلس . بل كان يعوزنا في الوقت نفسه أن تكون لنا سياسة خارجية متينة واضحة ، وتشكيلات إدارية مالية تتفق ومصلحة البلاد ، وتنظيمات حربية تلائم موقع طرابلس وخصائصها .

ثم إن هذا الوطن العثماني المقدس في حاجة إلى الاتفاق مع دولة تتكفل باستقلاله وبقائه بقوتها الحربية البحرية ، لا بالألفاظ والوعود الكاذبة كما كان شأننا إلى هذا اليوم .

أما الوسط الخاص بطرابلس وبنى غازى فيلزم أن تكون له تشكيلات إدارية واقتصادية تلائم وضعه الجغرافي والقومي ، وذلك بأن يكون ذا إدارة ملكية مالية ، وتشكيلات عسكرية وطنية ، يضمنان بقاءه وحياته منفرداً إلى الأبد ، يخفف على أرجائه العلم العثماني الجليل .

أجل إنه لم يكن من الممكن إكمال أسطولنا بالسرعة التي كانت الأمة ترجوها وتنتظرها ، ولكن ألم يكن من الممكن الشروع في الوسائل الإدارية والمالية والعسكرية التي ذكرناها ؟

إننا وبنا للأسف لم نحاول أن نفعل شيئاً ولم نحرك ساكناً لإصلاح سياستنا الخارجية والتشكيلات المالية والتركيبات العسكرية ، وتركنا طرابلس وبنى غازى عرضة لنتائج سياسة اتفاق الدول عليها ، وخدعنا أنفسنا بأنفسنا ، إذ أعلننا للدنيا وللساسة أوروبا الطامعين أننا بسطاء لا شأن لنا إلا بحب السلام .

اخترنا لأنفسنا خطة هي أشبه بالبطالة والجهل ، وهي أسقم الخطط وأسفها ، فجاءونا الطرابلسيين بالنفور منهم وعدم الثقة بهم

والاطمئنان إليهم كما فعلنا ذلك مع غيرهم من إخواننا سكان الممالك العثمانية مع أن الطرابلسيين الأبطال هم الذين يسفكون دماءهم اليوم من أجل الوطن المحبوب .

ومن جراء هذه الخطة السيئة لم نعمل شيئا ، فظهرت الثورات في البلاد ، واشتعلت المملعة بالحروب الداخلية فضعف جسم الوطن . وليس ذلك فقط ، بل أهملنا النظر في إصلاح ماليتنا . وهذا بيت المال يرزح تحت أثقال الملايين من الديون ، وتركنا طرابلس الغرب تئن من آلام الجوع والبؤس ، ولم نترك في أرجائها إلا جسما ضعيفا عاجزا ، حتى انتهى الأمر - باهمالنا وغفلتنا - أن أصبحت طرابلس إلى هذا اليوم خالية من الجيش ومن وسائل الدفاع ومن كل أنواع الاستعداد . ولم نقف بنا الحال عند حد الإهمال في الماضي ، بل عزمنا على الاستغناء بتاتا عن اتخاذ شيء من هذه التدابير والوسائل الجديدة .

كذلك فعلت وزارة حقي باشا التي فاقت حكومة الدور السابق في الإهمال والغفلة والعطلة وعدم التفكير .

ومن ذلك أنها لم يخطر أبداً في بالها أن تدخر في طرابلس وبنغازي ما يكفي جيشنا المرباط هناك من الأرزاق والمؤن والذخائر الحربية التي من شأنها أن ترد شكيمة أعدائنا الطامعين في الاستيلاء على بلادنا أو تؤخر زمن شروعهم فيما يعللون به نفوسهم .

ثم إن هناك من الاغلاط السياسية والإدارية الأخرى التي ارتكبتها وزارة حقي باشا بشأن طرابلس مما يضطرننا - نحن مبعوثي هذه الولاية - إلى أن نذكرها بكل حزن وأسف .

فأول ذلك أن طرابلس الغرب - حتى في عهد الإدارة السابقة - كان يوجد فيها دائماً من خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من النظامي ومن وراء هذا الجيش أربعون إلى خمسين ألف مقاتل من جنود الولايات الحميدية المعلمة تعليماً عسكرياً بحيث يمكن استخدامها في الدفاع عن البلاد في حين الحاجة إليها . أما وزارة حقي باشا فإنها - فضلاً عن عدم اهتمامها لهذه العدة الرهيبة - أهملت أيضاً العمل بما جاء في ميزانية هذه السنة من إقرار استخدام تلك الولايات . وفوق ذلك فإنها سحبت القسم الأكبر من جنود طرابلس النظاميين لقتال أهل الين ، ثم لم ترجمهم بعد ذلك ولم ترسل جنوداً بمقدارهم إلى هذه الولاية .

ثم إن جنود الفرسان في طرابلس كانوا بنص ميزانية السنة الماضية آلايين (ثمانى أربط) وهما الآلاى السابع والثلاثون والآلاى الثامن والثلاثون ، فسحبت وزارة حقي باشا نصف هؤلاء الفرسان من طرابلس ، ولم تبق فيها غير آلاى واحد (أربع أربط) .

ثانياً : لما قدمنا إلى هذا المجلس على أثر إعلان الدستور ، صار الشعب الطرابلسي ينتظر بفروغ الصبر أن تعمل الحكومة ما يجعل طرابلس مأمناً من اعتداء العدو الطامع فيها . وكثيراً ما كانوا يرسلون المحاضر يتعجلون بها هذا الإصلاح الواجب . وقد طالما طلب أهالى طرابلس منا أن تستعجل الحكومة بتطبيق نظام التجنيد على أولئك الأهالى ، وكنا نبذل الحكومة ذلك شفاهاً ونحريراً ، حتى تمكن المجلس في اجتماعه الثانى من تخصيص نفقات للجنة التجنيد التى سترسل إلى طرابلس مؤلفة من قائمقام وكاتب آلاى وأربعة ضباط برتبة يوزباشى ، وثلاثة عشر ضابطاً برتبة ملازم أول ، وواحد وعشرين شاولياً . وبالرغم من أن هذه النفقات كانت داخله في ميزانية السنة الماضية لم ترسل اللجنة في تلك السنة ، بل تأخرت

إلى ما قبل أربعة أشهر فقط . وزيد على ذلك بكل أسف أن هذه اللجنة لم تكن بشكل يلائم حالة البلاد وحاجتها ، بدليل أن الذين بلغوا سن التجنيد في طرابلس الغرب ستة عشر ألف رجـل ، ولم تدخل اللجنة منهم في سجلات الجندية غير ثلاثة آلاف واربـعـاية . وعرض الباقون انفسهم على اللجنة بصفة متطوعين فرفض طلبهم ولم يقبلوا في الجيش العثماني . وبهذا اطفئت شـلـة الحماس ، وانقطعت رغبة الشعب في الدخول في الجندية ، كما أهملت الحكومة النظر في تشكيلات جيش الرديف وهو عدة البلاد في الساعات الحرجة .

ثالثاً : كانت حكومة العهد السابق عـنـيت كل العناية بادخار أكثر من أربعين ألف بندقية من طراز هـ مارتين وسنايدر هـ لتسلح بها جيشاً من الأهالي ، وتؤلف منهم جيشاً وطنياً للدفاع عن البلاد عند مـسـيس الحاجة أما وزارة حقي باشا فإنها تحببت هذه المقادير من البنادق بحجة أنها تريد استبدالها بأخرى من الطراز الحديث . وكانت النتيجة أن فرغت مخازن طرابلس من هذه البنادق ولم يعوض عنها غيرها .

ثم إن حكومة العهد السابق كانت هدفأ للاعتراضات المتوالية من الأجانب على إرسالها المدافع والأسلحة الضخمة إلى طرابلس ، ولكنها مع ذلك لم تفتر عن انتهاز الفرص لإرسال هذه الأسلحة سرألى طرابلس وبكل احتياط أما في عهد الحكومة الدستورية فع أن إرسال هذه الأسلحة صار حراً لا يعترض عليه أحد ، ومع أن مجلس الأمة لم يرض على ميزانية نظارة الحربية بالإذن في صرف كل مائـس إليه الحاجة للدفاع عن الوطن - مع ذلك ظلت طرابلس الغرب البائسة التي هي مطمح مظالم الأتداء منسية ومهملة ولم تر الحكومة حاجة إلى إصلاح حصونها .

رابعا : كان الصبيان - فضلا عن رجال الوزارة - يعلمون ماتـصـمره ايطاليا من الأمل في الاستيلاء على طرابلس عاجلا أو أجلا . وكان هذا يقضى بالاكتار من عدد الضباط ، خصوصاً الذين يعرفون منهم اللغة العربية وعادات البلاد وأحوالها الطبيعية والعسكرية ، لكي يتسنى هؤلاء الضباط عند حدوث أقل اعتداء أن يقدروا فرق الأهالي التي تمرنت من قبل على الجندية ، حتى إنه يوجد في البلاد بعض من ابنائها الذين تخرجوا في المدرسة الحربية في الأستانة . أما الحكومة الحاضرة فإنها أخرجت من طرابلس كل هؤلاء الضباط الوطنيين وغيرهم من العارفين بلغة البلاد ، ولم يرسل بدلهم إلا عدداً قليلا لا يفي بالحاجة ولا يعرف لغة البلاد . ولذلك أصبح رجال طرابلس الغرب الذين تسلحوا الآن لصـد هجمات العدو في ضيق شديد ، لأنهم لا يفهمون مقاصد الضباط وأوامرهم الحربية .

خامساً : منيت البلاد مدة أربع سنوات متوالية بـقـحـط شديد ، ومازلنا من سنتين فخطاب رجال الوزارة ونكائبهم من أجل تلافى أضراره . وكثيراً ما كان رجال وزارة حقي باشا يعترفون لنا بوجاهة مطالبنا ، ولكنهم مع ذلك أهملوا البلاد وتركوا أهلها يتخبطون في أزمة القحط وآلام الجوع .

ولما عدنا بعد انقضاء المجلس إلى طرابلس وجدنا مائتي ألف نسمة من أهلها هاجروا إلى تونس وغيرها فراراً من الجوع والقحط ، ورأينا أربعة آلاف شخص من الشيوخ والنساء والأطفال قد لجأوا إلى مذلة السؤال ليسدوا رمقهم وينقذوا حياتهم من مخالب الموت . وكنا علمنا أن خمسةائة وأربعة عشر شخصاً من هؤلاء ماتوا جوعاً من شهر مارس إلى غاية شهر يوليو الماضي . فقدمنا إلى الصدر الأعظم حقي باشا تلغرافاً ورسانل بتاريخ ١٣ يوليو طلبنا فيها من الحكومة أن تصرف في هذا

السبيل العشرة آلاف جنيه التي وضعت في الميزانية باسم التخصصات غير المتطورة بموجب مادة قانونية خاصة ، وافق عليها المجلس في آخر اجتماعه الماضي ، ولكن الحكومة لم تعبر هذا الطلب التفاتاً .

وقد قررت الحكومة إرسال ستمائة ألف كيلة إلى طرابلس وتوزيعها على الأهالي بطريق القرض لأجل البذر والأكل ، ووضعت لذلك مادة قانونية خاصة ، ولما عدنا من طرابلس إلى الأستانة الحجنا على الحكومة بطلب الأسراع في إرسال هذه الجبوب . ومع الأسف نقول إن الحكومة تباطأت في الأمر إلى أن أعلنت الحرب ولم يرسل شيء من ذلك . وبهذا أصبح أبطال طرابلس المدافعون بأرواحهم عن حوزة الوطن بين عدوين الإيطاليين المعتدين والجوع الذي لا يرحم .

سادساً : بما أن للعدو في هذه الولاية مطامع سياسية فإن الحال تقضى بأن يكون الموظفون فيها عرفين لغة البلاد وتقاليدها وأحوالها . وأن يكون كبار الموظفين في بعض أماكنها من أشراف البلاد وكبارها ليتسنى إدارتها على وجه يتفق مع مصلحة الشعب ومصلحة الحكومة . ولكن وزارة حق باشا أهملت هذا الأمر الخطير ، وجعلت توظف في البلاد طائفة من المحسوبين الذين يعتمدون على الاتساعات والوساطة . وبذلك انقطع أمل الأهالي من ظهور أي إصلاح على يد رجال الإدارة .

سابعاً : لم يسبق لهذه الولاية أن تبقى يوماً واحداً قبل الآن بدون وال وقائد نظراً لأهميتها وحالتها الدقيقة التي لا تحتاج إلى تعريف . ولكن وزارة حق باشا كانت أسرع ما يكون إجابة لإشارة إيطاليا بعزل إبراهيم باشا والى طرابلس وقائدها ، وأمرته بمغادرة طرابلس قبل أن ترسل والياً وقائداً يحلان محله . وبقيت مترددة في إرسال والى والقائد مدة شهر

ونصف كان الايطاليون يبدلون فيها كل جند لاعداد ما يلزم للاستيلاء عليها . وظلت هذه الولاية تحت إدارة دقردار ساذج لا يعرف لغة البلاد ولا يعلم شيئاً من أحوالها . وسلمت مقاليد القيادة إلى أمير الإي لا يمتاز عن صاحبه الدقردار . وكف في هذا من التأثير السيء على نفوس أهل الولاية الذين حق لهم أن يصدقوا ما كان اعداؤنا يشيرونه بينهم من أن الحكومة العثمانية في غنى عن هذه الولاية ، وقد عزمت على بيعها . وكأنما كل هذه الأمور لم تكن كافية في نظر وزارة حق باشا ، فسحبت البكباشي وحيد بك قائد الحصون التي هي الوسيلة الوحيدة لمقاومة اسطول إيطاليا ، ولم ترسل قائداً يقوم مقامه . وبذلك قطعت وزارة حق باشا كل وسائل الرجاء في مداومة الدفاع .

ثامناً : ليس من يحمل ما كانت إيطاليا تضمره منذ سنوات كثيرة من الأمل في الاستيلاء على طرابلس وبنى غازي ، لأن إيطاليا لم تكن تكنم آمالاً فيهما ، فكانت تعلن ذلك عند كل فرصة للأمن الغربية ، وللأمة العثمانية نفسها . ثم أخذت هذه الآمال تظهر في السنوات الأخيرة ، وأصبحت إيطاليا تنتهز سنوح الفرص المناسبة . وكان من الواجب على حق باشا لما كان سفيراً في روما أن يعلم ذلك حق العلم وأن يدركه أكثر من غيره . ولكنه تملأ عما كان يشاهده بنفسه ، وأهمل تنبيه مجلس المبعوثان له لما كان صديراً أعظم ، وضرب عرض الحائط بالتقارير الرسمية التي كانت تأتيه من والى طرابلس ومن سفير العثمانيين في روما ، ووقف موقف المتفرج من محادثات إيطاليا مع الدول بشأن طرابلس عند ظهور مسألة مراكش ، بل وقف ذلك الموقف عندما كانت إيطاليا ترسل على وطننا اسطولها وتجهش علينا جيوشها . وأعرب من ذلك أنه سمح لسفرائنا الذين في عواصم أوروبا أن يتفرقوا هنا وهناك ، ويتركوا مراكرهم الهامة بينما كانت المسألة قد دخلت في شكلها الحاد وأزمتها الصعبة .

تاسعاً : وبينما كان عدونا يتأهب لمهاجمة طرابلس وغزوها ظلمت وزارة حقي باشا على غفلتها ، ولم تزود جيش طرابلس القليل بما يحتاجه إليه من وسائل المقاومة ، ولم ترسل إليه أسلحة من النقود التي يتوقف عليها أمر الدفاع فسهل بذلك على العدو بلوغ آماله ودخول البلاد .

على هذا النحو من الإهمال سار حقي باشا فترك طرابلس وبنى غازى لقمة سائفة للإيطاليين لاجند فيها ولا سلاح ، ولا ذخيرة ، ولا ضباط ، ولا ولى ، ولا قائد ، ولا مؤونة ، ولا مال . وعلى هذا النحو سلمت تلك القطعة المباركة التي لم يبق لنا غيرها في القارة الافريقية . وليس في تاريخ الامم مثال للأهمال والتفريط والتجرد من حب الوطن أعظم من هذا المثال .

بناء على ذلك نتقدم - نحن مبعوثى طرابلس باسم الشعب الذى نوب عنه ونعبر عن رغباته - بانهام حقي باشا وزملائه أمام الأمة كلها ، فانهم هم الذين جروا على العثمانيين هذه السبة المؤلمة والكارثة الكبرى .

إن وزارة حقي باشا بهذه الغفلة التى ظهرت منها فى الشؤون الداخلية والخارجية والمالية والحربية قد أدخلت بالمادة الأولى من القانون الأساسى العثمانى الذى هو أساس بناء الدولة والدستور . ولا يسعنا إلا أن نرفع الصوت عالياً بدعوة مجلس المبعوثان إلى القيام بواجبه وأداء وظيفته .

وقد بادرنّا - نحن مبعوثى طرابلس - إلى استعمال حقنا الذى منحوا له لنا المادة ٣١ من القانون الأساسى . ولذا وقفنا إلى انقاذ الوطن من أهمال مهلك يهدد استقلاله ، وإذا نجحنا فى تقرير مبدأ المسؤولية ومعاقبة المقصرين فقد قنّا بما وجب علينا وأدينا حقوق وطننا^(١) .

محمود نايجى

صادق

مبعوث طرابلس

مبعوث طرابلس

إن هذا التقرير الذى تقدم به اثنان من نواب الولاية إلى مجلس المبعوثين يتضمن كما هو واضح المطالب الشعبية التى برزت من خلال النضال الشعبى ضد الخطر الاوروبى وفى مواجهة الحكم العثمانى العاجز . ويكشف بحدة صارخة عجز السياسة العثمانية ومسؤوليتها فى ترك البلاد بلا إعداد أمام الخطر المائل . وقد حوّل هذا التقرير - كما يقول الزاوى - إلى لجنة خاصة لم تعمل شيئاً^(١) . وبقي على أهالى طرابلس الغرب أن يعملوا الكثير فى صد ومقاومة الغزو والاحتلال الإيطالى .

لقد كان النضال الشعبى الذى سبق الغزو تجربة غنية حية مكنت أهالى الولاية من خوض المعركة ضد العدو بصلابة حققت نتائج خالفت توقعات أوروبا فأذهلت المراقبين . وهكذا انتقل النضال الشعبى إلى مرحلة جديدة حافلة بالبطولات التى خلدت فى تاريخ البلاد وفى ضمير الشعب . وتلك لها حديث آخر .

خاتمة

.. وهكذا تنتهي رحلتنا مع تاريخ ليبيا قبيل الغزو الإيطالي ،
أو تاريخ ولاية طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني بين عامي
١٨٨٢ م و ١٩١١ م على مدى ثلاثين عاماً . وقد بدأناها بإلقاء نظرة
جغرافية وتاريخية على البلاد لنتعرف على بعدى المكان والزمان ،
فوضحت لنا الملامح العامة لتلك الفترة الحاسمة وللقوى الثلاثة التي تصارعت
فيها .. قوة الدولة العثمانية وقوة الاستعمار الأوروبي وقوة البقعة العربية
الحديثة .

وتتبعنا جهود كل من هذه القوى الثلاثة في البلاد ، وأحوال البلاد
السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والثقافية خلال تلك الفترة
لنستكمل مختلف جوانب الصورة .

وقد وضع من هذه الدراسة أن ليبيا تعرضت لتفاقم الخطر الأوروبي
عليها بعد احتلال تونس ومصر ، وأن الدولة العثمانية حاولت وهي في
محنة الموت الوقوف في وجه هذا الخطر ، ولكنها كانت أعجز من أن
تصدّه ، وأن أهل البلاد استشعروا هاتين الحقيقتين فبرز فيهم نضال شعبي
أخذ يشق مجراه ، وتهاى لحمل المسؤولية كاملة حين بدأ الغزو الإيطالي
وانسحبت الدولة العثمانية من المعركة .

وهكذا يسلط هذا البحث الأضواء على فترة هامة من تاريخ ليبيا لم
تعط بعد حقها من الدراسة والبحث ومن ثم يقدم الأساس لدراسة المرحلة
التالية من تاريخ البلاد .. مرحلة الجهاد ضد الغزو والاحتلال الإيطالي
فلقد دخلت ليبيا منذ عام ١٩١١ هذه المرحلة وجابه الشعب وجهاً لوجه

جغافل الغزو ، وتبلورت النتائج التي ظهرت ملاحظتها في هذه الفترة .

مصادر البحث

١ - وثائق :

مجموعة مراسلات ولاية طرابلس الغرب بدار المحفوظات التاريخية في طرابلس .
مجموعة المختارات التي جمعها عبدالسلام أدهم من مراسلات الولاية .
مجموعة مراسلات الخارجية الإيطالية عن طرابلس المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية في طرابلس .

ب - كتب عربية وتركية :

ابن غلبون التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بهما من الأخيار - تحقيق الزاوي مكتبة النور ١٩٦٧ .
أبو القاسم الباروني حياة سليمان الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين - القاهرة ١٩٤٨ .
ابراهيم رزقانه المملكة الليبية - جغرافية الوطن العربي دار النهضة - القاهرة ١٩٦٤ .
أحمد النائب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب جزءان منشورات الفرجاني بليليا .
أحمد النائب نفحات الفسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان تحقيق وتقديم على مصطفى المصراحي - المكتب التجاري ببيروت ١٩٦٣ .
أحمد حسنين في صحراء ليبيا .

إن الدراسة توضح أن الدولة العثمانية حاولت الوقوف في وجه الخطر الأوروبي ، ولكنها بواقعة المهيار كانت عاجزة . فتناقضت محاولات الإصلاح التي قامت بها مع الخلل والفساد في جهاز الحكم . وافقدت تلك المحاولات النظرة الواعية التي تلاحظ حركة التاريخ . وهكذا ازداد التغلغل الاستعماري خلال تلك الفترة وبأن خطره . وتحملت الدولة العثمانية مسؤولية ذلك ومسؤولية عدم تهيئة البلاد كما ينبغي للغزو المحتمل وكان متوقفاً أن تنسحب الدولة العثمانية وهذا حالها من حلبة الصراع حين يشتد أوار المعركة .

كما توضح الدراسة أن الخطر الأوروبي في تزايد كان سيبلغ الذروة بالغزو والاحتلال وممارسة الاستعمار المباشر ، وأن التنافس الاستعماري سيحسم لصالح إحدى الدولة الأوروبية على ضوء الظروف المحيطة . وقد كان الحسم لصالح إيطاليا .

وتوضح الدراسة أخيراً أن النضال الشعبي دخل مرحلة جديدة في هذه الفترة وبرز فيها كاستجابة لتحدي الخطر الأوروبي وتحدي فساد الحكم وعجزه في الدولة العثمانية . وكان متوقفاً أن يتعاظم هذا النضال حين يتوجه بكيته لصراع الاستعمار الأوروبي الغازي .

- أحمد صدق الدجاني الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر - مطبعة دار لبنان ١٩٦٧ .
- أحمد صدق الدجاني أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - دار المصراي بطرابلس ١٩٦٩ .
- أمين واصف الفهرست بتحقيق أحمد زكي
- أما وتلن عبد الحميد ظل الله على الأرض ترجمة راسم رشدي القاهرة ١٩٥٠ .
- بطرس البستاني دائرة المعارف - مطبعة الهلال بمصر ١٨٩٨
- برنارد لويس العرب في التاريخ تعريب فارس وزايد - دار العلم للملايين ١٩٥٤ .
- بيرونوفن تاريخ القرن العشرين ترجمة نور الدين حاطوم - مطبعة الجامعة السورية .
- توفيق علي برو العرب والترك في العهد الدستوري معهد الدراسات العربية .
- جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية .
- جمال حمدان استراتيجية الاستعمار والتحرير - كتاب الهلال .
- خليفة المنتصر ليبيا قبل المحنة وبعدها - سلسلة الكتاب الليبي طرابلس .
- راسم رشدي طرابلس الغرب في الماضي والحاضر - الطبعة الثانية ١٩٥٣ .

- رفيق العظم الجامعة الإسلامية والعصبة التركية - القاهرة ١٣٤٤ هـ .
- رودولفوميكاكي طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القره مانلي ترجمة طه فوزي - معهد الدراسات العربية ١٩٦١ .
- زعيمة الباروني صفحات خالدة من الجهاد « أوراق سليمان الباروني » - مطبعة الاستقلال ١٩٦٤ .
- ساطع الحصري البلاد العربية والدولة العثمانية الطبعة الثالثة - دار العلم للملايين بيروت .
- شكيب أرسلان هامش « حاضر العالم الإسلامي » تأليف لوثروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض - المطبعة السلفية ١٩٢٥ .
- الطاهر أحمد الزاوي جهاد الأبطال في طرابلس الغرب دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ١٩٥٠ .
- الطاهر أحمد الزاوي الفتح العربي في ليبيا - دار المعارف
- الطاهر أحمد الزاوي أعلام ليبيا - طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١ .
- عبد العزيز الدوري الجذور التاريخية للقومية العربية - دار العلم للملايين .
- عبد العزيز طريح الشرف جغرافية ليبيا - القاهرة ١٩٦٣
- عبد الرحمن الكواكبي أم القرى - المطبعة المصرية حلب ١٩٥٩ .
- عبد الرحمن الكواكبي طبائع الاستبداد - كتب ثقافية

- عبد الكريم غرايبة
سورية في القرن التاسع عشر - معهد
الدراسات العربية ١٩٦٢ .
- عزيز سامح
الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ترجمة
عبد السلام أدهم - مطبعة دار لبنان ١٩٦٩
- على بهجت
قاموس الأمكنة والبقاع - مطبعة التقدم
بالقاهرة .
- على مصطفى المصراي
أعلام من طرابلس - مطبعة ماجى ١٩٥٥
طرابلس .
- على مصطفى المصراي
صحافة ليبيا في نصف قرن - دار الكشف
بيروت ١٩٦٠ .
- على مصطفى المصراي
كفاح صفحي - أبي قشة وجريدته - بيروت
١٩٦١ .
- على مصطفى المصراي
الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية
والاجتماعية - الكتاب الليبي .
- على مصطفى المصراي
تقديم ديوان أحمد الشارف - المكتب
التجاري بيروت ١٩٦٣ .
- على مصطفى المصراي
تقديم كتاب « فحات النسرين والريحان
فيمن كان بطرابلس من الأعيان » .
- على مصطفى المصراي
تقديم كتاب « جلاء الكرب عن تاريخ
طرابلس الغرب » .
- مصطفى عبد الله بعبو
دراسات في التاريخ اللوبى - الاسكندرية
١٩٥٣ .

- مصطفى عبد الله بعبو
المختار في مراجع تاريخ ليبيا الجزء الأول
- دار ليبيا ١٩٦٧ .
- محمد أنيس
الدولة العثمانية والشرق العربى - مكتبة
الأنجلو المصرية .
- محمد عثمان الحشائشى
جلاء الكرب عن طرابلس الغرب الطبعة
الأولى - دار لبنان ١٩٦٥ .
- محمد عبد الهادى شعيره
بحث « ليبيا الاسم ومدلولاته التاريخية »
- مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية ١٩٥٨ .
- محمد فريد
تاريخ الدولة العلية العثمانية - الطبعة الثانية
١٨٩٦ .
- محمد فريد
من مصر إلى مصر رحلة سنة ١٩٠٢ - مطبعة
الموسوعات القاهرة .
- محمد مصطفى بازامة
ليبيا الاسم في جذوره التاريخية - طرابلس
١٩٦٥ .
- محمد مصطفى بازامة
بداية المأساة أو التمهيد السياسى للاحتلال
الإيطالى - بنى غازى ١٩٦١ .
- محمد مصطفى بازامة
العداوة أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا
- منشورات الفرغانى طرابلس ١٩٦٥ .
- محمود الشنيطى
قضية ليبيا - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١
- محمود ناجى وعثمان نورى
طرابلس غرب « باللغة التركية » مطبعة خيرية
وشركاسى سنة ١٣٣٠ هـ .

نجلاء عز الدين
نقولا زياده
العالم العربي - الطبعة الثانية ١٩٦٢ .
ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال -
معهد الدراسات العربية .

ح - جرائد ومجلات عربية :

المعلومات	استانبول	١٨٩٧ - ١٨٩٨ .
الجوائب	استانبول	أحمد فارس الشدياق ١٨٨٣-١٨٨٤
الطائف	القاهرة	عبد الله النديم ١٨٨١ .
الفسطاط	القاهرة	عبد الغنى المدنى ١٨٨٢
طرابلس الغرب	طرابلس	
الترقى	طرابلس	١٩٠٧ .

د - كتب اجنبية وموسوعات :

- Encyclopedia Britanica.
The Universal Jewish Encyclopedia. 1948.
Ajello, Sac Antonino.
La Tripolitania.
Palermo 1896.
Bovill, E. W.
The Golden Trade of the Moors.
London : Oxford University Press, 1958.
Cachia, Anthony J.
Libya Under the Second Ottoman Occupation 1835-1911.
Tripoli : Government Press. 1945.
وله ترجمة عربية ليوسف المسلى طبعت بمطبعة إحياء العلوم العربية بمنوان
« ليبيا في العهد العثماني الثاني » .
Cohen, M.
Gli Ebrei in Libia «Usie-costumi»
M.M. Moreno.
Coro, Francesco,
Settantasei Anni Di Dominazione Turca in Libia
1835-1911.
Tripoli 1937.
Cowper, H. S.
The Hill of Graces, A record of investigation among
trilithons and megalithic sites of Tripoli.
Published by Methuen Sco. London 1897.
وله ترجمة عربية بمنوان « مرتفع آلهات الجمال » لأنيس زكى حسن نشر
مكتبة الفرجاني بطرابلس
[Dearden, Seton (ed.) Letters Written during a ten years
Residence at the Court of Tripoli, "Miss Tulley" London 1957

Rae, Edward.

The Country of the Moors

A Journey from Tripoli in Borbary to the city of
Kairawan

London Murray 1877.

Randall & Wilkin.

Libyan Notes London 1901.

Rossi Ettore.

Storia Di Tripolitonia Dalla Conquista Araba Al 1911.

Roma istituto per l'oriente 1968.

Todd, Mabel Lomis.

Tripoli The Mysterious

Boston Small, Maynard 1912.

وله ترجمة بالعربية بعنوان « اسرار طرابلس » نشر الفرجاني بطرابلس ١٩٦٨

Vicher, Hans.

Across the Sahara from Tripoli to Bornu

London 1921.

وله ترجمة عربية بعنوان « عشر سنوات في بلاط طرابلس » لعمر الديراوي
أبو حجلة نشر مكتبة الفرجاني بطرابلس .

Feraud, L. Charles.

Annales Tripolitaines, Publiées avec une introduction et
des Notes par Augustin Bernard.

Tunis : Librairie Tournier, Paris : Librairie Vuibert 1927.

Gautier, E.F.

Le Sahara

Paris 1928. وبالإنجليزية The Great Desert, translated by

Dorothy Mayhew New York 1935.

وله ترجمة بالعربية بعنوان « الصحراء » لأحمد كمال بونس ومراجعة كمال
دسوقي العدد ١١٧ من الألف كتاب .

Gibb & Bowen.

Islamic Society and The West.

Oxford University Press 1960.

Hamilton, J.

Wanderings in North Africa. London : John Murray
1856.

Horneman, Frederick.

The Journey From Cairo to Murzuk 1797.

وله ترجمة بالعربية بعنوان « يوميات الرحالة هورنمان » لمصطفى محمد جودة
نشر مكتبة الفرجاني بطرابلس عام ١٩٦٨ .

Jacassy, A. F.

Tripoli of Barbary

Scribner's Magazine volume VII January-June 1890.

Mathuisien IX (H.M.de)

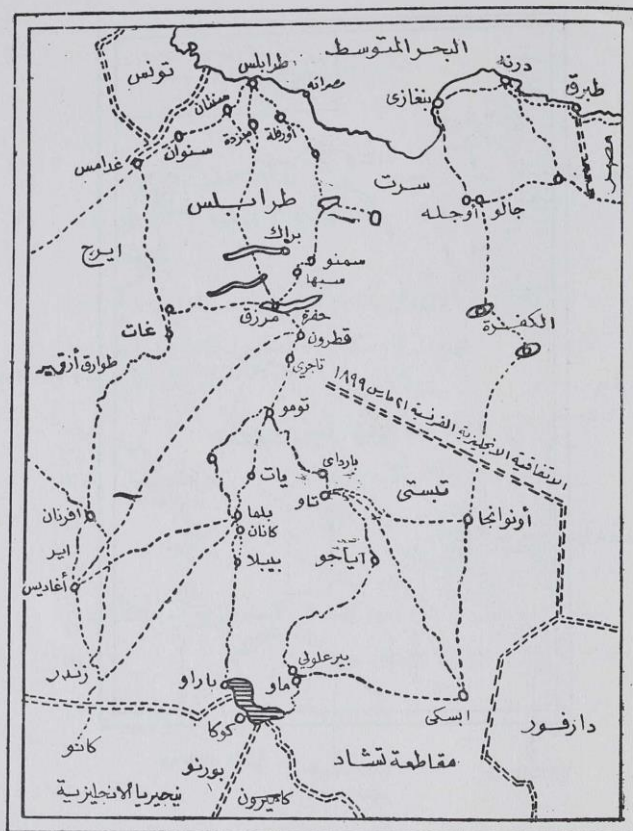
La Tripolitaine d'Hier et de Demain

Paris 1912.

Pritchard, Evans E. E.

The Sanusi of Cyrenaica

Oxford, Clarendon Press 1949.



==== حدود محددة
 ----- طرق قوافل

طرق القوافل الرشيمنية داخل ليبيا

الفهرس

س
١

مقدمة

الفصل الأول : مدخل - نظرة جغرافية وتاريخية على طرابلس الغرب . ١٥

الفصل الثاني : طرابلس الغرب والوالي أحمد راسم ١٨٨٢ - ١٨٩٦ ٥٧

الفصل الثالث : طرابلس الغرب والولاية العثمانية بعد أحمد راسم ١٨٩٦ - ١٩١١ ١٤١

الفصل الرابع : النظم العثمانية في طرابلس الغرب . ١٩١

الفصل الخامس : الأوضاع الاجتماعية . ٢١٥

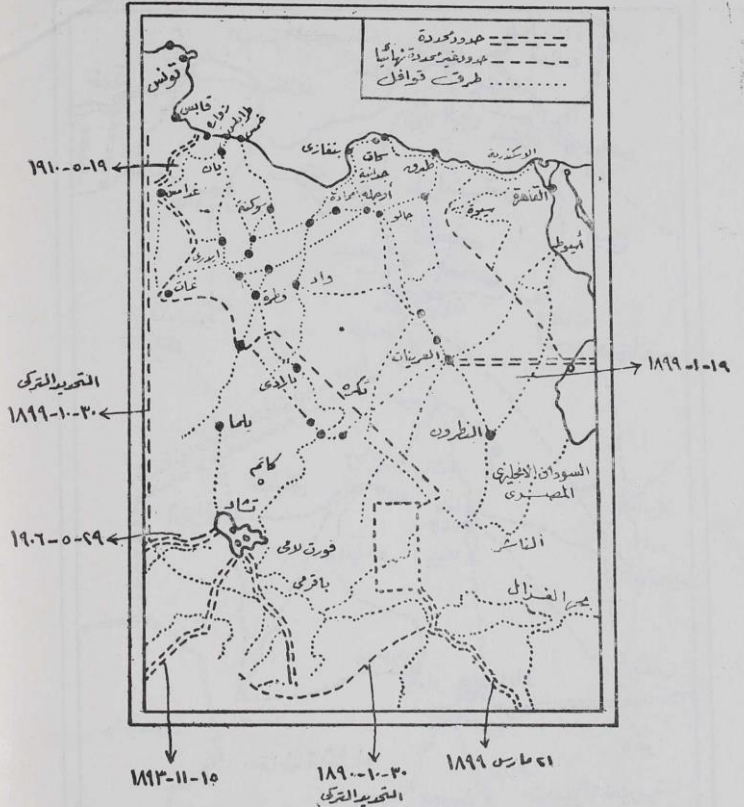
الفصل السادس : الأوضاع الاقتصادية . ٢٣٦

الفصل السابع : الحياة الثقافية . ٢٧١

الفصل الثامن : الخطر الأوربي والاطماع الاستعمارية . ٢٩٥

الفصل التاسع : اليقظة والنضال الشعبي ٣٤٨

خاتمة ٤٥٣



ليبيا غداة الاحتلال الإيطالي
(الحدود وطرق القوافل)

هذا الكتاب

• يماثل هذا الكتاب فترة هامة من تاريخ ليبيا الحديث ، تمتد على مدى ثلاثين عاماً قبل الغزو الإيطالي للبلاد عام ١٩١١ وكانت ليبيا آنذاك ولاية عثمانية تعرف باسم ولاية طرابلس الغرب .

• كانت هذه الفترة الهامة من فترات التحول في تاريخ ليبيا . . التحول الذي يسبق بداية مرحلة جديدة ، ويمثل حلاً بأحداث ضخمة ، وينذر بمخاض تاريخي . وقد عاشت ليبيا خلالها وكجزء من منطقة الوطن العربي احتدام الصراع بين قوى ثلاث . . قوة الدولة العثمانية وهي في صهوة الموت ، وقوة الاستعمار الغربي وهو في مداه وأوجه ، وقوة اليقظة العربية الصاعدة وهي في بداية تفتحها .

وهكذا تمثل هذه الفترة الخلفية لتاريخ ليبيا في السنين عاماً الأخيرة . نجد فيها تفسير السياسة العثمانية وموقفها من الغزو . ونجد فيها ما يسلط الضوء على السياسات الاستعمارية التي طوقت ليبيا خلال المرحلة التالية . ونجد فيها جذور الفضال الشعبي واليقظة العربية هناك .

• ويعتبر هذا الكتاب أول تاريخ شامل لهذه الفترة الهامة . وقد رجع مؤلفه الذي تخصص في تاريخ ليبيا الحديث إلى مئات الوثائق التاريخية التي لم تنشر من قبل ، وإلى مختلف المصادر الأساسية . فكشف مجاهل الفترة واستشرف الكثير من آفاقها المجهولة وأزال التداخل في أحداثها المكتوبة . واستحق مؤلفه على هذا الجهد العلمي درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة .

• وهكذا جاءت فصول الكتاب التسعة حافلة بالجديد . .

وقد اعتبرت لجنة المناقشة أن الجديد في بعض الفصول كان كافياً لمنح الدرجة على أجزاء من الكتاب ، وخاصة فصل الفضال الشعبي واليقظة .